سلسلة
عندما نطق السُّراة

وَعَصَى آدَمُ

الحقيقةُ ... دُونَ قِنَاع

قسم الدراسات والبحوث
جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعيّة



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيْمِ

وعصى آدم

الحقيقة دون قناع



الكتاب: وعصى آدم .. الحقيقة دون قناع

سلسلة: عندما نطق السراة

تأليف: قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

الطبعة الأولى

٢٠٠٩



لجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية
Tel: (+973) 17273787
Fax: (+973) 17274787
P.O.BOX 10493
Manama-Kingdom of Bahrain
www.tajdeed.org
E-mail: tajdeed@tajdeed.org

دار كيوان

للطباعة والنشر والتوزيع

الحلبوني – دمشق – سورية - تلفاكس: ٢٢١٧٢٤٠ ١١ ٠٠٩٦٣

E- Mail: Kiwanhouse@mail.sy

سلسلة عندما نطق السراة

وعَصَى آدَمُ

الحقيقةُ دُونَ قِناعٍ

قسم الدراسات والبحوث

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

مملكة البحرين

ملاحظة هامة

تم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب في سبتمبر ٢٠٠٥، ووزعت نسخ إلكترونية تجريبية منه عبر موقع جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية في مملكة البحرين عبر الرابط **www.tajdeed.org**

المقدّمة

إنّ فكرةً صحيحةً واحدةً قد تغدو الشمعةَ التي تُبدّد الظلام وتقضي على حقبة تاريخيّة مديدة جاثمة، ساكنة كاذبة خاطئة "دورانُ الأرض حول الشمس لا العكس"عند "كوبرنيكوس" و"جاليلو" فعل ذلك، وخلخل إمبراطورية الجمود والزّيف والتخلّف[١].

آهةٌ ربّانيّة: (**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) (يس:٣٠)

عزيزي القارئ، أيّاً كنتَ وأين كنت . . .

هذا الذي بين يديك، بحثٌ جديد وربّما مفاجئ جدّاً، بكلّ معنى الكلمة، ومخالفٌ للمألوف الرائج والموروث في كلّ مفاصله وتفصيلاته، مخالفٌ للسائد من الأفكار في المنهج وفي كلّ نتائجه. طبعاً هو كغيْره ليس بقرآن كريم، لكنّه استُلّ من قراءة القرآن واستنطاقه وتثويره، فمن الطبيعي أنّ مَن وجده منافيًا للمنطق والعقل والأخلاق ومناقضاً لنصّ القرآن الصريح لا لتفاسير القرآن السائدة، فليضربْ به عرْض الحائط، فهذا أدنى ما يستحقّ هو أو غيره، لكنّ القارئ عليه أوّلاً أنْ يعي إذ يضرب

---

[١] – تساءل بابا الكنيسة لاكتانتيوس مستنكراً كرويّة الأرض: (أيعقل أن يُجنّ الناس إلى هذا الحد، فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض، وأن أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟!). المستشرقة زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٧٠.

بهذا البحث الدقيق عرْضَ الحائط: لِمَ قد ضرب به الحائط! وأنْ يعي ثانياً أنّه لا مناصَ آخذٌ برأيٍ ما في هذه المسائل، سَواءً استقاها من هذا البحث أو مِنْ غيره، هذا إن أراد أن يكون عالماً بالحقيقة وليس جاهلاً بها أو على هامشها.

قُلنا أنّ هذا البحث مخالفٌ ومناقضٌ من ألفه إلى يائه للموجود السائد، لكنّ هذا لا يعني أنّ السائد له حجّة وقوّة منطق كَونه ساد هذه المدّة، بل العجيب أنّه على العكس، فالسائد ليس إلاّ بيت عنكبوت، ليس به أيّ منطق، هذا عدا أنّ السائد ليس رأياً واحدا مجمعاً عليه بل مجموعة آثار وآراء واجتهادات ومحاولات متضاربة متصارعة متناقضة مع بعضها مشوِّهة للفكر الإسلاميّ الأصيل، وقد أجمع الجميعُ وصدقوا أنّه "**لا حجّة مع التناقض**"!

فلا ضيِّر والحالُ هذا أنْ نضيف إلى الموجود الهشّ المتناقض، رأيا (اجتهاداً) آخر محكماً، من الطريق المنهجيّ الذي ما طرقوه ولا حاولوه، فإنْ أخطأنا في نتائج هذا "الاجتهاد" فلمْ نُخطئ في انتقاد الموجود وإدانته من جهة، وفي الدعوة لتثوير العقل والدعوة إلى تحريره وإصلاح مناهج نظره ومصادر معارفه المقدّسة وغيرها. وإنْ أصبنا، وهذا ما نأملُه، فلتكنْ إصابتنا - إنْ اعتقد بها القارئ - معْبَراً إلى الاقتناع بالمنهج الذي يُحرّر عقولنا من سطوة الآثار الرجاليّة المتناقضة، على العقيدة والدين وعلوم الدنيا.

ولْيتوخّ القارئ الكريم وهو يتصفّح أوراق البحث، أنّ البحث منسابٌ منطقياً من العموميّات للخصوصيّات، ومفرداته تختلف عمّا غُرس في ذهنه واعتاد سماعه، فمثلاً "ذاق" "أكل" "شجرة" "سوأة" هي ليست كما اعتاد وظنّ، وأنّ حلّها كمفاهيم (قرآنيّة أو أسطوريّة) سينكشف شيئاً فشيئاً مع تسلسل القراءة، من السطح إلى غوْر الأعماق.

وإذا كان لنا أنْ ننصح قارئنا كإنسانٍ يُعوَّل عليه تمثيلُ الله بأنْ يكون حرّاً من العبوديّات ليكون خليفة، فمن المهمّ جدّاً أنْ يتذكّر القارئ وهو يمضي مع البحث المفاجئ له، أنْ يتجرّد من تقليد الآباء، في مسألة قرآنيّة وبحثيّة تُعرض بأدلّتها أمام عقله هو، وهو فقط، فلا يُجابهها بمتراس تقليد الآراء المشوّشة، ولا ينبري لرشق هذه

الأفكار مهما استفزّته بأسهمٍ باليةٍ يستلّها من جعبةٍ احتطبها وراءه على ظهره منْ الماضين، بل ليكافحْ أنْ يُزكّي نفسَه ويُحرّرها من أنْ ينطبق عليه قوله تعالى (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ**)(البقرة:١٧٠).

فإذا دافع منّا أيُّ مُدافع فلننظر كشرفاءَ وأحرارٍ عمّا ندافع: أعن القرآن وتراثنا الصحيح وعن الحقيقة وعنْ وعْينا ورفعتنا؟ أم عن تقاليدنا وأصباغنا التي يعسر علينا نزعها ويُهين مقامنا وسمعتنا أنْ نعرى منها ونضحى؟!

من المؤسف جدّاً أنّ غالبية الناس ومنهم مفكّرون وعلماء أجلاّء إنّما يُدافعون عن ذواتهم التي تشكّلت وانصاغتْ، لا عن الحقيقة اليتيمة، فلا تكاد العينُ تُخطئُ أنْ ترى وراء كلّ جدالٍ جُذُراً كثيرةً يتمترس وراءها الرجال وعقولٌ من خوْذات، لا لأنّها قويّةٌ وموثوقٌ بها ومقدّسة، وإنْ بدتْ كذلك وازّينتْ، بل لأنّ الغرور هو مزوّدُها الأوّل، وأعني بالغرور هو الوثوق العاطفيّ بلا برهان، سواءً كان غروراً علمياً أم دينياً، لا يفْرُق، فقدْ يسنحُ أنْ يُصدّمَ العقلُ أحياناً ببوارق نورٍ تُبرهنُ عكس ما يعتقد ويألف، إلاّ أنّ صاحبه يظلّ على ما هو عليه مرابطاً متشبّثاً مستميتاً في الدفاع عنه، وربّما جعل الدفاع عن بنيانه الهاري دفاعاً مقدّساً وجهاداً إلهياً يُدخله الجنّة من أوسع أبوابها، "**ذلك لأنّا إنّما يَرفدُنا الغرورُ وليس غير الغرور في معظم محطّات جدالنا أو ثباتنا الظاهر، ونتنفّس قوّتنَا وتغيّظَنا مِن حرارة عواطف النّفوس وإبائها**"، وذلك لعمري لهو الخسران المبين الذي يُزيِّن لنا فيه: أنّنا إنّما نُحسن صنعاً لأنفسنا، لديننا، ولأمّتنا!

فارْصد أيّ جدال رشقاً وردًّا، سترصد معه صداً عن سبيل الله "الحقّ"، وحشْداً لا يخفى لأصابع الأنا والـ "نحنُ" الساطيةِ في كلّ مخاضة.

١- لماذا البحث؟

كنّا – في بحث خلق آدم (الخلق الأوّل)- بينّا حاجتنا لوعيٍ جديد في الأمّة، على مستوى منهجيّة النظر في التراث العربيّ للمنطقة، ونظام التعامل مع آيات القرآن الكريم، والتدقيق في الأفكار والرؤى بل والمسلّمات الاعتقاديّة لكشف الدخائل

والدسائس والتزويرات التي بدأت بالتوراة ثمّ أتمّها الغرب الناكر للجميل المُواطئ للصهيونيّة والموطّئ لها، تحت شعار العلميّة والمنهجة والحقيقة وما شابه. كنّا بينّا حاجتنا لمثل هذه البحوث كتطبيقات ومعالجات نُكدّس فيها كلّ مرامينا ونسكب بها غاياتنا، بإثبات منهجيّة جديدة للنظر، ومحاكمة سبقيّاتنا وإرثنا المدخول، ففي مثل هذه المعالجات نحن نقوم في الحقيقة بهدم منظومة مناهج وطرائق بحث أو تقليد أو نظر، وإحلال أخرى مكانها، لزحزحة أمّتنا أو أفراد منها لا أقلّ عمّا تكلّسنا عليه وتشرنقّنا فيه وبه.

فإذا كان يبدو لوهلة السامع أنّ إعادة البحث في مسألة آدم -خلْقاً أو معصيةً- ترفٌ أو عملٌ لا طائل منه، فإنّا إذا استطعنا، للفرد الواعي والمهتمّ أنْ:

١- نضرب بها مثالاً وتطبيقاً على خطأ منهج قراءتنا لقرآننا ونظام تفسير آياته، ووضعنا البديل لاستنطاقه، فكفى بذاك وحدَه أمراً مثمراً.

٢- نكشّف آثار وطء الدخائل التوراتيّة -بكلّ متوالياتها سواءً كان مرْوياً إسلامياً، أو بحوثاً علميةً غربيّة! أو حتّى على مستوى المصطلحات والتسميات - على عقولنا وعقائدنا وتراثنا.

٣- نفكّ التناقض المزعوم بين آيات القرآن الحكيم مع العقل وحقائق العلم والاكتشافات في علوم الكون والطبيعة والتاريخ والإنسان.

٤- نتصالح مع منابع تراثنا التليد الصحيح، تراث هذه الأمّة الواحدة منذ آدم الرسول (ع)، واحترامه وتبنّيه وفهمه.

٥- نتيح الفرصة لكلّ عاقل وحرّ يحترم عقله، أنْ يختبر هذا الاحترام ويُحاكم نفسه:

هل هو حرّ؟

هل يقبل الدليل؟

هل يبحث عن الحقّ ولو خالف مألوفه؟

هل ينتمي للأمّة الواحدة ولكتابها العزيز ونبيّها الكريم أم للعادات وللرجال؟

هل يُزهق الحقّ ويخنق الشمعة لأنّها تكشف زيفه وتُخطّئ بعض مقدّساته؟

٦- ثُمّ أنّ معرفة الحقيقة بحدّ ذاتها مطلب، لأنّها اللبنة الصحيحة في أساس بنائنا ومعمارنا المعرفيّ وفي تشكيل وعينا لحقيقة وجودنا من أجل فهم من نحن وما دورنا في الكون كخلقٍ متميّز، فأيّ تقدّمٍ أو أيّ عمران على أسس خاطئة سيُنتج تقدّماً بطيئاً أو منحرفاً ووشيك العطب، فخطأنا الأوّل سيُمخّض أخطاء متراكمةً طويلة ناتجها الأقصى: نكون أو لا نكون، أو ربّما نكون شيئاً - مسْخاً- آخر.

٧- ثُمّ، صحيحٌ أنّنا نبحث عن خلق آدم أو معصيته، لكنّنا في رحلتنا قد نعثر على كثيرٍ من الحقائق المحتفّة والقواعد والجسور الموصلة لهذه الحقيقة، بل ربّما نعثر على عين الحياة أيضاً "**كنْ لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنّ موسى بن عمران (ع) خرج يقتبس لأهله نارًا فكلّمه الله عزّ وجلّ ورجع نبيًّا مرسلا**"![1]

فهي درجةٌ في سلّمٍ، لبنةٌ في بناء، قطعةٌ من جسْرٍ، عظْمةٌ من هيكلٍ، خطوةٌ صحيحةٌ في مسيرة الألف ميل، بدلاً من الركض في اتّجاهات خاطئة أو التطافر في الهواء مراوحين.

وها نحنُ اليوم، وللأسف، نعيش التناقض والزّيف في معظم مسالكنا العلميّة، والاعتقاديّة، والتربويّة، فإذا كان العقل السليم المتوثّب هو الذي لا يقَرّ ولا يستريح حتّى لوجود مجهولٍ أمامه، فيحاول أنْ يقتحم الغيوب لكشفها، لا يقرّ وجود ظلامٍ خارجَه، فما بالَك لو كان الظلام داخله؛ بأنْ يحتضن في جوفه الفكرةَ ونقيضها؟ هل يرتضي

---

[1] - رُوي عن رسول الله (ص) وعن عليّ (ع) وعن عائشة (ره) وعن جعفر الصادق (ع)، انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٦، ص٥٥؛ الكليني، الكافي، ج٥، ص٨٣؛ محمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج٢، ص١٠٤١.

العقلُ الرّاجح أن يظنّ أنّ الدجاجة كائنٌ حيّ، وأنّها كائنٌ جامد أيضاً، ولا يتململ ويثور ليُزيل تناقضه ليرسوَ على برّ؟ هل لا يهمّه اجتماعُ النور والظلام في حيّزه؟!

إنّنا مع الأسف في كثير من أفكارنا لا نحترم القرآن العزيز، ولا العلم، ولا التاريخ، ولا نحترم عقولنا أيْضاً، ففي الوقت الذي ندّعي أنّنا حمَلَة القرآن وقُرّاؤه، ونعيش في عصر العلم -كما يُذاع- فحين يُكْشف على مرآنا بقايا آثار البشر قبل مئات الآلاف من السنين ونتلقنّها دروساً في مدارسنا وجامعاتنا، نظلّ نعتقد في الحين نفسه بأنّ آدم هو أبو هذه البشرية المتحجّرة، وبأنّه أيضاً قدْ مرّ عليه ستّة أو سبعة آلاف عامٍ فقط! إنّ عقلاً يسع هذا التناقض، ويسمح لنفسه التعايش معه، هو عقلٌ معطّل في الحقيقة، وهو سيتّسع لا محالةَ لكلّ التناقضات أنْ تملأه، لا من كبَره واتّساعه بل من انفراطه وعدم الاعتناء به، فأين هو ذا العقل بعدها؟ وهل العقلَ إلاّ فكّ التناقضَ، والربْط على شيء؟!

بعضُ أهل الدّين فكّ ذاك التناقض وغيره في أمّهات المسائل، بأنْ مضى مع ما يُؤكّده تُراثه الدّينيّ التقليديّ المُلقَّن فحسب، مع أنّه متناقض ومختلف وغير مُتّحد في مقولاته، ولمْ يأبه - هذا البعضُ- لحقائق العلم ولو سقطت السماء على الأرض. وعلماء الطبيعة فعلوا العكس وارتاحوا؛ أزاحوا نصوص الدّين وركنوها جانباً باعتبارها آراء أمّةٍ قد خلت وأخطأتْ، وكفى بحقائق العلم مبصرةٌ لكلّ ذي عينين.

للأسف، كلاهما عطّل عقله أيضاً، ذلك أنّهم لمْ يحلّوا التناقض بل هربوا منه بإسقاط أحدهما، وهل يستغني العلم عن الدين، ثُمّ هل الدّين إلاّ العلم؟! ومتى استقلّت الأرضُ عن السماء؟

إنّ هذا التناقض يأخذ مسعىً أبشع حين يصل إلى القلب، فلا نعيش عندها فقط تناقضاً بين فكرة وفكرة أو بين نصٍّ وواقع، بل ما بين عقيدة وسلوك، والقلب السليم كما يقول العارفون هو الذي اعتقد صحيحاً ومارس في مسلكه ذلك المعتقد الصحيح. لذلك من الطبيعيّ جدّاً أنْ يدّرُج النّفاق فينا وتتبرعم اللامبدئيّة. أحياناً نضطر لهذا النفاق الاجتماعيّ لأنّ معتقدنا في حدّ ذاته خاطئٌ ولا يُواكب حقائق الظاهر الصاخبة، فليس لنا إلاّ أنْ تكون عقيدتنا في زاوية والجوارح تسرح في الاتّجاه

المعاكس، هذا بالتمام هو حالُ طلاّبنا الذين يدرسون خلاف ما يعتقدون، ويُمتحنون فيُجيبون بخلاف ما يعتقدون، ويمتهنون بعدها أعمالاً وينخرطون في تشكيلات منسوجة على خلاف ما يعتقدون!

فهل .. معرفة الحقيقة - فعلاً- ضرورة، لتنظيف مسالك العقل؟

هل .. المصالحة بين القرآن والتراث والتاريخ والعلم ملحّة؟ هل هي واجبٌ يُمليه الانتماء؟

هل .. آن الأوان لعقولنا أن تتوقد لتعمل بكفاءتها بلا تشويش أمواجٍ معاكسة؟ ولقلوبنا أنْ تقشع عن جدرانها اللّطخات ونكاتها السوداء؟

أحسب .. أنّ الأوان قد آن منذ مئاتٍ كثيرة من السنين، منذ أنْ .. .. لا أذكرُ، فقد نَسَيْنا التاريخَ فنسِيَنا.

٢- استذكار البحث السابق

لقد قدّمنا في بحثنا السابق "**الخلق الأوّل- كما بدأكم تعودون**"، مقاربةً تُبيّن مسار الخلق البشريّ الأوّل الذي انبثق منه الخلق الإنسانيّ، بانتقاء زوجٍ من أفراد البشر الهمجيّ الذي سبق آدم في الوجود بمئات الآلاف من السنين، انْتُقيا فرداً فرداً، ليُصنعا "آدميّين" أيْ مُفكّرين مبدعين يعرفان الألوهة، ليُحاكي الآدميّ -بوعيه ونظام قيمه وتدبيره- دورَ الربوبية الأرضيّة (الخليفة الذي على صورة الربّ)، فتمّ الدخول على نظام الخلْق الجينيّ على هذا المخلوق (أمشاجه)، وتسويته وتثبيت قوى العقل فيه وتحفيزها وزيادة قدراته، ثمّ نفخ الرّوح الإنسانية الربّانيّة الخالدة فيه، وجئنا ببيان قرآنيّ واسع ومُوسّع ومُفصّل، برهاناً على هذا المنظور بل استنطاقاً قرآنياً في الأساس، وبآخر من تراثنا الدينيّ الصحيح وأساطيره المدوّنة في ألواح سومر وبابل وأوگريت ورُقمها وبَرْديات وادي النيل ونقوشها ومدوّناتها. (انظر الصورة: ١)



نقش تصوّره السومريّون عن القوى الربّانية (نينماخ وأنكي) الملائكة الصافّة، حيث تمّ تخليق الإنسان، ويُشاهد رمز الروح الذي سيُنفخ في الإنسان أعلى، الذي دائماً يرمزون له بجناحين فقط بلا هويّة (الصورة: ١)

بل وناقشنا بإيجاز ما يتعلّق بهذه المسألة حتّى في مدوّنات التوراة التي هي المصدر الفعليّ الخفيّ للفهم الإسلاميّ الدّارج، وأوضحنا الصواب الذي فيها والخطأ، الذي أورث الالتباس بين البشر الهمج والبشر الإنسان (آدم). ورأينا أنّ إرثَ المكوّن الهمجيّ (أردى مستوى بشريّ) في كيان الإنسان، ما هو إلاّ استصحابٌ لبقايا

وحزازات طوْرٍ سابق سبق كينونتنا الإنسانيّة الرّوحيّة، لهذا فغاية ما على الخليفة أنْ يقوم به، هو ذلك الانعتاق من آثار الهمجيّة نحو (أسمى حالة إنسانيّة).

وأتينا بأمثلة من تراثنا فيما دشّنته السيّدة "إيزيس" بتسديد نبيّ اللّه (هرمز/تحوت/إخنوخ) المعروف قرآنياً بإدريس (ع) في مصر النيل قبل أكثر من ٦٠٠٠ آلاف عام، ورأيناه في اصطراع "جلجامش" مع الفكر العشتاريّ وقطعه لشجرتهم الخبيثة التي كان الشياطين يُعشعشون فيها، وفي اصطدام "قدموس" الفينيقيّ مع "التنين أو أبناء التنين" من الهمج والصقالبة، وغيرها، وفي طوفان نوح الذي أباد الهمجيّة ومظاهر جحود الألوهة في سفلَة النّاس، ولعلّ قصّة ذي القرنين القرآنيّة مع يأجوج ومأجوج أعداء الحضارة، وبرابرة الماضي، تنسق في سَمْت قطع دابر آثار الهمجيّة. (انظر الصورة: ٢)



قدموس العربي الفينيقي يقتل الجنس الهمجي المرموز له بالحيّة والتنيّن.

(الصورة: ٢)

آثرّنا حينها – وكان همَّنا – فقط إقناع أبناء هذه الأمّة وحَمَلة هذه الملّة أنّ تراثها – قبل مجيء العلم واكتشافاته ونظريّاته– هو الصحيح، بدءاً بالقرآن الكريم، وانتهاءً بمدوّنات المعابد من آثار العرب السابقين في أرض العراق والنيل، فقط لو تجاوزت أمّتنا ما دسّته أفهام مفسّري توراة الكهنة في عقولها، وتطهّرت ممّا فرّخته في عقائدها، بِوُلوغها في تاريخنا المعرفيّ النقيّ.

آثرنا نصّب منارةٍ واحدة لا أكثر، كدعامة أولى، هي أنّ الإنسان (آدم) سبقه بشرٌ همج "لا مذكورون" حسب التعبير القرآنيّ، فما أبلغها نعمةً أنْ رقّانا سبحانه من حضيض البهائميّة اللاّمذكورة إلى كرامته العليا فرفع ذكرنا وأبان فضلنا، بوهْبنا ما نقوم بالاستخلاف به (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**)(الإسراء:٧٠)، لاحظ أنّ الخطاب من سورة الإسراء، ذلك التكريم والتخليق للآدميّ قدْ تمّ منْ (وفي) تلك البقعة المقدّسة التي أُسري إليها سيّدُ الإنسانيّة الأعلى وملكها المتوّج وأسمى نفوس خلائقها وروحُها الأكبر وخليفةُ اللّه في أرضه حبيب اللّه "محمّد" (ص).

وقد أشرنا في نهاية البحث ذاك، إلى أمرٍ مؤجّل، هو أنّ أبانا الأوّل آدم الإنسان (زمنه قبل ٤٢ ألف سنة تقريباً) ليس بمعصوم، وليس هو آدم الرسول المعصوم (ع)[١]**(زمنه قبل ٨ آلاف سنة تقريباً)، فقطّ ليتذكّر القارئ هذا الأمر ويستصحبُه وهو يتصفّح مقالتنا.**

وهنا – في هذا البحث– سننصبُ منارةً ثانيةً، تُزيل قسْطاً آخر من درَن الشبهات، منْ سخام سطْو أخطاء وخطايا التوراتيّين على إرثنا، ونعني بالتوراتيّين لا خصوص الكهنة الذين كتبوا التوراة فقط بأيديهم بل حتّى علماء الكون والطبيعة والإنسان الذين يحطبون في الاتّجاه نفسه لترسيخ فهمهم الديني القاصر والخاطئ، بل حتّى بعض علماء المسلمين الذين ربّما بحسن نيّة حذَوْ حذوهم وأشبعوا التراث الدّيني حينما دخلوا في الجحْر نفسه، فكلُّهم بنحوٍ أو بآخر، قصداً أو غفلةً، توراتيّون

---

(١) – هذا التفصيل والتوسعة في التفريق بين آدمين، يُراجع فيه بحث: بين آدمين– آدم الإنسان وآدم الرسول، جمعية التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

لا ربّانيّون وإنْ كانوا لا يشعرون، نفعلُ ذلك الآن بقصد تجلية الحقّ أو اكتشافه في مسألة المعصيّة الأولى (معصية أبينا آدم (ع))، المسألة التي آثرنا ترك الحديث عنها هناك بما لها من خصيصة ثانية ضاربة في الوجدان الدّينيّ، وبما أُحيطت به من قداسة فاقتْ إطار المعقول.

فشفقةً بالقارئ المُستفَزّ أخّرنا ذلك، لنرقى بالوعي درجةً درجة، غير غافلين أنّ مسألةً شائكة كآدم هي عقد قلادة الأديان جميعاً، فهي ليست إرثاً إسلاميا خاصّا ومُحْتكَراً -إلاّ بالمفهوم الأشمل للإسلام الإنسانيّ- بل هي ملْكٌ للإنسانيّة جمعاء أنْ تعيها لأنّها إنْ تفْعلْ تعِ بذاك أصلها، وتأوِ إلى منبتها، وترجع بدون عصبيّات ولا قبليّات إلى وحدتها الإنسانيّة التي أصرّ عليها نبيّ الناس جميعاً "**كلّكم لآدم**".

وأرجأنا بحث معصية آدم (ع) إلى ما بعد استكمال بحث خلقه، لأنّها حلقات تتبع بعضها بعضاً، بتتابعٍ منطقيّ، فلا يُمكن بحالٍ لمن لمْ يفهم كيف خُلق آدم، أنْ يفهم كيف عصى، والذي لمْ يُؤمن بوجود "**شجرة**" همجيّة أيْ سلالةً بشريّةً نسَل منها آدم، في بحث الخلْق، لنْ يستطيع بأيّ حالٍ أنْ يفهم سرّ ارتكاز وجود "**شجرة**" يُخاطَب عنها آدم ويُبتلى بها في بحث معصيته، وهذا يعودُ بنا مرّةً أخرى إلى استحضار المرويّ الذي سبق وأشرنا إليه في ذلك البحث عن الإمام محمّد الباقر (ع) (**لو علِمَ الناسُ كيف ابتدأ الخلقُ لما اختلف اثنان**)[1] إذن فالنّاس لا يعلمون والمفسِّرون لا يعلمون بدليل أنّ الكلّ مُختلف، فمعرفة الخلْق، خلْق آدم، قنطرةٌ مركزيّةٌ في معرفة ما يليها، سواءً تلاه بحثُ معصيته، أو الذي سيليه، من التفريق بين آدم الإنسان وآدم الرسول، بل إلى ما هنالك من كلّ البحوث المتفرّعة التي تُعنى بالحضارة واللّغات والثقافات والأديان، إنّما تبدأ من معرفة أوّل حروف أبجديّتها "آدم" و"**مَن عرف نفسه عرف ربّه**"، بهذا نرى صدْقَ ما قاله سليل النبوّة "**ما اختلف اثنان**".

---

[1] – البرقي، المحاسن، ج١، ٢٨٢؛ وفي بحار الأنوار، عن الصادق (ع) قال: "أما لو علموا كيف كان بدءُ الخلق وأصله، لما اختلف اثنان". المجلسي، بحار الأنوار، ج٢، ص١٣٥.

٣- مأساة العقل

ترى كمْ خسر العالَم من جهودٍ، حين يدور حول نفسه قروناً ليُمسك بذيله! أيُعدُّ إنجازاً إنسانياً أنْ نصرف زهرات أعمارنا في اختراع آلة تُحوّل "البول/اليوريا" إلى ماءٍ صالح للشرب، إذا كانت مياه الشرب متوفّرة وتملأ كلّ مكان؟!

عقولٌ جبّارة جاءت إلى منطقتنا ودرست الآثار وتعلّمت اللّهجات واللّغات ونقّبت واجتهدت وأضاعت الأعمار والأموال، لا لمحبّة خالصة للحقيقة، لتكتشفها كما تتكشّف باديةً لها، بل إخلاصاً لعِرْقهم ولقوميّتهم ولعقيدتهم، جاءوا كباحثين وآثاريين ومؤرّخين، واستشرقوا لتطبيق وتصويب ما تقوله "التوراة" عن بداية الخلْق أو عن آدم أو طوفان نوح أو عن أصل الشعوب وأصل اللّغات وتاريخ العالَم كلّه وجغرافيّته وحقائقه!

كم، ويا للحسرة، خسر الإنسان بوضعه الرّقم الخطأ في المكان الخطأ في معادلة سيْر قطار الإنسانيّة! يا أيّها النّاس: هذه المعادلة ليس لها حلّ أبداً، وقطارُ العالَم لنْ يمشي، ونحن أيضاً سنُراوح مكاننا ولن نتقدّم تجاه النّور شيئاً، ما دام إرث الإسرائيليّات في أدمغتنا[1]، ورقْمُها في كلّ معادلاتنا، فلن نرى جديداً إلاّ الدّمغة التي

---

[1] - استخدمنا (وسنستخدم) تعبير "الإسرائيليّات" باعتباره التعبير الدّارج المألوف عن الروايات المدسوسة في مصادرنا، لا باعتبار تصحيحنا له وتبنّيه، وإلاّ فالأصحّ تسميته "اليهوديّات" وبأقلّ دقّة "التوراتيّات"، إذ أنّ "إسرائيل" تعني أسير الله وعبده، وهو يعقوب (ع)، وبنو إسرائيل هم أبناؤه وكانوا مسلمين موحّدين بشهادة القرآن، أمّا كهنة اليهود الذين دوّنوا لهم توراةً ملفّقة تجمع الصحيح بالمفترى فقد جاءوا بعقيدة الكهنة المنحرفة بعد موسى بألف سنة، وهم الذين نسبوا للأنبياء ما ليس فيهم، وحاربوا عيسى (ع) وحاربهم ولعنهم، وعادوا بضراوة سيّد المُرسلين محمّداً (ص) فأمره اللّهُ بجهادهم. هم الكهنة الذين افتروا على الله وجعلوا يتنبّأون بالأباطيل، وحرفوا عبادة التوحيد إلى البعل، وأساءوا للأنبياء حتّى جاهدهم قبل مجيء عيسى (ع) حزقيال:
(هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: وَيْلٌ للأَنْبِيَاءِ الْحَمْقَى الذَّاهِبِينَ وَرَاءَ رُوحِهِمْ وَلَمْ يَرُوا شَيْئاً. أَنْبِيَاؤُكَ يَا إِسْرَائِيلُ صَارُوا كَالثَّعَالِبِ فِي الْخِرَبِ. .. رَأَوا بَاطِلاً وَعِرَافَةً كَاذِبَةً. الْقَائِلُونَ: وَحْيُ الرَّبِّ وَالرَّبُّ لَمْ يُرْسِلْهُمْ، وَانْتَظَرُوا إِثْبَاتَ الْكَلِمَةِ. أَلَمْ تَرَوا رُؤْيَا بَاطِلَةً، وَتَكَلَّمْتُمْ بِعِرَافَةٍ كَاذِبَةٍ، قَائِلِينَ: وَحْيُ الرَّبِّ وَأَنَا لَمْ أَتَكَلَّمْ؟)(حزقيال ١٣ : ٣-٧)، ثُمّ أرمياء قائلاً لهم، عن لسان الوحي:

رأينا في دماغنا، ولو حُشرتْ علينا الآيات قُبُلاً أو تكلّمت الموتى معنا! وقد تكلّمت فعْلاً في علْم الآثار والمستحاثّات بالكشف عن أحافير البشر الهمج، وعن أزمنة وأعمار حضارات الإنسان، لو استمعْنا وسرْنا ونظرنا!

٤- خُطوات الحقيقة إلى كبْوتها في عالَم الزيْف

الواقعة أو الحدث، كقصّة الخلق الأوّل أو قصّة آدم، هو حقيقة موضوعيّة، لكنّه حين يتحوّل إلى فكرة، إلى صورة ذهنيّة، قد تبدأ أولى خطوات الزيف والانحراف بالتسلّل، أوليس هكذا دُوّنت التوراة؟ فبين الواقعة والفكرة الذهنيّة مسافة بعيدة، هذا لمن شهد الواقعة وتصوّرها (والأنبياء شهدوا ذلك وحياً)، فكيف بمن لمْ يشهدها؟ المسافة أبعد بكثير! أمّا الزيف الثانيّ فحين تتحوّل الفكرة المتصوّرة ذهنيّاً إلى لغة معبّرة كحاويةٍ ثقافية مصوّرةٍ لها، فهنا يُوشَك أنْ ينقطع الجسر بين الواقعة والقصّة المحكيّة إلاّ لمن آتاه الله بلاغةً عزيزة وفصاحة نادرة بأدلّ لغات العالَم بياناً. أمّا الزيف الثالث والأخطر؛ فادّعاء نسبة القول والسّرد إلى لسان الشهود، أو ما يُسمّيه القرآن بـ "التقوّل على" أو الافتراء.

فحين تزحف أفعى التزويرات لتتستّر تحت عباءات الرجال العظام، كموسى (ع) ومحمّد (ص) وعليّ (ع) وابن عبّاس (رض) والأصحاب (ره)، أو على لسان رواةٍ

(وَقَدْ رَأَيْتُ فِي أَنْبِيَاءِ السَّامِرَةِ حَمَاقَةً. تَنَبَّأُوا بِالْبَعْلِ وَأَضَلُّوا شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ رَأَيْتُ مَا يُقْشَعَرُ مِنْهُ. يَفْسِقُونَ وَيَسْلُكُونَ بِالْكَذِبِ وَيُشَدِّدُونَ أَيَادِيَ فَاعِلِي الشَّرِّ حَتَّى لاَ يَرْجِعُوا الْوَاحِدُ عَنْ شَرِّهِ. صَارُوا لِي كُلُّهُمْ كَسَدُومَ وَسُكَّانُهَا كَعَمُورَةَ. لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ: هَا أَنَا ذَا أُطْعِمُهُمُ اللّعنةَ وَأَسْقِيهِمْ مَاءَ الْعَلْقَمِ لأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ خَرَجَ نِفَاقٌ فِي كُلِّ الأَرْضِ)(إرمياء ٢٣ : ١٣–١٥)، ويقول لهم: (هَا إِنَّكُمْ مُتَّكِلُونَ عَلَى كَلاَمِ الْكَذِبِ الَّذِي لاَ يَنْفَعُ. أَتَسْرِقُونَ وَتَقْتُلُونَ وَتَزْنُونَ وَتَحْلِفُونَ كَذِباً وَتُبَخِّرُونَ لِلْبَعْلِ وَتَسِيرُونَ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا، ثُمَّ تَأْتُونَ وَتَقِفُونَ أَمَامِي فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ وَتَقُولُونَ: قَدْ أُنْقِذْنَا. حَتَّى تَعْمَلُوا كُلَّ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ. هَلْ صَارَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ مَغَارَةَ لُصُوصٍ فِي أَعْيُنِكُمْ؟..) (أرمياء ٧: ٨– ١١)، فهكذا هي دعاواهم في التوراة المؤلّفة!

مكثرين كأبي هريرة ينقل عنهم بدورهم أئمّةُ مذاهب ورجالاتها الأكارم، فويلٌ للذي يعترض ما تبثّه تلك الأفعى، إذن يُداس بأقدام تلك الرجال لأنّه دنّس أثوابهم إذْ فتّش عمّا اندسّ تحتها. فكيف بالله نقتلع بثّ أفعى، جاء متلفّعاً بعباءات أولئك العظام المقدّسين، وهم (ع) بريئون من كلّ كذَبةِ التاريخ عليهم، وإنْ وَثّقَتْ رُواةَ هذا البثّ علومُ الرجالِ والرجالُ؟! كيف نقتلعه، وفي أذهاننا أنّ القوْل هذا قد خرج من الفم المقدّس ذاك، لا منْ فم الأفاعي حسبما سمّاهم عيسى بن مريم (ع): (**يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلّموا بالصالحات وأنتم أشرار، فإنّه مِنْ فضلة القلب يتكلم الفم**)(متّى ١٢ : ٣٤)؟!

فإنْ كان ثمّة مَنْ لمْ يحتمل – ونُعذره منْ ثقل الدسّ- أنّ آدم كان كائناً حيّاً (بشَراً) قبل تسويته وتخليقه إنساناً، وأنّه تحدّر منْ سلالةٍ سبقته بمئات الآلاف من السنين، ولمْ يستسغ تلك الأدلّة الكثيرة مع تواترها وتداكّها عليه، ومع صراحة عبارات القرآن الكريم فيها وانحكام آياته ونظمه بها، ولمْ يُحرّك ساكنَه اعتضادُ ذلك التصوير القرآني البليغ بمقولات التراث الواحدة التي سبقته منذ آلاف السنين، إنْ كان ثمّة مَنْ لمْ يحتمل ذلك لقداسةِ وهميّة مبالغ فيها، طغَتْ حتّى على كلام الله تعالى وعلى تعليمه للأمّة عبر قرونها السحيقة قبْل النبيّ الخاتم، فإنّا نأسف أنْ نزفّ إليه خبراً مزعجاً؛ أنّه سيجده أعسرَ منْ عسيرٍ أنْ يقبَل أو يحتمل ما سنقوله هنا، ولو كانت هي الحقيقة التي أطلقَ صداها كَلامُ اللهِ وكتابه، بل وسيكون عليه عمىً أكثر، وقد يغصّ أو يشْرق بما نقول لأنّه سيخدش قداسةً ثانيةً "مُخترعَةً" هي الأخرى، انحقنتْ فينا من إملاءِ ما تتلوه شياطينُ "توراة الكهنة" ويتقوّلونه على مُلْك سليمان وما يتلونه عن قصّة آدم وعن معصيته وما يتلونه على سلالة الأنبياء وجغرافيّتهم وسلالات الشعوب، بل وعلى تاريخ هذه الأمّة الموحِّدة الواحدة![1] (**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ**

---

[1] – استعملنا الفعل "يتلو" متعدّياً بـ "عن" للإفصاح عن موضوع التلاوة، ومُتعدّياً بـ "على" كما في الآية "ما تتلو الشياطين على ملْك سليمان"، ليتضمّن فعل "يتلو" معنى الافتراء، أيْ افترى شياطينُ الإنس على ملْك سليمان أموراً وحوّلوها إلى نصوص كتابيّة وقاموا بتلاوتها، وكذلك فعلوا في غيرها ممّا ذكرنا أعلاه.

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)(البقرة:٧٩).

وإذا كان من المؤسف، أنّ كتب تفسير القرآن، قد انتهجت بعض ما تقصّه التوراة لتفصّله على مقاس عبارات القرآن، إلاّ أنّها، ومن رحمة الله بنا، أتاحت أحياناً نقل آراء أخرى مختلفة ومتضاربة على الآية نفسها، بحيث تفتح المجال للقارئ أنّ يُدرك لكثرة الأقوال في تفسير الآية، أنّ هذا التفسير ما هو إلاّ اجتهاد غير ملزم قد يُصيب وقد يُخطئ، وتُلهمه أنْ يُشكّك في أصل النظام الذي يقوم عليه التفسير.

لكنّه من المؤسف جدّا، أنّ هذه المنحة غير متاحة للقارئ غير العربي، حين يقرأ ترجمة تفسيريّة للقرآن، حيث يكون الأغلب وضع جملة واحدة بلا خيارات ترجمةً للآية، والمتمعّن في الترجمات لا يجدها إلاّ صورة مستنسخة للقصص التوراتيّة! فالقارئ غير العربي مُضلّلٌ بالترجمة عن القرآن بأشدّ من تضليل القارئ العربي بالتفاسير، وليس له خيار إلاّ أنْ يعتقد أنّ ما يقرأه من رأيٍ واحد في سطر الترجمة، هو نفسه منطوق الآية القرآنيّة، هذا الأمر ينطبق تماماً على "التوراة المتداوَلة" حال ترجمتها، ويكفي أنْ نعرف أنّ كلّ كلمة "مصر" العربيّة، أو "مصريم" العبريّة! تُترجم فوراً إلى "Egypt" بالإنجليزيّة، فأنّى للقارئ الغربي أنْ يُشكّك أنّ موسى (ع) أو بني إسرائيل ما دخلوا أرض مصر النيل بالمرّة وهو يقرأ الترجمة لا الأصل؟![1]

مثلما، أنّى للقارئ غير العربي، أنْ يفهم قصّة آدم القرآنيّة إنْ تُرجمت الشجرة إلى "tree"، والأكل منها "eating"، والسوأة "their private parts"، ويخصفان عليهما من ورق الجنّة "began to sew the leaves of the garden over their bodies"، واللباس "clothing"، وخصوص الشجرة أنّها هي "The Tree of Good and Evil"؟! فنتساءل: أليس هذا ما تقوله التوراة حرفياً من الألف للياء، فماذا بقي ليقصّ القرآن قصصَه الحقّ فيه، ليُهيمن بتصحيحٍ أو إضافة، وقدْ هيمنت عليه التوراة، والتفاسير

---

[1] – راجع: نِداءُ السُراةِ– اختطافُ جغرافيا الأنبياء، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

والترجمات؟!! نحنُ لا نعتقد أنّه ذنْبُ المترجمين طبْعاً، بل هو ذنبُ اللغويّين والمفسّرين. (انظر الصورة:٣)



منظر تقليدي سائد في مخيّلة الديانات عن المعصية، حيث نجد: آدم وحواء عاريين، شجرة نبات، حيّة تُكلّم حوّاء، تفاحة في يد حواء بالخصوص، لباس من ورق الشجر، والسوأة هي العورة الجسديّة! (الصورة:٣)

ربّما يعي القارئ الآن حسب هذا الإيجاز، المأزقَ المظلم الذي حبسْنا القرآن العالَميّ فيه، والتشويهَ الذي لا فكاك منه الذي ألحقناه بنصوص الكتاب الربّانيّ المبين.

٥- منهجنا

كان رائدنا الأوّل، وسيظلّ، في مرحلة الاستكشاف أو الاكتشاف، مصباح اللّه المنير، وقرآنه المبين الذي لا يأتيه الباطل وليس فيه اختلاف، وهو المهيمن على **الكتاب** كلّه والحقّ المبين: (**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ**

هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ(الأنعام:١٩)، مشفوعاً – هذا المصدر والدليل الربّانيّ- بمدوّنات تراث الأمّة الواحدة، منذ آدم الرسول (ع) إلى سيّدنا خاتمهم (ص).

وما يلزم ذكره، أنّه كان لنا أيضاً نهجنا الخاصّ في فهم آيات الله، تعتمد على تحكيم كتاب الله على أقوال الرجال، لمُعايرة الأقوال والحقائق به لا العكس، وعرضها عليه لا العكس، ثُمّ بناءً على أنّ لكتاب الله هندسته المُحكَمة الخاصّة المحكيّة باللّسان العربيّ المبين لا بالتخريجات الباردة.

وممّا سبق أنْ قلناه بالمعنى، وما نظلّ نقوله أيضاً :

(**أنّ آيات القرآن** الواصفة **للحقيقة الواحدة الثابتة** (لا النسبيّة المتحرّكة مثل قضايا الاجتماع الإنسانيّ وغيرها) **سواءً كانت كونية أو طبيعيّة أو تاريخيّة، لا يُمكن أنْ تدلّ على الأمر وخلافه، كما أنّها كنّصٍ وصْفيٍّ ليس لها قراءات متعدّدة، ولا تأويلات، فهي آياتٌ ونصوصٌ لها تأويلٌ واحدٌ لا أكثر، هو الحقيقة وحدها، فلا يُمكن أنْ تُوهم بالعكس أو توحي به، وإلاّ فقدتْ مصداقيّتها كآية واصفة لواقع، وأخْفقتْ كلسانٍ عربيٍّ مبين. فآيات وصف بدْء الخليقة، أو تكوين الإنسان، أو معصية آدم، أو الجنّة والنّار، أو الحساب، أو أيّ موضوع آخر ذي حبكة قرآنيّة، هي آياتٌ - وإنْ تفرّقت- متجانسةٌ، محكمةٌ، لوصف حقيقة واحدة فقط لا تحتمل وجهتيْن**)[1].

مع ضرورة أن يلتفت القارئ أنّ لنا منهجاً في قراءة القرآن الكريم يعتمد فيما يعتمد مبدأ اللاترادف في ألفاظه وحروفه، ويتّكئ على أنّ المفردة القرآنيّة مفردة عربيّة مبينة لها مدى حركيّ (يُسمّيه ابنُ فارس أصلاً)، هذا المدى يشمل التعيّنات التي قسّمها اللغويّون جزافاً إلى حقيقة ومجاز[2].

[1] – راجع مفهومنا للتأويل في بحث: هجرة إلى القرآن المهجور، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[2]– راجع بحث: مفاتح القرآن والعقل، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

وفي هذا البحث سنعتمد بإذن الله الطريقة نفسها التي مرّتْ في سابقه (**الخلق الأوّل**)، مراعاةً لذوق القارئ ولعجلة هذه الأيّام، إذْ سنجعل الفصل الأوّل للموجز الشامل، وهو الحقيقة الصادمة بلا قناع، والفصول التي تليه للتوسّع في شرح المنهج وفي دلائل كتاب الله التفصيليّة على النتائج، وسنختم الفصول بشواهد التراث العربيّ القديم بأساطيره ومحكيّاته، وبمناقشة آراء المفكّرين وأثر خيوط التوراة وبصماتها على الأفكار أو على تأطيرها.

وسنجعل من غرضنا الأساس أمريْن:

١. إقناع القارئ المصدّق كتاب ربّه، بما يقوله كلامُ الله عن هذه المسألة، لعلّمنا أنّ أكبر ممحاة في العالم عاجزةٌ أنْ تزيل ما رسخ في أذهاننا من تواتر قصص الأزمان، فقد لقّحها ماء التقديس فنشبتْ وفرّختْ. فليس غيرُ كلام الله نفسه أحرى - لو استطاع- أنْ يزيل ما ظلّلنا نتوهّمه أنّه قدْ جاء من عند الله، مع اختلافه الكثير وعدائه السّافر وتناقضه الفجّ مع الحقيقة العلمية والقرآنية والتاريخيّة.

٢. إراءة هذه الأمّة الشامخة وحْدة تراثها في أصول المسائل المعرفيّة، عن ربّها، والكون وقواه، والإنسان، لتنكشف بالتّالي وبالتلقاء حُقَنُ المزوّرين المُلوَّثة بالوباء الفكريّ والاعتقاديّ التي انسابتْ في أوداجنا جميعاً، انسياب الشيطان في ابن آدم مجرى الدم في العروق!

لذا سنضطر أوّلاً للولوج في دقائق التفصيل القرآنيّ لمغاور هذه القصّة، قصّة الإنسانيّة الأولى وكبوتها في معصيتها، لما لها من ركيزة - لدى الفرد المؤمن- في فهم الأصل الإنسانيّ وكُنهه، ودوره في الوجود، والاستخلاف، ووعيه بربّه الأكرم، وبعالم الملائكة، وبإبليس، ليخرج بصورة صحيحة عن حقيقة نفسه وعن عالمه والمحيط الذي هو فيه، بعيداً عن إملاء الخرافات وتُرّهات الأوْهام التي لا تُغني من الحقّ التاريخيّ والعلميّ والقرآنيّ شيئاً، ولا ترفع لأمّتنا فكراً ولا ذكْراً، ولا تُورث نتاجاً سليماً ولا عاقبةً حسنة. فلا ترسم له دورَه المناط به ليترسّمه، ولا تُرجعه إلى العتبة التي زلقت من آدم رجلُه لنرتقي منها وُصْلَةَ المسير، وَصِلةَ المصير.

وسنُعرّج ثانياً على ما تيسّر لنا من مدوّنات تراثنا أمّتنا القديم بخصوص هذه المسألة، ونُحاول فكّ طلاسمها إنْ وُجدتْ بما أقْدرَنا الموفّق سبحانه، لنشهد تطابق الحقيقة الغائبة عن أمّتنا وهي بين يديها أو تحت قدميّها، ونرجو من اللّه التسديد وغفران الزلل.

الفصل الأوّل

موجز قصّة الإنسان الأوّل

(فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإنّ
أكثرَ الحقِّ فيما تُنكرون!)

الإمام عليّ (ع)[1]

أوّلاً - اختصام الملأ الأعلى

تبدأ قصّة الإنسان حسب القرآن والتراث العربيّ الصحيح، من المشهد الذي رفع سبحانه لنا الأستار عنه: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**)(البقرة:٣٠).

والحوار هنا – عقيدةً وعقلاً- ليس بين الربّ العليّ الأحد وبين هذه القوى **الملائكيّة** الذين لا يجادلون في إرادة اللّه تعالى، بل يفعلون ما يؤمرون، فالربّ هنا هو ربّ الملائكة أو هو سيّدهم الأعلى المشرف على الملائكة العاملين (الرئيس الأعلى وربّ العمل بلغة اليوم) وهو "ربّ الأرباب" في لُغة التراث القديم وقصْدُهم سيّد الملائكة المدبّرة، فالحوار ليس بين اللّه العليّ الواحد الأحد وبين هذه القوى لأنّ سبحانه (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)(يس:٨٢).

يقول المندائيون في مدوّناتهم، (جاءت هذه القوى الأثيرية (السماوية) وكان بينهم "روها" (وهي روحا إذْ كانوا يلفظون الهاء حاء، ويقصدون به إبليس)، فجادل "روها" الربّ الذي قدّر خلْق هذا الإنسان ثم بقي في الأرض ليفتن ويغوي هذا الإنسان ويضلّه)، هذا الأمر يتجلّى في القرآن الكريم أيضاً، بعد أن تمّ خلق هذا الكائن الهائل الجديد المتميّز بعقله ليكون خليفة الربّ على هذه الأرض، وإيداع الرّوح من أمر اللّه

---

[1] – الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج١، ص١٥٤.

فيه لقوله الناموسيّ سبحانه: (**وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**)(فصلت: ١٢) ففي كلّ سماءٍ مأهولة، كلّ كوكبٍ حيّ، ثمّة روحٌ تدبّره منْ أمر اللّٰه، هو السيّد الروحانيّ الآمر لذلك الكوكب، أو ذلك العالَم. ففي هذه الأرض، أو بالأصحّ هذه المجموعة الشمسيّة أيّ هذه السماء، أوحى سبحانه أمْرها بتشكيل نظامها، وتعيين روحها المدبّر لها وأودع الرّوحَ خليفته الإنسان، لتقوم هذه الروح المودعة في إنسانها بتلقّي الاتّصال مع الملأ الأعلى، ويكون العقل لدى الإنسان آلتَه في تدبّر أمره وتدبير ما يُساكنه على هذا الكوكب من كائنات، فالرّوح في الإنسان للاتّصال بالمنبع السماوي، لتفيض على العقل، ليُدبّر مَن دونه.

فبعد أنْ سوّى "الربُّ" آدم الإنسان، أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم (أي يطيعوه ويأتمروا به) وليس سجود عبادة فالسجود لا تعني العبادة[١]، بل للأسف أنّ كلمة "عبد" بقيت مجتزئة مقتصرة على حركات الركوع والسجود والصوم وما شابه ..

فالآية: (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**)(الذاريات:٥٦)، تعني خلقهم ليُطيعوا مولاهم الرحمن ويخدموا سبيله بأنْ يُدبّروا ويُبدعوا ويعملوا وفْق النّظام الربّانيّ والميزان المستقيم الذي يحفظ التوازن الطبيعي بين الكائنات بما يُرضي اللّٰه سبحانه، الذي خلق هذا التوازن والانسجام ووضعه في كوْن الإنسان: (**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**)(الرحمن:٧) فيحافظ على هذا التوازن الربّاني بما يرضي اللّٰه.

ثانياً- سقوط إبليس

فبعد أن قدّرت القوى الربّانيّة (الملائكة المدبّرون) بأمر اللّٰه، مصير هذا الإنسان وقدراته ومهمّته، أُمروا أنْ يكونوا تحت تصرّفه عند اللزوم، فأطاعوا الربّ وسجدوا إلا إبليس: (**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ**

---

[١] - العبادة: هي من فعْل "عبد" العربيّ السريانيّ والفينيقي هي عمل/ أبدع/ اخترع/ أتقن/ وأيضاً خدم/أطاع، وكلمة عابد/أوبيد/أوفيد/أويد تعني الأمر نفسه، المُطيع (ومنه أُخذت obediance)، ولعلّه لهذا سمّى ملوك وادي النيل أولى معابدهم (آبيد/معبد) ومع إضافة "سين القداسة" (آبيدوس Abydos -Abidos) كما في معبد رمسيس الثانيّ.

مِنَ الْعَالِينَ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)(ص: ٧٦،٧٥)، وقد كان هو أحد الملائكة الموجودين للخدمة والطاعة، وفي بعض المرويّات أنّه عُدّ حينها طاووس الملائكة، وقال ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون "**كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا، قال ابن عباس وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجنّ وكانوا خزّان الجنان وكان من أشرفهم وأكثرهم علما وعبادة وكان من أولى الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطانا رجيما**"[1]، وفي الإنجيل ذكروا أنّه كان أجمل مخلوق في الملائكة قبل مسْخه شيطاناً قبيحاً مهولاً، وفي إنجيل برنابا في موعظة عيسى (ع) (يقول النبي إشعيا موبخا إيّاه – إبليس– بهذه الكلمات: **كيف سقطت من السماء يا كوكب الصبح يا من كنت جمالَ الملائكة وأشرقت كالفجر، حقاً إنّ كبرياءك به قد سقطْتَ للأرض**)(الفصل ٣٤)[2].

---

[1] – ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، باب "ما ورد في خلق آدم".

[2] – يبدو أنّ النصّ كما رواه برنابا عن أشعياء هو أسلم النّصوص، أمّا النصّ الموجود في التوراة المحرّف كثيرٌ منها بدايةً ثمّ عبر الترجمات، فمتناقضٌ، والدليل، هاك نُسخ ترجماته بالعربي، ومرّتين بالإنجليزي، وأخرى بالعبري! (أشعيا ١٤ : ١٢):

(كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ بِنْتَ الصُّبْحِ؟ كَيْفَ قُطِعْتَ إِلَى الأَرْضِ يَا قَاهِرَ الأُمَمِ؟)

(How you have fallen from heaven, morning star, son of the dawn! How you are cut down to the ground, who laid the nations low!)

(How art thou fallen from heaven, O Lucifer, son of the morning! *how* art thou cut down to the ground, which didst weaken the nations!)

هذه ثلاث ترجمات متناقضة، وأحدها يحتوي كلمة (لوسفَرْ Lucifer) وهي اسم إبليس لدى المسيحيّين، حتّى أنّك لو تفتح أيّ قاموس تجدها أمامك، وقد ترجمها "آلَنْ واتْس بـ"حامل الضياء" (Allan Watts, Myth and Ritual in Christianity, p 41) .

والغريب أنّ اليهود يدّعون أنّ المسيحيّين قد حرّفوا الترجمة فوضعوا هذه الكلمة (لوسيفر) لتدعيم فكرة الملاك الساقط كما يعتقدون، بينما هي لدى اليهود في نصّها تتكلّم عن "ملك بابل" كما يزعم اليهود، والحقيقة أنّ سياق العبارات في النصّ المنسوب لإشعياء يخدم الاتّجاهيْن، فمن أين وضع المترجمون المسيحيّون كلمة "لوسيفر"؟ يُجيبون: أنّها كلمة رومانيّة فلكيّة بمعنى كوكب الزهرة Venus، وهو نجم الصباح نفسه، لكنّنا نلاحظ ثلاثة أمور:

١– أنّ "لوسَفَر" هي "لِّي سَفَر" باللّهجة العاميّة أيْ "الذي سفَر" أضاء وأشرق، فكهذا كانت لهجة

فإبليس كان موكلاً بتدبير الأمر مع باقي الملائكة على الأرض قبل وجود آدم وسائر المخلوقات ربما بملايين السنين، وكان زعيم الجند، بل لقد كان هنا على هذا الكوكب عدّة مخلوقات روحانية يُسمّيها التراث "أثيريّة" موكلة لتدبير الأمر قبل وجود كلّ شيء .. وفي سفْر حزقيال يُخاطبه **(أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ، كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللّه** (بالنصّ العبريّ "**جنّة الآلهة**")، **كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ، عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانٌ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ الْفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ، أَنْتَ الْكَرُوبُ** (المقرَّب) **الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ وَأَقَمْتُكَ عَلَى جَبَلِ اللّه** (**الآلهة**) **الْمُقَدَّسِ، كُنْتَ بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ)**(حزقيال ٢٨ : ١٢-١٤). (انظر الصورة: ٤)

العرب الفينيقيّين الذين علّموا الإغريق اللّغة ثمّ جاءت اللاتينيّة منها، و"اللّي سفَرْ" هو أيّ كوكب يُنير الظلام، حامل الضياء، كما ترجمها "واتّس"، فيصلح للزُّهرة فعْلاً.

٢- أنّ كلّ هذه الترجمات "الذي سفَر"، "زهرة بنت الصبح"، "نجمة الصباح morning star"، "ابن الصباح أو الفجر son of the morning\dawn"، هي كلّها تعني الزُّهرة، التي هي نجمة عشتار، ما يُبدي لك ما لأثر التراث العربيّ وعقيدة الخصب القديمة في الثقافة والأسماء وتأثّر الكهنة اليهود والمسيحيّين بها.

٣- أنّ الكتابة باللّغة المسمّاة بالعبريّة للنصّ نفسه نجد بدلاً من "لوسفر" تُسمّيه "هلال بن شهر"، ويقول المترجمون ما هذا نصّه:

In the Hebrew text the expression used to describe the Babylonian king before his death is Helal, son of Shahar, which can best be translated as "Day star, son of the Dawn."

فاعجبْ لهذا التحريف، ولهذه الترجمات الدقيقة المتناقضة فيما بينها، بل للترجمة الدقيقة الأخيرة التي تجعل عبارة "هلال بن شهر" أفضل ترجمة لها "نجمة النهار" و"ابن الفجْر"!! لكن "هلال بن شهر" يدلّك على أنّ التراث أصله عربيّ، وحرّفه التوراتيّون بدْءاً ليُناسب قضاياهم الشخصيّة المحلّية والسياسيّة، وما نقله برنابا عن عيسى (ع) عن إشعيا (ع) أصحّ ممّا نقلته كهنةُ اليهود عنه في توراتهم، مثلما أنّ ما ينقله المُعقّب محمّد (ص) عن الأنبياء السابقين وعن عيسى (ع) أصحّ ممّا ينقله خلائف أتباعهم، لأنّه جاء من المصدر الربّانيّ الصافي نفسه لا من الرجال.



(الصورة: ٤) تصوّرهم للشيطان كملاكٍ قد هوى

أمّا باب مدينة علم رسول الله (ص) عليّ (ع) فيقول في الخطبة القاصعة من نهج البلاغة[١]:

(ثم اختبرَ بذلك ملائكته المقرّبين ليميّز المتواضعين منهم منَ المستكبرين . . . ولو أراد اللهُ أنْ يخلق آدمَ منْ نورٍ يخطف الأبصارَ ضياؤه، ويبهر العقولَ رواؤه، وطيبٍ يأخذُ الأنفاسَ عُرْفُه لفعل ولو فعلَ لظلّت له الأعناقُ خاضعةً، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة ولكنّ الله سبحانه يبتلي خلْقَه ببعض ما يجهلون أصْلَه، تمييزًا بالاختبار لهم، ونفيًا للاستكبار عنهم، وإبعادًا للخيلاء منهم، فاعْتبروا بما كان منْ فعْلِ الله بإبليس إذْ أحبط عملَه الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبدَ الله ستّة آلاف سنة لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا أمْ سنيّ الآخرة عن كبْرِ ساعةٍ واحدة فمنْ ذا بعد إبليس يَسْلمُ على الله بمثل معصية؟ كلاّ، ما كان اللهُ سبحانه ليدخل الجنّة بشرًا بأمرٍ أخرج به منها ملَكًا، إنّ حكْمَه في أهل السماء وأهل الأرض لواحدٌ، وما بين اللهِ وبين أحدٍ منْ خلْقه هوادةٌ في إباحةِ حمًى حرّمَه على العالمين).

---

(١) - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٢، ص ١٣٨ .

فحين تمرّد إبليس وعصى صيحَ به: (**فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**)(ص:٧٧) (أي من الجنّة وهو الفردوس الأرضي أو المحلّة الآمنة ودار الأبرار) (**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**)(ص:٧٨) (اللّعنة هي الطرد والحرمان من النعمة)، (**قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)(ص:٧٩)، (**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**)(ص:٨٠).

أوّلا : قُلنا، ولا زلنا نقول، أنّ هذا الحوار آنفاً وغيره من حوارات قرآنيّة، ليس بين الله سبحانه وتعالى وإبليس لعنه الله أو غيره، بل بين الربّ الذي عليهم، سيّدهم، معلّمهم، الملاك الأكبر، المُدبّر الأعلى، الرّوح الأعظم .. سمّه ما شئت، فهو الذي طرده منْ الجنّة الأرضية، وحبسه في الأرض إلى يوم الدين، فلمّا قال اللّعين: "**أنظرني**" أجابه: "**إنّك لمن المنْظرين**" على كلّ حال، يعني أنّك تلقائياً ستظلّ محبوساً في الدنيا، ولا يمكنك الخروج منها لأنّ عروج الرّوحانيّين هو حصرياً من المحلّة الآمنة حيث المعرج و(أبواب السماء)، باب الله (بابِ-إلْ) كما يُقال.

ثانياً : إنّ أمر الله، حتم، لا مردّ له، ولا يُمكن إلاّ أنْ يكون؛ "**كن فيكون**" فقط ولا غير إلاّ أنْ يكون، فلو كان الله العليّ مَن أمَر إبليس في السجود، لما كان بمقدوره أنْ يعصي، هذا في الإرادة الإلهيّة، أمّا في المشيئة، فقد شاء سبحانه للعقل أنْ يتصرّف باختياره ليُطيع من يُطيع ويكفر من يكفر، فمحالٌ أنْ يكون مثل هذا الكلام مع الله من قبل إبليس وهو يعرف عظمة الله وجلالة شأنه وأمره، بل لعله منْ أوائل من أُرسل للأرض وهي نار ودخان، وظلّ ساجداً فيها يعمل (ملايين السنين) كما قال تعالى (**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ**)(الحجر:٢٧). فحين نُودي إبليس بعد أن استوى آدم ونُفخ الروح فيه، فزع من وجوده واستنكر واستخفّ به وحقّره ورفض الامتثال له، كما قال عليّ (ع): (**إلا إبليس وقبيله اعترتهم الحمية وغلبت عليهم الشقوة وتعزّزوا بخلقة النار واستوهنوا خلق الصلصال**).

ثالثاً- سقطة آدم

فحُذّر آدم من قبل الملائكة الكرام من عداوة إبليس، بأنه يراك ولا تراه، وإنه يوسوس ويخيّل ويخوّف وإنّه سيستدرجك للخروج من الجنّة، فلا تطعه، وتخالط سلالة هؤلاء البشر (الهمجيّين) -الشجرة غير المُخلَّقة- فإنّه فيهم، فمكث آدم في الجنة سنين طويلة، وذات مرّة حدث أنْ مرّ بالحوض الذي اغتسل فيه أوّل مرة والذي منه وبه تذكّر كيف كان قبل الآن، ونسي ما هو فيه منْ حالٍ ورفْعة، فانساب وزوجُه حواء عبر النهر المتدفّق لخارج الفردوس ("**نين بردو**"- كما يُسمّى لدى العرب السومريّين وغيرهم، والذي سُمّي نهر "بردى" في دمشق تيمّناً به، و"نين" سيّدة، و"بردو" هو المغتسل البارد، كما قال سبحانه "**هذا مغتسلٌ بارد**")، وهناك كان الخبيث ينتظر متربّصاً لآدم الذي توعّد أنْ يحتنك ذرّيته، مترصّداً له في إناث الهمج البهائميّ البشريّات، الذين أعدّهم إبليس لملاقات آدم فتمّ له ما أراد وشارك آدم في ذرّيته، عندها اكتشف آدم أنه أغوي، وغضب الربّ عليه وأظلمت الدنيا وضلّ آدم طريق العودة إلى الجنة.

(**وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**)(البقرة:٣٥/ وأيضاً الأعراف:١٩): فبعضهم قال أنّها شجرة الكافور، والبعض تفاح وآخر عنب كرمة أو خمرة، وبعضهم قال إنّها السنبلة؛ القمح أو الحنطة، وفي اللغة العربية القديمة دعوها شجرة "فروسيا"[(١)]، وهذا من مدونّات السومرية، و"فروسيا" في القاموس السريانيّ والفينيقي: نجدها تعني الحيوانية الشهوانية، ولما كان حرف الفاء شفوياً، أي يُنطق بواسطة الشفاه وتلفظ "پ" أيضاً فإنها عند التعريف تصبح "أمپروسيا"[(٢)] أي الشهوانية، فقد حُذّر آدم من الشهوة الغريزية وهي أنْ تخالط هذه الهمج بالشهوة الحيوانية، (**فإنّك الآن قد تميّزت عنها فإيّاك أن تختلط بها جنسياً**)، فتسلّل إبليس كما تتسلّل الحيّة (لذلك رمزوا لإبليس

---

(١) - راجع قريباً منه: أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم-المركز، ص٣١٦ -٣٢٩.

(٢) - إنّ "ال" التعريف في الفصحى، ليست هي دائماً في اللّهجات العربيّة، فالبعض ينطقها "أم" لاسيّما لخطأ نطقي يُسمّى الطمطمانية: وهو إبدال لام التعريف ميما وبالخصوص إذا لحقته باء مثل قولهم "إمبارح" بدلاً من "البارحة" وفي العامّية بدلاً من قولنا "ألا بلى" نقول "إمبلى".

بالحيّة في التراث كلّه) إلى حيث يرى آدم وحواء، فأغواهما بالخُلد والملك على شاطئ "**نين بردو** Nunbirdu"، و"نين بردو" هو "بردى" وهو أحد الأنهار الموجودة في جوف المغارة/ثغر الأنهار/ النافورة[١]، في غرب شبه جزيرة العرب في سراتها، خارج الجنّة الأرضيّة لآدم.

فعصى آدم ربّه وأودع في رحم أنثى الهمج بذرته "ثمرة الخطيئة" بذرة "**مِيلا مطْعايا**"/ميلا متعايا/ميلا متايا (Melametaea)[٢] .. بسقوط حرف (العين) من "مطْعايا" --> "مطايا/متايا". إنّ كلمة "ميلونا" في العربيّة القديمة تعني شجرة، "**مِيلا**" أو ملأى: تعني الثمرة، ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية (melon)، وهي تعني تفاحة أيضاً ..كما أنّ "**ميلا**" تعني الميْل والانحراف والظلم، أيضاً. و"**مطعايا**" = "م-طعايا" الميم للتعريف بدلاً من اللام كما أسْلفنا، و"طعايا": طغْي، لأنّ العين والغين كلاهما عين لدى العربيّة السريانيّة[٣]، فهي إذن: الطغي/الطغيان/الإثم/الخطيئة. فآدم زرع في رحمها "ثمرة الخطيئة" وكوّن (شجرة/نسل الخطيئة)، وهي التي شاعت "بتفاحة آدم" أو "خطيئة آدم" في التراث كلّه على تنوّع صيغه وعباراته. وبما أنّ "ميلا مطعايا" هي الطغيان أو بالأحرى "ميلاً طاغياً" الميْل والعصيان الذي تجاوز بطغيانه الحدّ، ذاك الذي أفسد خطّة الاستخلاف الربّانيّة، وشوّه "**بذرة سين**" أيْ برنامج الرّوح السماويّ حسب الأسطورة، فقد غضب الربّ/الرّوح الأعظم عليه، وسقط دور آدم في الخلافة، وأمر أرباب التدبير (الملائكة الأربعة العظام) بالبقاء في المحلّة المقدّسة

---

[١] - راجع: جنّة آدم تحت أقدام السراة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية. وكذلك: أحمد داوود، العرب والساميون والعبرانيون ؛ وأيضاً: تاريخ سوريا الحضاري القديم-المركز.

[٢] - صامويل كريمر، من ألواح سومر، ص ١٦٨ .

[٣] - كم قد يستغرب العربيّ إذا ما راجع القاموس السريانيّ، ليجده لا يقلّ عروبةً عن لهجته التي يتحدّث بها، فنموذج على أنّ بعض "العين" السريانية تُصبح "غين" في الفصحى، إليك هذه المفردات: عوربو/غرابٌ، زعورو/صغيرٌ، عطو/غطّى، معرتو/مغارةٌ! حاول أنْ تقرأ العين في الكلمات غينًا ستجد عربيّتك واضحة.

نفسها لإتمام مهمّتهم إلى يوم الدين بدلاً منه[1]، ولأنهم- يُمكن أنْ يُقال تجاوزاً – قدْ أخفقوا مع إبليس ومن ثمّ مع آدم .

بقي سؤالٌ مهمّ: لقد اتُّهمت حوّاء دائماً بأنّها سبب الخطيئة؟ فهل فعْلاً كانت حوّاء مع آدم في الخطيئة هذه وسبباً رئيساً لها؟ لا، هي أخطأت فعلاً، لكنْ ليس في هذه الخطيئة الطاغية، بل لقد بقيت حوّاء في الجنّة بعد طرد آدم، ثُمّ أخرجت إليه بعد مدّة، لحظةَ أن تاب اللّه جلّ ذكْرُه عليه وهي التي نقلت إليه كلمات ربّها: (**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)(البقرة:٣٧)، وإحدى كلمات الأمل التي نقلتها إليه هي: (**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**)(طه: ١٢٣)، بعد أنْ ازدلفت إليه في "المزدلفة" كما تقول مرويّاتنا، وكان ذلك اللّقاء على جبل عرفات، ومن ضمن تلك التعليمات الجديدة المنقولة أنّ آدم أو أيّ آدميّ لن يدخل الجنّة مرّةً أخرى إلا روحاً دون الجسد. هذا مُوجز ما دلّنا عليه تراثنا الصائب والمقدّس. فما هو دليل هذا الموجز؟! وما بُرهانه؟ (انظر الصورة:٥).

---

[1] – جاء في القرآن الكريم (وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ)(المرسلات:١١-١٣)، فهم هؤلاء الملائكة السادة الأربعة المدبّرون، وجاء في الإنجيل (قَائِلاً لِلْمَلاَكِ السَّادِسِ الَّذِي مَعَهُ الْبُوقُ: «فُكَّ الأَرْبَعَةَ الْمَلاَئِكَةَ الْمُقَيَّدِينَ عِنْدَ النَّهْرِ الْعَظِيمِ الْفُرَاتِ». فَانْفَكَّ الأَرْبَعَةُ الْمَلاَئِكَةُ الْمُعَدُّونَ لِلسَّاعَةِ ..)(الرؤيا ٩: ١٥،١٤).



تخيّل سطحيّ لبعض رسامي الغرب للجنّة ولتلك الرموز،
والسؤال: آدم وحوّاء، من الذي عصى؟ (الصورة: ٥)

الفصل الثاني

تحليل عام لقصّة الإنسان الأوّل- قرآناً

(فعليكم بكتاب الله، ففيه نبأ
من كان قبلكم، وحكم ما بينكم،
وخبر ما بعدكم)

حديث شريف[١].

أوّلاً- القصص القرآنيّ، وتمهيد المنهج

قبل أن نتناول بالنظر والتحليل لأيّ من آيات كتاب الله، لا بدّ من فتح أقفال معيّنة كانت تقيّدنا عن التعامل الصحيح مع كتاب الله إلينا، وضعها بعضُ المفسّرين والمتكلّمين واللغويّين، فضاعت معالم الإحكام القرآني بين معظم قواعدهم وعقائدهم. فلا بدّ من الإذعان لحقائق محكمات آيات القرآن أوّلاً، ثمّ ثانياً اتّباع نظامه كما هو مكتوب فيه باللسان العربي المبين، ليس غير[٢].

إذن، اتّجاهنا ينبني على مؤسَّسات قبْليّة، لكنّها لا من خارج القرآن، بل منه ومن محكماته، ليس هنا أوان دليلها، لكنّنا نكتفي بأنّ طبيعة القرآن هي هكذا، كلّ كتاب علميّ تاريخيّ سلوكيّ اعتقاديّ، ينبغي أنْ يتوخّى الدقّة والحقيقة في مصطلحاته، فلو كانت كتب الفيزياء والرياضيات والكيمياء، تستخدم مصطلحات الشعراء والأدباء وخيالاتهم وتجوّزاتهم لسقطت هذه الكتب ولاختلف في فهمها ولعسر تطبيق قوانينها، كاختلافنا في القرآن واعتساره علينا. لذلك رفض القرآنُ المُبين أنْ يكون فيه عوَج، أو ريب، أو سحر، أو شعر، بل قد أُحكمت آياته على مواضيعها إحكاماً، وفُصّلت لها

---

(١) - الشيخ المحموديّ، نهج السعادة، ج٣، ص٣٤٢. وقريبٌ منه: أبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، ج١، ص٣٠٣.

(٢) - راجع للمزيد عن هذه القواعد بحث: "مفاتح القرآن والعقل"، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

تفصيلاً بعناية تامّة، فنزل الكتاب بالحقّ لا بالأوهام المحتملة. لقد كان فريقٌ سابقاً يلوون ألسنتهم بألفاظ تُحاكي الكتاب ليحسبه الناس من الكتاب، ولكنّا لوينا بقواعدنا ألفاظ الكتاب ليكون قولُنا هو تفسير الكتاب، فالأمر في الحالتين سواء، تضييع الكتاب وعدم الاستماع له والإنصات.

ومع أنّ القرآن غير معنيّ في صلبه بسرد القصص، لا قصّة خلق الكون ولا قصّة آدم، وإلاّ لأتى بها كاملةً وبتفاصيلها في فصلٍ واحد، وبوضوحٍ ويسرٍ كالحكايات، لكنّه معنيّ أساساً بهداية الإنسان وتأهيله لدوره الكونيّ، ومن ضمن تأهيله إثارته ليُفكّر في إتمام القطع الناقصة بهدي من القرآن نفسه، أيْ تفتيح وعيه واختباره لإكماله في مراقيه، فمسيرة الإنسان هي مسيرة وعي خارجاً عن العماء والإلْغاز الكونيّ الذي يلفّه، لذلك جاء النبيّ الأعظم (ص) ليُثير في النّاس دفائن عقولهم.

إلاّ أنّه -أي القرآن- حيثما أورد طرَفاً من تلك القصص فإنّما يوردها بكلّ بساطة الحقّ والصدق والتهذيب بلا تمويه ولا خداع ولا تزويق ولا أصباغ ولا محسّنات إلاّ ما كان من بلاغة اللّغة وفصاحتها وجمالها. وحيثُ أنّها مجرّد أجزاء واقتطاعات من القصّة أو زوايا مهمّة منها، فهنا يحتار النّاظر، فإنّك حين ترى صورة عيْن، تحتار في إتمام الصورة، أهي عين إنسان، أم حيوان، غزال أم حمار؟ وإذا كانت عين إنسان أهو ضاحكٌ أم باك؟ المصوّر الذي أتاك بالصورة لم يقصد خداعك والتمويه عليك، بل ولا تعجيزك، بل أنّ الذي ناسب استثارتك من جهة، ويُؤدّي غرض بحثك وصلْبَ موضوعه إليك من جهة أخرى، هو هذا المقطع من الصورة فقط لا أكثر ولا أقلّ، حكمةٌ بالغةٌ، فإذا كُنت خبيراً بما فيه الكفاية بالصّوَر وبأحوال الإنسان، قد تقطع في النهاية أنّها عين إنسانٍ ضاحك، وأنّ حجم العين المصوَّر يدلّ على كذا، واتّساع البؤبؤ برهانٌ على أنّ الإضاءة كانت كذا، والظلّ يدلّ أنّ الزاوية كذا، والظرف الذي أُخذت فيها الصورة هو كذا، الخ.

أ - قواعد تُضلّ عن الحقيقة القرآنية

فمن قواعدهم التي تعترك مع دقّة الحقيقة القرآنية وجلائها:

قاعدة الحقيقة والمجاز: كانت محلّ اشتباك وجدل بين علماء المسلمين الأجلاّء، حتّى أنّ البعض ألّف فيها كتباً قيّمة تأييداً أو نقضاً، ما يهمّنا هو سحبهم قواعد أصوليّة ولفظيّة مخترعة لمساحات أخرى، على كتاب الله المبين، مع أنّها محلّ نزاع بين القوم، كأصالة الظهور، والتبادر، والحقيقة، وكأنّما كتاب الله (**وإنّه لحقّ**) هو كتابٌ تكليفيّ على المكلّف إبراء الذمّة بالعمل بأحد الأصول العمليّة -حين الشكّ- لإتاحة الحكم الظاهر؟!

ففي **حين** يدعو القرآن أنّه لا شكّ فيه، ولا وهم، ولا باطل، ولا شعْر، ولا كهانة، بل الحقّ وليس إلاّ الحقّ ..

و**حين** يدعو إلى اكتشاف نظامه بالإنصات له ..

و**حين** يدعو إلى تدبّره وفتح أقفال القلوب والأفهام ..

و**حين** يُقسم سبحانه أنّه ينطق بالحقّ كما أنْطق الإنسان ..

و**حين** يقول أنّه بلسان عربيٍّ مبين .. لنُحاول اكتشاف اللسان المبين أوّلاً ..

ذهبْنا ناحيةً وحوّلناه إلى كتاب شرعيّ نبحث عن أدنى حدٍّ من التكليف الظاهر به الذي نبرئ به ذممَنا، على المستوييْن العلميّ والسلوكي، وفي عُرفنا أنّ ما يوافق قواعدنا هو المقدار الذي تعبّدَنا به - اعتقاداً وعملاً- منزلُ الكتاب سبحانه، وكأنّ الأمر كلّه، وهمّ القرآن كلّه، وغايته كلّها، تكليفٌ وعبادة وطقوسٌ وانقياد أعمى! أو حوّلناه إلى كتاب أدبٍ وبلاغة، فكلّ العبارات فيه مجاز وكنايات واستعارات، ككلام الشعراء وخيالاتهم، هو كلامٌ بليغٌ فعلا وأسمى نصّ أدبيّ وموسيقيّ، لكن لا على حساب الحقيقة، فكلّ عباراته وألفاظه حقيقة في سياقها.

عموماً أنّ الذي يعنينا، أنّ من تلك القواعد التي تهرب بنا بعيداً عن فهم القرآن وتقزّمه إلى تكليف شرعيّ لإبراء الذمّة أو لديوانٍ بلاغيّ، هي قاعدة الحقيقة والمجاز (مع أخواتها من قواعد الحذف والتقدير والإبدال وغيرها)، في الحين أنّ القرآن كلّه حقيقة، لا كناية فيه، ولا خيال، ولا مجاز بالمعنى الذي أكثروا منه، أمّا التمثيل فنعم، فإذا أراد سبحانه التشبيه والتمثيل فإنّه يقول صريحاً (مثل) (كمثل) (كاف التشبيه)

وغيرها من تمثيلات تُدرك بالصياغة، أمّا البلاغة نعم، أمّا القيم الروحيّة والسلوكيّة والنواحي الجمالية والتهذيبيّة، فنعم أيضاً، فالخطاب القرآني حقّ لا بمعنى أنّه ميكانيكيّ جاف أصمّ، بل ينبض بالحياة وبالمعاني، وقد يتجاوز بالعبارات إلى مرامي أخرى ليُعطي القدر الأكبر من الحقيقة في جوانبها العلميّة والتهذيبيّة والجماليّة، الأمر الذي يظنّه الآخرون انصرافاً من الحقيقة إلى المجاز، فلو خلط سبحانه لنا الأمور لأوْقعنا في برزخٍ بين الحقيقة والمجاز ولسقط الإحكام في كتابه ولاشتبه علينا، وهذا لا ينفي -كما قُلنا- أنّ الكلمة المُعجزة في القرآن فيّاضةٌ تقصد معنىً وتُومئ إلى معنى وتستبطن معنى وتثير معنى. ولكنّهم توسّعوا فجعلوا ألفاظاً تروقهم هي الحقيقة، بها قاسوا الأشياء والكلمات وأخرى مجازاً[1]، ثمّ أكثروا من المجاز بحيث

---

[1] - لاحظ أثر الإكثار المُبالَغ من شواهد الحقيقة والمجاز في التفسيرات، حتّى لإنّك سترى أنّ أكثر استعمالات القرآن مجازات، بل لو استطردت لكانت كلّها، ولاحظ كيف جنحتْ بالمفسّر عن استنطاق الآيات بالنطق عنها، وإليك هذه الشواهد من كتب تفسير مشهورة، ممّا يقولون، مع تعليقنا البسيط والسريع قبالها، لأنّ الأمر كلّه خارج بحثنا:

(ناصية كاذبة خاطئة) الكاذب هو اللسان على الحقيقة ونسبة الكذب إلى الإنسان منْ مجاز وصْفه بصفة بعْضه، وتُجوِّز عن هذا المجاز بأن وُصفت الناصية فيكون مجازًا من مجاز. (صار الأمر مجازاً في مجاز! والبحوث العلمية اليوم أثبتت أنّه حقيقة في حقيقة، وأنّ منطقة الكذب هي في النّواصي تحديداً، الفصّ الجبهي الأماميّ للدماغ)!

(والله أنبتكم من الأرض نباتا) هي استعارة أيْ أنشأكم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء! (حشْر هذه الاستعارات هو الذي حجب حقيقة خلق البشر الأوائل عن أذهاننا وأنّهم فعلاً نبتوا بقدرة إلهيّة من الأرض نباتا، الذي بيّناه في بحث "الخلق الأوّل"، جمعية التجديد الثقافيّة الاجتماعية).

(يجعلون أصابعهم في آذانهم) مجاز، وإنما هم جعلوا بعض أناملهم! (بهذا لا تبقى لفظة إلاّ وتحتاج كلمة "بعض" قبلها: تكلّمت ببعض لساني، مضغت ببعض أسناني، ركلتُ ببعض قدمي، صافحت ببعض يدي، مشيتُ ببعض رجلي، نظرتُ ببعض عيني (إذْ البياض لا يُرى به)، هذا هو الواقع، والآلاف غيرها، حاول أنْ تختبره فتتأكّد بنفسك!

الغريب أنّ القرآن كرّر "الحقيقة" عن جعْل الأصابع في الآذان مرّتين ولم يَطّر اقتراحهم أبداً، ولمْ يلتفتوا، في البقرة-١٩، ونوح-٧، لأنّ الآذان وعمْقها الطبيعيّ هي التي حدّت الأصابع، لا أنّهم مخيّرون في جعل بعض الأصابع أو أكثر، فهم لمْ يختاروا أنْ يجعلوا بعض أصابعهم، بل "جعلوا أصابعهم" وانتهت حيث ينتهي عمق الأذن ليصمّها عن السمع،وحين ذكر القرآن العضّ قال (عَضُوا

عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ)(آل عمران: ١١٩) ولمْ يقل الأصابع لأنّ المرء بالخيار أنْ يعضّ أين شاء، لكنّ الغيظ يجعل المرء يعضّ أنامله، والسؤال: لماذا لمْ يقل "بعض أناملهم" ما دام العضّ يصيب مقداراً من الأنملة أيضاً؟ للسبب الآنف نفسه، هو محدوديّة سمك السنّ أو الضرس، فالخيار للضرس لا للأنامل، كما كان هناك الخيار للإذن وعمق صيوانها لا للإصبع، ولو قال القرآن كما اقترحوا لاحتمل السامع العربيّ أنّ آذانهم لمْ تُسدّ، فتأمّل الدقّة والحقيقة، وأينها من رُكام المجازات المتطشّرة بالمجان؟!)

(وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)(مريم:١٥) تجوّزٌ، أي يوم مات، من وضع المضارع موضع الماضي، كقوله تعالى "كن فيكون" أيْ فكان! (ما أعجب هذا! هكذا هُشّمت آيتان في مثالٍ واحد، فاختلّ اللّسان العربيّ، والنظام القرآني، والنّظام الربّاني، جميعاً، برمية واحدة، فيحيى (ع) قُتل ولمْ يمُت (ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً)، ولكنّه سيموت مستقبلاً لأنّ (كلّ نفس ذائقة الموت) و(لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى) لذلك قيل "يموت" لا "مات"، و"فيكون" لأنّ نظام الخلق مازال يكون ويتطوّر، ولو قال "كان" لكان الأمر والخلق واحداً وتوقّف الزمن وانفقد تراتب الموجودات، فأين ما يقوله القرآن من حقيقة وما زعموه تجوّزاً؟!)

(ادخلوا مصر) مجاز، فمعلوم أنهم لم يستوعبوها! (الآية بنفسها قالت "ادخلوا" ولمْ تقل "استوعبوا"، فمتى كان الدخول استيعاباً وملئاً؟! هذا المجاز سيحكمنا حتّى مع دخول الحمّام فما من أحد يستوعب الحمّام فيملأه كما يملأ القميص والسروال، إلاّ إذا كان بالوناً!)

(وآتوا اليتامى أموالهم) مجاز، أيْ الذين كانوا يتامى، فلا يُتْمَ بعد البلوغ. (ظرف الخطاب الآن وهم يتامى، والأمر بالإيتاء مستقبليّ، فأين المجاز؟! وآية النساء-٦ التي تليها وضّحت ذلك جلياً (وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا).

(القصاص في القتلى) مجاز ويعني القصاص فيمن سيؤولون قتلى، أي يُقتل من القتلى! (تفسير آية القصاص هي بحدّ ذاتها معضلة لدى المفسّرين، وهذا أحد أسبابها، لكن السؤال البديهيّ جداً جداً: هل القصاص للقتيل، أو لمن سيؤول قتيلاً؟! وهل كُتبَ الغُسل للميّت أو فيمن سيؤول ميّتاً، إذن فلْنُغسّلْ جميع النّاس لأنّهم سيموتون يوماً!)

(أعصر خمرا) أي أعصر عنباً، فالخمر مجاز! (والخمر في لهجات عربيّة نزل القرآن بها هو العنب نفسه، فلا داعي للمجاز من أصل إلاّ بنكران وجود لهجات عربيّة فيه)

(ولا يلدوا إلاّ كافرا) أي سيؤول كافراً! (فكأنه نظر إلى انفصال الولد جنيناً أي الوضْع، القرآن لمْ يقل "يضعوا كافرا" بل يلدوا التي تعني بروز الجيل الآخر، بدليل أننا نسأل الكبير من الذي ولدك؟ وقال نوح مستغفراً "ولوالديّ").

(وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)(آل عمران: ١٠٢) مجاز، فالنهي عن الموت نفسه لا يصحّ لأنه خارج التكليف، لكنّه تجوز به عمّا يُقارنه منْ كفرٍ، فكأنه قال "ولا تكفروا عند موتكم"!

صار هو الشائع، وصار هناك مجازٌ أقرب ومجاز أبعد، وخرّجوا له قواعد أيضاً كقولهم (**وأمّا إذا تساوتِ الحقائق فإن اختلفت مجازاتها بالقرب والبعد منها حُمِل اللّفظ على المجاز الأقرب، وإن لم تختلف في القرب والبعد بقي التعارض بينهما متساوياً لتساوي حقائقها الى أن يظهر مرجّح**)!! وقدْ دبّ النزاع بينهم حول أصالة اللفظ وما وُضع له، وهذه النزاعات لن تُطوى، حتّى يحسموا أموراً كثيرة، منها مسألة معنى "كلام اللّه" القضية التاريخية التي لعبت عقيدة السياسة ومؤامراتها دوراً في افتعالها، وأزليّته أو حادثيّته – فمرّةً يضع الحاكمُ سيفه على من يقول بعدم خلْق كلام اللّه، ومرّة أخرى ينقلب الأمر مع تبدّل الحاكم السياسي وتبدّل الأهواء والمصالح – وحتّى يحسموا أموراً كأصل اللغة هل هو وحيٌ أم تواضع، وهل الألفاظ قصديّة أم اعتباطية، وكلّما أردنا أن نخرج من غمّ نعود فيه!

ب - العقائد والقواعد

وقد دخلت العقائد في تسيير ماكينة الخلاف بين الحقيقة والمجاز، فإنّ سابقَ فهْم (**يَدُ اللَّه فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**)(الفتح:١٠)، (**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**)(القصص:٨٨)، (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**)(القلم:٤٢)، (**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**)(ص:٧٥)، (**لَنْ تَرَانِي**)(الأعراف: ١٤٣)، (**إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**)(القيامة:٢٣)، (**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً**)(الفجر:٢٢)، (**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى**)(النساء:١٦٤) وغيرها من آيات اليد والحركة والحدوث على اللّه عزّ وجلّ، كانت تُحكَم في ذهن المفسّر أوّلاً، لينبثق على ضوء اعتقادِه قواعدُه، التي بها يُلوى كتاب اللّه بعدئذ، أي أنّ الأمر جرى معكوساً هكذا:

الاعتقاد --> القواعد --> قراءة القرآن

بينما كان ينبغي أنْ يكون الأمر من اليسار إلى اليمين، أيْ مقلوباً.

(ولا أدري، إنْ كان القارئ يُلاحظ الإخلال بالآيات بمثل هذا الكلام أم لا، الآية تعني: عشْ مسلماً لتضمن موتك مسلماً، ولمْ تقل "لا تكفر عند موتك"! فشتّان)

فكان "الكشف عن ساق" كناية عن هول الشدّة في عرف مدرسة المجاز، وكشفاً لساق الرحمن في فهم مدرسة الحقيقة! والقرآن يتفرّج لا يقرّ لا لهذا ولا لذاك. وصارت "**خلقتُ بيدي**": بقدرتي، و"**يد الله**": قوّة الله/معونة الله/نصر الله، وجرتْ العادة أن يُقدَّر محذوفٌ متغيّر من مفسّر لآخر ليُضيف كلمته في كلام الله، بين فراغات الآيات المتوهّمة وبين سطورها وكلّما زاد التقدير وتُفنّن فيه زاد الحذق في الصناعة؛ فـ "**إلى ربّها**": صارتْ إلى رحمة ربّها ناظرة، ولنا أنْ نقترح إلى جنّة ربّها/ إلى ثواب ربّها/ إلى عطاء ربّها ...الخ، و"**وَجَاءَ رَبُّكَ**": جاء أمر ربّك، ولعلّه: عذاب ربّك/نائب ربّك/مبعوث ربّك/حسابُ ربّك، وهكذا يُفكّك المفسّر حسب اعتقاده بناء الآيات ويهتك الحدود اللغوية للنصّ ليُضيف من لبناته ما يشاء ويُعيد نسجه حسب تقديره، فبدلاً منْ أنْ يُمارس "اكتشاف" المعنى الثاوي في النصّ وفق نظامه وحسب اللّسان العربيّ ومؤدّى ألفاظه، مارس "اختراع" معنىً ليس فيه، ليُخرج قرآناً نصفه كلام الله ونصفه كلام البشر، فيُنتج أنّ الله عزّ وجلّ الذي لمْ يُفرّط في الكتاب من شيء قدْ فرّط في نصفه، سبحانه، والكتاب المسطور أضحى الكتاب المشطور، فأمسينا كحال المقتسمين (**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**)(الحجر:٩١).

ج - الإنصات لكتاب الله واستلهام قواعده

إنّ المتتبّع لألفاظ القرآن، ليقرأ القرآن كما هو، ولتكون عقيدته من القرآن، لنْ يهمّه أنْ يثبت شيئاً مسبقاً إلاّ ما قاله القرآن، وما أيسر الحكْم في الآيات أعلاه لو أنّ المفسّرين الأجلاّء حكّموا الآية بدلاً من عقيدتهم في اللفظ، ليُدركوا أنّ استعمال اللفظ في سياقه هو الظهور وهو الحقيقة، ولو كانت العقيدة الكونيّة مأخوذة من القرآن لما أشكل معنى (**يد الله**) ولا (**وجه الله**) التي لا يمكن أن تتعارض - بل لا يمكن إلاّ أن تنسجم - مع المحكمات الأصوليّة فيه منْ مثل: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)(الشورى: ١١)، (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً..**)(الشورى: ٥١)، (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)(يّس: ٨٢)، (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**)(الاخلاص:١)، (**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**)(البقرة: ١٦٣) وغيرها.

فلو أنّهم فتّشوا عن المحكمات أوّلاً واعتمدوها خطوطاً حمراء، ثمّ لو أنّهم **أسقطوا** مدرسة الترادف وفرّقوا بين مدلول مفردات "**ربّ**" وبين "**الله**" كما هي متميّزة في الحقيقة العربيّة وفي القرآن، لو أنّهم أعملوا النظر في كلّ حرف ولفظة في تركيب الآية وسبب وجودهما وآمنوا بهندسة التعابير والفقرات القرآنيّة، لو أنّهم لأجل أيّ فكرة أو لفظ استقرأوا آيات القرآن جميعها ذات الصلة، لما أشكلت تلك الآيات وتاهوا في حقيقة أو مجازات المجيء والرؤية والنظر واليد والساق وغيرها الكثير، ولما أعملوا الحذف والإضافات والبدليّة والتقديرات، ولو التفتوا إلى بناء المجهول في "**يُكشف عن ساق**" لما توهّموا "الساق"[1] وساقوها عنوةً في الاستدلال وحشروها مع آيات العقيدة بالألوهة بالتنزيه أو التجسيم أو الكناية أو غير ذلك.

---

[1] – النظرة التجزيئيّة، وقواعد الحقيقة والمجاز، قادت إلى مثل هذا، فلمْ يتمّ الربط بين هذه الآية وآية (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ)(القيامة:٢٩)، لينفتح الأفق على المعنى. والاجتزاء هذا يضحى ظاهرةً، حين يتمّ التعاطي خصوصاً مع الآيات ذات الإشكالات الفكرية العقديّة، أو تلك التي يُراد استنطاقها قيْصريّاً لتواطئ الاكتشافات الحديثة! وباختصار؛ إنّ "السوْق" معناه الإرسال والتتابع والحدْو وهو عكس القيادة، فالسوْق من خلف، والإنسان في الدنيا قابعٌ ومتخلّف فيها إلاّ أنّه يسوق ويُرسلُ على التتابع (يبثّ) في كلّ لحظة نُسخةً من أعماله، من شخصيّته للعالَم الآخر، فإذا حان أجلُه وانتقل إلى العالَم الآخر فكما قال تعالى (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً)، هو نفسه (كتاباً يلقاه منشورا) يلتفّ عليه من جهة البركة والقوّة (اليمين) أو من جهة الضعف والخسر (الشمال)، فتلتفّ ساقه الأخرويّة بساقه الدنيوية، صورته التي بعثها بصورته التي هي هو، وهذا عند الممات مباشرة، تماماً كنسخة الـ RNA من الـ DNA في الخليّة، ساقان متشابهان، لذلك يقول سبحانه (إنّا كنّا نستنسخ ما كُنتم تعملون)، وقد أشارتْ بعضُ المرويّات إلى هذا فقالت "ساقُ الدنيا تلتفّ بساق الآخرة"، وهذا عيْنُ الحقيقة، لأنّ سبحانه حين قال (وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بالسَّاق) عقّب مباشرة: (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) فالسّاق الأخرى التي تشكّلت، أو شكّلناها في العالَم الآخَر، هي التي تسوقنا هناك. فـ (يوم يُكشف عن ساق ويُدعون إلى السجود فلا يستطيعون)، لأنّه بمجرّد رحيلنا من هذا العالَم الصاخب، يُكشَف لنا ما عملناه، أيْ "الساق" السائق في الحياة الأخرى، النسخة الثانية المتجسّدة منّا، الزّوج الثاني (وجاءتْ كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد)، فيوم يُكشف عن هذه النسخة/الساق التي تسوقنا/السائق، والتي لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها، تكون هي التي تسوقنا إلى الجنّة أو النّار، فإنْ لمْ نكنْ من الساجدين (أي الطائعين الخاضعين) للّه وقوانينه العادلة في الدنيا، فمحالٌ أنْ نستطيع السجود له في الآخرة، فالذي لمْ يتدرّب على السباحة لنْ يستطيعها، ذلك لأنّ "ساقنا" الثاني –الذي بعثناه

إنّ كلمة "**ربّ**"، "**شجرة**"، "**ساق**"، وغيرها هي من الألفاظ العربيّة لها مدى، أيّ متعدّدة التعيّنات، تنزع إلى تعدّد الوجوه في المعنى بحكم مداها الحمّال الذي يسمح به اللّسان العربيّ في المفردات، فلفظ "شجرة" من التشجّر والتفرّع والتشابك، ليست للشجرة النباتية حقيقة ولشجرة النار أو شجرة العائلة مجازاً، فالمفردة ما دام لها مدىً، فهي من جهةٍ أخرى بحكّم ارتصافها في قبضة نسيجها النظامي ضمن عبارة (البناء والسياق) فهي لا محالة تتيحُ كشْفَ قصْدِ المُلْقي سبحانه عن أيّ شجرة يعني (نباتيّة، ناريّة، بشريّة ..). هذا المدى للفظة الواحدة المعطية عدّة معانٍ، خاصّية اعتمدها القرآن في تكثيرِ وجوهٍ لكنْ مؤطّرة، وجوهٍ أو معانٍ تكون مناسبة لتغيّر الواقع كما هو الحال في الآيات المفتوحة التي تُرك فيها مساحةٌ لتفكير الإنسان وتدبيره فيجتهد فيها حسب تطوّر اجتماعه لتكون صالحة في توجيه القرار الإنسانيّ في كلّ زمنٍ آتٍ كالإدارة والاجتماع والشريعة والقانون (نُسمّيها آيات القضاء الإنساني).

نحن وبثثناه طوال الدنيا- متيبّسٌ ومبرمَجٌ ومختومٌ على عدم السجود، وليس السجود في قاموسه (مع العلم أنّ باب الجنّة المدعوّ "باب ملك" لدى السومريّين أيّ الواطئ والمنخفض، منخفض لا يُجتاز إلاّ سجوداً (ادْخلوا الباب سُجّدا))، لذلك يقول سبحانه بعدها (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ)(ق:٢٣)، فالساق السائق هو الزوج، القرين العتيد الذي نُحشر معه إمّا في أصحاب اليمين أو مع أصحاب الشمال.

فإذا قُلنا أنّ قوله سبحانه (وإذا النّفوس زُوّجت) هو اقترانها بنسختها الثانية التي هي نفسُها الشيطانيّة أو الروحانيّة التي كوّنتها لحظةً بلحظة، هي الساق الثانية التي ستقترن معه وتلتفّ به، فإنّنا في هذه الحال إنّما نقوم في الدنيا في الحقيقة بكتابة كتابنا وبثّه فقط، كلّ يوم نكتب وكلّ لحظة، أمّا في الآخرة، فليس لنا إلاّ استلام تلك النُسخة وقراءتها والانصياع وراء ما نقرأ (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)، والنفس ها هنا هي النفس التي كتبناها، وبثثناها، ونسخناها، الكتاب الناطق، الساق الثانية التي ستلتفّ بنا، فهي الحسيب الكافي.

وهناك رواية مروية عن ابن مسعود عن النبيّ (ص) تُؤكّد تمثّل الأعمال والمعبودات ثمّ (يُكشف عند ذلك عن ساق فيخرّ كلّ من كان يسجدُ طائعًا ساجدًا، ويبقى قومٌ ظهورهم كصياصيّ البقر يريدون السجود فلا يستطيعون)، وأخرى عن أهل بيته (ع) ("يوم يكشف عن ساق ويُدعون إلى السجود" قال: حجابٌ من نور يُكشف فيقع المؤمنون سجّدا و تُدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود) فكلاهما يُشيران إلى هذا المعنى.

أمّا إذا كان قصدُ المُلقي سبحانه صارماً محدّدَ المعنى كما في الآيات المتشابهة المحتاجة تأويلاً واحداً فقط، والثباتَ على معنىً واحدٍ للّفظ دون بقيّة المعاني، كآيات الخلق ومعصية آدم وقصص التاريخ كلّها[1] وحقائقَ العلوم وما شابه (آيات القدَر والقضاء الإلهيّ الماضيّ)، كما في مثال "شجرة" المعصية التي ذاقها آدم وأكل منها، لابدّ أنْ تكون شجرة نبات أو شجرة نار أو شجرة عائلة ونسب أو غير ذلك، لابدّ أنْ تكون الحادثة واحدة بشجرة مخصوصة، وإن كان لا يمنع أن تُومئَ الآية باختيارها هذا اللفظ بالخصوص إلى أغراض أخرى.

أمّا دون هذيْن الاحتماليْن، أيْ إنْ كان النصّ مُراوغاً مفتوحاً على مصراعيه على الدّوام، فضفاضاً ومهلهلاً، واللفظ يحتمل كلّ شيءٍ لأنّه مجاز، فلا حاجة لوجوده أساساً، ولا يُمكن أنْ يُصبح قنطرةً للإرشاد ودلالةً على الإفهام أو التواصل، لا سيّما في قضايا علميّة أو حوادث تاريخيّة.

د - انعكاس المنهج على فهم مفردات قصّة آدم

في تناولنا الآتي لقصّة آدم وجنّته، سنعرّج على مفردات "**شجرة**" "**لباس**" "**ذاق**" "**سوءة**" "**قرب**"، فالزعم بأنّ الحقيقة فيها هو ما يتبادر يجعل معظم استخدامات القرآن مجازاً، في حين أنّ هذا (التقعيد والتأصيل) قائمٌ على افتراضات وهميّة موغلة في القدم، غيبيّة، ظنّية، بأنّ الواضع الأوّل عيّن لفظ "**شجرة**" للهيكل النباتي كحقيقة،

---

[1] - خُذ مثلاً آية (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْه يَرْجِعُونَ)(الأنبياء:٥٨)، هذه آية تصف حقيقة تاريخيّة مضتْ، أيْ قضاء إنساني مضى، فهي لا يُمكن أنْ تكون –من حيث كونها تاريخاً– إلاّ بمعنى واحد، فهل إبراهيم (ع) دكّ الأصنام فجعلها تراباً، أم كسّرها، أم فقط جذّ أطرافها وترك المِعْوَل على عاتق الصنم الأكبَر؟ لابدّ أنّه فعلَ أمراً واحداً فقط، هذا كواقعة تاريخيّة. أمّا الآية كتدبّر إنساني فاستفاداتها مفتوحة، عرفانياً وسلوكياً، فلا مانع يمنع من فهم "أنّ إبراهيم (ع) فتّ تلك الأصنام في قلبه وأبقى الكبير الذي هو الله سبحانه، أو أنّه أزاح تلك الأصنام أمام أعينهم ليُدركوا أنّ ثمّة كبيراً لا يُمكن للإنسان إزالته، لكنْ بشرط تثبيت الحدث التاريخيّ الذي هو واحد، لا محتمل، ولا فضفاض، وليس "قيل وقيل"، ذلك الحدَث الذي جاءتْ الآية بسبك ألفاظها لتصفه.

و"**اللباس**" للرداء والثوب، و"**الذوق**" لحاسة اللسان، و"**السوءة**" للعورة الجسمية، فمن الذي نبّأهم بهذا؟

أليس في كلام الله واستعماله حجّة بأنّ حجّتهم ساقطة؟

أليس في المعاجم اللغوية نقضٌ وفي استخدامات البلغاء بيان؟

أليس السياق القرآني هو الذي يحدّد ويحكم إذْ "**القرآن يُفسّر بعضه بعضاً**" والسياق أحدُ هذا البعض؟

مَنْ الذي حكم بأنّ المحسوس هو الأصل وهو الحقيقة، وأنّ عالم المعنى والمعقول هو المجاز؟

لقد عقّبوا على قوله تعالى (**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**)(النحل:١١٢)، "أنّها استعارة لأنّ حقيقة الذّوق هي في المشارب والمطاعم"! فمَن افترض أنّ "**ذاق**" لا تكون إلاّ لأثر اللّعق والرّشف؟ مع أنّ "**ذاق**" عربيا وحسب استقراء ٦٣ استعمالاً قرآنيّاً لها، هي "**الإحساس الحقيقي البدَئيّ**" بالشيء حسب نوعية المحسوس وآلة الذّوق، ولك أنْ تنظر في كتاب الله في كلّ آيات الذوق الثلاث والستّين لترى ذوْقَ (**البأس، لباس الجوع والخوف، الرحمة، الخزي، وبال الأمر، السوء، العذاب، الموت، برداً ولا شرابا، حميم وغسّاق، ما كنزتم/ما كنتم تعملون/ما كنتم تكسبون، فتنتكم، مسّ سقر، ضعف الحياة والممات، نعماء**) فهناك ٦٢ آية تتكرّر على ذوق تلك المعاني الحسّية، تتحدّث عن ذوق شيءٍ ما بذائقة ما، وكلّها .. كُلّها عدا نصف آية جعلتْ للّسان نصيباً، وهي (**لا يذوقون فيها برْداً ولا شرابًا**)، فالشراب هو الوحيد المُحتمل الملائم للذائقة اللّسانية فقط، أي أنّ نسبة هذه الحقيقة كما زعموا هو أقلّ من واحد بالمائة، وعدا الآية التي ألحقوها بهذا الواحد بالمائة بدلاً من أنْ يلحقوها بأصلها من الحقيقة السياقية واللغوية، لا الحقيقة المتوهّمة المخترعة، والآية هي (**فلمّا ذاقا الشجرة**)!

(فلمّا ذاقا الشجرة): لا ندري كيف تُذاق الشجرة؟ لو كانت ثمرةً فلا بأس بعضّها أو لحْسها أو مضْغها، أمّا كونها "**شجرة**" فهل تُذاق بلحس جذعها أم بقضمِ ونهش أجزاءٍ منها؟ لذلك كان لابدّ لهم مرّةً أخرى مِنْ شحذ مواضيّ تلك القواعد على

أغصان هذه الآية بالتكسير، ليقولوا أنّ التقدير هو "**فلمّا ذاقا** -منْ- **الشجرة**" وكأنّ اللّه ضلّ عن هذه الـ "مِنْ" ونسي ليُصوّبوا كلامه، و(**لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى**)(طه:٥٢).

الأمر نفسه ينطبق على "**الشجرة**"، فليس من حقيقة ومجاز، فـ(**كلّ ما كان له أصلٌ واحدٌ وجاءه شيءٌ يفرّقه فتفرّقَ فهو "شجر"**)[1]، "الشجر" هو كينونة متداخلة بعضها في بعض يخرج بعضٌ من بعض، منه سمّيت الشجرة النباتيّة شجرة، ومنه التشاجر، ومنه تتشجّر الأنهار، والنيران، والعوائل، والسلالات، أيْ ليست النبات هي الحقيقة والباقي مجازٌ، وقد أخبر سبحانه عن التشاجر فقال (**حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**)(النساء:٦٥) وعن النيران (**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا**) (الواقعة:٧١،٧٢) وعن العائلة وأصل السلالة (**والشجرة الملعونة في القرآن**)(الإسراء:٦٠)[2]، وليس معقولاً أنْ تُلعَنَ شجرةٌ نباتيّة، بل وضّح سبحانه عقيبها مباشرةً في آية الإسراء-٦١ أنّ هذه الشجرة بدأ بها إبليس وهي مكوّنة من ذرّية آدم المحتنكين منْ الشيطان المُشوّهة صبغةُ اللّه فيهم، كما ينبغي أيضاً وضرورةً أنْ تكون شجرةً مذكورةً "**في القرآن**" باللّعن لصراحة الآية بذلك، ما يعني أنّ كلّ لعنٍ جاء "**في القرآن**" منصبٌّ على هذه الشجرة، إذْ العبارة ليست "الشجرة التي لُعنت في القرآن" لتُلعن مرّةً أو مرّتيْن، بل هي "**الشجرة الملعونة في القرآن**" أيْ ليس ثمّة ملعونٌ في القرآن إلاّ هو خليّةٌ من خلايا هذه الشجرة أو عضوٌ من أعضائها، وهناك أربعون آية لعن في القرآن تبدأ بإبليس أو تحوي الكاذبين والكافرين والمستكبرين والمكذّبين والطاغوتيّين والظالمين والمنافقين والمنتحلين والمفترين، وفي الجملة كلّ أعداء اللّه وأنبيائه والمصلحين.

[1] – محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج١٢، مادّة "شجر".

[2] – وقد قال سيّد البلاغة عليّ بن أبي طالب (ع) في مدح نبيّ العالمين (ص): (أُسْرته خيْرُ الأُسَر، وشجرتُه خيرُ الشجر، أغصانُها معتدلة، وأثمارُها متهدّلة، مولدُه بمكّة، وهجرته بطيبة) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٢، ص٦١. وقال (ع) أيضاً للمغيرة بن الأخنس: (يا بن اللّعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفيني؟!) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٢، ص١٩.

فإن قُلتُ (شجرة آل فلان ضاربةٌ في القدم) فمن أدراه أنّ المقصود هو تلك النباتة التي في دار آل فلان، دون شجرة عائلتهم؟ أهي القاعدة التي وضعوها بوجوب الانصراف إلى المسمّى بالحقيقة التي هي حسب الزعم شجرة النبات، أم أنّ المدار قصد المتكلّم؟ وهل تشفع أصالة الحقيقة اللفظية المزعومة إنْ كُنتُ كمتكلّم قد عنيّتُ العائلة؟!

ليس في القرآن أمرٌ متساوٍ متكافئ الاحتمال إلى الحدّ الذي تُصوِّر، ليضطرّنا إلى نسج هذه القاعدة ثُمّ تطبيقها في القضايا العلميّة والتاريخيّة، والقضايا المعرفيّة القرآنيّة ليس تكليفاً لتبرأ الذمّة بتغليب الظنّ وإجراء قاعدة الخلاص بأنّ هناك حقيقة لفظيّة والأصالة والتقديم لهذه الحقيقة، بل لابدّ أنّ التركيب والسياق يكشفان تلك المعرفة والحقيقة، وإلاّ فالقرآن ليس فيه تبيان كلّ شيء، ولا هو بيانٌ للناس، فينبغي التخلّي عمّا اصطنعناه من قواعد غير محكمة، لنعيد اكتشاف كلام ربّنا وفهمه أو أنْ نحيل علم ذلك إلى الرّاسخين في العلم القرآني والكونيّ.

فزبدة تطبيق قاعدتهم على آية (**ذاقا الشجرة**): "ذاق" فعْل يُستخدم حقيقةً للذائقة اللسانية! "الشجرة" لفظة تُستعمل حقيقةً للزرعة النباتيّة! فالنتيجة: بتقديم أصالة الحقيقة على المجاز، استنتجوا أنّ آدم وحوّاء تذوّقا بلسانهما زرعة نباتٍ، هي حنطة أم كرمة أم تفّاح، اللّهُ أعلَم!!

عموماً، كثيرةٌ هي القواعد التي أخرست ألفاظ القرآن أو أزالت إحكامه وعوّمت حقائقه بين اشتباهات، وليس إكثار قواعد الحقيقة والمجاز، ثمّ الحذف والتقدير والإبدال إلاّ أحدها أيضاً.

مثال: (**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**) (الإنسان:١)، يقولون وما أكثر ما يقولون: "**هل**" هنا هي بمعنى "قد". والحال أنّه ما من عربيّ يستعمل أو يفهم "هل" بمعنى "قد"، واللّه سبحانه قد استعمل الحرف "قد" في مئات المواضع، فما كان أيسر استخدامه هنا! إنّ مجرّد الظنّ بالإبدال يُلغي فكرة إحكام القرآن، ويجعل كلام الناس فوق كلام اللّه، ويجعل القرآن محكوماً لا حاكماً، ويجعل فكرة الإتيان بمثله بل بأحسن منه أمراً مستساغاً وارداً جدّاً، ويجعل القرآن

احتمالياً ومبهماً بل وتعميةً لا بياناً، ويصيّرنا -بعدَ أنْ كنّا سلَماً للقرآن فقط- رهناءَ في أمسّ الحاجة لطبقة من المفسّرين المتنازعين المتشاكسين يعلّمونا أيُّ "هلْ" في القرآن هي بمعنى "قدْ" وأيّها بمعنى شيءٍ آخر، وبالنهاية تحويل آيات القرآن إلى لغزٍ لا يُدرك حلّه أحدُ المتدبّرين بل نهباً للآراء، وفي الأخير يُفضي بعدم قابليته للاستخدام بالمرّة لأنّنا سنسير إذّاك على أرض ملغومة لا ندري أيُّ "هلْ" قد تنفجر في وجهنا بـ "قدْ"، لينقلب السؤال المُصدّر بـ(هل) إلى إثبات وتحقيق استهلّ بـ(قد). ربّما عُذرُ بعض المفسّرين أنّه ركن إلى رواية في هذا الشأن، لكنّه بدلاً من التفكّر في الحقيقة وفي السرّ وفي مغزى الرواية، مسح حرفين من كتاب اللّه وأخلّ بنظامه الصارم المحكم بجرّة قلم[1].

هـ - الضمائر في القرآن، خصيصة منهجيّة

استفحلت القداسة الدخيلة والعقيدة المنحولة الزاحفة من خارج "كتاب اللّه إلى نبيّه (ص) وإلينا"، بشكلٍ طمّت فيه على حقائق اللغة العربيّة، ومن أبدهها التمييز بين الضمائر: متكلِّم، مُخاطَب، غائب، مفرد، مثنّى، جمع. الأمر الذي أورث التعامل مع كتاب اللّه من دون الخضوع لنظامه الدقيق، مما أوقع التفاسير وما زال يُوقعنا في تيّه خلط الضمائر فانقلاب النتائج، فالتفاسير لم تأبه بتنوّع الضمائر، وعوّل أصحابُها في "اجتيازها" على عقائدهم السابقة أو على ما تجود به "الإسرائيليّات" وتوابعها المتفرّخة في التفاسير، فتشوّهت حقائق العقائد عن اللّه ووحيه وكلامه وملائكته وعن آدم والشيطان والجنّة، الأمور التي تكلّموا فيها طويلاً بعيداً عن الاحتكام والانطباق القرآني، بل صار كتاب اللّه ليس إلاّ إمضاءً لما تحكيه الادّعاءات والقصص والخرافات والذوق والميول والاجتهادات، فتجاهلوا تماماً كون الدقّة الحرفيّة (كالضمائر) جزءاً أصيلاً من المعادلة القرآنية، والحقّ أنّ الضمائر (فيه)

---

[1] - محاولتنا كشف بعض سرّ هذه الآية، وهذه الـ "هل" يحتاج إلى تأمّلٍ دقيق وتدبّر خاصّ بالآية، هو خارج موضوعنا، راجعه في بحث "الخلق الأوّل- كما بدأكم تعودون، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

وحدها تشكّل معرفةً وأسراراً بذاتها. فقوله تعالى (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**)(النساء:٦٤)، المتكلّم المباشر هم ملائكة الوحي، وليس اللّه تعالى المشار إليه في الآية بضمير الغائب، وكلام ملائكة الوحي هو كلام اللّه، وهم الذين يُرسلون الرسل البشريّين ويتعهّدونهم بإذن اللّه، في حين أنّ التفاسير تقول أنّ ضمير المتكلّم الجمع (**أرسلنا**) هو اللّه تعالى، يُفخّم نفسه، ثمّ يتكلّم عن نفسه بقوله (**بإذن الله**) بدلاً من (بإذني أو بإذننا)، يُعبِّر عن نفسِه بضمير الغائب تنزيهاً وتفخيماً أيضاً! فأنتج أنّ:

ضمير المتكلّم = ضمير الغائب

الجمع = المفرد

الجمع المتكلِّم = المفرد الغائب

فأيُّ لسانٍ عربيٍّ مبين يفعل هذا؟![1]

والعجيب أنّ بعضَ المفسِّرين يعي هذا الإشكال ثمّ يتفنَّن في تخريج التفخيمات هذه! ولو ترجمت الآية الشريفة حرفيّاً إلى لغة أخرى لربّما بزغ للقارئ شمسُ الإشكال جليّاً من خلف غيوم العادة والاعتقاد المتلبِّدة على أذهاننا:

We sent not an apostle, but to be obeyed, in accordance with the will of Allah

وكلّ آيات القرآن هكذا!

ثانياً- القصص القرآنيّ، وتمهيد المعالجة

سنضرب في السطور التالية مثالاً واحداً، ناسين فيه كلّ ما عرفناه وألِفْناه، ومتجرّدين من كلّ ما نختزنه، لنقرأ النصّ القرآني كما هو، لا كما حُدّد لنا أو كما نتوهّم سلفاً، مفرّقين - كما كان ينبغي أصلاً - بين "قلنا" "قالوا" "قال"، كما هي متميّزة في الحقيقة في اللغة والاستعمال، وبين كلّ ضمائر الجمع والتثنية والإفراد كما

[1] - للمزيد راجع: مفاتح القرآن والعقل، جمعية التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

في "اهبطوا" "اهبطا"، ونموذجنا فقرةٌ واحدة فقط مقتطعة من كتاب الله، تختزل قصّة البداية حيث الملائكة وآدم وحوّاء والجنّة وإبليس والمعصية الأولى.

آيات سورة البقرة وتحليل عناصر القصّة:

يقول تعالى في سورة البقرة من الآيات ٣٠-٣٨:

١- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠).

٢- وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١).

٣- قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢).

٤- قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣).

٥- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (٣٤).

٦- وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ (٣٥).

٧- فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦).

٨- فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧).

٩- قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨).

المفـروض أنّنـا لا نعلـم شـيئاً كـي نـتعلّم، ولا علينـا مـن التخريجـات والتفسـيرات المُملاة، فلنسجّل ملاحظاتنا كما ينطق بها القرآن فقط:

أ- الاختصام الأوّل والعداوة الأولى

١- في الآية ٣٠، (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**) ثمّة شخصٌ متكلّم مع النبيّ (ص) ينقل له الحدث قرآنيّاً، والمفترض أنّه جبريل (ع) أمين الوحي، هو الذي يقول لمحمّد (ص) (**وإذْ قال ربّك** ..) ولمْ يقلْ له (وإذ قال الربّ، أو ربُّنا، أو اللّه) بل (**ربُّك**) ليُعلّمه كيف بدأتْ قصّة خلافة الإنسان وعلاقة الملائكة به، الخلافة التي خُتمت فصولُها، التي أخيراً آلتْ إليه (ص) من ربّه الآن وهو يُوحى إليه بحمْل الأمانة الكبرى.

٢- في الآية ٣٠ أيضاً، تصريح بأنّ هذا المخلوق (آدم) قبل جعْله خليفةً هو موجودٌ في الأرض ككائن حيّ يُفسد فيها ويسفك الدماء (كلاهما بالصيغة المضارعة)، لا أنّه سوف يُفسد ويسفك مستقبلاً، ولا أنّه أفسد وسفك في الماضي وانقضى، كما تدّعي المرويّات المنسوبة، بل هو جنسٌ وحشيٌّ حاضر حينها وموجود، لا يعرف الحمدَ ولا التقديسَ ولا يعي من العالَم العلويّ شيئاً لا اللّه ولا مَنْ دونه، إنّما الملائكة (الموجودون أيضاً في الأرض يُدبِّرونها) هم الذين يسبّحون ويحمدون ويُقدّسون[1].

٣- في الآية ٣١، (**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائكَة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**) يستمرّ الحوار بين ربّ محمّد (ص) والملائكة لخلافة الربّ في الأرض حسب الآية السابقة، حيث آدم المجعول خليفة

---

(١) - لو قالت الملائكة (ونحن بحمدك نُسبِّح) لكان مفهومها أنّ البشر على خلاف الملائكة بحمد غير اللّه يُسبّحون، أمّا وقد قالوا (ونحن نُسبِّح بحمدك)، فأشاروا أنّ البشر لا يدرون بالحمد.

للربّ هو في الأرض لأنّه خُلق في الأرض بتعديلٍ جيني وإعادة تخليق أحد البشر السابقين الذين كان بدؤهم من الطين، ثُمّ نفَخ "الروح" فيه، وحيث هذا الربّ (وجه الله) هو مَنْ علّم آدم الأسماء، (بعد أنْ نفخ فيه الرّوح، وذلك بعد أنْ عدّلت الملائكة الصافّات جيناته وتحفّزتْ إمكانيّات العقل)[1]، ولو سألنا: كيف علمتْ الملائكة أنّ الخليفة سيكون أحد البشر؟ لقُلنا أنّ الآية بسياقها تقول أنّ هناك مُستمع (هو محمّد)، ومتكلَّم (هو جبريل) لمْ يجعل نفسَه أحد الملائكة، بل هو أحد المدبِّرين (الصافّين) الذين شاركوا في عمليّة تخليق آدم، هؤلاء المدبّرون هم الذين سيأمرون في الآية التي تلي هذه فصيل الملائكة بالسجود لآدم (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**)، فهناك في الأرض ملائكة تعمل في تدبير الطبيعة وطائعة تعلم عن الجنس البشري فيما تعلمه أنّه مفسد ويسفك دماء بعضه وغيره، وهناك روحانيّون مدبّرون (قيادة عليا) مقرّهم الجنّة الأرضيّة (المحلّة الآمنة/البيت المعمور/العرش) وأحدهم جبريل، ولا علْم لتلك الملائكة الخادمة بما فعله أربابُهم (سادتهم) في الجنّة من تحويل كائن بشريّ إلى كائن إنسانيّ روحانيّ رفيع عالِم شريف، فحين نُودوا إلى المقرّ (الجنّة) تفاجأوا بأمر جعل الخليفة لهذا الكائن الذي يعرفونه بالشكل أنّه من تلك الكائنات البهيميّة. فعبارة (**إنّي جاعل في الأرض خليفة**) قالها الربّ/السيّد الروحانيّ الذي هبط في الجنّة الأرضيّة وآدم موجود، فلذلك قالتْ (**أتجعلُ فيها مَنْ يُفسد**) ولمْ تقل (ما يُفسد) فإنّ "**مَنْ**" هي التي دلَّت على وجود كائن عاقل هناك يتمّ النزاع حوله، وصار له بنفخ الرّوح مسمّى "آدم" (أي المثيل للربّ)، والملائكة التي سيتمّ إسجادها له بعدئذٍ لا تعلم بالكائن الجديد الذي تظنّه كالقديم ولا مستواه، إلاّ بعد امتحانها في الأسماء مع آدم.

٤- في الآية ٣٠، الآنفة، وردتْ كلمة "**خليفة**"، ومعناها الذي يخلف أحداً في الإدارة والتدبير، أيْ يتولّى مهامه، لا أنّه فقط يأتي بعده، لأنّ البعض قالوا أنّ آدم

---

[1] - راجع في بقيّة التفاصيل، بحث "الخلق الأوّل- كما بدأكم تعودون" السابق على هذا البحث، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

خليفة للجنّ الذين أفسدوا قبله، فهذا غير صحيح من جهة اللّفظ فليس معاوية خليفة عليّ (ع)، فقط لأنّه أتى بعده! وليس الإسلام خليفة الجاهليّة، وليس غاندي خليفة الإستعمار لأنّه أعقبه في البلاد، بل مَنْ يُمثّله ويُشكّل امتداداً له، هذا ما قصده المسلمون بتسمية "الخلفاء" الراشدين حين خلفوا النبيّ (ص)، وما قصدته الزيارات "**السلام عليك يا خليفة الله في أرضه**"، أيْ يقوم بتمثيل اللّه وإنفاذ أمره. فلفظ "خليفة" واضحٌ بنفسه، فهمتْهُ الملائكة بوضوح تامّ، هو خليفة الربّ في الأرض، سيّدها، ربّها الأصغر، والمسئول عن مخلوقاتها بالحكمة والصلاح، هذا ما طلبته الملائكة لنفسها، سيّدٌ روحانيٌّ معصومٌ لهذا العالَم الأرضيّ، لا يفسد ولا يسفك، مُدبِّر للأدنى منه، ومتّصل بعالَم التحميد والتقديس العُلويّ.

٥- في الآيات ٣٠-٣٣، (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ❖ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ❖ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ❖ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**) هذا الربّ الرّوحانيّ -في الأرض، الجنّة الأرضيّة- يتحاور مع الملائكة ويقترحون عليه، وهو الذي علّم آدم الأسماء وعلّم الملائكة قبْله كلَّ ما يعلمون، ثمّ يقول لهم (**ألم أقلْ لكم أنّي أعلم غيْب ..**) يعني أنّه سبق وقال لهم ذلك فلمْ ينفع إلاّ ببرهان التجربة، إذن كانوا مشكّكين أنّه يعلم غيب السماوات والأرض ويعلم ما يُبدون وما كانوا يكتمون، فهل هذا الربّ الرّوحانيّ نفسُه اللّه عزّ وجلّ؟! وهل أنّ الملائكة لا تعرف أنّ اللّه عزّ وجلّ العليّ المتعال يعلم كلّ شيء في الأكوان لأنّها مجرّد كلمة منه، وهذا أبْده العلم والإيمان باللّه تعالى؟! بل سمّى القرآن في موضعٍ آخر مشْهداً ما أعقب هذا الحدث "اختصاماً بين الملأ الأعلى" هذا، على لسان محمّد (ص) في سورة صاد :٦٩-٧٤: (**مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَ رَبُّكَ**

لِلْمَلائكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ ..)[1].

بل لو استرسلنا في الأدلّة: هل الله العليّ يليق به أنْ يقول (**إنّي أعلم ما لا تعلمون**)، إنّ الذي يليق هو كما قال تعالى خمس مرّات في كتابه: (**اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**)، فالجميع لا شيء مع الله تعالى، صفرٌ في الحقيقة مع الله، ولا يعلمون شيئاً بحضرته، لا أنّهم يعلمُون شيئاً واللّهُ يعلمُ الباقي الذي لا يعلمه مخلوقاته! فهذه الآية (**إنّي أعلمُ ما لا تعلمون**)، تُشبه مقالة المخلوقين كالأنبياء ومن أعلى منهم (**وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**) قالها نوحٌ (ع) لقومه مرّةً (الأعراف ٦٢) وقالها يعقوبٌ لبنيه مرّتين (يوسف ٨٦+٩٦).

وقد يُعضل على القارئ أنّ الملائكة واضحٌ في خطابها أنّها تُخاطب الله سبحانه وتُقدّسه وتحمده، فهو إشكالٌ صحيح، فالملائكة تُخاطب "الله سبحانه" فعْلاً متجاوزةً هذا الوسيط، وهذا ما ينبغي على كلّ العباد أنْ يفعلوه أنْ يتجاوزوا الوسائط لمخاطبة الله، والوسيط يُخاطبهم تمثيلاً عن أمر الله تعالى فهو كلسان الله لهم، كحال زكريّا والملائكة التي نادته وهو قائم في المحراب (**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيّاً* قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ..**)(مريم:٧-٩)، ملائكةُ الوحي يُخاطبونه باسم الله وبأمر الله عن الله تعالى كوسائط، لكنّه يُخاطب الله مباشرة بدون الالتفات للوسائط[2].

---

[1] – قال صاحب تفسير المنار: "إن هذه الآيات (وإذ قال ربّك للملائكة ..) هي من المتشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها، لأنها بحسب قانون التخاطب إمّا أنّها استشارةٌ من الله تعالى، وذلك محالٌ عليه تعالى. وإماّ إخبارٌ منه سبحانه للملائكة واعتراضٌ منهم وجدال، وذلك لا يليق بالله تعالى ولا بملائكته، والذي يليق صرف معنى القصة لشيء آخر"!! (وتعليقنا أنّ حلّ مفردة "ربّك" بمعنى السيّد المربّي والآمر الأعلى، وليس ذات الله العليّة، يُزيل الإشكال كلّه، ويحلّ أشباه هذه الحيّرات).

[2] – للمزيد راجع بحث: "هجرة إلى القرآن المهجور"، جمعية التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

٦- بإمكاننا افتراض أنّ هذا الربّ وجْهُ الله في الملائكة، أو لسانُه إليهم، أو روحٌ منه وممثّلُ أمره ومشيئته فيهم، تجلّي القدرة، يدٌ من أيدي القدرة، المهمّ أنّ هذا الرّوح العظيم هو الذي باشر (بأمر الله تعالى) جعْلَ فرد من المخلوقات السابقة "**خليفة**"، فخلق منه "آدمَ العالمَ" الذي علّم الأسماء كلّها (ثمّة آياتٌ أخرى قالت أنّ ذلك تمّ بالتسوية ثمّ بنفخ "هذا الربّ" من روحه في آدم، ما يعني أنّه "روح عظيم/الرّوح الأعظم"[1] لكنْ ليس "الروح الأمين" الذي هو جبريل).

٧- في الآية ٣٤ (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ**)، إبليس نراه غائباً قبل هذا المشهد، ولم يحضر إلاّ حين أُمرتْ تلك الملائكة بالسجود لآدم، وقلنا أنّ آدم الخليفة العالم هو في الأرض، لأنّه كان كائنا وحشياً لا واعياً سابقاً، كأرقى السباع الأذكياء من ضمن مَنْ يُفسد ويسفك.

٨- في الآية ٣٤ أيضاً، الآية تقول أنّ إبليس من الملائكة، وكلّهم سجدوا إلاّ هو (بغضّ النظر عن آية الكهف-٥٠ التي تقول أنّه "**كان من الجنّ**"، فلا يستبق المرء بالقفز إلى رأي سائد، فلعلّ الجنّ كما قالت بعضُ الروايات فصيلةٌ أو طوْرٌ مرحليّ من الملائكة، بل لعلّ العكس إنّ "الملائكة" ما هي إلاّ وظيفة ورتبة لا جنس وهي تعني الرسل المُوكَلين، وقد أورد صاحبُ محيط المحيط -إضافة لما أسلفناه- عن "جنّ": "قيل بين الملائكة والجنّ عموم وخصوص فكلّ ملائكة جنّ وليس كلّ جنّ ملائكة")، وإبليس كان (جنّ) مختفياً وغائباً ومستوراً في الأرض طوال المشاهد السابقة، نراه استُدعي للسجود الآن فقط، وفي هذا المشهد برز ليأبى السجود ومتحوّلاً بعده من "**إبليس**" المفرد (في الآية ٣٤) إلى "**الشيطان**" كوصف واسم جنس (في الآية ٣٦) التي ستأتي، فاعجبْ لدقّة القصص القرآنيّ وإحكامه.

٩- في الآية ٣٤، أين ذهب الربّ/المسئول الكبير (الرّوح العظيم)؟ لا ندري، فبمجرّد أنْ باشر نفْخ الرّوح في الآدميّ وتعليمه توارى عن المشهد، وصار أمر

---

[1] - المندائيّون سمّوا هذا المُرسَل الأثيريّ العظيم، وهو رأس الملائكة وعظيمهم "مار-د-ربيبوتا"، (أيْ ربّ الأرباب، أو سيّد الربوبيّة)، وبعضُ المرويّات الإسلاميّة سمّته الرّوح الأعظم.

المباشـرة والتـدبير أو القيـادة -إنْ صـحّ التعـبير- جماعيـاً، عنـد فئـة (الملائكـة الآمرين)، لم تفصح هذه الآيات عن عددهم[1]، لكنّ المتكلّم قرآنياً والناقل للحدَث

---

(1) - حينما قال سبحانه على لسان الوحي: (الْحَمْدُ للَّه فَاطر السَّمَاوَات وَالْأَرْض جَاعل الْمَلائكَة رُسُلاً أُولي أَجْنحَة مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزيدُ في الْخَلْق مَا يَشَاءُ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ)(فاطر:١)، فقد نبّهنا بعطفه "إرسال الملائكة" على "فطره السماوات والأرض"، أنّ ذاك إنّما هو الإرسال الأوّل لهذا الكوكب، ولكلّ الكواكب السماويّة المراد تأهيلها لتُشحن "بخلْق الله"، لاحظ ذيل الآية "يزيد في الخلق ما يشاء". ربّما يظنّ القارئ أنّ الأجنحة هي مثنى وثلاث ورباع، مع أنّنا لا يُمكننا تصوّر في مستوانا العقليّ ثلاث أجنحة على الأقل في أبعادنا المادّية. المفسّرون ظنّوا أنّ الآية تتعلّق بخلْق الملائكة، مع أنّ خلْقهم لمْ يُذكر بل "إرسالهم" في فسيح الكون المفطور هو المذكور، السماوات ككواكب والأرض ككوكب، وهم من طبيعتهم لهم "أجنحة" تليق بهم (إمكانيّات تحليق ميسّرة تميل بهم كونياً إلى حيث شاءوا، هذا هو الجناح، عدّة تحليق وهبوط)، فليس المقام مقام وصفهم وتشريح بيولوجيا أبدانهم فلو أراد القرآن ذلك لفصّل بوضوح، لكن ما الزبدة؟ هل القرآن كتاب سرد كما أهالوها في التوراة ؟ ففعْل "جعل" مفعوله الأوّل هو الملائكة (المضاف إليه)، ومفعوله الثاني "رسلاً"، فالأجنحة ليست مفعولاً ثانياً ليظنّوا أنّ الله جعلها هكذا وسيزيد في أجنحتها وإلاّ لقال (جاعل الملائكة ذوي أجنحة)، ليكون "ذوي أجنحة" مفعولاً ثانياً للجعْل، ونقول "ذوي" لا "أولي" لمن أراد التفريق بينهما، إذ "ذوي" تفيد إضافةً من الخارج أشبه بالمُلحق والموضوعي، و"أُولي" تفيد الطبيعيّ والذاتي، فراجعْها في مواضع القرآن، لتتأكّد! فإضافة "أولي أجنحة" كوصف للرسل تفيد أنّ الله جعَل الملائكة رسلاً روحانيّين سماويّين يجنحون في آفاق الكون، لا أنّه حوّلهم إلى رسل بشريّين أرضيّين وكسر/نزع أجنحتهم كما في بعض الخرافات، بل حسبما بيّن (اللَّهُ يَصْطَفي منَ الْمَلائكَة رُسُلاً وَمنَ النَّاس)(الحج:٧٥).

فالتصوّر بأنّ الكلام هو عن خلْق الملائكة ساق إلى الفهم أنّ الملائكة "ذوي" أجنحة اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر ربّما تصل إلى آلاف بدلالة "يزيد في الخلق"؛ هذا ما يقوله المفسّرون، ولا ندري لماذا الحشو في تفصيل مثنى، ثلاث، رباع، إذا كان الرقم مفتوحاً على ما لا نهاية بعبارة "يزيد في الخلق"، فبديهي أنّه إذا قال "أجنحة" فقط، ينفتح الاحتمال من اثنين إلى ما لا نهاية!

في حين أنّ مستهلّ السورة يتكلّم عن فطر الكواكب (السماوات) بما فيها كوكب الأرض، وتهيئتها لخلائق الله المتزايدة التي لا نعلمها، ومنها الإنسان، وسورة فاطر كلّها تحكي مسيرة هذه التهيئة الكوكبيّة، وإعداد الإنسان لحمل أمانة هذا الكوكب، والقائمون على هذه العملية كلّها منذ البداية حتّى النهاية، ما هم إلاّ الرسل الملائكيّون، الذين يضطلعون بهذه المهمّات بإناطة ربّانية، فيأتون في مجاميع مثنى، أو ثلاث، أو رباع. فقط. و"مثنى" "ثلاث" "رباع" لا تعني اثنين، ثلاثة، أربعة، بالضبط،

(جبريل) هو أحدهم، بل ولعلّه المتكلّم الرئيس فيهم، فيقول برفقة القوى التي معه بضمير المتكلّم الجمع (**وإذ قُلنا للملائكة**)، وهذه المجموعة هي سادة (أرباب) الملائكة ومن ضمنها إبليس، فجبريل ربّ إبليس أي آمرٌ عليه وسيّده، وهناك مع جبريل آخرون أربابُ/سادةُ الملائكة بمنْ فيهم إبليس وجنسه، يبدو أنّ كلّ واحد من السادة (المدبّرات أمراً) مختصّ بأمر، ولعلّ أمْر الخلْق هو من اختصاص ومهمّات الملَك الروحانيّ الأكبر (الأعظم) والباقي أياديه وأعوانه (ذاك الذي يقول لإبليس "**ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ**")[1]، عموماً الذي أمر الملائكة بالسجود هم مجموعة الآمرين (الأرباب) وجبريل أحدُهم.

١٠- في الآية ٣٥ (**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**)، هذه العمليّة تمّت

فقد يرسل سبحانه (موسى ومعه هارون) لكنّهما ليسا مثنى، بل اثنان، وقد يرسل (عيسى ومحمّد) وهما اثنان فحسب أيضاً، "فالمثنى" يفيد تساويهما في الفعل الذي وقع عليهما مثنىً (خضوعهما لنظام واحد)، كما أنّه يفيد التزامن بالفعل لا التعاقب مع استقلالهما الذاتيّ، لذلك قال تعالى للتفكّر (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)(سبأ:٤٦)، وقال لخضوع الزوجتين لعصمة واحدة وتساويهما في الزوجية تزامناً وعدم التبعيّة بينهما (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى..)(النساء:٣).

فعلى هذا، نظراً لأنّ ضمير المتكلّم (للمدبّرين الأمر) في الصياغة القرآنيّة يأتي دائماً جمعاً، فنستنتج أنّ "رسل الله-أرباب التدبير" الملائكيّين الذين حطّوا في كوكب الأرض ليسوا مثنى، بل هم إمّا ثلاث، أو رباع. الروايات والتراث الديني كلّه منذ القدم لدى السومريّين (آن، إنليل، أنكي، نينماخ)، ووادي النيل والإنجيل والمرويّ الإسلاميّ يتّفق في القول أنّهم أربعة، فهم وحدة رباعيّة إذن، وقد جاء الرمز لهذه الوحدة الرباعيّة مع إبراهيم (ع) إذ سأل ربّه عن كيفيّة إحياء الموتى للبعث الذي سيضطلع به هؤلاء الملائكة الأربعة أيضاً بدعوة تأتي من خارجهم، فأجابه ربّه ليتمثّل دور الربّ: (فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(البقرة: الآية٢٦٠) أربعة من الطير رمز للملائك الأربعة! والملائكة تبوّق للحساب في الإنجيل من الجهات الأربع، وتُفكّ الملائكة الأربعة للحساب أيضاً، والكعبة تحاذي الجهات الأربع، وبُنيت من جبال أربع.

[1] - وقد رأينا في صورة سابقة مرّت علينا، وفي بحث "الخلق الأوّل"، أنّ السومريّين قالوا بأنّ الربّ (إنليل) هو الخالق للإنسان عبر يديه (أعوانه) نينماخ وأنكي.

في الأرض، في بقعة هي "الجنّة"، وهذه "الأرباب المربّون" هي التي تأمر (بضمير الجمع المتكلّم) "**وقُلنا**"، تأمرُ بعدئذ آدمَ وزوجه (حواء) بالسكن في الجنّة، والأكل منها رغداً (**وقُلنا يا آدم**) (والجنّة هذه يُسمّيها سيّدُنا عليّ (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة: دار الرغد، المحلّة الآمنة، مقام الأبرار).

١١- في الآية ٣٦ (**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممَّا كَانَا فيه وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)، نرى ثلاثة أمور:

١- "إزلال" عن الجنّة (فأزلّهما) ..

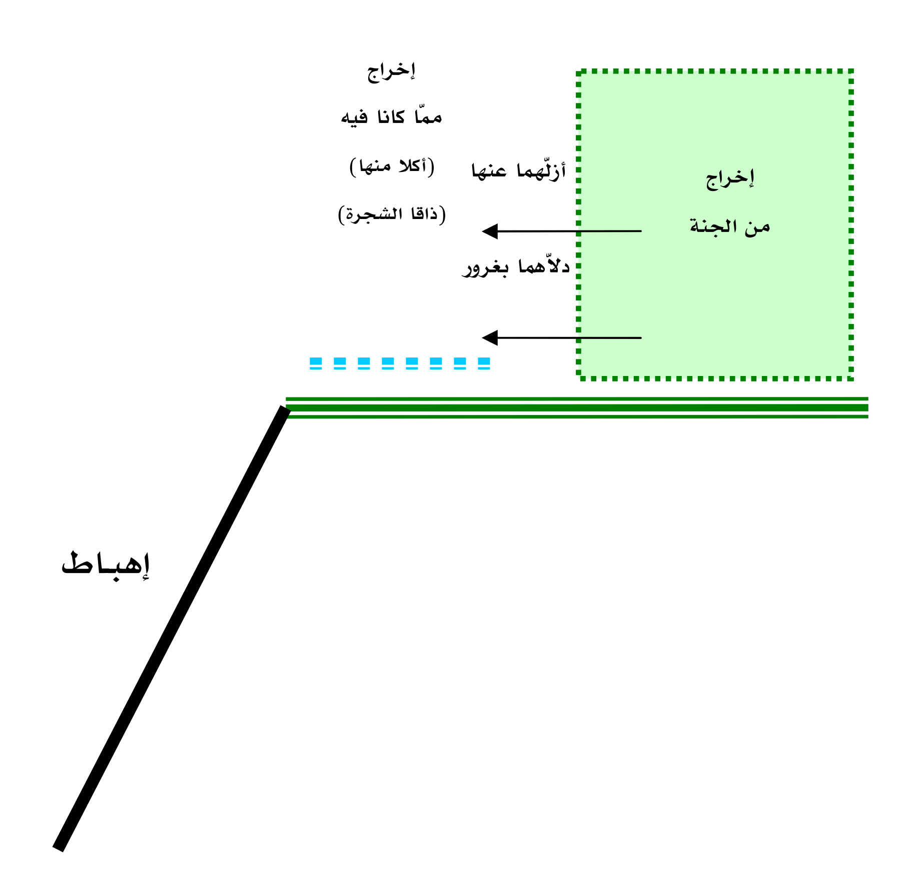
٢- أنتج "إخراجاً" مِن وضعٍ معيّن (فأخرجهما ممّا كانا فيه) ..

٣- أعقبه طردٌ و"إهباط" (وقُلنا اهبطوا)..

فإبليس أوّل المُخرجين قام وأزلّ آدم وحوّاء عن الجنّة أوّلاً "**نفاسةً عليه بدار المقام ومجاورة الأبرار**"، أيْ وسوس لهما الخروج من الجنّة إلى ما حولها. ثمّ أخرجهما هناك وهُم خارجها "**ممّا كانا فيه**"، وهذه ليس كما يفسّرونه أنّه أدّى بآدم وحوّاء إلى فقدان النعيم بالطرد، فهذا بعيدٌ أوانُه حسب السياق، بل يعني أنّ الشجرة المأمورَيْن بعدم الاقتراب منها هي هناك في محيط خارج الجنّة، هو ذلك المكان الذي أزلّهما الشيطان بالخروجِ من الجنّة إليه، فذاقا الشجرة، و"ذوْق الشجرة" هو نفسه عُبّر عنه هنا "بإخراجهما ممّا كانا فيه"، أيْ كانا في وضع معيّن لائق وأخرجهما إلى وضع آخر يشين بهما، هو الذي أدّى بآدم إلى قرار إهباطه من الجنّة الذي أعقب ثالثاً.

إذن، هو إخراجهما عن الطبيعة الجميلة السامية (عبّرت آيات أخرى عن الإزلال فالإخراج من الوضع اللائق بقوله: (**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ**)(الأعراف:٢٢)، فبالثقة الزائدة زلّت أقدامهما إلى خارج باب الجنّة، ليذوقا الشجرة أي ليخرجا ممّا كانا فيه من اتّزان لائق وسموّ واستواء وكمال)، وننبّه القارئ أنّا ما زلْنا نتكلّم في العموم، وإلاّ فالتحديد الدقيق لما حصل وللألفاظ سيأتي لاحقاً ويتبيّن بالتدريج.

فعلينا أنْ لا نُفرِّط حسب الدقّة القرآنيّة، في هذه الفوارق، بين (الإخراج من الجنّة) الذي حدث أوّلاً بالتدلية والغرور والإزلال اختياراً، وبين (الإخراج ممّا كانا فيه) الذي حدث خارج الجنّة ثانياً وهو الوضْع الذي خُتِم بخطيئة آدم، وبين (الإهباط) الذي حدث ثالثاً كعقوبة.



١٢- في الآية ٣٦ الآنفة، سادةُ الجنّة، الأرباب الآمرون، ومن ضمنهم جبريل المتكلّم، أعطوا الأمر (بضمير الجمع المتكلّم) بالهبوط للآخرين، (ولمْ يقولوا "منْها" أيْ "من الجنّة") (**وقُلنا اهبطوا**)، إذن هؤلاء السادة متواجدون في الجنّة الأرضيّة، ومنها قرّروا إهباط آدم ومن معه في تلك المنطقة العالية بالانحدار إلى الأرض المنخفضة.

١٣- أمرت السادةُ المدبّرون جماعةً ما بالابتعاد منْ حول الجنّة والهبوط، لا واحداً لا اثنين، بل كما أخبَرنا زعيمُ المتكلّمين جبريل (ع) (**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**)، دلّتنا (واو الجماعة) أنّ المطرود هم ثلاثة (على أقلّ تقدير)، ودلّتنا عبارة (**بعضكم لبعض عدوّ**) أنّهم ليسوا ثلاثة أفراد بل أفرادٌ أكثر أو فئات[1]،

---

[1] - عبارة "اهبط" تعني واحداً فقط، ولا يُمكن إضافة "جميعاً" إليها، فالإضافة لغو، لذلك قيل لإبليس وحده (فاهبط منها). عبارة "اهبطا" تحتمل إمّا فردَيْن اثنَيْن، أو فئتَيْن، لا غير، فإذا كان المقصود فردَيْن، فلا يُمكن أنْ نضيف لفظة "جميعاً" إليها، لأنّ "اهبطا" تعني كليْهما بوضوح تامّ لا شكّ فيه، يُمكننا إضافة مفردة "معاً" (اهبطا معاً) لنُغاير بين هبوطيْن لهما، إمّا هبوط كلّ منهما على حدة، أو هبوطهما في نفس الوقت مع بعضهما. فإذا أضفنا "جميعاً" إلى "اهبطا" تعيّن الاحتمال الثاني وهو أنّ المخاطب المقصود فئتان لا فردان كما في قوله: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)(طه: ١٢٣)، والدليل الثاني بأنّهما فئتان في الآية الآنفة لا فردان، عبارة "بعضكم لبعض"، فلو كانا اثنيْن لقيل "بعضكما لبعض". بقي لدينا عبارة "اهبطوا" لوحدها، فهي تحتمل إمّا ثلاثة أفراد، وإمّا أكثر من ثلاثة أفراد، وإمّا ثلاث فئات فأكثر، فإذا أردنا أنْ نعني الاحتمال الأوّل، فإنّ "اهبطوا" لوحدها كافية وتامّة لثلاثة أفراد أنْ يأتمروا بالهبوط، إذ نحن لمْ نقل "اهبط" لنعني واحداً، ولم نقل "اهبطا" لنعني اثنيْن، بل قلنا "اهبطوا" فالمعني هم هؤلاء الثلاثة جميعاً قطعاً، ولو زدْنا مفردة "جميعاً" في هذا الاحتمال لوقعت زيادة ولغواً، لأنّ معنى المفردة "جميعاً" موجود منطقياً في الكلام، وليس من ثغرة موجودة لنغطيها بتأكيدنا بكلمة "جميعاً"، فإذا أضفنا هذه المفردة وكنّا حكماء نعرف اللغة، وكان تفكيرُنا ولغتنا واحداً، فهذا معناه أنّ الموجودين المراد إهباطهم هم أكثر من ثلاثة أفراد أو هم ثلاث فئات تحوي بمجموعها أكثر من ثلاثة أفراد. (كفئة فيها آدم، وفئة فيها الشياطين، وفئة ثالثة فيها صنفٌ ثالث سيأتي بعد حين). أمّا حالات (إبدال ضمير المثنى بالجمع) فبإمكاننا الافتراض حتّى حين، أنّه يصار إليه فقط في الموارد التي يُقطع فيها بإرادة المثنى لوجود اثنين معنيّين فقط في ظرف الخطاب، بحيث يكون هذا العدول غير موهم، مع وجود حكمة لهذا العدول، كما في قوله سبحانه (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)(التحريم:٤) بجمع "قلوب" بدلاً

وليس من المعقول أنْ تُطرَد فئةُ الملائكة التي سجدتْ، والملائكة لمْ يكونوا خارجاً أيضاً، المعقول أنّ الذي اشترك في المعصية خارج الجنّة هو الذي "يُهبَط" بعيداً، ولكن ليس لدينا سوى ثلاثة أشخاص: آدم وحوّاء والشيطان، أضف إلى أنّ العداوة الطبيعية هي بين الإنسان (يمثّله آدم وحوّاء) والشيطان، فهي إذاً عداوة ثنائيّة، فأين العداوة الثلاثيّة الطبيعيّة بين مجموعات ثلاث، أو أفراد فوق ثلاثة؟

بإمكاننا افتراض أنّ كلمة "**اهبطوا**" و"**بعضكم**" تُخبرنا أنّ الشيطان معه جماعة من جنسه (تُبيّن آياتٌ أخرى أنّ له أتباعاً من صنفه كان منهم "الجنّ" في ذلك الحين، وفي نهج البلاغة في الخطبة الأولى: "**إلاّ إبليس وقبيله اعترتهم الحميّة وغلبت عليهم الشقوة وتعزّزوا بخلقة النار واستوهنوا خلق الصلصال**")، والإنسان أيضاً على أبواب تكوين جماعة بعد تلك المعصية (وكما يقول عليّ (ع) في ذات الخطبة: "**فأهبطه** (أيْ آدم) **إلى دار البليّة وتناسل الذرّية**") وكما كان التخطيط أساساً، لذلك قال إبليس قبلاً بعلم (**لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ**)(الإسراء:٦٢).

بقي علينا أنْ نبحث عن الفئة الثالثة التي هي عدوّ للآدميّ أيضاً كطبيعة نفسانيّة، فما هي هذه الفئة الثالثة التي - كما الآدميّين وكما الشياطين (الجنّ)- ما عادتْ تستطيع الاقتراب من الجنّة؟

يُجيبنا **سبحانه** في سورة طه بالقول: (**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**)(طه:١٢٣)، إذن، الثلاث فئات هي فئتان في الأساس (**اهبطا**)، وجنسان

من "قلباكما"، مع أنّ نهجنا لفهم النّظام القرآني يرفض حتّى هذا، ويفترض أنّ للمرأتيْن فعلاً قلوباً جمعاً حين الخطاب، ليس القلب المادّي الذي هو قلب واحد، بل قلوب باطنية، كما تقول: لي قلبٌ مع أبي وقلبٌ آخر مع زوجي (على فرض أنّ هوى الأب يُخالف هوى الزوج)، واللّهُ سبحانه حينما أراد توحيد هذه البواطن والميول (القلوب) على هوىً واحد أو عزيمةٍ واحدة، استدلّ بوحدانيّة القلب المادّي (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)(الأحزاب:٤)!

فقط، فالفئة الثالثة ليست من الملائكة كما قلنا، وليست حيوانات حتماً، فعلينا أنْ نلحقها إمّا بالإنس أو بالجنّ لا غير، فممّنْ هي هذه الفئة؟ لنْ نعرفها إلاّ بعد أنْ نكمل حديثنا عن الشجرة.

١٤- علينا أنْ نعي أنّ كلمة (**قُلنا**) من السادة (الأرباب) حين تُوجّه إلى طبيعة غير واعية، أو إلى مخلوق واعٍ في شأنٍ لا خيارَ له فيه، فهي ليست أوامر قابلة للمعصية، بل هي نفاذ، أيْ هي أفعال ماضية مقضيّة، وأسباب طبيعيّة تتفعّل، وفي مثالنا تكوُّن تغيّرات جيولوجيّة، كفوَران بركان أو زلزال في تلك المنطقة، أو أيّ تغيّر طبيعي أو فوق-طبيعيّ يدرأ معشر الجنّ والإنس من الاقتراب من تلك الحظيرة المقدّسة، مركز القوى الربّانيّة، التي قال عنها الجنّ (**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً**)(الجن:٨).

فالآية (**قُلْنَا اهْبِطُوا**) لا تعني كلاماً، فالقول ليس الكلام، وما الكلام إلاّ أحد صيَغ القول وتجلّياته، بل الآية مثلها مثل (**فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين**) أيْ هو أمرٌ تكوينيّ نافذ، أظلمَ الدنيا حولَ الجنّة وسدّ طرائقها وأزال الطريق إليها، وأوحش معالمها، ومُلئ حولها حرسٌ شديدٌ من الملائكة وشُهبٌ قاذفة تدحر الشياطين والمردة من الاقتراب منها.

ب - ماهيّة الشجرة

- في الآية ٣٥، (**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**) كُنّا رأينا تحذيراً للزوجين الإنسانيّن من الاقتراب من "**شجرة**" (**وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**)، هذه الشجرة معرّفة باللاّم، ومُشار إليها حسّياً باسم الإشارة، وعليه فنسجّل التاليّ:

١- لم يمرّ علينا في الآيات السابقة ذكرٌ لشجرة معلومة لتأتي معرَّفةً باللاّم "**الشجرة**" وليُشار عليها، والقرآن لا يتكلّم بحرْفٍ لغواً أبداً، فينبغي وجودُ ذكْرها

حتْماً فيما سبق من آيات قبل الآية التي ذكرتُها، أيْ قبل الآية ٣٥[١]، لحصول عهدٍ لنا بها ونفهم القصّة فيكون القرآن بياناً لنا.

٢- قد يتبادر للذهن أنّها شجرةٌ للأكل، فنقول:

أوّلاً: أنّ هذا لا يحلّ إشكالنا في أنّها ليست مجرّد "شجرة" نكرة مجهولة، لنقوم ونتنازع بعدها أهي شجرة حنطة أم تفّاح، كرمة أم تين؟! كما تنازع مفسّرونا الأجلاّء، فإنّ مجرّد اختلافنا ذاك ينفي أنّها "**الـ شجرة**" المعروفة، ويجعلها "شجرة" غامضة مجهولة، فالقرآن يُؤكّد أنّها "**الـ شجرة**" أيْ المعلومة لدى آدم والمعروفة لدينا نحن قرّاء هذه الآية في كتاب ربّنا إلينا.

ثانياً: لمْ يأتِ لا هنا ولا في القرآن كلّه صياغة: (كُلا رغداً حيث شئتما إلاّ من هذه الشجرة) باستخدام أداة "إلاّ" لتصبح الشجرة المنهيّة أكْلاً مستثنىً من جنس المأكول الرغَد المذكور قبله، فهذا التركيب أولى لو كانت الشجرةُ أكْلاً. (وهذا على فرْض أنّ الأكل الرغد هو أكلُ بطْنٍ أيضاً!)، بل العجيب أنّه سبحانه لمْ يذكر أبداً أيّ شيء عن أشجار الجنّة لتكون هذه مستثناةً من تلكم الأشجار، وكأنّ الجنّة خاليةٌ من الأشجار تماماً! مع أنّها مليئةٌ بالأشجار، فعلَ ذلك سبحانه لئلاّ يقع المرءُ في الوهم الذي وقعتْ فيه التفاسير، فيقوم بإلحاق هذه الشجرة بتلك الأشجار ويجعلها من صنفها! فقط تأمّل لماذا عند الحديث عن جنّة آدم لمْ يأتِ ذكرُ أيّ شجرة عدا هذه، حتّى حين خصفا من الورق لمْ يقلْ "من ورق شجر الجنّة" بل فقط "من ورق الجنّة"؟ فتأمّل واعجبْ لهذا، لتُدرك أين ذهب النّاس! وهذا لا يعني طبعاً أنّه ليس ثمّة إخفاء قرآني مُراد ودقيق لطيّ معصية أب الإنسانيّة في الإشارات اللطيفة وعرضها في الألفاظ التي تبدو بعيدة بطبيعتها، فالقرآن كتاب حقائق عارية فعْلاً لكنّه كتاب حكْمة وأخلاق واحتشام أيضاً. وأهون الأمْريْن أن يحوز المرء زبدة القرآن الأخلاقيّة وإن

---

[١] - قد يشكل القارئ، إذا كان مجيء "الشجرة" معرّفةً بالألف واللاّم العهديّة، يستدعي وجود ذكرها سابقاً في السياق أو عهْد الذهن بها، فينبغي أنْ تطّرد هذه القاعدة في كلّ الآيات التي تكلّمت عن شجرة آدم في بقيّة السور، إذا أتتْ بها معرّفة! فهذا إشكالٌ صحيح، ونعمْ ينبغي ذلك، وسنأتي إلى حلّ كلّ تلك الآيات لاحقاً إذا أحرزْنا معنى "الشجرة" هنا.

تعصّى عليه إدراك الحقيقة، فهذا خيّرٌ من الذي يُدرك الحقيقة وفاته المغزى الأخلاقي ورسالتُه، وربّما هذا ما يشفع للتفاسير لو أحسنّا الظنّ.

ثالثاً: سبق أنْ قدّمنا أنّ معنى "**الشجرة**" لغةً وفي الحقيقة، أنّه الشيء المتداخل بعضه في بعض يخرج بعضُه من بعض وله أصل[1]، منه سمّيت الشجرة الخضراء شجرة، ومنه جاء التشاجر، ومنه تتشجّر الأنهار، وشجرة النيران، وشجرة العوائل، والسلالات، وشجرة الحياة.

رابعاً: نجد في القرآن إصراراً عجيباً بأنّ لهذه الشجرة ارتباطاً وثيقاً بكشف السوأة ونزع اللّباس والعرّي.

خامساً: أنّ الذي عصى وتاب الله عليه هو آدم بالخصوص، لكنّ مع ذلك ففعْل المعصية لا يُرتكب إلاّ ثنائياً (لا تقربا، أكَلا، ذاقا، فتكونا من الظالمين)، ففي حين نرى خطاب السكن فرديًا (فرادى) نرى خطاب نهْي الاقتراب من الشجرة والأكل منها وذوقها ثنائياً. وهنا ننبّه القارئ أنْ يتجرّد من سبقيّاته عن آدم، فنُكرّر: أنّ آدم القرآنيّ هنا المتكلّم عنه هو أوّل مخلوق إنساني اخْتير من البشر الهمج، وليس آدم النبيّ المعصوم الذي لن يظهر للوجود إلاّ بعد آلاف كثيرة من السنين، وسيأتي دليل ذلك في حينه، نتقدّم بهذا، لئلاّ تستفزّ القارئَ مخزونُ العقيدة والقداسة بالرفض، فقولُ الله عزّ وجلّ أعلى وأجلّ.

سادساً: لمْ يُعبّر أبداً في القرآن أنّ للشجرة هذه ثمراً، بل ولا ورقاً أبداً، مع أنّه كان يُمكن أنْ يخصفا منها على "المعنى الدّارج" للخصف.

سابعاً: عُبّر عن "عدم الانتهاء عن الشجرة" طوّراً "**بالقرْب**"، ومرّة "**بالذوق**"، وأخرى "**بالأكل منها**" (والأكل لُغةً وأيضاً في القرآن أتى ليعني ملْءَ ميْل، وإشباعَ طبْعٍ غريزيّ، حتّى أنّ العرب تُسمّي السكّين "آكلة اللّحم"، وفي القرآن: أكْل الأموال، أكل الربا، تأكلون التراث، تأكله النّار) وهذا كلّه حقيقة لا مجاز، فما هو هذا الشيء (أي الشجرة) الذي يكون قرْبُه أو ذوقُه، أو الأكلُ منه، معصيةً أو ظلماً؟

---

[1] – انظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، باب الشين والجيم وما يُثلّثهما، ص ٥٢٧.

ثامناً: أنّ القرآن يُخبر أنّ الشيطان هو الذي أغرى آدم بهذا الفعل، وما يزال يأمر به بنيه لفتنتهم (**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ**) (الأعراف ٢٧) الآتي ذكرُها.

تاسعاً: أنّ اللّه حذّر بني آدم في سورة الأعراف بعدم فتنة الشيطان لنا كما فتن أبوينا بعد أن جعلهما "ينزعان لباسهما" (وسنأتي إلى معنى اللباس) ويخرجان من الجنّة وهي دار أمْنهما عنه، وعيّن أنّ "لباس التقوى" يحجز عن هذا الفعل (الذي سمّي لدى آدم "أنْ يقربَ الشجرة")، وعقّب بذكر الفاحشة بعدها مباشرة التي أمر سبحانه بالتقوى منها، والآيات للقارئ المتدبّر هي: (**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**)(الأعراف: ٢٦-٢٨)، وسنأتي لتفصيل أكثر في هذه الآيات لموضوعها.

بل نلحظ أنّ سبحانه يقول: (**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**)(طه: ١٢١)، المعصية للأمر وعرفناها، فما هي الغواية؟ إنّ إبليس قد توعّد بني آدم بالغواية (**لأغوينّهم أجمعين**) فقابل سبحانه "**الغاوين**" بـ "**المتّقين**" (سورة الحجر ٣٩-٤٥)، فإذن ستر التقوى هو الحامي من الغواية، وإذا كان آدم وحده هو الذي عصى وغوى دون حوّاء حتّى وإنْ تشاركا في المنهيّ عنه، فما الذي يغوي الرجل وحده دون المرأة؟! جوابُه واحد: امرأةٌ أخرى.

٣- نلاحظ أنّ أرباب الملائكة (سادتُهم) أمرتْ آدم وحواء بعدم قرب الشجرة فقط، ربّما يُقال أنّ مجرّد "الاقتراب منها" كان كافياً بعده للإغواء بالتذوّق والأكل! لا، ليس كذلك، علينا أنْ نلتزم باللفظ القرآني: "قرْب الشجرة" وليس "الاقتراب منها"، فليس هو اقتراب، ولا يوجد حرف الجرّ "من". وفي القرآن لا نجد أمراً بعدم "قرب شيء" مطلقاً بلا قيد ولا تخصيص، وفي كلّ الأحوال منهيٌّ عنه، إلاّ لأمرٍ

واحد فقط (إذْ نحن نُهينا عن قرب مال اليتيم مع استثناء "**إلاّ بالتي هي أحسن**"، ونُهينا عن قرب الصلاة في حال سكرة العقول بأيّ كان، ونهيتْ الناس قرْبَ المعاشرة وهم صيام، أو عكوفٌ في المساجد، أو حال الحيض. لكن قرب الفواحش، وقرب الزنى هي التي لا استثناء فيها ولا تقييد) لا غير، وهي تدور حول أمر واحد من غريزة الشهوة، المعاشرة بالحرام هو القرب الممنوع منعاً باتّاً (**وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ**)(الأنعام:١٥١)، (**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى**)(الإسراء:٣٢)، وننوّه أنّ لفظ "قرب" عربيّاً حقيقته هي ضدّ البعد لا المكاني بل بحسب الموضوع، فعبارة "لا تقرب الماء" ليس معناه لا تجلس قريباً منه، بل لا تشربْ منه، و"**لا تقربوا مال اليتيم**" أي لا تأكلوا منه ولو كان في جيوبكم لا أنْ تضعوه بعيداً عنكم، فهذا سخْف، و"**لا تقربوا الزنى**" أي لا تلتبسوا به وتمارسوه، و"**لا تقربا الشجرة**" هي من هذا، أمّا البعد المكاني فيُقال "لا تقترب من كذا" قال تعالى: (**أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ**)(الرعد:٣١).

- **مازال السؤال الملحّ قائماً: ما هي هذه الشجرة المعرّفة بالألف واللاّم في آيات سورة البقرة (التي هي محلّ موضوعنا فقط، الآن)؟**

أعد قراءتها مرّة ثانية وثالثة، لن تجد ذكْراً لشجرة حتّى تكون معلومةً لديْنا، لا لنْ تجد، إلاّ شجرةً واحدةً فقطّ لا غير، هي شجرة الجنس السابق لـ آدم وحوّاء التي منها جاءا وتحدّرا، شجرة الكائن الذي كان قبل أنْ يُصيّر إنساناً ويُطلَق عليه كأيّ مولودٍ جديد اسمَ "آدمَ"، الواعي العالِمَ، جرّاء نفخ الرّوح، ليُجعلَ خليفةً، هي شجرة (أيّ سلالة) الكائنات الهمجيّة اللاواعية التي تفسد في الأرض وتسفك الدماء، تلك التي استُلّ آدم وحوّاء منها ليتمّ تخليقهما إنسانيْن مغايريْن تماماً ويُنحلا هذيْن الاسميْن، فهي الشجرة المحرّمة التي أُمر آدم وحوّاء "بعدم قربها" أيْ الاختلاط بها جنسيّاً لأنّها غير مؤنْسنة، وقد عبّر سبحانه في القرآن عن "**الشجرة**" بمعنى السلالة، أيْ شجرة بشريّة مكوّنة من أناس، في قوله تعالى لنبيّه (**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**)(الإسراء:٦٠) وقدْ تكلّمنا عن ذلك فيما مضى.

هذه الشجرة (أنسال السلالة البشريّة المخلوقة منْ طين التي لمْ تتأنسن ولنْ .. إلاّ إذا أجرى عليها الملائكة ما جرى على آدم وحوّاء) **هي الفئة الثالثة** الوحشيّة المُعادية طبائعها لطبائع الإنسان الإلهيّ، الفئة التي استخدم إبليس إناثها لإغواء آدم، والمُبعَدة من الاقتراب من الجنّة أيضاً، الفئة التي كنّا نبحث عنها في سؤالنا السابق المعلَّق.

الآن نُجيب على الإشكال السابق: أين ذكْر الشجرة في سياقات **باقي** السور، ما دامت معرّفة = معروفة؟

فالجواب: أنّ شجرة آدم ذُكرتْ في سورة البقرة وقد أجبنا عليها للتوّ، وفي سورة الأعراف، وفي سورة طه:

- أمّا سورة الأعراف فقد ذُكرتْ ٤ مرّات بدأت بنهي (**ولا تقربا هذه الشجرة**) في الآية ١٩، ثمّ تكرّر الكلام عنها ٣ مرّات بعدها، والذي يعنينا هو وجود إشارة لها قبل الآية الأولى التي ذكرتْها وهي ١٩، وبشرط في نفس القصّة، والقصّة تبدأ من الآية ١١ هكذا: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**)(الأعراف:١١)، وهذه الآية وقف عندها المفسّرون وأعملوا فيها مشارط التقديم والتأخير والتقديرات، إذْ عسُرَ عليهم أنْ يفهموا خلْق جماعة البشر، ثمّ تصويرهم، ثمّ يُؤتى بآدم لتسجد له الملائكة، لأنّهم افترضوا "آدم" أوّل مخلوق بشريّ، والآية واضحة أنّ خلق الشجرة البشرية (**خلقناكم**) أخذ مدّة، (**ثمّ صوّرناكم**) أيْ ثُمّ عبر مراحل زمانيّة مديدة تمّ تصويرهم في الصورة البشرية التي نحن عليها اليوم، (**ثمّ**) اختير (**آدم**) من تلك الشجرة، وبمجرّد أنْ أُعطي اسماً "آدم" يعني أنّ ذلك المخلوق المنتخب المُعدّل المُسوّى صيّر إنساناً ذا فكر وإلهام ووعي ومشيئة، فهذا معنى "آدم" لا غير، الكائن المفكّر المبدع المثال والصورة المصغّرة للربّ، فهذا ذكْرُ الشجرة هنا.

- أمّا سورة طه فهي: (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**) (طه:١٢٠)، وهذه الآية خارجة عن موضوعنا، لأنّها لمْ تأتِ بالشجرة معرًّفة باللاّم، وليس هو كلام الله بل وسوسة إبليس، يريد أنْ يقود آدم إلى شجرة -زعم له أنّها- الخلد، فتعريفها فيها، فلفظها لا يحتاج إلى عهدٍ بها سابق، بل

إلى إراءة قادمة، وقد حصل هذا حين دلّه الشيطان إلى خارج الجنّة، وخدعه، وسنُفصّل في شجرة الخلد أكثر لاحقاً[١].

والمدهش أنّ ابن عبّاس ألمح إلى أنّ الشجرة هذه كائنٌ حيّ وحشيّ وعنيف، فتمعّن معي: (أمرَ اللّهُ تعالى جبريل بإخراج آدم فقبض على ناصيته وخلّصه منَ الشجرة التي قبَضتْ عليه، فقال أيّها الملَك ارفقْ بي، قال جبريل إنّي لا أرفق بمن عصى اللّه، فارتعد آدمُ واضطرب وذهب كلامُه، وجبريل يعاتبه في معصيته ويعدّد نعم اللّه عليه، قال: وأُدْخِل الجنّة ضحوةً وأُخْرِج منها بين الصلاتين فمكث فيها نصف يوم خمسمائة عام مما يعدّ أهل الدنيا)[٢]!

ما هذا؟ مهلاً أيُّها السادة، ألَم يتّفقْ الجميع أنّ حوّاء هي التي تناولت من الشجرة، أو الحيّة سلّمتها الثمرة! ثمّ أعطتها لزوجها آدم، فكيف قبضتْ الشجرة على آدم وهو آخر السلسلة وتركتْ حوّاء المزعوم أنّها التي باشرتْ القطف؟! إنّما لنُنبّه القارئ أنّ الحقّ وإنْ خفي فظاهر، وأنّ حوّاء لا شأن لها بمقاربة الشجرة. ثُمّ، باللّه علينا: ما هذه الشجرة التي تقبض على الآدميّ حتّى يُخلّصه جبريل منها؟! ثمّ ما حكاية اتّفاق القبض على آدم في التراث كلّه، فهنا في المرويّ الإسلاميّ:

الشجرة (أنثى الهمج المدفوعة بإبليس) تقبض على آدم.

الملاك جبريل يقبض على آدم ويُخرجه مِن الجنّة.

وفي الأساطير كما سنرى لاحقاً:

الملائكة (الأنوناكي) تقبض على آدم (إنليل) وتطرده مِن المغارة التي منها يُدخَل إلى الجنة (المدينة المقدسة) (كي أور).

الحيّة (أنثى الهمج المدفوعة بإبليس) تقبض على النّسر (آدم).

---

[١] - في الفصل الثالث/وهْمُ القداسة، وقراءات مقلوبة/ شجرة الخلد وملك لا يبلى.

[٢] - ابن الجوزي ، زاد المسير ،ج ١ ص ٥٦ .

ج- قرب الشجرة هو المعصية ذاتها

في الآية ٣٧ (**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**)، نرى أنّ آدم وحده يعصي ويَغوى (بيّنتْ ذلك سورة طه: "**وعصى آدمُ ربَّه فغوى**")، ووحده يتلقّى من ربّه كلمات فيتوب عليه، فما دور حوّاء في المعصية إذن وفي التوبة؟ لمْ نرَ آيةً في القرآن تقول أنّ حوّاء عصتْ أو غوتْ، نراها نُهيَتْ عن القرْب كآدم، ذاقتْ (أكلتْ منْ)، ظلمتْ نفسها، ندمت واستغفرت، فحوّاء لمْ تُشاركْ آدم في معصيته التي لا يُمكن أنْ تُمارس إلاّ ثُنائياً، لكنّها تابعتْه.

أمّا السؤال **المحيِّر**: بما أنّ الأمْر (النهي) واضحٌ لدينا موضوعُه، وهو (**لا تقربا الشجرة**) للاثنين؛ لآدم وحوّاء .. وحواء قدْ ذاقت، وأكلتْ منْ الشجرة، وظلمتْ نفسها، وخوطبت مع آدم "**ألم أنهكما عن تلكما الشجرة**" .. لكنّها مع ذلك ما عصتْ وما غوتْ، بل فعل ذلك آدم وحده فقط .. هذا ملخّص ما نصّتْ عليه الآيات، وليس افتراضاً من عندنا. فهل "قرب الشجرة" الذي فعله آدم وحده، أمرٌ أشدّ من "ذوق" الشجرة و"الأكل منها" الذي فعلته حوّاء وفعله آدم أيضاً؟

يبدو **وكأنّ** العقل لا يرتضي أنّ هناك "قرباً لشجرة" هو الحرام المنهيّ عنه، وارتكابُه هو المعصية، وأنّه أكبر من "الذوق" و"الأكل منها" لأنّهما ليسا عيْن المعصية. والصعوبة العقليّة تكمن في أنّنا نتوهّم معنىً للألفاظ فنحتبس عليها لا أكثر، دخلنا داراً وأطفأنا علينا النّور، الأمر هو هكذا، حين ظننّا أنّ القرب هو الاقتراب. فالأمرُ كذلك، كما رسمه القرآن بدقّة، لأنّ المعصية المنهيّ عنها هو "قرب الشجرة" (و"**تقربا**" كما بيّنا هو المعاشرة الجنسية، قال تعالى في الصيام "**ولا تقربوهنّ**" أي تعاشروهنّ، و"**الشجرة**" هي السلالة كما بينّا)، ونجد أنّ الربّ ما نهى إلاّ عن "قرب الشجرة" فقط، فآدم وحده هو الذي عصى بقرب الشجرة بالمعاشرة، وحوّاء أخطأت في دون ذلك ولمْ تعصِ وتغوَ. وهذا أمرٌ جارٍ للآن في قانون الطبيعة فالرجال المتزوّجون أغلب لأنْ تُغويهم امرأةٌ أخرى عن النساء المُتزوّجات أنْ يُغويهم رجلٌ آخر. وسيأتي الاستدلال على ذلك بالتفصيل.

د- الإهباطان الأوّل والثاني

لقد احتار أكثرُ المفسّرين بطبيعة الحال، في هذه الآية (**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(البقرة: ٣٨)، فما هو هذا الإهباط الثاني؟ ألَمْ تُعلن الآية التي سبقت (وهي الآية ٣٦ القائلة: (**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**) نبأ إهباط آدم وانتهينا؟! فالذين اعتمدوا في تفسير كتاب الله على ما يُلقيه أهلُ الكتاب من اختراعاتهم وقصصهم أجابوا عن المعضلة بأنّ الإهباط واحد، والله كرّر كلامه! والتكرار هذا لأجل (كذا وكذا، أو كذا وكذاك) على حسب ما تفنّنوا فيه في التعامل مع آيات الله، فارجع للتفاسير تجد ذلك بلا جُهد. فينقل ابنُ الجوزي في زاد المسير: (واختلف العلماء هل أهبطوا جملة أو متفرقين؟ على قولين: أحدهما أنهم أهبطوا جملةً لكنهم نزلوا في بلاد متفرقة قاله كعب ووهب)[١] انظر وتأكّد بعيْنك مَن قاله أيّها القارئ: قاله كعبٌ ووهب! يهوديّ أسلم ونصرانيّ!. ثُمّ ممّا أجابه ابنُ الجوزي (ره) حلاً للمسألة: ("**قُلْنا اهْبِطوا منها جميعًا فإمّا يأتينّكُمْ منّي هُدًى** .." في إعادة ذكر الهبوط، قد تقدّم قولان أحدهما أنّه أعيد لأنّ آدم أهبط إهباطين أحدهما من الجنّة إلى "السماء"، والثاني من السماء إلى الأرض)[٢]!! انتهى. إذن، على حسب مَنْ رأى أنّهما إهباطان، جعل الإهباطَيْن لآدم نفسه، فلا عجبَ أنْ طارت جنّةُ آدم لديْه لا خارج كوكب الأرض فحسب، بل خارج السماء أيضاً، فهناك إهباط لديهم من الجنة

---

(١) - ابنُ الجوزي، زاد المسير،ج ١، ص ٥٦.

(٢) - ابن الجوزي، زاد المسير ، ج١، ص ٥٨، والبعض قال كما في تفسير التنوير والتحرير، للطاهر بن عاشور، ج٢،ص ٢٥٢ : (فاحتمل تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية القرآنية من غير أن تكون دالةً على تكرير معناها!) ثمّ في احتماله الثاني، أعاد كلام ابن الجوزي نفسه. وفي تفسير القرطبي، ج١، قال الاحتمال نفسه أيضاً ثمّ استعان بتفسير هذه الآية عن هبوط آدم بما يرويه "وهب بن منبّه" منْ محكيّات! والبيضاوي في تفسيره قال أنّ التكرار هو للتأكيد، ثمّ نقل الرأي الثاني مضعّفاً إيّاه بعبارة: "وهو كما ترى"!

إلى السماء ثمّ إلى الأرض! وأجوبة سائر المفسّرين في هذه الآية لا تبعد عن هذا الجواب إلاّ بأمتارٍ أو أشبار.

والأمر المحيّر، هو: ما الذي حدا بالأوائل قبل آلاف السنين في سومر وبابل ومصر، أنْ يوقنوا بالجنّة أنّها أرضية، فالمصريّون لديهم أنّها شرق موطنهم من حيث تُشرق الشمس، والسومريّون سمّوها ديلمون أرض الخالدين لا سماء الخالدين، وحقول إيل، والمزار القصيّ، والبيت/الحيّز الأجلّ (الإيزاجل)، بينما مفسّرو القرآن، وأهل الإسلام، شطحوا حتّى طيّروا جنّة آدم المخلوق الأرضيّ وراء السماء في اللاّمكان؟! أهو منْ أثر التوراة أو القصّاصين المسلمين التوارتيّين؟ أو منْ إخضاع القرآن لقواعد تأباها عباراتُه؟ أو منْ انبتار الأمّة الواحدة عن تراثها الأوّل منذ آدم؟ أو من ذلك كلّه؟! أيّاً كان الجواب فمصيبتُنا تدور بين الكبيرة والأكبر.

نعود لآيتنا: إذن، مَنْ الذي أُهبط الآن وللتوّ (في الآية ٣٨) (**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)، ليتكرّر نداء الإهباط ثانيةً بدون "واو" هذه المرّة، ولتقع جُملة (**قُلْنا اهبطوا منها جميعاً**) علّةً وواسطةً وسبباً لجملة (**فتلقّى آدم**) السابقة عليها: (**فتلقّى آدمُ من ربّه كلمات .. قُلنا اهبطوا منها جميعاً**)، فتلقّي آدم كلمات التوبة جاء متزامناً مع إهباطٍ ثانٍ، هذا الإهباط جاء هذه المرّة غير مصحوبٍ بحكْم العداء بين الجميع، أيْ خالياً من عبارة (**بعضُكم لبعضٍ عدوّ**)، بل جاء بـ"**كلمات**" تبعث أملاً لآدم وللإنسانية بضمانة مجيء الهدى وعدم انقطاع السماء عن الإنسان ولو أخطأ، فمن هو الذي أُهبط ثاني مرّة من الجنّة ناقلاً تباشير الرحمة والهدى؟!

لمْ يكنْ لدينا فيها قبْلاً إلاّ آدم وحوّاء، وآدم قد حُسم أمرُه وخرَج سلَفاً من الجنّة لوحده وأُهبط بعد معصيته من جوار الجنّة، وللتوّ فقط قد تيب عليه بعد الغواية والإهباط الذي انقضى، ليتلقّى الكلمات خارجَ الجنّة، فهل الأنثى الحوّاء هي المُهبَطة الآن؟ إذْ ما منْ سببٍ لبقائها في الجنّة أو على باب الجنّة وحيدةً عنْ آدمها المُخْرَج، ولتُكمل "حوّاء" قائمةَ المُخرجين من الجنّة نهائيّاً بدلالة استخدام مفردة "**جميعاً**" هنا، مع هذا الإهباط الأخير!

وللتأكّد من ذلك، لنَفهم أوّلاً أنّ لفظة "**جميعاً**" هنا هي استدراك على الجملة السابقة، إذْ سادة الجنّة الروحانيّون قالوا أوّل مرّة: "**اهبطوا**"، وقلنا أنّه أمرٌ يعني إمّا ثلاثة أفراد أو ثلاث فئات، فإنْ كانوا ثلاثة أفراد فعليهم أنْ يهبطوا جميعاً بلا ريب ولا تردّد، بيْد أنّهم إنْ كانوا أكثر من ثلاثة أفراد (أربعة مثلاً) أو كانوا ثلاث فئات، فيجوز أنْ يشكّ فردٌ أنّه ليس أحد المقصودين بضمير الجمع في أمْر الإهباط، هنا ينبغي على الآمر أنْ يُكرّر عبارته مرّة أخرى للمتخلّف الشاكّ بإضافة مفردة "**جميعاً**" (**قُلنا اهبطوا منها ـ جميعاً**) ليقطع أمل كلّ آمل أنْ يبقى في الجنّة أو بقرب منها أو يدلّ طريق الدخول إليها. ومثال هذا أنْ يغضب المعلّم على بعض التلاميذ المشاكسين فيصيح في جميع التلاميذ "اخرجوا من الصفّ" فيخرج معظمهم لكنْ يتردّد البعض ممّن ليس لهم يد في المشاكسة أهم معنيّون بالإخراج أيضاً؟ فيصيح المعلّم مرّة ثانية "قلت اخرجوا من الصفّ جميعاً"، فهنا تمام الباقين مَنْ عصى ومَنْ لمْ يعصِ، فجملة "اخرجوا من الصفّ" مكرّرة، و"جميعاً" لتُلحق المتخلّف بالسابقين.

لكنْ لفظة "**جميعاً**" لمن تتبّعها في القرآن الكريم تأتي نافيةً للاستثناء لتعمّ الجميع، ولها بحثٌ يؤكّد هذا، فوجودها هنا يفتح أفقاً أرحب. بل أنّ التدقيق أكثر يُرينا أنّ نداء "**اهبطوا**" الأوّل خلا أيضاً منْ حرف الجرّ "منها"، والنداء الثاني قال "**اهبطوا منها جميعاً**"، فليس فقط "**جميعاً**" هي التي تميّز النداء الثاني، بل أيضاً لفظة "**منها**"، وهذا أمرٌ سنُفصّل فيه حين الحديث عن جغرافيّة الجنّة[1]، لكن نستبق القول بأنّ النداء الأوّل جاء لإهباط مَنْ هم خارج الجنّة وهم آدم والبشر الهمج والجنّ منْ جنود إبليس، والنداء الثاني لإهباط مَنْ هم داخل الجنّة (بدلالة "**منها**")، جميع مَن هم داخلها بلا استثناء عليه أنْ يخرج، بحيث لا يبقى فيها إلاّ الذين أمَروا الآخَرين بالهبوط، أي السادة الأرباب (الأربعة) أصحابُ نداء "**قُلنا**" بضمير جمع المتكلّم، فحوّاء مع "**الملائكة المسجَدين**" لآدم كلّهم أُهبطوا منْ الجنّة خارجاً، لرعاية المشروع الإنساني، تحت إمْرة أرباب الجنّة، كلّ أصناف الملائكة التي نسمع عن

---

[1] – للمزيد من التعرّف على جغرافيّة الجنّة، انظر: جنّة آدم تحت أقدام السّراة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

وظائفها في كتاب الله فيما يختصّ بالإنسان منْ حفَظة، وكتَبة، ومعقِّبات، وملائكة موتٍ، وغيرهم.

لقد افترضتْ الأنسوجات المتوارثة "حوّاء" سبباً للمعصية، ومحفّزاً عليها، وأحبولةً للشيطان، والضّلعَ الأعْوج، وأنّها سبب التعاسة البشريّة في إخراج آدم من الجنّة[1]،

---

[1] - هذا الاتّهام لحوّاء تجده مسلّماً به لدى المسلمين، والمسيحيّين لأنّهم نقلوه عن التوراة المزعومة، ففي العهد الجديد يحمِّل بولس المرأة خطيئة آدم، ويحتقرها تبعاً لذلك فيقول: "لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة أن تُعلّم، ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت، لأن المرأة أغويت، فحصلت في التعدّي" (تيموثاوس٢/١١-١٤) . وفي هذا يقول القديس ترتليان: "إنها-أي المرأة- مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوهة لصورة الله (الرجل)"، ويقول أيضاً بعد حديثه عن دور حواء في الخطيئة الأولى:" ألستن تعلمن أن كل واحدة منكن هي حواء ؟!...أنتن المدخل الذي يلجه الشيطان..لقد دمرتن بمثل هذه السهولة الرجل صورةَ الله"، وفي العهد القديم في سفر التكوين من توراة الكهنة أنّ إبليس خدع حوّاء أوّلاً عبر الحيّة وهي التي أقنعت آدم بالأكل: (فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأنّ الشجرة شهيّة للنظر، فأخذت من ثمرها، وأكلت، وأعطت رجلَها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان) ثمّ يتنصّل آدم من معصيته ليتّهم حوّاء أمام سؤال الربّ (فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلْتُ) ثمّ يُعاقب آدم ويُلامُ بمثل هذا التمهيد : (لأنّك سمعت لقول امرأتك) فخطأه أنّه سمع لقول امرأته!! فسبحان ربّي، جعلوا العربة أمام الحصان، لكنّ القرآن الكريم يضع الأمور في نصابها، وكما ينبغي.

هذا الأمر نفسه يرويه المفسّرون كابن كثير في تفسيره/سورة الأعراف، عن ابن عبّاس، قال(!): (لمّا أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلتَ من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أنْ لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، قال: فرنّت عند ذلك حواء، فقيل لها الرنّة عليك وعلى ولدك)! أليس هذا ما قالته التوراة بالحرف، وُضع على لسان ابن عبّاس ليجد سوقه إلينا؟! والأعجب، ما نُقل عن سعيد بن المسيّب أنّه كان يحلف بالله "ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن سقته حوّاء الخمر حتى سكر فلمّا سكر قادته إليها فأكل"! ولا تعليق على مثل هذا الهرج إلاّ ما علّق به ابنُ الأثير في "الكامل في التاريخ" فيقولُ: "والعجب من سعيد كيف يقول هذا والله يقول في صفة خمر الجنة (لا فيها غوْلٌ)(الصافات: ٤٧)"، وهو احتجاجٌ جميل من ابن الأثير برّاً ساحة متّهمتَنا الدائمة حوّاء، ولا ندري لو كانت خمرُ الجنّة فيها "غول" وتُسكر العقل، هل تجد حوّاء دليل براءتها من القرآن أم لا؟!! فلْتحمدْ حوّاء ربَّها على أنّ دليل براءتها وُجِد في الخمر ولتكُن من الشاكرين.

لكنّ الإحكام القرآني يعكس الأمر تماماً وإنْ كره الرجال؛ فعْلاً، كان ثمّة إغواءٌ شيطانيّ عبْر إناث بشريّات لآدم، لكنّ الذي (**فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**)(طه:١١٥) والذي (**وَعَصَى ـ رَبَّهُ فَغَوَى**)(طه:١٢١) هو "آدم" وحده، وهو المتسبّب في شقاء "حوّاء" بإخراجها من الجنّة بعْده، بل والملائكة الخدَم معها، كرامةً له ومنْ أجل صلاحه، لتتدارك التجربةُ الإنسانيّة نجاحَها بعد انكسارٍ وإخفاق، وصدق اللّه العظيم.

بل قدْ رُوي عن النبيّ (ص)(**كان إبليس أول منْ تغنّى، وأوّل مَن ناح، لما أكل آدم من الشجرة تغنّى، فلمّا هبطت حواء إلى الارض ناح لذكره ما في الجنة**)[1]. وهذه رواية تُري أنّ هبوط حوّاء تمّ في مرحلة لاحقة، حاملةً معها رائحة أجواء الجنّة ما جعل الشيطان ينوح، على عكس تغنّيه لمعصية آدم وهبوطه المباشر من خارج الجنّة. بل وروي عن ابن عباس قال (**أهبط آدم بالهند وحواء بجدة فجاء في طلبها حتى اجتمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة وتعارفا بعرفات فلذلك سميت عرفات واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعا**) و(**وأهبطت حواء بجدة من أرض مكة**)[2]، ورووا (**فخرج آدم (ع) من الهند يؤم البيت الذى أمره الله عزّ وجل بالمصير إليه حتى أتاه فطاف به ونسك المناسك فذكر أنه التقى هو وحواء بعرفات فتعارفا بها ثم ازدلف إليها بالمزدلفة ثم رجع إلى الهند مع حواء فاتخذا مغارة يأويان إليها في ليلهما ونهارهما**)[3].

وقد سبق أنْ قُلنا أنّ (هند = هـ + ند) الهاء للتعريف + نُد أي أرض نود، التي صُحّفت إلى "بود/بوذ" أحياناً، ولا علاقة لشبه القارة الهندية بها بالمرّة، بل هي في شرق الجزيرة العربية من جبال السروات، ونود، هي الأرض الجبليّة الأولى، نُد أو نُتء، بنفس المعنى، وهي جنوب مكّة، التي قالت التوراة أنّ قايين نُفي إليها (**فَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُود شَرْقِيَّ عَدْنٍ**)(سفر التكوين٤ : ١٦) وهي

---

[1] - الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج١٧، ص٣١٠.

[2] - الطبري، تاريخ الطبري، ج١، ص٨١. الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص٧١. السيوطي، الدر المنثور، ج١، ص٥٥.

[3] - الطبري، تاريخ الطبري، ج١، ص٩٠.

الأرض التي فار التنّور البركاني بالماء بها في عصر نوح، وغرضنا من ذكْر هذه المرويّات أنّه لو كان آدم وحوّاء قد خاطا ملابسهما مع بعضهما بعد المعصية، (خصفا) حسب التفسير الدارج، وأُهبطا معاً، فلا معنى لأنْ يكون آدم جنوب مكّة بكذا مائة كيلومتر، وحوّاء بجدّة، فضلاً أنْ يكون آدم في الهند التي بعد باكستان يبعد عن حوّاء آلاف الكيلومترات! ما يدلُّك مرّةً ثانية أنّ هبوط آدم ليس في زمان ولا في مكان هبوط حوّاء، وأنّ آدم لمْ يلتقِ بعد المعصية بحوّاء أبداً إلاّ بعد أن تاب اللّه عليه وأهبط له حوّاء. (انظر الصورة: ٦، ٧)



آدم يقود زوجته مطروداً بعيداً عن الجنة!! ونحن قلنا أن حواء لم تهبط مع آدم (الصورة: ٦)



ملاكٌ يطرد الزوجين آدم وحواء معاً!! خطأٌ سائد (الصورة: ٧)

الفصل الثالث

علامات تفصيليّة في الخارطة القرآنية للخطيئة الأولى

(اللهم فاجعل نظري فيه عبادة
وقراءتي فيه فكرًا .. ولا تجعل نظري
فيه غفلةً ولا قراءتي هذراً)

دعاء عند نشر القرآن

سنتوغّل في هذا الفصل لنُجيب على أسئلة أعمق لتتبيّن معالم الصورة بشكلٍ أوضح، لا سيّما وأنّ القارئ لابدّ أنّه راكم واختزن إشكالاتٍ كثيرة مِنْ جولات الفصليْن السابقيْن.

أوّلاً - البرنامج الذي وُوري

ممّا نلحظه من القصّة أنّ آدم وحوّاء لمْ يظنّا أنّ لهما سوءات، لأنّهما كانا يعيشان في مستوى روحيّ سامٍ، وسوءاتهما قد وُوريت عنهما بهذا المستوى وبالبرمجة التخليقيّة التي رُقّيا إليها، إلاّ أنّ الإنسان البدائي ما زال قابعاً فيهما كامناً، ولن تتفعّل بهيميّته وغرائزه ليكتشفا أنّ لهما سوأة (أيْ نفْساً لها حاجات تطلبها ولو بطريقة فاضحة لا واعية) إلاّ إذا اختلطا بالشجرة تلك، سلالتهما الأولى. هذا ما أدركه الشيطان وسعى لأجل حصوله، فدَخلَ على برنامجها، وفعّل اللاّمُفعّل المُوارَى (وبلغة الحواسيب الإلكترونيّة يومنا: هو كبعض أسطر البرمجة القديمة الخاملة والمُعطّلة في برنامج تشغيل جهاز حاسوب يعمل بكفاءة، جهاز آدم، فيُفعّلها أو يُطلقها أحدُ قراصنة البرمجة الأشرار متى تمكّن أو بالأحرى سمحْنا له بالدخول على نظام جهازنا، فيجعل جهازنا بعدئذٍ يقوم بأعمال غير لائقة ولا شرعيّة).

ثانياً- الوعي يقرّب المسافات ويكشف الأبعاد

ونلاحظ أنّ الحديث عن الشجرة مع آدم من أيّ جهة كانت، كان يتصدّر دائماً بأداة الإشارة (**هذه الشجرة**)، وهذا لا يعني تواجد تلك السلالة البدائيّة داخل الجنّة بل يعني أنّ الوعي/الوحي الذي فيه آدم يكشف الأشياء ويقرّب المسافة، والغفلة تُباعد، فحين اقتراب الربّ ووجود الوعي قال له "**هذه**" الشجرة، وحين قرب إبليس بالوحي الذي هو النّفث قال له "**هذه**" الشجرة، لأنّها هناك في الخارج مع إبليس المطرود، وحين ابتعاد الربّ قيل "**تلكما**" الشجرة، وإبليس بعد طرده وإبعاده قيل لآدم عنه "**إنّ هذا عدوّ**" مع أنّه لم يره قبلاً.

فسقوط اليقظة والوعي، باعد الأشياء، وصار قول سادة الجنّة وأربابها مع آدم نداءً، ولو رتّب الملاحظُ فقط اسم الإشارة هذا وانتقاله لأدرك نقلات آدم: (**وَلا تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا منْ الظَّالمينَ ❖... وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذه الشَّجَرَة إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْن أَوْ تَكُونَا منْ الْخَالدينَ ❖ وَقَاسَمَهُمَا إنِّي لَكُمَا لَمنْ النَّاصحينَ ❖ فَدَلاَّهُمَا بغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفقَا يَخْصفَان عَلَيْهمَا منْ وَرَق الْجَنَّة وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تلْكُمَا الشَّجَرَة**)(الأعراف: ١٩– ٢١)، ففي الأولى كان آدم في سموّه واعياً يتلقّى وحي الملائكة، وفي الثانية بدأ يتلقّى وحي إبليس، وهو في الجنّة، لا فقط لأنّ الشجرة من منظور إبليس تُوصف بـ "**هذه**" لأنّها في ناحيته خارج الجنّة، بل لأنّ الوحي صوتٌ يأتي من الدّاخل من الرّوح، وكذلك الوسوسة هي كحديث النّفس ومصدرها من الداخل من الأعماق، فإذا كان الملاك يقول "**هذه الشجرة**" فإنّ "الوسوسة الداخليّة" تنبعث لتقول "**هذه الشجرة**" أي نفسها، ليختلط الوحي الرحماني بالوحي (الإلقاء) الشيطاني بتوحّد مصدر السماع والانبعاث، تماماً كالرؤيا لا يدري المرء أهي حُلم شيطان أم رؤيا الرحمن. أمّا في لفظة "**الشجرة**" الثالثة فسقط اسم الإشارة لأنّهما وقفا على باب الجنّة يتذوّقان مناظر الشجرة وصخبها والسفاد البهائمي بينها، وفي "**الشجرة**" الرابعة: جاء نداء ربّهما من داخل الجنّة "**تلكما الشجرة**" البعيدة والتي تمّ إبعادها أكثر الآن عن نواحي الجنّة. ولاحظ الفرق كيف كان الربّ قبلاً "**يقول**" لهما (**ألَم أقلْ لكما**)، أي أنّ التواصل مع

الروحانيّين روحيّ على مستوى القلب، ثمّ صار "**ناداهما**" لأنّهما ابتعدا عن إصغاء الرّوح ومقام القُرب، إلى جهازهما الجسمانيّ.

ثالثاً- كم بين خروج آدم وحواء؟

ربّما ساعات من حساب الجنة وربّما دقائق، لكنْ يومٌ إلهيّ هو كألف سنة، هذا ما يقولُه التراث كلّه، والقرآن يُؤكّده، فلو خرجتْ حوّاء بعده بساعة فقطّ لظل آدم في وحدته وتوبته أربعين سنة[١]، والحقّ أنّ آدم ظلّ كثيراً قبل أنْ يُتاب عليه وفي بعض المرويّات ثلاثمائة سنة[٢] أو أكثر، بدليل قوله في سورة طه (**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى❖ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى❖ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**)(طه: ١٢١-١٢٣). إنّ آدم بمجرّد أنْ عصى أُهبط هو والحشد الذي معه حول الجنّة من جنّ وبشر، فكيف نفهم مجيء أمر الإهباط بعد الاجتباء والتوبة؟

أوّلاً: من الخطأ التقديم والتأخير في الآيات كما يفعل كثيرٌ من المفسّرين فيتيهون ويُتوّهون.

---

[١] - اليوم (٢٤ ساعة) يساوي ألف سنة، فالساعة الربّانية (العالَم الآخَر/الجنّة) تُساوي حاصل قسمة ١٠٠٠ على ٢٤ = ٤٢ سنة تقريباً.

[٢] - عن النبي (ص): (.. وأمّا صلاة العصر فهي الساعة التي أكل آدم فيها من الشجرة، فأخرجه الله من الجنة. فأمر الله عزّ وجل ذريته بهذه الصلاة إلى يوم القيامة واختارها لأمتي فهي من أحبّ الصلوات إلى الله عز وجل وأوصاني أن أحفظها من بين الصلوات، وأما صلاة المغرب فهي الساعة التي تاب الله عز وجل فيها على آدم وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا وفى أيام الآخرة يوم كألف سنة مابين العصر والعشاء، فصلى آدم ثلث ركعات ركعة لخطيئته، وركعة لخطيئة حوا، وركعة لتوبته، فافترض الله عز وجل هذه الثلاث ركعات على أمّتي وهى الساعة التي يستجاب فيها الدعاء، فوعدني ربى عز وجل أن يستجيب لمن دعاه فيها) (الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج١، ص٦٩).

ثانياً: العقوبة الربّانيّة، صدرت من الربّ مباشرة لا من المدبّرين، فالمعصية كانت من آدم للربّ أيضاً (**وعصى آدم ربّه**)، والذي تاب واجتبى (**اجتباه ربُّه**) هو الربّ نفسه، والذي أمر بهبوط الجميع من الجنّة هو الربّ (**قال اهبطا**)، والذي وعد الهدى هو الربّ نفسه (**منيّ هدى**).

ثالثاً: بمجرّد صدور معصية الإنسان صدر قرار الإهباط، فلكلّ فعل ردّ فعل، كأنّه الصدى، بيّن ذلك في الأعراف (**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)(الأعراف: ٢٤).

رابعاً: تنفيذ هذا الأمر الربّانيّ، بيد المدبّرين المباشرين، فقُسِّم قسميْن كما بيّنته سورة البقرة: (**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ❁ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ❁ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(البقرة: ٣٦- ٣٨) لاحظ كيف تحوّل قرار الإهباط إلى صيغة "**قُلنا**" المتكلِّم الجمْع. أيْ أنّ الإنسان ("آدم") العاصي الحقيقي أمر بهبوطه المدبّرون أوّلاً تنفيذاً لأمر الربّ، ثمّ حينما جاء أوان تنفيذ تلقّي آدم كلمات التوبة من الربّ نفسه تمّ إنهاء عمليّة الإهباط للإنسان (حوّاء)، لتُعلن كلمات الربّ لآدم ولمن تكوّن من ذرّية آدميّة التي هي (**فمن تبع هداي ..**).

الآن لو راجعنا آيتنا لرأيناها واضحة:

(**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى❁ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى❁ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**)(طه: ١٢١-١٢٣). فالمسافة بين "وعصى" إلى "وهدى" هي مسافة تطبيق "اهبطا" حتّى الوعد بـ "إمّا يأتينّكم هدى". لذلك جاءت "قال" من دون عطف لتُفسّر أو تعلّل المعصية والاجتباء.

فالآيات واضحة بترتيبها: أنّ آدم عصى، فصدر أمرُ الربّ العام بإهباط الجميع، فنَفَّذ منه المدبِّرون ما يتعلّق بآدم ومن معه في محيط الجنّة، وبعد مدّة تاب الله على آدم وهو خارج الجنّة، وترافقت هذه التوبة مع آخر أمرٍ (صدر من المدبّرين لا من

الـربّ) بإهبـاط البـاقين مـن الجنـة تنفيـذاً للأمـر الربـوبي العـامّ، خرجـت فيـه حـواء والملائكة تحمل كلمات ربّها هـي "**فإمّا يـأتينّكم منّـي هـدى ..**"، ولتكوّن مـع زوجهـا آدم نسلاً، سيكون فيه للشيطان نصيبٌ حتماً، بعد أنْ أخذ نصيبه الأوّل مـن آدم وشـارك آدم في الذرّية لما عاشر الهمج، فتكتمل معادلة "**بعضُكم لبعض عدوّ**"؛ الشياطين أعداء الملائكة والعكس، بنو آدم أعداء بعضهم البعض، بنو آدم أعداء الهمج والعكس، بنـو آدم بعضُهم أعداء الملائكة وحُلفاء الشياطين، وآخـرون أعداء الشياطين وحلفاء الملائكة.

ولتميز الخطّ الزماني للحدث في آيات سورة البقرة وطه، والفرق بين إهبـاط الـربّ في أمرٍ واحد وتنفيذ المدبّرين له بترجمته إلى إهباطيْن في أمريْن، لاحظ الشكل التالي:

	خـــطّ الزمـــن
الإنسان	**هبوط آدَمُ** ... **هبوط حوّاء**
الحدث	**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ... **ثُمَّ** ... **اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**
الربّ	**قَالَ اهْبِـــــــطَا مِنْهَا جَمِيعاً فإمّا ..**
المدبّرون	**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** (آدم). **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً** (حواء).

إذن، (**وعَصى آدمُ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى، قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً**): فعبـارة (**قـال اهبطـا**) المعطوفـة بـدون حـرْف عطْـف، هـي متزامنـة ومفسّـرة لظـرف (**وعصى ثمّ اجتباه**)، وهذا يُبيّن لنا حقيقة الأوامر الربّانيّة والتدبيرات التي تأتي في ليلة قدْر ويأخذ تنفيذها ألف سنة، فقد جاء الأمر ببرنامج الإهباط والإجتباء وبعث الهدى دفعةً واحدة من الربّ، ونُفّذ على دفعتيْن فقد تكون المدّة بين الإهباطين دقائق، ساعات، من زمن الجنّة، لكنّه بزمن خارج الجنّة، الزمن الذي عُبّر عنه بـ "**ثُمّ اجتباه**"،

فبين "**عصى آدم**" و"**تلقّى**" مدّة مديدة عُبّر عنها بـ "**ثُمّ**" قد تصل سنوات أو عشرات السنين. أيّ أنّ اجتباء آدم قدّ تمّ تنفيذه والإعلان عنه فقط عندما قرّر المدبّرون أنّ أوان الاجتباء قد جاء ليصدروا-والتزاماً ببرنامج الربّ في إهباط الجميع- أمراً إهباطيا ثانياً ونهائيّاً لكلّ من بقي في الجنّة، والجنسان المهبطان من داخل الجنّة في هذه المرّة هما الملائكة الخادمة للمشروع الإنساني وبقايا الإنس (وتمثّله حوّاء هنا)، والإهباط الأوّل كان للجنّ والإنس (يُمثّلهم آدم) وأيضاً للبشر الذين معه ولذرّية آدم التي في رحم الهمج، لكنّ ذلك الإهباط الأوّل تمّ من خارج الجنّة، وفي الحقيقة هما جنسان فقط إنس وجنّ (والملائكة، التي هي رتبة ووظيفة رساليّة، هم "جنّ" لُغةً، بمعنى أنّهم مستورون عنّا وروحانيّون[1]).

رابعاً- الملائكة الأرضيّون

خلصنا فيما سبق، أنّ بخروج آدم من الجنّة وارتكابه المعصية وإهباطه العقابيّ المفاجئ، قد انتهى دور الملائكة المسجدين داخل الجنّة، مستفيدين من قوله سبحانه في الإهباط الثاني الذي فيه حوّاء ولكلّ مَنْ في الجنّة أنْ "يهبطوا منها جميعاً" وقُلنا أنّ الذي بقي فيها هم فئة الآمرون فقط، السادة الأربعة، الآمرون المدبِّرون، الذين أصدروا الأمرَ تنفيذاً لأمرٍ سامٍ صدَر منْ الرّوح الأعظم (الربّ) الذي نفخ في آدم، وقدْ عُبّر عن أنّه الآمر الحقيقيّ فعلاً في "طه" (**قال اهبطا منها جميعاً**) لاحظ "**قال**"، ومارس تنفيذ هذا الأمْرَ الصارمَ وتقسيمَه على فسحة الزمن السادةُ الأربعة في "سورة البقرة" (**وَقُلْنَا اهْبِطُوا**) + (**قُلنا اهبطوا منها جميعاً**) لاحظ "**قُلنا**" بضمير جمع المتكلِّم، وليس هو التفخيم كما يُزعم عادةً.

---

(1) - رووا أنّ رسول الله (ص) قال: خلق الله الجنّ ثلاثة أصناف: صنف حيّات و عقارب و خشاش الأرض، و صنف كالريح في الهواء، و صنف عليهم الحساب و العقاب، و خلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم قال الله: «لهم قلوب لا يفقهون بها، و لهم أعين لا يبصرون بها - و لهم آذان لا يسمعون بها - أولئك كالأنعام بل هم أضلّ» و جنس أجسادهم أجساد بني آدم و أرواحهم أرواح الشياطين، و صنف في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله. جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير، ج١ ص٢١٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٠، ص٢٩١.

فكلّ الملائكة المسجدين خارج الجنّة أرضيّون يجري عليهم زمن النظام الأرضي الكوكبيّ، منْ شروق شمس وغروبها، وليل ونهار، لذلك يقول سبحانه عنهم (**وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ* يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**)(الأنبياء:١٩،٢٠)، وبعضُهم في الأزمنة السحيقة من تاريخ الإنسانيّة مارس تعليمَ الناس، بأمر من السادة الأربعة الذين يُنزلون على الباقين خارجها ما يشاءون (**وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**)(البقرة: ١٠٢).

خامساً- حوّاء، هل هي تابع لآدم؟

ربّما يتساءل أحدٌ: ما السرّ في إلحاق حوّاء بآدم وتسميتها دائماً "**زوجك**"[1] كتابع غير مستقلّ؟ أهو امتهانٌ وتأخيرٌ لرتبة المرأة؟ البعضُ يقول جواباً أنّ حوّاء فعلاً هي تابع لآدم لأنّها دونه منزلةً، فآدم هو الذي نُفخ فيه من الرّوح، وعُلّم الأسماء كلّها، وأُسجدتْ له الملائكة، وأنّه هو الذي خُوطب مباشرة بالاسم، وهو الذي تاب اللّهُ عليه، وهو الذي اجتُبي بعدها!! هذا تحليلٌ لو صحّ لكان آدم أفضل البشر حتّى من نبيّنا (ص)، فما من آية تُبيّن أنّ محمّداً (ص) نُفخ فيه من الرّوح، ولا أنّه عُلِّم الأسماء كلّها، ولا أُسجدتْ له الملائكة. ولو صحّ لتبيّن أنّ إبليس أيضاً خيرٌ من حوّاء، فقد خوطب مباشرة بالاسم أيضاً.

إنّ كلّ تلك الأمور لا تُعطي التميّز ولا الأفضليّة، بل الوعي وتصرّف اللحظة على ضوئه هو الذي يُعطي التميّز، ولو عكسنا المسألة لرأينا أنّ حوّاء ربّما كانت أوعى قليلاً من آدم، وبهذا -أيْ لو عكسْنا المسألة- ينفكّ الإشكال كلّه، فالقرآن يُبرز في القصّة النّعَم التي أُعطيت لآدم، وتذكره بالاسم، لا لتخصيصه بها أو تخصيصها به، بل لتعقّب بالنتيجة المؤسفة بعدها، أنّ أبانا آدم مع هذه النّعم (التي نالته، لا أنّه خُصَّ بها) عصى ونسي ولمْ نَجد له عزمًا وغوى، وبما أنّ حوّاء خارج هذه النتائج المراد تقريرها فإنّ استحضار حوّاء في المقدّمة بأنّها أيضاً أُسجدت لها الملائكة وخوطبت

[1] - (يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)(البقرة:٣٥) و (الأعراف:١٩)، (يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ)(طه:١١٧)

وعُلِّمت الأسماء، لا جدوى له، لأنّا بذلك نُسلِّط الضوء على الشخص الخطأ نعمةً أو نقمةً، وليس المجالُ مجالَ تفاضل بينهما .

فعداوة الشيطان للجنس الجديد (الإنسان الخليفة) لا لآدم خصوصاً (**إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك**)، لكنْ لأنّ الشيطان- وعلى عكس ما يقولون- سيكون نفاذه إلى آدم بأشدّ من نفاذه إلى حوّاء استدعى تنبيهه باسمه وخطابه هو بالخصوص (**فلا يُخرجنّكما من الجنّة فتشقى**).

أمّا تعلّمُ الأسماء فهي للكائن الجديد لموضع الرّوح فيه وإشراقها على عقله، ذكراً كان أو أنثى، وإلاّ فهل حوّاء عُلّمتْ نصف الأسماء، وأنّ الملائكة رفضت أن تسجد لامرأة أم ماذا؟! الإسجاد ليس حركة إيقاعيّة جسمانيّة، كما نتصوّر ونتخيّل وكأنّنا في باحة مسجد، بل هو الوقوع تحت تصرّف آخر والخضوع له، هو الحركة ضمن نظام جديد يأسر الملائكة به، فلم يكنْ السجود لآدم إلاّ باعتباره أوّل إنسان، فمنذ أنْ انبثق الإنسان (بنفخ الرّوح في آدم[1]) نوديت الملائكة لتنضوي في مشروعٍ جديد (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى**)(البقرة:٣٤ + طه:١١٦)، ومُذ أُمرتْ ما زالت الملائكة إلى اليوم ساجدةً لآدم أي للمخلوق الإنساني، وطوع برنامجه، فكَتَبةٌ وسَفَرةٌ وحفظةٌ ومعقّبات ومتلقّيان وملائكةُ حفظ وتوفّي ووحي ونصرة ..الخ، كلّها ملائكة معكوفة في خدمة أو القيام على المخلوق الإنساني لتأهيله الذكّر والأنثى على السواء، فهم ساجدون لهذا اليوم، والشيطان غير ساجد لهذا اليوم.

أمّا أنّ الله تاب على آدم بالخصوص! فلأنّه بالخصوص دون حوّاء عصى، وأنّه إيّاه اجتبى! فالاجتباء عكس الإبعاد، فلأنّه دون حوّاء قد أُبعد .

فالسرّ في إلحاق حوّاء بآدم وتسميتها دائماً "**زوجك**"، مع أنّ حوّاء خُلّقت وأُوتيت تماماً ما أُوتي آدم، رُبّما لأنّ الحقبة التي سبقت انبثاق الجنس الإنساني كانت حقبة أموميّة، أي فيها يتزاوج البشر طبيعيّاً كالبهائم، ولا مِنْ أسْرة بالمعنى الواعي، والأنثى

---

[1] - بعضُ الآثار المرويّة ألمحت أنّ آدم خُلق قبل حوّاء بأسبوع، وأنّ حوّاء قد تمّ تخليقها يوم "عيد الفطْر"!

ترعى الأبناء، والذكور هم فحول فقط، والتزاوج كان سلاحهم الوحيد في البقاء والانتشار غريزةً فيهم لئلاّ ينقرض جنسهُم البشريّ، وبخلْق آدم وزوجه حوّاء كجنسٍ بشريّ "إنسانيّ" جديد، آن أوان الامتناع عن تلك الشريعة الحيوانية لدى الكائن الجديد، الساكنيْن الجنّة، فجنسهما المحميّ ليس عرضةً للانقراض، وما يصلح أنْ تظلّ المشاع والأموميّة والعشواء ومجرّد الإخصاب شريعته، بل يراد سنّ نظام الأسرة والحبّ والأبناء وحرمات الزواج من الأقارب وتدشين المفاهيم الأخلاقية والقيم والسموّ الروحيّ، أيّ تسيّد نظامِ وعْي "إله" لا نظام بهائم، وكلّ هذه الأمور لا تتّكئ إلاّ على نسف شريعة الحقبة السابقة بإفْراد الأنثى لذكرٍ وحيد، وبإفراده هو لها أيضاً في الدرجة الثانية، لذلك نرى أنّ الذي ارتكب الخطأ هو آدم دون حوّاء، ما يعني أنّ التجربة نجحت في نصفها الأفضل، ولو سقطتْ حوّاء مع آدم لفشلت التجربة كلّها بأبشع ممّا حصل، ولربّما استُبدلا معاً بغيرهما بدل تأجيل الخلافة، فالإنسانيّة قد تمشي ولو عرجاء بفساد رجلٍ وصلاح امرأة، لكنّها لنْ تمشي أبداً بالعكس. غيْرَ أنّه بخطأ آدم وبالتّالي خروج الجنس الإنساني من محلّته الآمنه صار معرّضاً لخطر الزوال والانقراض، فكان الإجراء الوحيد غرائزياً هو إدامة "نصف عشتاريّة" يكون فيها الرجلُ مخصّباً لمجموعة، مع خلوص الزوجة لذكَرٍ واحد، لتنسل الإنسانيّة أنسالاً شرعيّين، الأمر الذي دُعي بعدها "تعدّد الزوجات"، وبعد انبساط الجنس الإنساني على الأرض وإزاحته للجنس الهمجي كلّياً، جاءت الشرائع السماويّة تترى لتقييد هذه الحالات، وإرجاع شريعة الجنّة المفقودة (آدم لحوّائه وحوّاءُ لآدمها) في نهاية المطاف، والإبقاء على حالات إنسانيّة استثنائية تُناسب الوعي والعقل، كالسماح لتعدّد الزوجات لا لقضايا شهوانيّة أو تكاثريّة بل فقط لإعالة أيتام أو لقضايا اجتماعيّة وإنسانيّة أو روحانيّة بحتة، وهذا ما جاء به النصُّ القرآنيّ كخاتم ملّة.

فسرُّ إلحاق حوّاء بآدم بتعبير (**زوجك**) هو تدشينُ الدور الزوجيّ والأبويّ في الأسرة لتكون الزوجة لرجلٍ واحد، وتأسيسُ واجبٍ بقيام الرجل على مفاهيم العفّة والشرف والعرض، وتوفيره المسكن والملبس والمأكل (المسمّى بفكر "إيل" حسب تراث الأوّلين) لصيانة بيت الزوجيّة، ولنسف الشريعة السابقة (المدعوّة بشريعة "عشتار" شريعة الإخصاب كيفما كان) التي ظلّت -من جرّاء التخلّف أو الجهل أو الشهوة-

سائدةً ولمْ تنمحِ طوال التاريخ حتّى هذا اليوم، وجاءت الشرائع الإلهيّة متشدّدة لمحوها وتسمّيها شيئاً فشيئاً لدى الكائن الواعي بالسفاح والفاحشة والزنا لمّا انتظم أمرُ الاجتماع الإنسانيّ ووُضعتْ القوانين، لأنّها منْ آثار الجاهلية الجهلاء، أو "الجاهليّة الأولى" (المملكة الحيوانية) (وسنأتي لتفصيل ذلك في التراث).

فأصبحت رابطةُ الزوجية وعياً واقتراناً مقدّسا قائمًا على الحبّ والاحترام والقيم والاحتراس والنواهي والتربية والسموّ، والمعاشرة بينهما تقوم على الحبّ والانسجام لا فقط على الحاجة الغريزية المرتبطة بمواسم التزاوج للنسل ولا اهتياجاً وقت اكتمال القمر، هذا الوقت المحتمل أنّ آدم ارتكب فيه المعصية في فصل التزاوج حيث الربيع وحيث تبرّج إناث الممالك الأدنى.

سادساً- السوأة والعورة

إنّ مدرسة الترادف، جعلت معنى "السوأة" والعورة" واحداً، حتّى أنّك لا تفتح تفسيراً كبيراً، أو حتّى تفاسير الجيّب كما يُسمّونها حتّى تجد على الهامش أو في الأسفل هكذا (السوأة : العورة)، ودليلُهم على هذا "التبادر" أو "الاستعمال" فأيّ تبادر هذا أو استعمال، الذي يسبق عند سماعنا قائلاً يندب "واسوأتاه"؟ أينقدح فينا أنّه يعني "واعورّتاه" "واعانَتَاه" (منْ العانة)؟ أوَنتصوّره ممسكاً بمؤخّرته متألّماً منها مثلاً؟! إنّ المرء العربيّ ليُدهش أنْ يجد معظمَ المفسّرين يزعمون أنّ السوأة هي "العوْرة" البدنية، مع أنّ القرآن لمْ يقلْ "سوأة" واحدة بل قال "**سوءات**" متعدّدة، وأنّه حين أخبَر (**ليُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيه قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي**)(المائدة:٣١) حتماً لا يعني أنْ يدفن الأخُ "عَجْز" أخيه ويدسُّه في التراب ويُبقي باقي أطراف الجسم خارجاً!! لقد تمّ التفريق بين (السوأة) و(العورة) في كتاب الله بالمعاني المختلفة للعورة أيضاً: (**عَوْرَاتِ النِّسَاءِ**)(النور:٣١)، (**ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ**)(النور:٥٨)، (**إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ**)(الأحزاب:١٣)، فالقرآن قادرٌ على أنْ يقول "عورة" هنا أيضاً، في قصّة آدم لو

كانت! على أنّ العورة أيضاً لا تعني في حقيقتها الجزء البدنيّ المستقبح كشفه للغير، بل مواضع الإصابة التي ينبغي المواظبة على حفظها أو سترها[١].

"السوأة" هي كلّ فعلٍ أو حالٍ يُسيئ، كلّ ما يسُوء المرءَ ويُقلّل من احترامه أو كرامته أو قداسته. والميّت ليس له إلاّ سوأةٌ واحدة هي تدنيسه سواءً بكشفه عارياً وإهانته أو انبعاث رائحته، لذلك قيل (**سوأة أخيه/سوأة أخي**)[٢] بالمفْرد للتعبير عن سوأة واحدة فقط، أمّا الحيّ فله سوءات، سوأة البطن، وسوأة الفرج، وسوأة الجهل، وسوأة الذلّ، وسوأة الطمع، وغيرها، وكلّها تتبع طغيان "النفس" على "القلب" (القلب الذي أعلاه الروح وأدناه العقل)، وبعبارة أوضح طغيان الغرائز على العقل الأعلى واستجابته لها،كما حدث لآدم، وسنأتي لاحقاً على المزيد بشأن السوأة.

سابعاً- نسيان الغاية، وتلوّث المناعة الإنسانيّة

أما الغواية فهي نسيان الغاية، وعكسه الرشد، وقد يكون بغير قصد للضلال، بل بانخداع. و"**غوى**" هي التي نسفت الغاية منْ خلْق آدم بكْر الإنسانيّة لتكوين ذرّية إنسانية صفيّةٍ واعية ليس فيها جهل وظلم (أيّ شرْكٌ للشيطان) يتعسَّر فيها ظهور "**مَن يُفسد فيها ويسفك الدّماء**"، طبعاً مع بقاء حرّية الإنسان ضمن طريق الخير والشر"[٣]، لذلك قيل عن آدم أنّه "**نسي**" نسي الغاية من اختياره وخلقه إنساناً من

---

[١] - راجع: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وتكون العورة بهذا ظرف زمن مواظبة الحفظ كما في (ثلاث عورات) أو ظرف مكان مواظبة الحفظ كـ (بيوتنا عورة)، ومنه جاء "الأعور" لأنّه فسدت عينٌ منه، ونقول بالدّارج من لهجاتنا "عوَّرَه" أي أصابه بسوءٍ وبألم.

[٢] - (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي)(المائدة:٣١).

[٣] - لو لمْ تقع المعصية الأولى، لكان الأمر (وبقصد التمثيل فقط) أشبه بنقاء السلالة البشريّة من التشوّهات الجينيّة والأمراض الوراثيّة، لكن هذا لا يعني أنّ السلالة ليس لديها القابليّة للإصابة بأمراض غير جينيّة أو غير وراثيّة، كما لا يعني هذا أيضاً عدم بروز فرد من أحد أبناء أو أحفاد آدم يقتحم مسألة التزاوج مع الهمج فيتسلّل التشوّه الجيني والوراثي على سلالة الإنسان مرّة أخرى لا

أولئك الهمج (**وغوى**)، وحين غوى آدم عن هذا، حين غوى عن المراد من تكوين ذرّية إلهيّة ليس فيها شركٌ بهائميّ، وَلَجَ إبليس ليُشارك آدم في ذرّيته، فبمعاشرة آدم أنثى الهمج، احتنك إبليسُ جزْءاً منْ ذرّية آدم، وصار لإبليس ذرّية، أيْ قُدرة للدّخول على النّفوس البشريّة وجعلهم أتباعاً له، أكثر بكثير ممّا لو كانت السلالة الإنسانية بريئة من الجينات الهمجيّة، لذلك إبليسُ أراد أنْ يدلّ "آدم" فقط على "أنثى الهمج" لينسل منها (شجرة الذرّية) (**هلْ أدلُّك على شجرة الخلد**)، التي إنّما بها كان "خلّد" إبليس كوجود شيطانيّ في المحيط البشريّ.

و"**غوى**" من معانيها أيضاً "الزنا"، ففي محيط المحيط (الغيّة الزنية، وولد غيّة ولد زنية، وفلانٌ لغيّة نقيض لرشْدة)، ولذلك نرى صدى هذه الدلالة في صرخة لوط (ع): (**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ**)(هود :٧٨)، فهو لمْ يقلْ "أليس فيكم"[١]، بل يسأل عن أصولهم، ورشيد هنا نقيض غويّ، وإنْ كانت تحتمل كلّ معاني الرشد من قوّة عقل، وهدى، وقصد، لكنّها أيضاً تُلمّح إلى الأصل، أي ابن حلال، يعرف الحلال من الحرام، ويستبشع الفاحشة، فإنّ ابن الشرفاء "سيكلوجياً" وفي الغالب أقرب لاستبشاع الدنايا من ابن الزناة.

وفي سورة الأعراف ١٤٥-١٤٨ حين كتب الربّ لموسى في الألواح وصاياه ومواعظه والتي من أولى وصاياها "لا تزنوا"، أخبر سبحانه بوجود أناس (**إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ**)، فإنّ قوم موسى كان الزنا يدبّ فيهم ونصوص التوراة مليئة بذكر هذه الظاهرة فيهم وذمّها، بل قد نسبت هذه المقبحة حتّى لأنبيائهم الشرفاء، والمُطّلع على سفر اللاوييّن، الفصل ٢٠ من التوراة يرى تعاليم مشدّدة في كلّ أنواع وألوان الزنا المشهور

من رأس الهرَم بل من جوانبه هذه المرّة.

[١] - تقول العرب "منّا فلان" أي أنّه ينسب إليهم ومن أصولهم، ولو قالت "فينا فلان" لما تبيّن سوى أنّه فيهم، أي موجود ثمّة، ولعلّه غريبٌ عنهم أو دخيل، فكان المحاصرون لوطاً من أصلٍ واحد، وقد يئس أن يجد منهم ذا منبتٍ شريف، سواءً نسلاً أو تربيةً.

بينهم ويُراد علاجه بضراوة، ويكفينا أنّ في سفْر العدد الذي يصف حركة قوم بني إسرائيل مع موسى (ع) ونزوحهم تنقّلاً بين الأقوام العربيّة (**وَأَقَامَ إِسْرَائِيلُ فِي شِطِّيمَ وَابْتَدَأَ الشَّعْبُ يَزْنُونَ مَعَ بَنَاتِ مُوآبَ فَدَعَوْنَ الشَّعْبَ إِلى ذَبَائِحِ آلِهَتِهِنَّ فَأَكَلَ الشَّعْبُ وَسَجَدُوا لِآلِهَتِهِنَّ وَتَعَلَّقَ إِسْرَائِيلُ بِبَعْلِ فَغُورَ. فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيل**)(العدد ٢٥ : ١-٣). أمّا في سفْر هوشع: (**أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ!**)(هوشع ١ : ٢)، و(**شَعْبِي يَسْأَلُ خَشَبَهُ وَعَصَاهُ تُخْبِرُهُ لأَنَّ رُوحَ الزِّنَى قَدْ أَضَلَّهُمْ فَزَنُوا مِنْ تَحْتِ إِلهِهِمْ**)(هوشع ٤ : ١٢)، (**إِنَّهُ قَدْ جَمَحَ إِسْرَائِيلُ كَبَقَرَةٍ جَامِحَةٍ**)(هوشع ٤ : ١٦)، فاتّخاذ العجل ليس إلاّ تواصلاً لعبادة بعل السابقة، شريعة عشتار، ولذلك نرى التعقيب في سياق الآيات باتّخاذ العجل (الثور) الذي هو رمز شريعة الخصب، رمز "دموزي" أو "بعل"، فهذه الشريعة صارت "سبيل الغي" أي زنا في المفهوم الواعي الاجتماعيّ، أمّا "الرشد" فهو الإنجاب وفق شريعة النّظام الربّاني والزواج المقدّس الواعيّ.

فمن دلالات "**غوى**" التي لآدم هو التكاثر عن غير الطريقة السويّة، غير الطريقة التي عُهد لآدم بها، حين قيل له (**أنت وزوجك**) و (**لا تقربا هذه الشجرة**)، فأتى بنسلِ غيّة، لا رشْدة، حسب محيط المحيط. ولهذا نلمس خيْطاً عن سبب تأخّر "**غوى**" على "**عصى**"، فكان يقتضي أنْ يُغوى آدم بإبليس أو بتلك الأنثى ثمّ يعصي، لكنّه حين عصى وقرب الشجرة جنسياً غوى أيْ أنتج نسلاً فاستدام الوجود الهمجي (ثغرة الشيطان) في دخيلة المكوّن الإنسانيّ. وسببٌ آخر لتأخّر "**غوى**" على "**عصى**"، سنرصده حين نرى أنّ آدم دون حوّاء الذي غوى عن طريقَ الرجوع إلى الجنّة بعد جامحِ معصيته.

ثامناً- التصوير الثلاثي لأحداث المعصية ومفرداتها

والآن، لنتتبّع معصية حوّاء خطوةً خطوة، كما هي مذكورة نصّاً في القرآن:

الزاوية (أ) البقرة: (**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ• فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ❁ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ❁ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)(البقرة:٣٥ – ٣٨).

الزاوية (ب) الأعراف: (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ❁ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ❁ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ❁ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ❁ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ❁ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ❁ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ❁ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ❁ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ❁ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)(الأعراف:١٩ –٢٨).

الزاوية (ج) طه: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً❁ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى❁ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى❁ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى❁ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى❁ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى❁ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى❁ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى❁

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)(طه:١١٥ - ١٢٣).

القصّةُ إذاً مصوّرةٌ مِنْ ثلاث زوايا، وكذلك مصطلحات الحدث:

- الزاوية (أ) البقرة و(ب) الأعراف، الكلام فيهما يبدأ عن آدم بشكل مباشر، وعن حوّاء بشكل غير مباشر، أما الزاوية (ج) فتبدأ بالكلام عن آدم فقط.

النتيجة: هذا يُعطينا انطباعاً وافياً أنّ كلّ زاوية تقول أنّ آدم إمّا هو المسئول المباشر عن المعصية أو أنّه الوحيد.

- في الزاوية (أ) البقرة كما في الزاوية (ب) الأعراف، المنهيّ عنه هو (**لا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ**) بالنصّ نفسه في الاثنتيْن. يُقابله في الزاوية (ج) طه، أنّ المنهيّ عنه هو طاعة عدوّهما الشيطان في الخروج من الجنّة (**فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ**)، حيث يُريد أنْ يدلّ "**آدم**" بالخصوص على موقع الشجرة.

النتيجة: أنّ "**الشجرة**" (سلالة الهمج) كانت موجودةً خارج الجنّة، في الأنحاء المحيطة بها، ومن الجنّة بإمكان المرء أنْ يُشرف عليها ويلحظها.

أ- دلاّهما

- في الزاوية (ب) الأعراف، نلحظ فعلاً هو "دلاّهما" فما هو التدلية؟

الجواب:

(من الزاوية (ب) الأعراف: **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**.

من الزاوية (ب) الأعراف: **لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**.

النتيجة: أنّ "دلاّهما" = "أخرجهما نازعاً عنهما لباسهما".

فماذا نجد في اللغة معنى "دلّى"؟ ففي محيط المحيط؛ دلاّها : أيْ نزعها وجذبها ليُخرجها . واسترسل منحدراً . ودلاّه بغرور أي أوقعه في ما أراد من تغريره، ودلى بالشيء استقى به، وتوسّل. فهل أحكم من وضع هذه المفردة لتصف جميع ما حصل، على مستوى النوايا والأفعال:

❖ فآدم وحوّاء غرّهما الشيطان وجذبهما رويداً رويداً إلى خارج الجنّة لينحدرا بعد نزعهما من لباسها .

❖ فأوقعهما الشيطان فيما أراد من تغريره.

❖ وتوسّل الشيطان بقابليّة الغرور فيهما ليَخدعهما عماّ كانا فيه.

❖ فاستقى بهما الشيطانُ مرادَه، فكان آدم بالخصوص دلو الشيطان الذي دلاّه خارج الجنّة ليستقي منه نصيبَه من ذرّية قابلة لتكوين (شياطين الإنس).

– في الزاوية (ب) الأعراف، الشيطان يجذبهما بخفّة واسترسال (دلاّهما) إلى موضع "الشجرة" --› ذاقا الشجرة --› **بدتْ لهما سوءاتهما.**

– في الزاوية (ج) طه، الشيطان يدلّ آدم على الشجرة --› أكلا منها --› **بدتْ لهما سوءاتهما**.

– في الزاوية (ب) الأعراف، الشيطان "ينزع عنهما لباسهما" (درع التقوى والحذر) شيئاً فشيئاً --› حتى أخرجهما من الجنّة --› **ليريهما سوآتهما**.

– في الزاوية (ب) الأعراف أيضاً، الشيطان وسوس لهما --› **ليُبدي لهما ما ووري عنهما مِنْ سوآتهما**.

النتيجة: ارتباط الذوق أو الأكل ببدوّ السوءات، ارتباط السبب بالنتيجة.

فما هي هذه السوءات؟ وما علاقتها بالذوق والأكل؟ (انظر الصورة: ٨)



الرب يوصي آدم وحواء بعدم الأكل من الشجرة!!! تصوّر خاطئ للأكل وللشجرة
(الصورة: ٨)

ب- السوءات

تُفصح الآيات أنّ "إبداء سوآتهما لهما" هو مِنْ فعل الشيطان وتخطيطه، وفي الحقيقة هي نتيجة مباشرة لفعلِ فعله الشيطان وخطّط له "ينزع عنهما لباسهما" "ليريهما سوءاتهما"، ونحن وإنّ كُنّاً سنُعالج مسألة "نزع الشيطان لباسهما" بعد حين، وإنّ كُنّا سنُعالج مسألة الذوق والأكل بعد أسطر، إلاّ أنّ جدليّة العلاقة بين هذه الأجزاء لا يُفهم أحدها إلاّ بفهم الآخر، لأنّنا نجد:

(**نزع الشيطان لباسهما**) يؤدّي إلى (**يريهما سوءاتهما**)

(**الأكل من الشجرة**) يؤدّي إلى (**بدت لهما سوءاتهما**)

(**ذوق الشجرة**) يؤدّي إلى (**بدتْ لهما سوءاتهما**)

فبدوّ السوءات إذاً ليس مِنْ قسْم الندم والانكسار، أيْ ليس هو انكشاف سوء فعلهما لهما، بل هو أمرٌ يريده الشيطان أنْ يحصل ويظلّ حاصلاً، فالشيطان لا يُخطّط لأن يتعرّف الإنسان إلى خطأه، لمن ظنّ أنّ السوأة هي قبيح الفعل وأنكر أنّها عورة بدنيّة، فهي لا هذا ولا ذاك، الشيطان لا يُريد لآدم أنْ يندم ويرى سوء فعله، لنقول الشيطان أرى الإنسان سوءاته، فالذي يفعل هذا الملائكة والضمير، هي التي تُوقظ المرء ليرى سوء فعْله. إذن، إراءة السوءات هنا، ليست في مرحلة الندامة والرجوع (كما ظنّت التفاسير- **لاحظ الشكل التالي**)، بل في حقبة درب الخطأ وطاعة الشيطان والانحدار. لا سيّما وأنّ سوءاتهما موجودةٌ فيهما وهما في الجنّة، وقد وُوريتْ عنهما بالتخليقة الجديدة بواسطة السادة الملائكة المخلّقين (والمبرمجين نظامه، الصافّين جيناته) وسيادة الرّوح العُليا المنفوخة فيه، فهي سوءات طبيعيةٌ في آدم وحوّاء حتّى ولو لم يخرجا من الجنّة أبداً ولمْ يُطعا الشيطان بالمرّة؟ هي موجودة لكنّها غير بادية لهما بل مخفيّة عنهما، وكلّ ما أراده الشيطان، هو إبداؤها لهما، وإخراجها من كمونها. فبما أنّ "ظهور السوءات" وعلوّها على السطح، ومجيئها في أولوية التفكير والشعور، لم يكن ليكون إلاّ بنزع اللباس، ثمّ بالأكل أو الذوق من الشجرة، فهذا يعطينا صورة سريعة، عن معاني هذه الأمور في الحقيقة، لا المجاز، فاللباس كان لباس الروح (العقل/ التقوى/ العصمة/ السموّ/ التجرّد للمعالي)، ونزعه يُؤدّي إلى رؤية حاجات البدن، والأكل والذوق من الشجرة، هو النظر إلى مشاهد الجنس البشري والاستمتاع بها، هي التي تُبدي الحاجة الجنسيّة في غير أوانها وتوقدها وتُوقظها من كمونها، والنظر والتلذّذ بالنظر أو اللّمس هو الذوق والأكل من الشجرة.

السوءات (هنا): الغرائز التي تُلبّى بشكلٍ فاضح أو بوسيلةٍ حرام فتُسيء إلى صاحبها

الزمن	قبل دخول الجنّة	في الجنّة الآمنة المحروسة	حين الاغترار والتسلّل خارج الجنّة			
ما جرى على الإنسان	الكائن البشري الوحشي قبل تخليقه إنساناً	تحويل الكائن البائد إلى "آدم" العاقل الروحاني	انخداع الآدميّ بتغرير الشيطان	استيلاء الغرائز عليه		الندم
تعامل الإنسان مع السوءات	السوءات بادية دائما ويلبيّها بطريقة فاضحة	وُوريت عنه السوءات لسيطرة الرّوح	بدت السوءات لتُسيطر وتضغط	وهن عزم آدم فخضع للغريزة وعصى ربّه	ب س خ	الخصف للرجوع إلى الجنّة

ب س خ: (بدو سوءات خاطئ)، إذْ في هذا الموضع جعل المفسّرون مرحلة بدوّ السوءات أيْ بعد المعصية وضمن مقدّمات الندم!

ولو أنّا تمعّنّا في دقائق الحرف القرآني في قوله مرّتيْن: (**بدتْ لهما سوءاتهما**)، وتساءلنا: ما فائدة "**لهما**"، لماذا ليس "بدتْ سوءاتهما" فقط؟ لأنّ المراد إبداء السوءات لهما، لا للغير، ولا مجرّد الإبداء، بل إبداء حاجاتهما لهما، ولأدركنا بذلك أنّ آدم وحوّاء كانا في غفلة عن هذه الحاجات وفي غنىً عنها، حتّى كشف عن غطائها إبليس ونزع عنهما لباس روحنتهما، تماماً كالذي ينصرف مركّزاً محلّقاً بتفكيره في التركيز في شيء، فإنّه يغفل عن حاجته أيّ حاجة، من أكلٍ أو نوم أو جنس أو غيرها، وحين يخرج من حضوره التامّ ويفقد تركيزه تنهال عليه الحاجات وتبدو له ضاغطةً عليه من كلّ ناحية (وهي السوءات)، فهي أمْرٌ "**وُوري**" عنه أوّلاً، ثمّ "**بدتْ**"، النائم أيضاً الذي تعاين نفسه أموراً في عالم التجرّد، لا يعي حاجات بدنه ما دام نائماً، وهي خامدة لمْ تُوقظ، وقد يكون صاحبها في أحلى حُلم يعيشه، لكنّها ما أنْ تهبط نفسُه إلى عالَم البدن فيستيقظ حتّى تستيقظ معه كلّ الحاجات، فتراه يهبّ من نومه منتفخ المثانة أو غيرها، ليقضي حوائجه التي كانت غير بادية له، لأنّها ووريت فكانت وراء شعوره بها.

فالإنسان لديه القدرة على أنْ يعيش في نكرانٍ تامٍّ للحاجات التي يُمكن أنْ تُذلّه، فلا تبدو له أبداً، وإنسانٌ آخر من فرط خسارته لباس تقواه، وضعف عقله عن ربط

بهيمة نفسه، ترى سوءاته (غرائزه متى ما لبّيتَ بالإساءة إلى صاحبها) دائماً باديةً له، بل لا يبدو له غيرها، فهو أسيرها، سهّارٌ على تلبيتها، طوّافٌ بين "نثيله ومعتلفه"، همّه علفها، يأكل ويُعاشر ويُصارع الخصوم وينام، كلّ ذلك جهاراً وبطولاتٍ، هذا هو تفصيلُ أيّامه إجمالاً.

فالشيطان كشف لهما شيئين مخفيّين حين أطاعاه بالتسلّل لخارج الجنّة، بعد أنْ نزع عنهما لباس العصمة والطاعة:١- الشجرة (سلالة الهمج) ٢- سوءاتهما.

فهل "قرب الشجرة" هو "السوأة"؟

لا، لأنّ حوّاء لم تَقرب الشجرة (أيْ لمْ تُعاشر همَجاً)، آدم فعل ذلك وحده. بل "انكشاف السوأة وبدوّها" أمرٌ جرى لحوّاء ولآدم نتيجة ذوق (والأكل منْ) الشجرة، وهو كما قُلنا، حاجاتٌ كانا في غفلة عنها وفي غنىً (= "**ووري عنهما**")، اشتعلتْ عنيفاً تُلحّ بالتلبية ولو بالحرام حين تذوّقا من تلك المشاهد المغرية لشجرة البشر الهمج، وبهذا نُدرك سرّ منطقيّة تسلسل "الذوق" و"الأكل" قبل "بدوّ السوأة". فرؤية المناظر المُغرية جنسياً والتلذّذ بها مليّاً يُشعل فتيلاً لغرائز تريد أنْ تتفجّر، لا يختلف في هذا الأمر آدميّان.

ج- الذوق والأكل من الشجرة

- في الزاوية (ب) الأعراف، نرى (**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا.**)، وفي الزاوية (ج) طه، نرى (**فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا.**)، فبما أنّ النتيجة واحدة بالتمام، نستنتج أنّ "ذوق الشجرة" يُحاكي قريباً "الأكل من الشجرة"، وهذا فعله الاثنان (آدم وزوجه حوّاء)، والغريب أنّه ما منْ "أكل" من مأكولات البطن، يُحاكي "الذّوق" من محسوسات الفم، وهذا دليلٌ آخر لمَن أراد أنْ يُدرك سرّ التفوّق القرآنيّ، فما منْ أكلٍ يُحاكي الذوق إلاّ بالعين، عين الاشتهاء، اشتهاء النّفس، لذلك عدّ المسيح (ع) الزنا زنا العين قبل زنا الفروج، وأكّده تراثنا الإسلاميّ، فالنّفس إذا نظرتْ إلى شيء وأعجبها فقد ذاقتْ، وإنْ طال وقوفُها واستمتاعها فقد أكلتْ

واستمتعتْ، وإنْ لمْ تفعل شيئاً سوى بالعيْن[١]. والقرآن الكريم حين أراد بيان أنّ أهل النار عارون عن ((أقلّ)) نفحة رحمة قال (**لا يَذُوقُونَ فيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً**)(النّبأ:٢٤)، وفي المقابل قال (**مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ**)(البقرة:١٧٤).

وقدْ بيّن الاستعمال العربيّ في المطعومات مستوى التدرّج بين الفعلَيْن "ذاق" و"أكل" بصورةٍ حسّية، أنّ (ذوق) الطعام هو بالفم ولأوّل وهلة (أيْ عمليّة يجري فيها تسييل اللّعاب/الرّيق)، بينما (أكلُ) الطعام عمليّةٌ أعمق وأطول من الذّوق وتتعدّى الفم (عمليّة يتمّ فيها بلْع الرّيق)، وهذا ليس عبثاً لغوياً، واطّراده في القصّة واضح، فلو نقلنا هذه الميكانيكيّة على مستوى الجنس، أو الرغبات الأخرى، فالنظر الجنسي الأوّل يُسيل اللّعاب فهو "ذوق" جنسي، والإطالة بالتصوّرات الذهنيّة يجعل المرء يبلع لُعابه[٢] فهو "أكل" جنسي، وأمّا الإقدام على العمليّة الجنسيّة وممارستها فهو "قرْب" كما قال تعالى (**وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**)(البقرة:٢٢٢).

الشجرة (سلالة البشر الهمج)	ذوق جنسيّ (نفسيّ)	أكْل جنسيّ (نفسيّ)	قرب جنسيّ (جسديّ)
حوّاء	نعم	نعم	لا
آدم	نعم	نعم	نعم (عصى)

غير أنّه إذا كان "الذّوقُ" الذي هو الإحساس بالشيء للوهلة الأولى، قدْ أعقبه بدوّ السوأة (أيْ حرّك غريزة كانا ممنوعيْن منها)، فإنّ الاستمتاع الأطول (الأكل) هو الآخر أعقبه بدوّ السوءات أيضاً، فالسؤال لمن فسّر "**بدتْ لهما سوءاتهما**" بأنّه رؤيتهما قبيح

---

[١] – وكذلك الغيبة كمفهوم أخلاقي وسلوك اجتماعي، إنْ قبِلَ المرء أنْ يسمعَ طعنًا في شخصٍ محترَمٍ غائب، فقد "ذاق" لحم أخيه، وإنْ قعد معهم مشاركاً ومستأنساً بالحديث فقد "أكل" من لحمِ أخيه ميتاً!

[٢] – لعلّه من عجيب أسرار هذه اللغة الفطريّة العربيّة أن جعلتْ وصف "لُعاب" لسائل الفم الذي يتحرّك دليلاً على وجود مؤثّرات "تلعبُ" بسيكلوجيّة صاحبه ومشاعره، و"ريق" هو الشيء الذي يُراق حين يروق للمرء أمرٌ ما، أمّا حين تأتي المفزعات فيجفّ هذا "الريق" لأنّها لا "تروق" لصاحبه.

ما فعلاه (أي الندم)، فهذا يُورث التناقض، لأنّ اللّه تعالى أخبر أنّ "البدوّ" أعقب الذّوق مرّة، وأخبر أنّه أعقب الأكل مرّة أخرى، فإذا كانا "ندما" بعد الذّوق مباشرة فمتى أكلا، وهلاّ توقّفا! من انكشف له قبيح فعله بعد الذّوق فقط لا يُواصل فيه ليستكثر من القبيح فيأكل!

الجواب: قد أجبناه قبل عدّة ورقات، أنّ انكشاف السوأة لا علاقة لها بالنّدم، بل هو بروز حاجة غرائزيّة تهيّجتْ بممنوع وتلبيتها مذلّ وفاضح، هي سوأة الشهوة الحرام هنا، التي أزرتْ بالحال السامي الذي كانا فيه، فظرفُ بدوّ السوأة، هو نفسه، ظرف إخراجهما ممّا كانا فيه، إنّ خروج الإنسان من روحانيّته هو نفسه بدوّ سوأة بهيميّته، ولا برزخ بينهما، الكلام ليس عن الغرائز الطبيعيّة التلبية، بل عن التي تُلبّى بالحرام.

فإنْ كان الذوق (النظرة الأولى) حرّكت السوأة المخفيّة (الشهوانيّة)، فبداهة أنّ التسمّر للنظرة الثانية والثالثة والتلذّذ (وهو الأكل منها) ستُهيّج السوءات وتُبديها بأشدّ حالاتها، فيُحرّك السوأة/الحاجة/الميل الغرائزي ليطغى ("**الميلا مطغايا**"، حسب التراث) على صاحبه الذي "**لمْ نجد له عزْما**"، ومن تأمّل عدم وجود "الفاء" في "**بدت**" التي أعقبت الذوق، يتلمّس بدايات البدوّ والظهور، ووجود الفاء بعد الأكل "**فبدت**" يرى اكتمال هيجانها، لذلك، ينفغر الفم دهشةً للإحكام القرآنيّ حين يرى سبحانه إذْ يذكر "**أكلا منها**" وهو نهاية ما يُمكن أنْ تفعله التصوّرات الجنسيّة عن بُعد من لعب بصاحبها، يُعقّب سبحانه انفلات آدم وحده "**وعصى آدمُ ربّه فغوى**" كما في الزاوية (ج) طه، لكنّه لا يذكر المعصية حين قال "**فلمّا ذاقا**" في الزاوية (ب) الأعراف، بل يسكت ويطوي الأمر. إذا عرفنا "إبداء السوأة" فيبقى لدينا "نزع اللباس" و"الخصف" فما هما؟

د- نزع اللباس

"اللباس" حسب اللسان العربي المبين، وقاعدة اللاترادف، والنظام القرآنيّ، ليس هو "الثياب"، فالثياب تُلبس فعلاً، والليل لباس أيضاً، والعذاب لباس والخوف والجوع

لباس، والزوج لباس، والحُليّ تُلبس، والتقوى لباس، فكلُّها ألبسة حسب مواردها القرآنية التي جاءتْ، وكلّ مداخلة ومخالطة هي "لباس"، حسب مقاييس اللغة لابن فارس، وقد استعمل سبحانه كلتي المفردتيْن "اللباس" و"الثياب" في القرآن بحيث لا يصحّ وضع أحدهما موضع الأخرى، ويكفيك (**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**)(البقرة: ١٨٧)، (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً**)(النبأ: ١٠)، واستخدم المفردتيْن معاً كقوله (**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**)(الكهف:٣١).

قد ألمحنا سابقاً في حديثنا عن الترابط الجدليّ لثلاثيّة (السوءات- الذوق والأكل – نزع اللباس)، معنًى خاطفاً للّباس ونزعه، وبالتحقّق والتدبّر في مشهد "نزع اللّباس" نرى أنّه كان بتحريض الشيطان وفعْله خاصّة، الذي جعل من مهمّته الشرّيرة أنْ يُرجع الكائن الإنساني إلى نفْسٍ وطينٍ فقط بلا لباس الرّوح، كائنٍ بهيميٍّ كما كان قبل أنْ يُصيَّر إنساناً، رأيناه في الزاوية (ب) من سورة الأعراف (**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**)(الأعراف: ٢٧) فالفاعل في جميع الأشياء هو الشيطان، سواءً في الفتنة التي هي الإغراء بالصرْف، أو الإخراج من الجنّة، أو نزع اللباس الإنساني والجلباب الربّانيّ، أو إراءة السوءات، فكلُّها من فعْل الشيطان ووسوته وإغرائه ودعوته.

وإنّ مفردة "نزع" ترينا أنّ الأمر يحتاج قوّة وممانعة، فالشيطان استخدم كلّ ما يملك من حيلة، وإصرار، وكذب، وتغرير وتأكيد وإقسام، ليُزحزح آدم عن مقرّه ويخرج من حصنه (لباسه)، وآدم ظلّ يتألّم ويتقلّب ويُصارع ويُغالب ويدفع هذه الوساوس والأفكار مدّة، فالنزع يُعطي هذا المعنى، والحقيقة أنّ القرآن لمْ يستعمل النزع للثياب (التي هي غير اللباس قطعاً)، فمسألة خلع الثياب سمّاها سبحانه في موضعيْن "وضع الثياب"، أمّا عمليّة النّزع فهي تجري على شيء كان مستقرّاً ومتشبّثاً على وضعه الحاليّ بحيث لا يُعرف إلاّ به كالطبيعيّ، وفي العادة تجعل المنزوع غريباً أي غير قابل للعودة لوضعه السابق[1].

---

[1] – وبهذا نرى توارد "النزع" في القرآن الكريم على هذا المعنى، فـ"نزع الغلّ" في (الأعراف٤٣، والحجْر٤٧) يمنع أصحاب الجنّة من الرجوع للوضع السابق الذي كانوا عليه في دنيا الصراع

وإنّ الذي يُدرك بديهيّات أسرار اللّسان العربيّ، يستطيع أنْ يُميّز بوضوح إخبار الآية أنّ إخراج الشيطان لأبويْنا من الجنّة ليتسلّلا إلى خارجها، جاء بعد أنْ ظلّ "**ينزع**" وينزع وينزع (بالمضارع المستمرّ) بكلّ إصرار من لباسهما الواقي، فهو أمرٌ حصل بالتدريج وهما في داخل الجنّة واكتمل بخروجهما منها طوعياً، فأعقبه إراءة السوءات (تهييج الغرائز)، فما هو اللباس الذي كان آدم وحوّاء يلبسانه وهما في الجنّة، ونزعه الشيطان عنهما شيئاً فشيئاً فأدّى الإغراء بهما ليخرجا من الجنّة، وبنزعه ذاك اللّباس عنهما فقط يستطيع أنْ يكشف لهما سوءاتهما أيْ يُريهما الغريزة والشهوة التي كانت مخفيّة فيهما مُستكنةً وغيرَ مُفعّلة؟ أيْ هما حالان إمّا وجودٌ للّباس فلا سوءات مسيطرة، وإمّا السوءات المُذلّة المسيطرة فيعني أنّ اللّباس قد تمّ نزعُه، لا رُوحٌ ولا عقْل يمنع.

إنّ آيات الأعراف نفسها قد أجابت:

(**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**)(الأعراف: ٢٠).

(**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**)(الأعراف: ٢٢).

فوسوسة الشيطان، اقناعه لهما بجدوى وضرورة الخروج، وجذبهما (**دلاّهما**) بالتدريج والتغرير بهما، لتذوّق طعْم الشهوة خارج باب الجنّة، كلّ ذلك نتيجته كانت

فيجعلهم إخواناً متقابلين، و"نزع الملك" في (آل عمران٢٦) من أقوام يعني إذلالهم بعد العزّ القائم المشهورين به فيتعسّر عليهم العزّ والجاه السابقان، و"نزع الرحمة" في (هود٩) صيّرت الإنسان يؤوساً كفوراً على ما حكته الآية بعد أنْ ظنّها لا تبديل لها وأنّها حقُّه وملكه ولا تبيد، و"نزع الناس" في (القمر٢٠) بريح العذاب جعلتهم أمواتاً كأعجاز نخلٍ خاوية وقد ظنّوا وظنّ الجميع عدم زوالهم، ولمّا موسى (ع) (نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)(الأعراف:١٠٨)و(الشعراء:٣٣)، فقد نُزعتْ اليد من حالتها الطبيعيّة، ولكنْ هل يعسر على تلك اليد الرجوع لحالتها الطبيعيّة مرّةً أخرى، بعد "نزعها"؟ نعم يعْسُر، لولا أنّ الله سبحانه أكّد لموسى (ع) قبل إرساله بأنّها سوف (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)(طه:٢٢) و(النمل:١٢) و(القصص:٣٢) والسُوء عدم رجوع العضْو لطبيعته الصالح لها، وهكذا كلّ نزْع كنزْع الشّعْر يُخرجه من طبيعته النّامية ولا يُمكن إرجاعه مكانه.

ظهور السوءات ومتوالية إيقاظ الحاجات الكثيرة المذلّة بعدئذ. فكما في التعويض الرياضيّ، كان لدينا أنّ "نزع اللّباس" هو الذي "سيُبرز السوءات". فكلّ تلك الأمور التي ساقها سبحانه في سورة الأعراف، حين اختصرها سبحانه لبني آدم موعظةً وتحذيراً سمّاها "نزع اللباس"، أيّ أنّ عمليّة "نزع الشيطان للباسنا عنّا" يحدث كالتالي:

قبول وسوسته، تصديقه، ترك أمر اللّه ونهيه، الغرور والسير وراء المغريات، تذوّق شجرة المعاصي (وهو الإعجاب والتشوّق للمعصية لا الارتكاب).

إنّ أحداث قصّة آدم وبنيه أعطتنا مصاديق للباس، لأنّها قصّة واحدة، ونُودي الأبناء بتردّي لباس التقوى وعدم الوقوع في خطأ الأبوين(1).

فما هو اللباس؟ هو نفسه الالتزام، هو التقوى، هو نفسه حصن اللّه، هو نفسه البرمجة الرّوحية، هو نفسه الثبات في كنف اللّه وتحت أمره والثقة به، هو نفسه العيش في مستوى واعٍ روحيٍ نورانيّ سامٍ، وأقلّ ما يستر منه هو المحافظة على لباس الزوجيّة العاصم، فأيُ رجلٍ اشتهى امرأةً غير زوجه، أو امرأةٍ اشتهت رجلاً غير زوجها، فقد خلعا لباس زوجيّتهما حينئذ، ومستوى اللباس الأرقى من لباس الزوجيّة هو العقل الرادع لصاحبه "**لباس التقوى**"، أمّا أعلى لباس فهو الحالة الروحيّة السامية، هذا اللّباس المواري للسوءات (**لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ**)(الأعراف:٢٦)، الذي إذا انفقد استيقظت الحاجات المذلّة (السوءات) مِن كلّ صوب، جوعٌ بأنواعه، وعريّ

(١) - من الجدير بالذكر أنّ تعبير "الخطيئة" يصرف الذهن تلقائيا إلى فعل المعاشرة الحرام، وكأنّما صار الخطأ والخطيئة أوّل معارفه هذا الفعل، أمّا تعبير "التقوى" فأوّل موضوعاته هو الكفّ عن معاشرات الحرام أو علاقات أو مناظر الحرام، بل أنّنا في اللغة العربيّة نجد عجباً أنّ "آر" تعني جامع بشهوة، و"أيْر" آلة التناسل الذكريّة، وكثير مِنْ اللهجات العربيّة تقلب الألف عيْناً لهذه اللفظة، والـ "أرّ" المجامعة والاشتعال والهياج والشبق، ومن جميع ذلك صار الهياج الجنسي والشبق Erotic، وصار رمز الحبّ والشهوة لدى الإغريق الذين يُضيفون "سين" في نهاية المفردات Eros، فانظر كيف صارت الخطايا والآثام هي الخطيئة الجنسية الفاحشة خصوصاً في زمنٍ لاحق مع ترحّل اللغة غرباً فصارتْ Err تعني: أخطأ، ضلّ، أثم، زلّ، ومنها صيغت Error، التي بمعنى "خطأ" اليوم، كانت تعني يوماً خطأ جنسي، زلل، وإثم جنسي!!

بأصنافه، وظمأ وضحو بكلّ ألوانه، إنّه لباس الذكْر، ذكْر الله والالتزام بتعاليمه، لذلك لا نندهش إنْ رأينا سبحانه في الزاوية (ج) أي سورة طه، يبتدئ المشهد بذكْر نسيان آدم، وينتهي بقوله (**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**)(طه:١٢٤)، ثمّ يُسمّي الإعراض عن الذكْر نسياناً للآيات، في الآية التي تليها، ونلاحظ بصراحة تامّة في التعقيب على قصّة المعصية الأولى وتحذير الآدميّين: أنّ الإعراض عن ذكْر الله يُورث عمى الباطن، عمى البصيرة والحدْس، ذهاب نور الدّاخل والتخبُّط، وسنرى بعد قليل ارتباط هذا العمى بـ "**الخصف**" أيضاً.

إنّ "الروح" المنفوخ في آدم كان أساس اللباس الربّاني الواقي له، وهو روح الإيمان والتسامي والإنسانيّة، تخلّى عنه آدم ونزعه، ونسي عهد الربّ بضرورة الحفاظ عليه لأنّه درْعه الثمين، فخسر وعيَه وأصابه الغرور والجهالة بالزّيْف، هذا اللباس/الدّرع الواقي هو نفسه الآيات التي انسلخ منها آدم فصار عرضةً لافتراس الشيطان، لأنّ بنزع هذه الروح نزعٌ لكلّ ثمراتها وإنّ من ثمراتها قوّة العقل الرّادع والالتزام بالعهد الزوجي المقدَّس، فخبا بريقُ آدم ونور آدم وتعرّى نفسياً لدخول الشيطان على جهازه، (هي كالفاير- وول "Firewall" بلغة البرمجة، الحاجز أو الجدار الناريّ الواقيّ). وبهذا نفهم معنًى آخر لـ "**تعْرى**"، و"**تجوع**"، و"**لباساً يُواري السوءات**"، وارتباط جميع ذلك بـ "الآيات التي تحرسنا" أو "الذكْر" الذي يحفظنا ويقينا العثرات، من أنْ نقع في براثن الشيطان يلعب بنا، ونصير مادّته يحرّك خيوطنا ويتسلّى بنا دميةً له، وهذا حالُ كثير من الناس مع الأسف التي خيوطُ تحريكهم الغرائز والشهوات والمغالبات أنّى كانت.

بل إنّ هذا يقودنا لفلسفة صراعنا مع الشيطان، رجوعاً للبحث الأوّل الذي قدّمناه عن خلق آدم (**الخلق الأوّل**)، وقُلنا إذّاك أنّ إبليس "نازع" الربّ في آدم، وكان يأبى أنْ يرى في آدم أثراً من نفخة الرّوح، ويُصرّ على أنْ يراه فقط بالصورة الطينيّة، أيْ مجرّد مخلوق مادّي ذي غرائز بهائميّة، فلمْ يذكرْ ولا مرّةً واحدة أنّه لنْ يسجد لبشر نُفخ فيه من الرّوح، بل ذكَر أنّه لنْ يسجد لبشر من طين، لبشر من صلصال، فهذا استكباره، ورفضُه للجانب الساميّ المُضاف في المخلوق البشري، ميزة الرّوح التي تُصيّرنا إنساناً وخليفةً ربّاً للأرض، فهذه المنازعة الأولى، أعقبها قسَمٌ من إبليس أنْ

ينـزع عـن آدم أو ذرّيتـه كـلّ معـاني إنسـانيّته، أيْ ينـزع عنـه لبـاس/درْع الـرّوح الـواعيّ، يجعله يُعرض عن الذكْر، ليبقى مجرّد بشرٍ همجيّ كما أصرّ إبليس أنْ يراه بعينيه الحاقدتيْن في الاختصام الأوّل، فيقتحم على الإنسان - إنْ سمح له - على برنامج مشاعره ولاوعيه ويجرّده ويُعرّيه من لباسه الربّانيّ، من أثر الروح/ذكْر الله، ويُفعّل البهائمية الكامنة فيه، الحالة التي سمّاها سبحانه (**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ**)(المجادلة:١٩).

وعن الرّوح كونه لباساً كالإكليل محيطاً لبدن الآدمي قال الإمامُ الصادق (ع): (**إنّ الأرواحَ لا تُمازج البدنَ ولا تُواكله، وإنّما هي كُلَلٌ للبدن محيطةٌ به**). وقد بينّا في بحث خلق آدم (الخلق الأوّل) بأنّ مولانا عليّاً (ع) وحفيديه الباقر والصادق (ع) أوضحوا (**أنّ الأرواح خمسة: روح القُدُس، وروح الإيمان، وروح القوّة، وروح الشهوة، وروح الحياة** (أو البدن، أو المدْرَج) **الذي به يذهب الناس ويجيئون**). وواضح أنّ الثلاثة الأخيرة، القوّة والشهوة وحياة البدن هي عمادُ الحالة البشريّة، والاثنتان الأوليان خاصّة للإنسان الساميّ كالأنبياء والمؤمنين، فالرّوح التي هي الرّوح الربّاني بمجموع مستويَيْها الأعلى (روح القدُس) والأدنى (روح الإيمان)، هي التي نُفخَت في آدم، وهي التي فقدها آدم بعد أنْ نزعها إبليس عنه ليُخرجه من الجنّة ويعصي ربّه، ثمّ عادتْ له روح الإيمان فقط فتاب.

أمّا حفيد الإمام عليّ (ع) الآخر وهو الكاظم (ع) فاختصر - طاوياً المراتب - كلّ تلك إلى روحيْن: روح الحيوان (النفس)، وروح العقل[1]. إذن آدم قبلَ أنْ يكون آدم كان فيه روح الحيوان أي النفس الحيّة، أمّا الرّوح التي منْ أمر الله، روح العقل، فبها مَثُلَ الكائنُ إنساناً يجيل أذهانه ويُفكّر ويُوظّف جوارحه ويخترع ويسمو، كما بيّن ذلك عليّ (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة في خلق آدم، وشرحناها في بحث الخلق الأول.

---

[1] - الروايات في هذه الفقرة نُقلتْ من: محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ط١، ج٢، ص ١١٢٩، ١١٣٠.

هـ- الخصف من ورق الجنّة

– في الزاوية (ب) الأعراف (**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا ...**)(الأعراف:٢٢).

– وفي الزاوية (ج) طه (**فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**)(طه: ١٢١).

علينا أنْ نتأنّى في كتاب الله العجيب هذا، ولا نعتجله اعتجالاً:

إنّ جملة "**وطفقا يخصفان**"، قد عُطفت بالواو في السياقيْن، بعد بدوّ السوءات (غلبة فضيحة الغرائز)، ما يعني أنّ الله قد سكت عمّا حصل وقفز إلى هذا المشهد، مشهد النتيجة؛ أنّهما "**طفقا يخصفان**"، فما هو هذا الطفوق والخصف، الذي ناداهما ربّهما بعده "**ألمْ أنهكما عن تلكما الشجرة**" كما في الزاوية (ب) الأعراف؟ ولماذا أخّر سبحانه جملة "**وعصى آدم ربّه فغوى**"، بعد عبارة "الخصْف"، كما في الزاوية (ج) طه؟

لقد ربط المفسّرون "الخصف" مرّةً أولى ببدوّ "السوأة" مع أنّه ليس معطوفاً بفاء بل بواو في السياقيْن، فحين توهّموا أنّ "بدوّ السوأة" هو انكشاف العورة الجسميّة لهما أو أنّه الإحساس بالخزي والندم، جعلا آدم وحوّاء، تماشياً مع النصّ التوراتي، يخيطان لهما ملابس من أوراق الأشجار ("**ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض**"[١])! فخطأ المفسّرين في ظنّهم الأوّل قاد للخطأ الثانيّ في النتيجة، بل الحقّ أنّ فهمهم – سبباً ونتيجة – لمْ يكن ثمرة تحكيم كتاب الله وألفاظه، بل منسوخٌ نسخاً من رواية التوراة التي تقول بالنصّ: (**فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ**)(التكوين ٣: ٧)، ولمْ يفهم الكهنة إذّاك ماذا يعني "عريانان" على فرْض أنّهم سمعوه من الأساطير العربيّة، ولمْ يتصوّروا أكثر من العرْي الجسديّ، فصاغوها بعباراتهم كما ظنّوا على أحسن تقدير.

---

[١] – هذا من كلام رواية منسوبة لابن عبّاس (ره)، راجع: تفسير ابن كثير، سورة الأعراف.

وقد بيّنا بالمنطق اللغويّ والعقليّ أنّ "بدوّ السوأة" هو هيجان الغريزة والشهوات التي تُلحّ بالتلبية ولو بطريقٍ مخزٍ مسيءٍ لصاحبه، وهي حالة الهياج التي دفعتهما لظلم أنفسهما، سواءً بمستوى أقلّ كحوّاء، أو بمستوى عنيفٍ حين عصفتْ بآدم أنْ يعصي جهاراً، أثبتنا آنفاً أنّ ظهور السوأة ليس آخر محطّةٍ في الطريق للرجوع والنّدم كما تصوّروا، بل على العكس كان فاتحةَ طريق الانحدار.

وربط آخرون "الخصف" في محاولةٍ ثانية، بـ "نزع اللباس"، وحين ظنّوا أنّ (نزع اللباس)، هو التعرّي من الثياب، ظنّوا بأنّ (الخصف) بالتّالي هو خياطة ثياب من أوراق الشجر! ولا ندري لماذا لمْ يُعاوِد آدم وحوّاء لبس ثيابهما التي نزعاها بدلاً من الانشغال بالخياطة والتطريز وهما عُراة؟ وهل الظرف المهولُ والصّادمِ إذّاك يسمح بنسج ثيابٍ من ورق الأشجار؟!

إذن فالرأيان متناقضان، ففي حين يرى الأوّل أنّهما انكشفت لهما عوراتهما، يرى الثاني أنّهما نزعا ثيابهما بأنفسهما، ثمّ اتّفقت الفئتان على الخصف أنّه نسجٌ للثياب. والأمر كلّه خيالٌ في خيال، لأنّه مركّب على مقدّمات وهميّة وظنّية بعيدة عن السياق القرآني ونظامه.

لقد رأينا الزوايا القرآنيّة الثلاث التي صوّرتْ مشهد المعصية الأولى، لمْ يتمّ فيها الربط أبداً بين "نزع اللّباس" وبين "الخصف"، أيْ أنّ موقع عمليّة "الخصف" تراتبيّاً يأتي بعد ظهور السوأة (هيجان الغريزة المُسيئة لهما) وهما خارج الجنّة، بقيام الاثنين بظلم نفسيْهما واختصاص آدم بالمعصية وحده، ثمّ جاء "الخصف"، ومعه نداءُ الربّ الغاضب بالتلويم لهما والتأنيب.

أمّا "نزع اللباس" فكما بيّنا فيما سبق قد ارتبط بـ "إراءة السوءات"، أيْ أنّ "نزع اللّباس" عمليّة بدأت من الجنّة واختُتمت مع انخداع آدم وحوّاء وتسلّلهما لخارج الجنّة (**أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**).

فما هو الخصف من ورق الجنّة؟

إنّ العرب تقول (هؤلاء يخصفون أقدام القوم بأقدامهم) أي يتتبّعونهم، ويُطابقون آثارهم[1]، ولأجل أنْ نُجيب على السؤال بدقّة ينبغي علينا أنْ نعيش ذلك المشهد حسب كلّ المقدّمات التي قدّمناها، لا أنْ ننظّر في فراغ، أو نعالج الأحداث معالجات جزئيّة مشوّهة تناقض المشهد الشامل.

نعيد المشهد حسب ما قدّمناه من معطيات:

آدم وحوّاء ينخدعان بوسوسة إبليس التخاطريّة معهما (على المستوى النّفسيّ) أي مارَس عليهما عمليّة (دلاّهما بغرور) (يُخرجنّكما من الجنّة) (فتن أبويكم)، فيغريهما بالتخلّي شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم عن السموّ والمنعة التي هما فيها ليشوّقهما الخروج من الجنّة ليطلاّ على خارجها ويزرع فيهما الفضول ووعود الأماني، حتّى أنْ اكتمل "نزع هذا اللباس" الجلباب النورانيّ الحصين[2]، الذي به كانا يروْن أبعاداً فوق عالَم المادّة، ويمتازان بحواسٍ فوق الحواسّ الطبيعيّة، فاغترّا وخرجا من الجنّة، وهناك (**ذاقا**) منظر الجنس الهمجيّ المتعرّي لتلك الشجرة البشريّة، قدح في آدم وحوّاء أحاسيس الشهوة المُستعرة كما لا يزال إلى اليوم يقدح أيّ مشهدٍ جنسيّ أثَره في كلّ آدميّ (**فأكلا**) من اشتهاء تلك المشاهد والرّغبات، لذلك جاء الشرعُ الربّانيّ يأمرُ بالتحامي عن هذه المواطن وبالستر والتحشُّم والحياء والعفاف وعدم التبرّج وحفظ الفروج وغضّ البصر، وبدتْ لهما سوءاتهما وحاجاتهما الدونيّة التي تطلب الإشباع بما توفّر من ممنوعات، ففقدا إذّاك نور الباطن وأظلم عالَم الرّوح وعالَم

---

(1) – قال صاحب محيط المحيط، في "خصَفَ": كلّ ما طورِق بعضُه على بعض فقد خُصِف. ومنه جاء خصف النعل، حيث يُطابق عليه الرُقَع.

(2) – إنْ كان من تفسير "للباس" يُقبل ممّا اجتهد فيه الأوائل، فهو كلام "وهب بن منبه"، قال: (كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما) (تفسير ابن كثير/سورة الأعراف)، فاللّباس نور، هذه الجزئيّة صحيحة، لكن ليس على العورة فقط، ولذا نجد الدعوة باستحباب لبس الثياب البيض، وتكفين الميّت بالأبيض، محاكاةً للباس النور الطاهر الطيّب.

الجنّة للذي اعتاد أنْ ينظر بعين الرّوح، وخبت الحواسّ الباطنيّة العُليا، بعد أنْ كان ذلك العالَم المنير مُشرقاً آلَ إلى غروب، وأشرق في المقابل عالَمُ المادّة فتوقّدت الحواسّ المادّية للذي ينظر بعين الحدقة، فانحدرا إلى المستوى البشريّ، عندها تسمّرت حوّاء مكانها وتوغّل آدم بالخصوص أكثر لينتهك الأمر بعصيانه الجاهر (**وعصى آدمُ ربَّه**)، ويُعاشر أنثى من تلك الهمج، ولمّا أنْ خمدتْ أواراتُ الغرائز، لمْ يستطيعا الرجوع إلى ما كانا عليه، ولأنّهما فقدا النّور ضلاّ طريق العودة إلى الجنّة، هنا نستطيع أنْ نفهم الأمر الذي لمْ يفهمه كهنةُ التوراة حين كتبوا عن آدم وحوّاء في ذلك المشهد (**فَانْفَتَحَتْ أعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أنَّهُمَا عُرْيَانَانِ**)، لا عرْي بدن، بل عرْيٌ عن لباس النور، وكسوة الجنّة، الذي به يروْن الطريق إليها، وكان هذا في مشهد النّدم، لذلك قالا إذّاك "**ظلمْنا أنفسنا**" والظُلْم من الظلْمة أي جلبنا الظلمة على أنفسنا بتعريتها من لباس الرّوح ومخالفة الأمر، أمّا انفتاح أعينهما على هذا العالَم بالتشوّق والذي أدّى إلى المعصية فهو انغلاق الأعين عن عالَم النور، بأنْ يُحشر المرء في تلك الأجواء "**أعمى**".

فكانت الوسيلة الوحيدة لمن فقد نوره، لمن نسي الآيات، لمن ترك الذكْر، للذي حُشر في ذلك المشهد الكابوسيّ "**أعمى**"، كما بيّنّا سابقاً في تذييل هذه المعاني على المعصية الأولى في سورة طه، كانت الوسيلة الوحيدة لهما، هي تقصّي الأثر ومطابقته، بالخصْف عليهما من ورق الجنّة، وكانت الأجواء مظلمة عليهما بحيث لمْ يرَ أيٌ منهما الآخر، أيْ "**أعمى**" كما عبّر سبحانه، و"**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ**"، فالطريق الوحيد إلى الجنّة هو بتتبّع أوراق أشجارها مَسْكاً وشمّاً وتذوّقاً وتحسّساً وتعويضاً للنور المفقود، عمليّةٌ مضنيةٌ للذي ما جرّب أنْ يكون أعمىً ولو للحظة، ومفردة "**عليهما**" في "**يخصفان عليهما**" تفترض للوهلة الأولى (مع عدم اعتقادنا لذلك) أنّ أشجار الجنّة تطلّ عليهما متدلّية وهما في أسفل منها، ولأنّهما صارا "بعيديْن" روحياً عن الربّ، وخارج الجنّة، "**ناداهما ربّهما**" في ذلك الظرف بالتقريع، إذْ المناداة للبعيد.

لقد بدأ العقل في لحظة "الخصف" فقط يستفيد من تجاربه في عالَم المحسوس، ومن المؤسف أنّ غريزة الشهوة ابتدأت تعمل قبل أنْ يعمل العقل (الذي هو حفظ التجارب)، فحين تمّت الخطيئة والمعصية، وانفقد النّور (الرّوح وقوى الباطن) الدالّ على الطريق إلى الجنّة، صار لا مناص من الاعتماد على أدوات الاستدلال والقياس

من مناشط قوى العقل، وهذا هو الآلية التي يعمل بها الناس حالياً، جميعهم، لذلك يُخطئون تبعاً للمعطيات أو للمقدّمات أو لأدوات القياس أو لتدخّل الأهواء، ولذلك المُفسِّر يُخطئ ويخلط جداً حين غابَ المعصومُ صاحبُ الوحي أو نُحِّي عن الدلالة: (**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**)(النور: ٤٠)، ولأنّ الروح تدلّ الجنّة وحدها بلا حاجةٍ لدليل، صارت الجنّة مفقودةً لفقدان الرّوح في الحقيقة، أمّا الذي يملك الرّوح فليس بحاجة إلى دليلٍ يدلّه إلى الجنّة كموقعٍ جغرافيٍّ موجود حالياً، ولا ليدلّه على الأعمال الخيّرة التي تهدي إلى الجنّة، ولكن مَنْ ذاك الذي يملك الرّوح ويستعملها؟! أين الإنسانُ الذي ما زال يحمل هذه الأمانة ولمْ يُفرّط فيها بظلمٍ أو بجهل؟!

يحقُّ للمرء أنْ يعتقد أنّ البشر حالياً لمْ يُفعِّلوا الرّوح، بل فعّلوا العقل فقط، وهو أدنى جهاز مُرشد لديهم، لذلك غاب عنهم الإيمان بعوالم ما وراء المادّة، ولمْ يستطيعوا تفسير ظواهر كثيرة تسمو على عقولهم، وصاروا في صراعٍ مع النظام الكونيّ والطبيعيّ الربّاني، ولو فعّلوا شيئاً من رشحات الرّوح لوصلوا إلى كثيرٍ من الحقائق بدون تجاوزات أخلاقيّة من جهة، وبدون هذه الجهود الاستكشافيّة والأدلّة العقليّة والقوانين المنطقيّة والفروض الكثيرة، التي أحياناً -إنْ لمْ يكنْ غالباً- تكون عائقاً جرّاء غرور صاحبها أو قصور عقله.

فماذا كانت أحاسيس بشَرةِ وجْه آدم وحوّاء وأعناقهما وأكتافهما حين كانا في الجنّة مُنعّميْن؟ يُداعبهما ورقُ شجر الجنّة الطيّبة الرائحة الناعمة الملمس كالحرير والإستبرق والسندس، على ما بيّن سبحانه في آيات كثيرة؟ كانتْ مثلَ دغدغات شالٍ حريريٍّ يعبق بالعطر يلفح الخدّ ويُقبّل الأعناق وينزلقُ على الأكتاف والأذرع، هذه الأحاسيس المُدغدغة لحظات السعادة قدْ خزّنها العقلُ في ذاكرته طوال فترة وجودهما المُنعَّم في الجنّة، لكنّهما لمْ يكونا يحتاجانها طالما كانا في تلك الأجواء المخمليّة المرفّهة التي لا نقيض لها، أمّا الآن وقد أظلمتْ الدنيا وقستْ، إذْ لأوّل مرّة يُصدَمان بظُلْمة، وصاروا عُمياناً عُراةً من النّور، فماذا يملكان من أداةٍ للرجوع؟ إذْ منطقياً هما يُريدان الرجوع إلى وكْرهما الآمن الرغد؟

لا يملكان من جهازٍ مُرشد غير الرجوع إلى العقل، شمعتهما الضئيلة الوحيدة المتبقّية، فهو "البقيّة"[١]من الرّوح لتدبير عالَم المادّة، الرجوع إلى مخزون العقل من تجربته السابقة، لذلك قُلنا أنّ مسألة "الخصف" هي أوّل توظيف للعقل العمليّ في عالَم الدنيا من دون هدى الرّوح، وهي مطابقة الخارج وقياسُه على المعلوم (المخزون) بالداخل.

فبابُ الجنّة ربّما يحتفّ به بعضٌ من ذلك الورق المخمليّ المتميّز، المفروش خارجها، فالأعمى يقوم بالتقاط الورقات ويشمّها ويُطابق ملمسها على وجهه وعنقه وذراعه وبدنه ليُقارن نسبة تطابقها مع إحساسه السابق، وهكذا، كما يُميِّز الأعمى بين الأنواط بالملمس، فإذا كثر وجود ورقٍ يُعطي نفس الإحساس فهذا دليل أنّ المدخل (مصدر الورق الفردوسيّ) وشيكٌ، وهذا معنى أصحّ لـ "**عليهما**" في "**يخصفان عليهما**"، حيث لا داعي لافتراض تدلّي الأشجار عليهما، ولا من ذكْر للأشجار أصلاً، بل حالهما حال شحيحٍ أعمىً "ضاع في التُرب خاتمُه"، يحبوان على الأرض يتحسّسان الورق المتناثر ويمسحانه "**عليهما**" ملْمساً، على أجزاء جسمهما ليستدعيا شعورهما السابق، وربّما لتعويضه أيضاً، ويستدلاّ به على قرْب الجنّة[٢].

[١] - (فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ)(هود :١١٦).

[٢] - وقد نفترض أنّ باب الجنّة له ميزةٌ بحيث أنّ الدّاخل يرى خلالَه مَن كان خارجًا، ولا يرى الخارجُ ما بالداخل، كبعض المرايا هذه الأيّام، أيْ هو باب يسمح باتّجاه واحدٍ للنظر، بل الباب (كفتحة ومنفذ) مموّه بحيث لا يُرى من الخارج بالمرّة أنّه باب، بل يُرى من الدّاخل فقط، كالمخابئ السرّيّة، فهو من الخارج يبدو ظاهرياً كجدار مصمت وربّما جدار مخيف أو هوّة ناريّة أو جرفٌ يهوي بالمرء خارج الجبل، تجعل المرء يتجنّبه لا محالة طبقاً لقانون باب الجنّة (بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)(الحديد :١٣)، تصوّرْ لو رأيت تنّوراً يشتعل وتحسّسته فتأكّدت أنّه تنّور يلتهب، هل يُمكن لكَ أنْ تظنّ أنّك باقتحامك التنور ربّما تلج باب الجنّة باب الرحمة؟! لا يُمكن، أو وأنت في مغارة في جبل شاهق لمحتَ فتحةً لا تطلّ إلاّ على الفضاء خارج الجبل للتردّي في مكانٍ سحيق، فهل تخترق هذه الفتحة وأنت تعلم أنّك ستحلّق في الهواء لتهوي وتتفتّت؟! طبعاً لا، فالتنّور أو تلك الفتحة، التي هي "سم الخياط" للجمل، مظهرٌ لا يُخدع به إلاّ العقل لا صاحبُ الرّوح. طبعاً لا

وحيث أنّ حوّاء كانت تقف على باب الجنّة أو أسفل منه قليلاً بأمتار، وما مارستْ إلاّ خطيئة الاغترار بالخروج وتشهّي النظر من بُعد، وحيث أنّ آدم توغّل بعيداً عن الجنّة، حيث لمْ يكن في باله أنّه سيرجع ليتّخذ علامات، توغّل وانحدر إلى الموقع الذي بعيدٌ فيه وشحيحٌ ورَقُ الجنّة المتناثر، إلى الموقعِ الفخّ الذي إبليس قدْ دلّه "هو" بالخصوص عليه، كما في سورة طه ليجوع "هو" بالخصوص ويعرى ويعصي ويشقى "هو" وحده ثمّ يغوى، لاحظ ضمائر المفرد: (**أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى . فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**)، لأجلِ هذا وهذا .. فقد استطاعت حوّاء بقليل من الجهد والتتبّعِ ومطابقة أثر ورق الجنّة عليها (الخصْف عليها)، استطاعتْ الرجوعَ إلى محلّة أمنها، فبعد المعصية لمْ يلتقِ آدم بحوّاء، بل ضيّع كلّ منهما الآخر في تلك الظُّلمة.

أمّا آدم المفجوع، آدم المتنكّب والمنكوب هناك، فقد بدأت منذ تلك اللّحظة مسيرةُ "**فتشقى**" الخاصّة به وحده بل بدأت منذ لحظة اغتراره بخروجه من الجنّة ليجوع ويعرى من لباسه، لكنّه ما شعر بها إلاّ الآن، فأظلمتْ دنياه وغوى عن طريق الجنّة، غوى عن أمر ربّه بغواية إبليس، فغوى عن الرجوع.

الآن فقط نُدرك، ونُجيب، لماذا أخّر سبحانه ذكْر معصية آدم بعد جملة الخصف في الزاوية (ج) من طه (**فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**) مع أنّ المعصية منطقياً جرت قبل الخصف وباتّفاق جميع المفسّرين أيضاً؟

ذلك أنّ "**غوى**" ما زالت تعمل بعد الخصف، ولمْ ينفع الخصف من إزالة آثار "**عصى**" و "**غوى**"، فحوّاء استفادت من الخصْف أمّا آدم فلمْ يستفدْ، فأُخِّر موقع "المعصية والغواية" بعد الخصف ليقول سبحانه أنّ الذي عصى منهما (وهو آدم) لمْ ينتفع بخصفه ولنْ يستدلّ لأنّه غوى، وهذا يُخالِف ما يقوله المفسِّرون جُملةً، الذين

يمنع هذا التصوّر من وجود تضاريس طبيعيّة تسمح بالخروج من الجنّة وتُعسِّر الدخول بأيّ طريقة إلاّ للذي يملك بصيرة الرّوح فيُؤذن له.

جعلوا نتيجة الخصْف لآدم وحوّاء سواء، طبْعاً بعد انحراف معنى الخصف "ليُخْصَف" تفسيرهم -أيّ يُطابَق- مع فهم توراة اليهود حذو النّعل بالنّعل.

فهو (أيّ آدم) الوحيد الذي لمْ ينتفع بآليّة الخصف فضلّ طريق عودته إلى دار أمنه وجنّته، وسببُ ذلك هو معصيته، التي ما جرتْ إلاّ لابتعاده عن الجنّة بعيداً حيث لا ينفع خصْفٌ، فكان جُرمُه عينَ عقوبته، ابتعد فأُبعد، وأغوته الغريزة فغوى عن الجنّة، وعصى فتعصّى عليه درب الرجوع، وسنرى في أسطورة "إيتانا والنسر" البابليّة، انطباق هذه الحيثيّات بالتمام: (**مَنْ منّا ينتهك حدود "الربّ"، فليفقدْ الطريق ولا يعدْ يعرف الدرب، ولتبعدْه الجبال عن منافذها، والسهم الذي يُطلق فليرتدَّ عليه، وليصْرعْه فخّ "الربّ" المحرّم، ويجعله أسيراً**) لاحظ "يفقد الطريق إلى الأبد، وتُبعده الجبال عن منافذها، لأنه صُرِع بوقوعه في فخّ الحرام، فصار أسيراً في الأرض".

وإنّه بغير هذا الترتيب، الترتيب الذي رتّبه القرآن نفسَه، سنُكابد التناقض الكثير في أجزاء ما يتمّ تقديمه لنا، وتناقضاً مع ما يقوله القرآن، ففوق أنّ أكثر التفاسير تذَر القارئ المسلم مبلبلاً بين قيل وقيل، ويُحتمل ويُمكن، ولعلّ وعسى، ممّا يُزري في الحقيقة بادّعائهم بلاغة القرآن الذي انفتحتْ عبارته لديْهم لكلّ "اللّعَلاّت" و"اليُمْكنات" هذه، فوق هذا فهو يترك الذهن يُكابد فكّ التناقضات بنفسه بعد إعطائه مقدّمات سقيمة أساساً، من مثل: لماذا قيل "**وعصى آدم**" فقط إذا كان الاثنان ارتكباها؟ وكيف يُطرد آدم من الجنّة ثمّ يستطيع أنْ يخصف عليه من ورق (أشجار) الجنّة؟! أمّا إذا كانت الجنّة في السماء، وأخرج آدم منها، فتلك طامّة أعظم، فلا ندري كيف مارس عمليّة الخصف من ورق الجنّة وأين كان معلّقاً؟! إلى العشرات من الأسئلة التي جعلتهم يقدّمون ويؤخّرون في ترتيب الآيات ويقدّرون العبارات والجمل بينها، ويتغاضون عن بعضها، إلى ما هنالك من عمليّات جراحيّة تجرى على كتاب الله ليُوافق الصورة التي في أذهانهم، والتي معظمها صور توراتيّة مُسطّحة. (انظر الصورة: ٩)



رسم آخر يُخالف ما قلناه أنّ حوّاء لم تلتق بآدم لا أوان المعصية ولا بعدها، وقرار الإهباط حينها جاء لآدم وحده (الصورة: ٩)

لقد دلّنا آدم بمحاولة "الخصف" هذه، التي جاءت كتعويضٍ بخْسٍ عن فقدان نور الرّوح، أنّ الإنسان المادّي يظلّ غارقاً في محيط الجسد لا يتعدّى حدوده ومدركاته وإمكاناته، وفي حجبٍ متراكمة بعضها فوق بعض عن الحقّ والحقيقة التي هي جنّته المنشودة، والروحانية هذه ليست متعلّقةً بدين محدّد لأنّها تتبع الفطرة والصفاء، فكل الأديان أتت بها ونادت، وهي تتشارك بتعاليمها فيها، والشرق -كما المسلمين- يعجّ بالمعلّمين الروحانيين والحكماء سواءً في الهند والصين أو غيرها.

وإذا كان أبونا آدمُ قدّس اللهُ روحه وأجزلَ عطاياه قد آب واستقام أبداً، إلاّ أنّ الإنسان من بني آدم بعد دهر، نتيجة تخليه عن المنهج الصحيح راح يخصف مرّةً أخرى متخبِّطاً، ويبحث بتلمّسِ ما يقع عليه بصره وما تطاله يداه (معرفة الطبيعة

والمادة) من منظورٍ وملموس، وكانت تلك النقطة، لطول لبثه فيها واستعاضته بها، نقطةَ التحوُّل وبدايةَ انحرافه الحقيقيّ عن نهج ذاته، ومعرفة العالَم بمعرفة ذاته ومكوِّناته لأنّ العالَم الأكبرَ مُنطوٍ فيه، وبالتالي شرَدَ عن الدرب المستقيم الذي كاد يوصله إلى الهدف الذي وُجد من لأجله، لولا انقياده الأعمى وراء الرغبات العاجلة والشهوات الجسدية والتفكير المادّي التي لم تكن إلا لتسجن روحه وتقيد انطلاقتها نحو أحضان المخطّط الربّانيّ الذي يُوصل الإنسان إلى كنف الخالق.

تاسعاً- زلّة حوّاء، ما هي؟

فعلى كلّ هذا، صار بمقدورنا أنْ نكتشف: ما هي خطيئة (لا معصية) حوّاء؟ ما دامت لمْ تقرب الشجرة (أيْ لمْ تُعاشر الهمج)، لكنْ ذاقت وأكلت منها، وظلمت نفسها وتابت؟

القرآن يُجيبنا بنفسه، أنّها لمْ تتّخذ الشيطان عدوّا كما أُمرتْ أنْ تفعل، فأطاعت الشيطان، وأصابها الغرورُ مع آدم، أزلّهما الشيطان عن الجنّة إلى خارجها حيث دلّهما على الشجرة البشريّة المحرّمة ليُثير غرائزهما ويُفعّل البرمجة القديمة البهيميّة الخاملة ("**ما وُوري**")، أخرجها – مع آدم – ممّا كانت فيه منْ حالٍ ومعرفةٍ وحشمة واستواء وسموٍّ، أقنعهما الشيطان أنّ نهْيَ ربّهما هو في غير صالحهما، فذاقتْ (وأكلتْ منْ) الشجرة، فبدتْ السوءات (الحاجات المذلّة)، إلى هنا فقط محطّة سقْطة حوّاء، ولَمْ تجترئ على أكثر منها، وسنُفصّل أكثر مع انكشاف باقي مصطلحات الحدث.

ولو قُمنا بترتيب أحداث الخطيئة والمعصية[١]، والأفعال المنسوبة لآدم أو لحوّاء، حسب مجموع الزوايا الثلاث الآنفة في النصّ القرآنيّ (البقرة-الأعراف-طه)، لاكتشفنا الآتي:

---

[١] – لقد ارتأينا أنْ نسمّي ما فعلته حوّاء وآدم "خطيئة"، وما استقلّ به آدم وحده "معصية" حسب النصّ القرآنيّ.

المرحلة الأولى: داخل الجنّة: وسوس لهما الشيطان --› (دلاّهما) جذبهما شيئاً فشيئاً باستمالة وغرور صوب الشجرة خارج الجنّة --› دلّهما على الشجرة= أزلّهما عن الجنّة أيّ أخرجهما منها (يُخرجنّكما من الجنّة/أخرج أبويّكم من الجنّة).

المرحلة الثانية: على باب الجنّة خارجاً: ذاقا الشجرة (وأكلا منها) --› بدت لهما سوآتهما/ أخرجهما ممّا كانا فيه --› طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة --> ظلمنا أنفسنا.

المرحلة الثالثة: (اختصّ بها آدم): خارج الجنّة: نسي ولمْ نجد له عزما--› فعصى وغوى= فتشقى --› أُهبِط، ثُمّ تاب عليه وهدى.

فإذا كان الاثنان في المرحلة الثانية قد ذاقا وأكلا فبدت سوآتهما فطفقا يخصفان، فأين نضع معصية آدم المختصّة به التي في المرحلة الثالثة؟

لا نجد مكاناً مناسباً إلاّ قبل الخصف، بعد الذوق/الأكل، وبعد بدوّ السوأة، هو فقط تمادى وعصى بمقاربة الشجرة (المعاشرة) وهو المنهيّ عنه نصّاً في (أ) البقرة و(ب) الأعراف (**لا تقربا**)، فعله آدم ولمْ تفعله حوّاء فهي لم تعصِ الأمر النصّي العينيّ (**لا تقربا**) لذلك لا نجد (تاب الله عليها وهدى)، لا نجد لها معصية ولا توبة، وقد غوى آدم وحده أُغوي بامرأةٍ بشريّة أخرى (غير مخلّقة إنسياً) ساقه بها الشيطان إلى حتفه، ليشقى وحده، وإبليس أراد أنْ يدلّه إلى الشجرة وحده (**هل أدلّك**)، وحوّاء وقفت دون حاجز المعصية النصّية، ولكنّها أخطأت في كلّ المراحل السابقة، لذلك يحقّ لها أنْ تدعو معه تائبةً مِنْ خطيئات ما سبق (**ظلمنا أنفسنا**).

لذلك نجد في الرواية التي سبق أنْ أثبتناها في الهامش عند الفقرة السابقة المُعنونة (ثالثاً- كم بين خروج آدم وحواء) عن النبي (ص): (**.. وأما صلاة المغرب فهي الساعة التي تاب الله عز وجل فيها على آدم وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا وفى أيّام الآخرة يوم كألف سنة مابين**

العصر والعشاء، فصلى آدم ثلاث ركعات ركعة لخطيئته، وركعة لخطيئة حوّاء، وركعة لتوبته .)[1] .

فما معنى أنْ يُصلّي آدم ركعة لتوبته؟ لولا معصيته الزائدة. فآدم أخطأ وحوّاء أخطأت، ولكلِّ خطأ منه ومنها ركعةٌ سنّها آدم، وهي خطيئة الخروج والذوق والأكل وظلم النفس ....، أمّا معصية آدم وحده وهي خطيئته الكبرى، فجعلته يُفرد ركعةً مُضافةً خاصّة به للتوبة منها . وإنّ بعض المرويات -لو صحّت- قد أرمزت إلى أنّ حوّاء تناولت ثمرةً واحدة (حبّةً واحدة) وآدم تناول ثمرتيْن (حبّتيْن) من الشجرة، فهذا رمزٌ إلى الأمر نفسه، أنّ آدم توغّل وأخطأ خطأً ثانياً هو عين المعصية، فطغى ولم يقف عند حدّه، لكنّ المشكلة أنّ أمثال تلك المرويّات جاءتْ لتُعلّل نصّاً في الإرث لمْ يُفهم جيّداً هو الآخر (**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ**)(النساء:١١)، فعلّلتْ الأمر لأنّ حوّاء أكلتْ ثمرة واحدة و"أعطت!" زوجها ثمرتيْن فأكل، صار نصيبها النصف! فسبحان الله.

عاشراً- سرّ شقاء آدم وحده

إنّ بعض التفاسير التسطيحيّة لكلام الله، والمزرية بنظامه، تخالف دعواها بأنّ كلام الله سبحانه فوق كلام البشر، فتجعله دون كلام البشر حين تقول في جملة (**فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**)(طه: ١١٧) أنّ "**فتشقى**" أصلُها "فتشقيا"، وبدّلها سبحانه ليُناسب الإيقاع والقافية أيْ للسجع!!

فسبحان الله، الله يُفرّط في حقائق كلامه ويُبدّل الحقيقة التاريخيّة لمناسبة السّجع ولصالح الموسيقى والشعر والخيال! فكأنّ الله جلّ وعلا شاعر، وهو النّافي ذاك بقوله (**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ**)(الحاقة:٤١)!! هذا كلامٌ أقلّ ما يُقال عنه "**سبحان الله عمّا يصفون**"، ذلك لأنّ ثمّة مَنْ لمْ يفهم القصّة أوّلاً، وأنف ثانياً أنْ تكون حوّاء على خطأ أقلّ والتوراة تُؤكّد أنّ حوّاء أساسُ السّوء! وثالثاً لأنّ بعضَهم انشغل عن كلام الله بالتنظير لقواعدهم وتخريجاتهم فكدّسوها فوقه.

---

[1] - الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٩.

أمّا الآخرون الذين لمْ يرتضوا هذا الكلام، ومع ذلك يرون المرأة دون الرجل عصمةً وإيماناً وذكاءً، فقالوا بعد أنْ توهّموا أنّ الخروج هنا من الجنّة هو نفسه الإهباط، قالوا أنّ الكدْح والتعب لأجل الرّزق هو مُهمّةُ آدم، فلذلك خُصّ بالشقاء وحده!! سبحان الله مرّةً ثانية، وكأنّ المرأة لا تكدح، ولا تشقى، ولا تجوع ولا تعرى، ولا تظمأ ولا تضحى، بالمعاني التي يقترحونها طبعاً!

ثُمّ هلْ الكدح هو الشقاء؟ أمْ أنّ الشقاء ضدّه السعادة، وهو من لوازم المعصية بمخالفة الهُدى كما بيّنه سبحانه في السياق نفسه بعد قليل لآدم بعد الإهباط بالعبارة نفسها عبرةً من تجربته: (**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**)(طه:١٢٣)، أتُرى الشقاء هنا كدْحٌ لتحصيل الرّزق؟! بحيث أنّ الذي يتّبع الهدى عليه أنْ لا يكدح بل يرتاح في بيته؟!

لاحظنا إذاً كيف أنّ خروج الأبويْن من الجنّة (أيْ تسلّلهما خارجها) يُسبِّب الشقاء لآدم دون حواء (كما في الزاوية ج طه) (**فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**)، ولاحظنا تناقض ما وقع فيه المفسّرون واللّغويّون، من نواحٍ عدّة؛ وأشرنا إلى توهّمهم أنّ هذا الخروج هو نفسه الإهباط النّهائي، مع أنّ الآيات المحكمة تُصرِّح أنّ مَنْ أهْبَط آدمَ ومنعه من دخول الجنّة هم "سادةُ الملائكة" (المُدبّرون)، وليس إبليس المرجوم والمطرود بعيداً عنها ولا يقدر على دخولها أو الاقتراب منها، وهذه الآية تقول أنّ إبليس قادرٌ -بوسوسته المبثوثة من بُعْد- على إخراج آدم وحوّاء من الجنّة، ثُمّ أثبت فعلاً قدرته هذه بنجاحٍ تامٍّ، إذْ أغرى آدم وحوّاء للخروج منها (**كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ**)(الأعراف:٢٧)، فهل اتّفق قرار الملائكة مع فعل إبليس وتخطيطه؟! هذا أمرٌ كبيرٌ وادّعاءٌ خطير.

لكنّا على ضوء هذا الفهم الجديد كلّ تلك الأمور تتغيّر، فكما يلوح أنّ آدم "الشابّ"، بل هكذا هم أصحاب الجنّة كلُهم شباب، آدم -أو أيّ شابٍ ذكَرٍ- من طبيعته التطلّع إلى نساء جنسه المعروضات بألوانهنّ ومحاسنهنّ، على خلاف المرأة التي بها الحياء والتمنّع من جهة، ويكفيها أنْ تلتمس رجلاً لها كفؤاً، وإبليس قد نصب هذا الفخّ لآدم بالخصوص (**يا آدم هل أدلّك على شجرة**)، ليشارك آدم في الذرّية فيكون

له نصيب من أولاد إنسيّين تبدأ نُطَفُهم على المستوى الجينيّ بطريقة خاطئة، على غير الصفّ الربّانيّ المعدّل به آدم، فتتعسّر سلوكُهم وأخلاقهم ليكونوا مناخاً مفتوحاً لنصيبه المفروض من شياطين الإنس، غير حصينين منه، ويَؤزّهم لمآربه الشرّيرة أزّاً (وبالعاميّة نقول "وَزّ" وفعلُها الأمْر "وِزّ" التي بنفس المعنى صارت في الإنجليزيّة whiz).

إذن، فالشهوة ستسيطر على آدم وتجتاحُه أكثر بكثير ممّا ستؤثّر في حوّاء. هذا ما حذّرت سادةُ الجنّة منه آدم: (**فتشقى**) أنت يا آدم، وهذا ما حصل. فالذي شقي آدم، ودام شقاؤه عشرات السنين دون حوّاء خارجاً ودفع الثمن غالياً، حتّى تاب الله عليه، لكنّ خسارته ما كانت تُعوّض بحالٍ.

حادي عشر- وهْمُ القداسة، وقراءات مقلوبة

أ- قداسة العصمة

القداسةُ وما أدراك ما هي، هذا الماردُ العتيد، جنح وجمح كثيراً بالبعض، حتّى ظنّ بأنّ أبانا آدم لَم يعْصِ، وقام يُسوّغ له المسوّغات ليُبرّئه، والقرآن يهتف "**عصى**". أو يقول "صاحبُ القداسة": (**أنّ النّهي كان أمراً إرشادياً فقط لا "مولوياً"**)، وقد رأينا قرآنياً فداحة الأمر، وأنّ الأمْرُ أمْر، والحرام حرام، والمنع منْع. ثمّ ذهب بهم الخيال إلى أنّ هذا مكتوبٌ على آدم ومُخطَّطٌ له، حتّى شطح البعضُ فقال إعلاءً لشأن آدم "**لو أنّ آدم لم يأكل من الشجرة لطرده الله شرّ طردة من الجنّة، لائماً له على عدم تصديقه مَنْ جاءه يُقسم باسمه**"! سبحان اللّه، لا ندري كيف فاتتهم الوصيّةُ الربّانية بتحذير آدم (ع) بكلّ أدوات التأكيد الخطابيّة، وأمْره بعدم تصديق الشيطان ولو حلف بالأسماء الحسنى كلّها "**إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يُخرجنّكما من الجنّة**"؟! ثُمّ يلومه قائلاً: "**ألَمْ أنْهَكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما أنّ الشيطان لكما عدوّ مبين**"، لكنْ إذا كانت الآراء تأتي مِنْ خارج القرآن، من المزاج، والعقيدة المدخولة، والخيال، والقداسة الموهومة، فهذا شأنها، وليتهم إذْ لمْ يأتوا بها مِنْ القرآن قد عرضوها على القرآن على الأقلّ، قبل أنْ يبوحوا بها.

ولقد استقرأنا آيات الله كلّها فوجدناها تُصرُّ بصريح عبارتها أنّ آدم خدعه الشيطان وغرّه وفتنه، فنسي العهد، وفقد العزْم، وعصى، وغوى، وارتكب المنهيّ، بلا استثناء لآية، واستقرأنا روايات الطوائف جميعاً، فوجدنا المئات تتّفق على المعصية بكلّ أنواع أساليب الكلام، ولولا تخريجات المذاهب الكلاميّة والحروب الاعتقاديّة المذهبيّة والسياسيّة، وإرادة إثبات العصمة وتقعيدها بالجدل وتوظيف كتاب الله و"تأويل" الروايات الصريحة، لما تاهت الأمّة في أمثال قصّة معصية آدم وحرفتها عن مسارها، ونذكر هنا كلاماً لمولانا عليّ (ع) في إحدى خطبه عن آدم (**فلمّا مهّد أرضه وأنفذ أمره اختار آدم (ع) خيرةً من خلقه، وجعله أوّل جبلّته، وأسكنه جنته وأرغد فيها أكله، وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّضَ لمعصيته والمخاطرةَ بمنزلته، فأقدمَ على ما نهاه عنه موافاةً لسابقِ علمه..**)!![1] والرواية واضحة أنّ "آدم" تمّ اختياره من خلقٍ آخر، وجُعل أوّل جبلّة "إنسانيّة"، وأُسكن الجنّة، فأقدم على المنهي، وتعرّض للمعصية، وخاطر بمنزلته! فهل أوضح من هذا الكلام، وللعلم فإنّ جميع الروايات الصحيحة تمضي على هذا النّسق.

ب- الاستخلاف

ومنْ تلك الخيالات مَنْ يقول: أنّ خروج آدم إلى "**الأرض**" لابدّ منه، بدليل (**جاعلٌ في الأرض خليفة**) وقول الشيطان (**لأزيننّ لهم في الأرض**)، وما الشجرة المحرّمة والأكْل منها إلاّ قنطرةٌ وتسبيبٌ ربّانيّ لهذا الإخراج الذي لابدّ منه لممارسة الخلافة! وهذا للأسف منْ الآراء الرائجة والمشهورة، بل هو الدّارج المستتبّ! أيْ أنّ العمليّة كلّها يا سادتنا يا قرّاء أجلاّء، تمثيليّةٌ على آدم المسكين الذي غصّ بدموعه دهوراً، وحُرم من الإنجاب مديداً، حتّى غدا في التاريخ مِنْ أشهر البكّائين، وأنّ القرآن الكريم يخدعنا إذ يقول "**عصى**"، "**غوى**"، "**تاب عليه وهدى**"، فكلّها لا معنى لها، فقط لتبقى القداسة المخترعة لآدم، هذا فضلاً عن المرويات الكثيرة التي تقول بغضب الله عليه إذّاك وضجيج الملائكة وشدّة ندامته، لتكُنْ كلّها مسرحيّةً، فلا ضيْرَ.

---

[1] – الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج١، ص١٧٧.

ومع هذا، فنحنُ معهم على أنّ آدم سيخرج إلى الأرض لا محالة، هذا أمرٌ لابدّ منه، فهذا مقتضى كونه (**في الأرض خليفة**) لو صبر ليستحقّ هذه الخلافة، وإبليس كان يعرف أكثر منّا أنّ آدم وجنّته هما في الأرض حين قال قبل هبوط آدم منها بمئات السنين (**لأزيننّ لهم في الأرض**). ولكنّ الفارق بين ما يقولون ونقول: كيف سيخرج آدم من الجنّة إلى الأرض؟ ها هنا تكمن المشكلة والمفارقة! أسيخرج مغرّراً به فاقداً تقواه ثمّ مطروداً مشموتاً به ونادماً ومنتحباً "**كالنّسر مقصوص الجناحين منتّف الرّيش**" كما سيأتي في الأسطورة؟ أم سيخرج ربّاً عزيزاً يُبدع ويستعمر الأرض ويحوّل البقاع التي هو سيّدها كلّها إلى جنّة، ويُدبّر الأمر فيها؟ هل سيكون ممنوعاً عليه الدخول إلى الجنّة، تلك التي مُنعَ منها وهي مقرّه وعاصمة ملكه؟ أم سيكون كالملك الخارج من قصره فيها متنزّهاً ليتفقّد رعيّته في الأنحاء والأقطار، ليجعل الجنّة مقرّه ومقرّ الأبرار منْ ذرّيته كما هي مقرّ سادة الملائكة المدبّرين للأرض الآن؟

هذا مفترق الطريق بين النظرتين، بل هو مفترق الطريق لفهم فلسفة الاستخلاف المقصودة مذ تمّتْ عمليّة تحويل البشر إنساناً، ليُجعَل في كوكب الأرض الخليفة، ولمّا يصرْ بعدُ، حتّى اكتمال الإنسان ورجوع الوعي المفقود منذ آدم، فحين سقط آدم سقط الإنسان، وتأخّرت مهمّة "جعل الخليفة في الأرض" آلافاً من السنين حتّى مجيء الإنسان الكامل في آخر زمن الإنسانيّة، الذي قيل بشأنه لخليفة الله حبيبه محمّد الكامل (ص): (**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**)(النساء:٤١)، وظهر أنبياءُ الله والعبادُ الصالحون عبر محطّات الزمن يمارسون جزئياً في بعض البقاع الخلافةَ الربّانيّة الصالحة المنشودة.

فإنّ إبليس حين توعّد: (**رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الحجر:٣٩)، لمْ يكن يطمح في مثل هذا النّصر المجلّل بالإخراج المُهين لآدم -المأمول كونه خليفةَ الربّ- من الجنّة إلى الأرض، بل كان سينتظر وينتظر ويصبر ويتحيّن الدهور ليتلقّى ذرّية آدم في الأرض يوماً ما وهم سادةٌ، أملاً ضئيلاً، وعسى ولعلّ يستطيع إغواء شُذّاذ من بعضهم، لمْ يحلمْ بأنْ يُوقع بأبيهم - (أمير الملائكة وربّ الأرض ومرشّح تدبيرها الجديد) من علوّ جنّته ودار مقامه في أوّل فخّ - هذه الوقعة العنيفة!

والمفارقة العجيبة أنّ الخطّة الربّانيّة في الاستخلاف التي كشفت ببصماتها في محاولات الاستخلاف الجزئي حين إبادة القرى الظالمة تاريخيّاً، قدْ صنَّفتْ الناس قسميْن؛ قسْماً يعبد الشيطان، وآخر يعبدُ الرحمن، و"العبادة" يا سادة كما بيّنّا سلفاً، ليست هي هذه المظاهر والحركات التي يقوم بها أكثر النّاس وفي نفس الحين يخادعون الله والذين آمنوا ببواطنهم، بل هي الطاعة وتذليل النّفس والتمهيد ومماثلة الأصل/السيّد، هذا معناها عربيّاً، فالممهِّد (المُعبِّد) لطريق الله عابدٌ لله ممتثل ومتمثِّل به، والممهِّد لسبُل الشيطان عابدٌ للشيطان ومماثله، وإنْ التحى وتنسّك وحجّ وركع وسجد وصام وحفظ القرآن والتوراة والإنجيل[1]، وليس عبَدةُ الشيطان أولئك المخبولون الذين اخترعوا لهم طقوساً نتنة وعكفوا عليها يتهارجون مفسدين، بلْ هي حالةٌ تُصيب الناس أجمعين، وكما جاء في المرويّ الدينيّ عن الإمام الباقر وحفيده العسكريّ (ع) أيضاً: (**مَنْ أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده فإن كان الناطقُ يُؤدّي عن الله عزّ وجلّ فقدْ عبدَ الله، وإنْ كان ينطقُ عن الشيطانِ فقدْ عبدَ الشيطان**)[2]، حقيقةً أثبتها سبحانه منذ تعهّده بأبينا آدم وعهْده إليه بطاعته والتمهيد له هو وحده واتّخاذ الشيطان عدوّه وعدم طاعته والتمهيد له، فنسي آدم هذا العهد وخالفه (**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**)(طه:١١٧)، ثمّ إلى أبنائه (**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ**)(الأعراف:٢٧)، ثمّ إلينا (**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً**)(فاطر:٦)، ثمّ مع جمْع الجميع للحساب (**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**)(يس:٦٠)، فآدم مهّد لإبليس في النفس البشريّة، بمعاشرة الشجرة الأرضيّة الهمجيّة التي أخلد إليها، لذلك قال تعالى عنه (**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**)(الأعراف:١٧٥)، على ما سيأتي. فالتمهيد (العبادة) هو الوجه الحقيقي للاستخلاف، فالخليفة عبد الله وممهّدٌ لله، وآدم سقط في هذا

---

[1] – قال الإمام الصادق (ع): (ليس العبادة هي السجود والركوع، إنّما هي طاعة الرجال، من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده) علي النمازي، مستدرك سفينة البحار، ج٧، ص٦٦.

[2] – الكليني، الكافي، ج٦، ص ٤٣٤.

الابتلاء في بدايته الأولى ثُمّ نجح أبداً، ثُمّ أُدخل بنو آدم في هذا الامتحان ليظهر من الناجح ومن الساقط، لتكون نتيجة الخلافة الأرضيّة في النهاية للعباد الناجحين، قضاءٌ مكتوبٌ منذ أوّل "ذكْرٍ" عُهدَ للإنسانيّة به، وفي كلِّ "أذكار" الأنبياء المذكِّرين: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**)(الأنبياء:١٠٥).

ولهذا نرى سرّ خطاب جبريل (ع) المحكيّ قرآنياً لسيّد البشريّة محمّد الخليفة الفعليّ (ص)، بكلمة "**قال ربّك**" ولمْ يقلْ له "قال الله" في: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**)(البقرة:٣٠)، مذكِّراً إيّاه (ص) بأنّها مهمّته الأخصّ المعقودةُ به والمنصوبُ هو لها منذ الأزل، منذ نزل ربّه (الرحمن)[1] ليأمر بخلق (الإنسان) ووضع برنامجه خصّيصاً له (القرآن) ويُخرجه من عجْمته واعياً فيُعلّمه (البيان)، وسنرى فيما يلي أنّ إبليس أفسد خطّة جعْل "آدم" خليفة، بجعل "آدم" يستعجل الخروج لممارسة الخلافة الموعودة (**ملك لا يبلى**)، فحسب الخطّة الاحتمالية، قد يتأهّل آدم لممارسة هذا الدور، ولكنّه لمْ ينجح، فإبليس في الحقيقة أفسد الخطّة الاحتمالية، ولمْ يُفسد الخطّة الصارمة التي قال سبحانه بشأنها "**كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي**"، وأنّ الأرض يرثها الصالحون، أي الخطّة الثابتة منذ البداية اقتضتْ بأنّ الخليفة الحقّ للبشريّة قاطبة وسيّدها سيكون محمّداً (ص) وذاك حين يستحقُّ ظرف تأويل الآية الكريمة: (**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**)(النساء:٤١).

---

[1] – إنّ مفردة (رحمن) على وزن "فعلان" من الفعل "رحم"، ولسبق عالَم الروح على عالم المادة والفكر واللغة، فهذا لا ينفي احتمال أنْ تكون "رحمن" "روح–مان" والروح معروف، و"مان" هو حسب العربية القديمة، المعنى، الجوهر، المجهول، الذي سمّاه التراث آمين، مينا، آمون، والمشار إليه بالسؤال "مَنْ"، ومنه سمّوا القمر "مون" لأنّه قمرُ العالَم، وهو الله تعالى، فالذي جاء كوكبنا الأرض لخلْق الإنسان ولتكليم موسى وما شابه، والذي تقول مرويّاتنا الإسلاميّة لتقريب الفهم أنّه (وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمنها ارتقى إلى السماء) فهذا تجسيم لو كان المقصود منه الله سبحانه، أمّا أنْ يكون روحاً منه (روح– مَن) فلا شبهة.

فلذلك ما قيل من مرويّات أنّ آدم "**نظر إلى مقام محمّد (ص)**" فتمنّاه لنفسه "**فحمله الحرْصُ**" على عدم فوات الخلافة وتكوين الذرّية أنْ يُبادر إلى "**الأكل من الشجرة**"، فوقع في المعصية، هو صحيحٌ بهذا النّظر، لأنّ الخلافة الكاملة و"**المقام المحمود**" الذي طمْأنَ الملائكة منذ احتجاجهم بعدم صلاحيّة خلافة مَن يُفسد، هذا المقام لمْ يسدّه آدم بالمرّة، بل ولم تتمَّ كلمةُ اللّه صدقاً وعدلاً، فتقرّ عيون الملائكة به وتحمدُ صاحبَه، إلاّ حينما جاءت الأنبياء (ع) لتُثبت بممارساتها الخالية من الظلم والجهل، إمكانيّةَ تحقّق هذه الخلافة الصالحة، ثُمّ ملأ هذا المقام بالتمام والكمال الخاتمُ محمّد (ص) الذي بشّرتْ به أنبياءُ الأمم جميعاً، فخروج آدم بداراً (استباقاً) أنْ يأتي غيرُه، وحرْصاً على عدم الفوات، مُحاولاً نيْلَ هذا الدور المحمّدي المحمود هو الذي أغراه بالمعاشرة لاستجلاب ذرّية يُمارس بها خلافته في الملك الذي لا يبلى، وهذا أمرٌ سيتّضح مزيدُه بعد قليل، والملفتٌ أنّ هذا الخلافة العادلة الكاملة المنسجمة مع الكون، بانفتاح قداسة الجنّة وطهارة إنسانها الكامل على الأرض هو حلم السيّد المسيح الذي طالب أتباعه الدعاء به ويقرأه كلّ يوم أكثر منْ مليار منهم (**لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ**)(متّى٦: ١٠).

ج- الشجرة المحرّمة

وللأسف أنّ البعض قد تعامل أيضاً مع "**الشجرة**" تعاملاً وعظياً بحتاً، وعلى خلاف ما ذكر اللّه سبحانه، الذي لمْ يذكر أبداً أنّ الشجرة من أشجار نبات الجنّة، بل لمْ يذكر سبحانه أبداً في قصص آدم شيئاً عن أشجار الجنّة حتّى ليكاد السامع أنْ يتوهّم أنْ ليس في جنّة آدم من شجر، حياطةً للعقول ألاّ تقفز إلى أشجار نباتيّة حين ذكْر الشجرة المحرّمة، ولكنّ العقول قفزت وتقافزت، وهذا أحدُها محوّلاً قصّة الخليقة الأولى بتفاصيلها المدهشة إلى مجرّد سياقٍ وعظيّ يردع عن مخالفة الأوامر المولويّة أو الإرشاديّة، ويجعل الشجرة شجرةَ نباتٍ ومجرّدَ رمزٍ للنهي! فيقول "**أنّه لا يهمّنا ما هي الشجرة، وليست هي مقصودة، بل النهي هو المقصود، وما الشجرة إلاّ واحدةٌ من أشجار الجنّة لا تختلف عن الباقي سوى بتعلّق النهي عنها**"! تُرى لو كان يدري ما هي الشجرة، هل كان سيقول هذا الكلام؟! أم حين تحيّر قاله؟

فهذا كلامٌ – تحت مجهر الفحص– يُزري بالدقّة القرآنيّة، وتسييبٌ لجواهر مفرداتها في عقْد النّظم، هذا الفهم أسهم في بعثرة قطَع قصّة الخليقة الأولى، بل إلى سرقة أهمّ قطَعها المهمّة، ولا تكتمل اللوحة اللغز إلاّ بمعرفة "**الشجرة**" كما يدلّنا القرآن، لا كما يَقولها الوعّاظ، اللوحة الربّانيّة المُبدعة التي تحكي ميلاد الإنسان وانبثاقه من قطيع شجرة الهمج، وتأجّل التخطيط الربّاني لوجود الخليفة الحقّ "**حتّى حين**"، جرّاء إفساد إبليس بإغواء آدم لخلط النسل المخلَّق باللاّمخلّق، ومن ثمّ احتناك إبليس نصيبه من الذرّية بهذا، وهذه "**الشجرة**" الهجينة ربّما هي السائدة الآن في العالَم كلّه[1].

د- شجرة الخلد وملك لا يبلى

– (**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**)(الأعراف:٢٠).

– (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**)(طه:١٢٠).

هذه آيتان دأب المفسِّرون يقرؤنهما (وجعلونا نقرأها معهم) بالمقلوب طوال التاريخ جرّاء النظام السائد في تفسير آيات كتاب اللّه، وما أحدٌ وقف يوماً ليقول: كفى هذا الغبَش! ثمّ درج المفسّرون حين يُعرّجون على ذكر عبارة "**شَجَرَةِ الْخُلْدِ**" أنْ يسوقوا رواية وحيدة عن أبي هريرة تقول (**إنّ في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ في ظلها مائة عامٍ لا يقطعها، هي شجرة الخلد**)[2]، وعلى فرض صحّة الرواية،

---

[1] – عبّرت بعضُ الروايات والأدعية والزيارات عن أمثال الأشجار (السلالات الإنسانيّة) النقيّة عن التسلّل الهمجي، للأنبياء وأبناء الأنبياء بعبارات مثل (..كُنتَ نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها) كما في زيارة وارث التي يُزار بها الحسين سبط النبي (ص).

[2] – أحمد بن حنبل، المسند، ج٢، ص٤٥٥؛ الدرامي، السنن، ج٢، ص٣٣٨. وراجع من التفاسير:

فيبدو أنّ عبارة "شجرة الخلد" مضافة إليها، بدليل جدالهم فيها، وبدليل تسميتها في روايات أخرى "شجرة طوبى" وفي أخرى "سدرة المنتهى"، ولا ندري ما ارتباط "شجرة الخلد" التي في الرواية، والتي تسميتها خطأٌ قطعاً، بالتي في القرآن على لسان الشيطان ليتمّ حشّرها كالتفسير، فالتي أشار لها إبليس بـ "**شجرة الخلد**" ليست في الجنّة، وإبليس المطرود لا يُمكن أنْ يدلّ آدم على شجرة هي في داخل الجنّة، وإلاّ فلا معنى لإخراج آدم إنْ كانت الشجرة داخلاً، فالله سبحانه قال لآدم "**لا يخرجنّكما من الجنّة**" فجاءت وسوسة إبليس عقيب ذلك لإخراجه إلى تلك الشجرة، وليرتكب معصيته هناك، ثمّ إهباطه، فكلّ تلك الأمور جرت خارج الفردوس.

فما الذي فعله المفسِّرون؟ قدْ قالوا مُفسِّرين:

(.. (**وقال**) – أيْ الشيطان– كذباً وافتراء (**ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملَكيْن**) أي لئلا تكونا ملَكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله (**قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**)، كقوله (**يبين الله لكم أن تضلوا**) أي لئلا تضلوا (**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم**) أي لئلا تميد بكم، وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن (**إلا أن تكونا ملِكين**) بكسر اللام، وقرأه الجمهور بفتحها)[1].

فتلخيص ما يقولونه الآتي:

تفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني/ج٥/سورة طه، وقد نقل الشوكاني/ج٤/سورة الرّعد، التالي: (فقال رجل: وما طوبى؟ قال: "شجرة في الجنة مسير مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها" وفي الباب أحاديث وآثار عن السلف، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس قال: قال رسول الله (ص) "في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، اقرأوا إن شئتم "وظل ممدود") فهي شجرة طوبى وهو الظلّ الممدود، لا الشجرة التي سمّاها إبليس "شجرة الخلد".

[1] – ابن كثير، التفسير، ج٢، ص٢١٤. وكلّ التفاسير الباقية لا تختلف عن هذا إلاّ قليلاً، ومعظمه اختلاف في الصياغة.

- بعضُهم فسّر آية الأعراف (**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**) بتقدير وجود "لا" محذوفة، وطبْعاً مع حرف تعليل مقدّر "لـ"، أيْ (**إلاّ** "لـ" **أنْ** "لا" **تكونا ملكيْن**)، أو كما يُعبِّرون (لئلاّ تكونا ملكيْن)، وأتوا بشواهدهم من آيات نظْمُها وتركيبها يختلف بالمرّة عمّا أرادوا، أيْ أنّهم أضافوا مفردتيْن في كلام الله لتصحيحه وبيانه!

- بعضٌ آخر، قرأ "**ملَكيْن**" بفتْح اللاّم .. "ملِكيْن" بكسْر اللام! ليُطابق ما جاء في "طه" مع ما جاء في "الأعراف"، وليُوحِّد النتيجة بأنّ الشيطان وعدَ أبويْنا **الخلْدَ والمُلْك**، أيْ أنّه تعامل مع القرآن كالروايات الضعيفة، صحّح وعدّل رواية (الأعراف) على ضوء رواية (طه)!

- فريقٌ ثالث، حين يمرّ على آيات سورة طه، يقول بصريح العبارة: "قد تمّ تفسيرها في سورة الأعراف"!! كيف تمّ تفسيرها والعبارات مختلفة جدّاً؟! لكنْ يبدو أنّ الله سبحانه لدى بعضهم يتفنّن في تكرار نفس القصّة بعبارات أخرى، لدرجة أنّهم زهدوا من إعادة الشرح بعبارات أخرى أيضاً و(**اللهُ لا يسأم حتّى تسأموا**)!

- بعضٌ آخر وقع في الحيرة، حين جاء وفْقَ هذه القراءة ليُفسِّر موقع "أو" في (**إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**) لأنّه ينبغي أن تكون واواً فقط أي (وتكونا)، خاصّةً وأنّهم يريدون أنْ يُشاكلوها و(يُصحِّحوها) بآية طه التي تجمع المُلْك بالخلد ولا تُخيِّر بينهما، فالبعض أكّد أنّها فعلاً بمعنى "و" من إقامة "حرف" مقام "حرف آخر"[1]!! وآخرون أعملوا أذهانهم جاهدين للوصول إلى تخريج مناسب فلمْ يقتنعوا أو يُقنِعوا.

---

[1] - نودّ أنْ نُشير أنّ بمثل هذه التخريجات اصطُنعت كثيرٌ من قواعد البلاغة، ومنها هذه التي تقول أنّ "أو" تأتي أحياناً بمعنى "و"، فإنّها انطلقت من اعتماد نظام خاطئ في تفسير الآيات، فالافتراض بأنّ كلام الله تنوّع وتكرار وسجع هو الذي جعل البعض يظنّ أنّ (أنْ تكونا ملَكيْن أو تكونا من الخالدين) هي نفسها (الخلد وملْك لا يبلى) فانساق بالنتيجة ليُغيِّر قراءة "ملَكيْن" إلى "ملِكيْن"، ثمّ ليضع قاعدة أنّ "أو" تأتي بمعنى "و"، ثمّ راحوا يتتبّعون الآيات ليقيموا شواهد أخرى على هذا الخطأ، كآية (فتولّى بركنه وقال ساحرٌ أو مجنون)(الذّاريات:٣٩) قالوا "أو" هنا بمعنى "و" أيضاً!

ونـرى أنّ هـذه الطرائـق أخلّـت بسـياق الآيـات وتركيبـها بتحكيـم الظنـون البشـرية وقواعدها وقصورها، فهل هناك قراءة أخرى تحلّ كلّ هـذه المعضـلات والمتاهـات الـتي سبّبوهـا وتُبخّرها دفعةً واحدة؟! نعـم، وننبّـه القـارئ أنّ غرضنـا لـيس فقـط اسـتخراج المعنى الصحيح للآية المناسب لقصّة المعصية الأولى التي تشـرح وجودنـا الإنسـانيّ كلّـه، بل إثبات أيضاً أنّ النّظام الموجود الذي من خلاله يتمّ تفسير آيات اللّه هـو نظـام أعـرج على أقلّ تقدير، يُغبِّش على الحقيقة أكثر من أنْ يكشفها.

فتجاوزاً لتلك الآراء المتباينـة ومناقشـتها، ومنعـاً للإطالـة، نسـجِّل ملاحظاتنـا مـن الآيتيْن الشريفتيْن أعلاه:

١- أنّ "**شـجرة الخلـد**" كمفهـوم، موجـودٌ لـدى آدم، وإلاّ قـال الشـيطان لـه "شجرة خلد" فآدم موعودٌ قبْلاً بـ "**شجرة الخلد**".

٢- أنّ "**ملك لا يبلى**" غير معهود لدى آدم، وإلاّ لقال الشيطان "والملك الـذي لا يبلى"، فكلّ الذي يعرفه آدم "ملكٌ يبلى" فقط، وهو ملْك الجنّـة الـتي كـان فيهـا، الجنّة نفسها بما فيها لا تبلى، بل تمليكها للإنسـان يبلـى شـيئاً فشـيئاً بالمخالفـة، وقد بلـي ملـك آدم لجنّتـه حتـى أُهـبط وحُـرم مـن التصـرّف فيهـا. وكـلّ إنسـان لـه صـكّ مُلْـك (حسـاب/رصـيد) في الجنّـة، بإمكانـه أنْ يُعرّضـه للزيـادة والنمـاء والاسـتثمار، أو للبلـى شـيئاً فشـيئاً، فتقْـدمُ خزنـةُ الملائكـة كـلّ يـوم إلى مـا عمـل الخاسرون من عمل حتّى ينتهي الأمر به أنْ تجعله هباءً منثوراً، فـإذا هـو قـد بلـي ملكهم ورصيدهم من الجنّـة فخرجـت مـن ملكيّتهم تمامـاً ولـيس لهـم شـبْرٌ فيهـا. فآدم كان مُلْكه (تمليكه) من النوع الذي يبلى في الجنّة، كـان ملْكـاً مشـروطاً معـاراً يفقده مـع مخالفـة بنـوده، وقطعـاً سيسـتهويه أنْ يـزول هـذا القلـق بحيـازة ضـمان "**ملْك لا يبلى**"، مثلما يُطمئن كلّ نفس مؤمنـة اليـومَ قولُـه تعـالى لنـا (**لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**)(الحجـر:٤٨)، فهـذا ملْـكٌ لا يبلـى، مهمـا فعلنـا في الجنّـة يومئذٍ، لـنْ نُخـرَج منـها. فالعمـل الصـالح هـو الـذي يُملّكنـا الجنّـة

فأتلفوا معاني الآيات الأخرى، وصار الخطأ ضارباً ومستشـرياً في نسيج التفسـير القرآنـيّ ومتراكبـاً ضمن تطبيقات كثيرة.

أبـداً، والسـيّئ يُبلـي ملكهـا أبـداً (**تِلْكُـمُ الْجَنَّـةُ أُورِثْتُمُوهَـا بِمَـا كُنْـتُمْ تَعْمَلُونَ**)(الأعراف:٤٣).

لكنْ ليستْ مخالفة الخروج الطوعي من الجنّة هو الذي أفقد آدم ملكيّة الجنّة، بدليل رجوع حوّاء إليها، بل ممارسة درب الشقاء، أيْ ارتكاب المعصية الصريحة بمعاشرة شجرة الهمج (**فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**)، فمع أنّ كليْهما خرج، لم تخرج ملكيّة الجنّة منهما، وكان بإمكانهما العودة، أمّا الذي بالغَ وانتهك حدّ الربّ، فقد جرى عليه ناموسُ ما جرى على إبليس سابقاً، وهو الذي أراده إبليس بالخصوص، ممارسة الاستكبار على الأمر الصارم.

٣- (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ** — في طه)[١]، هذا التركيب البنائي العربي "**وس-وس**" يُفيد التكرار، وصوت الواو والسين يفيد الهمس والخفاء، ككلّ الإيحاءات الإقناعية المتكرّرة التي تستعملها الإعلانات الدعائيّة اليوم لتسلب إرادة المستهلك المُتلقّي بثّها، إنّ (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ**) هي الوسوسة الشيطانيّة التي رافقت آدم واختصّت به لجذبه خارج الجنّة وارتكاب المعصية، وليست هي نفس الوسوسة العامّة للزوجين (**فَوَسْوَسَ لهما** — في الأعراف) كما يقول المفسّرون، كما هي ليست قبل وسوسة الأعراف كما قال بذلك البعض، فوسوسة الأعراف، عامّة على مستوى الفكْر لحرْفه ولخلخلة قرار النهي، بينما وسوسة طه الخاصّة لآدم، التفاف على المسألة، بطرح شيء آخر فيه فائدة وهميّة، ليبدو وكأنّه ليس هو الشجرة المنهيّة، لاستزلاله تجاهها. الأولى وسوسةُ إفساد فكريّ، والثانية انتهاك سلوكيّ.

٤- ظرف الوسوستيْن وغايتهما ومستهدفهما:

أ- المرحلة الوسواسيّة الأولى، كانت لوضْع مسألة النهي الإلهيّ وفلسفته وأسبابه على منضدة التساؤل والتشكيك، وكان النهي واضحاً بعدم مقاربة

---

[١] - (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)(الأعراف:٢٠).

- (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)(طه:١٢٠).

شجرة الهمج (فهي الشجرة المتكلّم عنها دائماً في قصّة آدم سواءً في سورة البقرة أو الأعراف، ووسوسة إبليس لآدم وحوّاء كانت تدور على نفس الشجرة كموضوع للنهي). وكان دخول الشيطان عليهما على السواء (**وقاسَمَهُما**) فالشيطان يغري الرجل كما يغري المرأة، وليس أحدهما بأشدّ من الآخر، وهذه الوسوسة جرتْ وهما في الجنّة لتغيير قناعتهما وتمييع الأمر، حتّى أدّى بهما للاقتناع بالأهون وهو بالخروج من الجنّة لكنْ لا بمعاشرة الهمج، فهما خرجا يُجرّبان (ذاقا/أكلا).

وسنلاحظ ارتباط مسألة "معاشرة الهمج خارج الجنّة" بالوصفيْن "**ملَكيْن**" "**خالدين**" في الجنّة، فالصفة الأولى (الملائكيّة) مانع حقيقي "ذاتيّ" من التزاوج مع شجرة الهمج نظراً لتغاير الجنس، والصفة الثانية (الخلود داخلاً) مانع حقيقي "موضوعيّ" نظراً لعدم إمكانيّة الخروج من الجنّة.

ب- النصّ الأوّل (**فَوَسْوَسَ لَهُمَا**)، تعدّى باللاّم ولأبويْنا كليْهما، في حين أنّ النصّ الثاني (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ**) تعدّى بـ إلى، واختصّ بأبينا آدم وحده، وإنّ تعدّي فعْل الوحي أو الوسوسة "باللام" يعني أنّ الموحى له أو الموسْوَس له، عليه أنْ (ينفعل) هو (حركة ذاتيّة: نفسيّة مثلاً، أو اعتقاديّة، أو عاطفية)، لذلك عقّب في الأولى سبحانه (**لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا**) فيتهيّج كلٌّ منهما منفعلاً تجاه غرائزه. أمّا التعدّي بالحرف "إلى" فعليه أنْ (يفعل شيئاً)(حركة موضوعيّة) ويتّجه إلى هدف كالخروج من الجنّة أوّلاً، وممارسة المعصية في الخارج ثانياً[1]. فالملخّص أنّ "لـ" هدفها نفس الموحى له وتنتهي عنده، و"إلى" هدفها يمتدّ إلى خارج الموحى إليه.

وهذا يُرجّح أيضاً أنّ الوسوسة الأولى (**فَوَسْوَسَ لَهُمَا**) تمّت وهما في الجنّة فقط حيث الإيحاء ذاتي وعلى مستوى القناعة الفكريّة لإجراء التغيير النفسي، أمّا الوسوسة الثانية (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ**) فحرّكت سلوك آدم ورافقته منذ البداية

---

(١) - لاحظ الآيات، وقارنها: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً)(النحل:٦٨)، (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ)(الأنعام: ١٩)، مع (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)(الزلزلة:٥).

حتّى نقطة النهاية، وأقوى ما كان بثّ هذا الإيحاء الشيطانيّ حين كان يصدر إلى آدم من ناحية أنثى الهمج، بحيث تمّ الاستحواذ على آدم تماماً بهذا البثّ القوي الملحاح خارج الجنّة.

٥- فكيف نقرأ النصّيّن القرآنيّين إذاً؟ وما هي شجرة الخُلْد؟ أسلمُ وسيلة للتعامل الصحيح مع النصّيّن القرآنيّيّن هي:

أ- افتراض دلالة كلٍّ منهما على معنىً إضافيٍّ مغاير عن الآخر.

ب- ترك داعي تبديل القراءة بتغيير "ملَكيْن" إلى "ملكِيْن" لأنّه يُخلّ بالمعنى، فإنّ الذين بدّلوا القراءة بدّلوها لتتوافق مع آية طه "**مُلْك لا يبلى**" من جهة، وثانياً لحلّ التناقض الذي وجدوه أنّ كيف استطاع الشيطان إغراء آدم بمرتبة ملائكة قدْ أُسجِدتْ له وهو أعلى منهم، فاضطروا لتبديل القراءة "ملكِيْن" لإخماد الإشكالين بخبطةٍ واحدة!

ج- التخلّي عن الزيادات المتكلّفة والمحذوفات المفترضة، بزيادة محذوفيْن هما لام التعليل، ولا النافية، وبالذّات إذا كان حرفاً مثل "لا" الذي يقلب العبارة رأساً على عقب، مثلما صيّروا بتقديرهم الآية: (**إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ**) لتُصبح (إلاَّ لأَنْ لا تَكُونَا مَلَكَيْنِ)!

د- ولا جدوى منْ هدْم قواعد اللسان العربي بجعل الأداة (أو) بمعنى (و)، لإنتاج عبارة مخترعة: "أنْ تكونا ملكين و تكونا من الخالدين"!

فالآية: (**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**) توسّطت آية نهي الربّ إيّاهما عن قرب الشجرة (معاشرتها)، وآية جذب الشيطان لهما نحو الشجرة[1]. والمفروض أنّ إبليس يريد أنْ يزعزع هذا النهي

[1] - (.. وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ..)

الربّانيّ ليُخرجهما من الجنّة على الأقلّ حيث يُوجد قطعانُ همج البشر (وهي العمليّة التي يُسمّيها القرآن "**خُطوات الشيطان**")، ثمّ بمحاولة إغراء المعاشرة المطلوبة.

فالذي نراه بحسب العبارة وتركيبها، التي تحلّ جميع تلك الإشكالات بلا تغيير في قراءة الآية ولا تقدير محذوفات، أنّ:

النصّ الأوّل: لو نظّف القارئ ذهنَه من الفهم الذي حشتْه فيه التفاسيرُ، وأغمض عينيْه قليلاً، وأدار العبارة في ذهنه بصفاءٍ تامّ (**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ**)، كأنّه لأوّل مرّةٍ يسمعها لأدرك ما تعنيها مباشرةً، وسيرى ما لمْ يستطع المفسِّرون والمقلّدون رؤيته.

الشيطان يقول لهما، متحايلاً كشبّه متشكّك في جنسهما البشريّ: (لا أعتقد أنّ الربّ نهاكما أنتما عن الشجرة، بل كان نهيُ الربِّ عامّاً موجَهاً لمن يليق به، وهو في الحقيقة موجّهٌ للملائكة لا لكما، هم نقلوه إليكما ظنّاً أنّ حكمهم وتكليفهم هو بنفسه ينطبق عليكما، ما نهاكما عنها اللّهم إلاّ أنْ تكونا ملائكة وأنا لا أدري، أو أنْ تكونا من فئة الخالدين في الجنّة الذين لا يخرجون منها[1] وفي وضعٍ ثابتٍ لا يتناسلون، فالفئتان الممنوعتان بالأصالة: الملائكة التي تستطيع الخروج من الجنّة لكن لا تتزاوج مع شجرة البشر لاختلاف جنسهما (مانع ذاتيّ)، والفئة الأخرى منْ سدَنة الجنّة أو خدَمتها والقائمين عليها لا يخرجون بالمرّة بل ممنوعون وخالدون فيها (مانع موضوعيّ)، وأنتما كما يبدو لستما من الملائكة كما أنّكما لستما من الخالدين فيها، بل بَشَرٌ مسموحٌ لكما الخروج والتنزّه خارجاً على الأقلّ) هذا ملخّص ما عناه إبليس، هو يفعل الشيء الطبيعيّ الذي حَذّرهما الربّ منه (**فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ**) فاختصار عبارته: (لا يصدق عليكما النهيُ إلاّ أنْ تكونا ملَكيْن، أو من جنسٍ كائنات أُخرى فُرض عليها البقاء الأبديّ في الجنّة وعدم السماح بالخروج منها أو التناسل، وأنتما لستما كذلك، فلماذا لا تخرجان؟).

---

[1] - خُذ مثلاً لتقريب الفكرة: "الولدان المخلّدون" كجنس موصوف قرآنيّاً في الآخرة، ملازمون خدمة صاحبهم ومرافقته وثابتون معه في الجنّة لا يزولون عنها.

وطبعاً هما سيُجيبان في قرارة أنفسهما على السؤال المفتوح المُضمَّن في: (إلاّ أنْ تكونا ملكيْن؟): أنّهما ليسا ملَكيْن، والآخر (أو تكونا من الخالدين؟) ففعلاً: هما ليسا من خدَم الجنّة الخالدين عن الخروج أو الذين لا يتطوّرون ويتغيّرون، فهكذا أوقعهما الشيطان وأقنعهما. لأنّ الملائكة فعْلاً ليس بمسموح لها التمثّل بشَراً لمعاشرة الهمج، وهناك ملائكة أو أجناس خلائقٍ غير مسموح لها إلاّ بمداومة ملازمة الجنّة والثبات فيها (من الخالدين)[1]، فالخروج كان ميسّراً لآدم وحوّاء بدليل أنّهما نُبِّها بعدم إخراج الشيطان لهما منها لا بعدم الخروج مطلقاً، وبدليل أنّ حوّاء رجعتْ ودخلت الجنّة، وبدليل عدم منعهما من الخروج حين خرجا طواعيةً متابعين تغرير إبليس.

فالعبارة في تركيبها تحاكي قولنا (**لستَ معنيّاً بأمر التسريح، إلاّ أنْ تكون موظّفاً اجتازَ سنّ التقاعد؟ أو أنْ تكون من الموظّفين المؤقّتين؟**). ويُحاكيها من حيث التركيب، نفياً في صدْر الآية، ثمّ استثناءً بـ "**إلاّ أنْ يكون**" في عجْزها، قوله سبحانه: (**قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً...**)(الأنعام:١٤٥) وأشباه هذا التركيب يحفل به القرآن[2].

ولا تحسب أنّ المفسّرين وحْدهم جعلوا القراءة هكذا بل حتّى النحويّون، فكلّ معاجم إعراب القرآن الكريم، ومع الأسف، انساقوا مع التفسير التقليديّ، فأعربوا

---

[1] - للعلْم، فإنّ معنى "خلَد" هو الثبات والملازمة، راجع مقاييس اللغة لابن فارس، وليس هو "الأبديّة" وإلاّ لما قال تعالى: (خَالدينَ فيهَا أَبَداً) ١١ مرّة في كتابه.

[2] - إليك بعضَ أمثلته: (مَا اخْتَلَفَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ إِلَّا منْ بَعْد مَا جَاءَهُمُ الْعلْمُ)(آل عمران:١٩)، (مَا كَانُوا ليُؤْمنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)(الأنعام:١١١)، (مَا كَانَ ليَأْخُذَ أَخَاهُ في دينِ الْمَلك إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)(يوسف:٧٦)، (مَا كَانَ ليَ عَلَيْكُمْ منْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي)(إبراهيم:٢٢)، (مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتغَاءَ رضْوَان اللَّه)(الحديد:٢٧)، (ما نهاكما ربّكما .. إلاّ أنْ تكونا ملكيْن) حيث الجزء الأوّل فيه فعلٌ ماضٍ منَفي، ينقلب نفيُه إثباتاً في الجزء الثاني الذي بعد الاستثناء، فيكون معنى الآيات:

من بعد العلم اختلفوا/ بمشيئة الله كان لهم أن يُؤمنوا/ بمشيئة الله كان له أنْ يأخذ أخاه/ باستجابتكم لدعوته كان له سلطان عليكم/ كتبنا عليهم فقط ابتغاء الرضوان/ وأخيراً: كونُكما ملكيْن يجعل نهيَ الربّ منطبقاً عليكما.

"**إلاّ**" أداة حصر أي بإمكان إسقاطها مع "**ما**" النافية لتكون الآية جملة واحدة مؤدّاها (نهاكما لئلاّ تكونا)، في حين أنّ "**إلاّ**" أداة استثناء منقطع، والآية جملتان لا واحدة، ولا يصحّ في هذا التركيب تساقط أداة النفي "**ما**" مع "**إلاّ**".

ومع الأسف، نلحظ ظلال التفسير التوراتي كما أسلفنا، جليّةً في ترجمة القرآن للغات الأجنبيّة، فترجمة هذه الآية من سورة الأعراف إنجليزياً، تأتي غالباً بهذا الشكل[1]:

"(Your Lord only forbids you this tree so that you will not become two angels, or lest you both become immortal)".

ومعناه: الربّ قدْ منعكما من الشجرة لكي لا تُصبحا ملَكين، وخشية أنْ تُصبحا خالدين!!

بينما الترجمة الأصح ينبغي أنْ تكون (بالمعنى التقريبي طبعاً):

"(Your Lord did not forbid you this tree, unless you are both angels, or ones who are kept eternally as are)".

الآثار السلبية للقراءة الخاطئة:

والآن لنقارن بين ما قاله المفسّرون قاطبة وبين ما نفترضه عكسهم، وأثر ذلك وعواقبه على هتك النظام القرآني، لقراءة هذا النصّ:

- قالوا أنّ الشيطان أقنع أبويْنا (أنّ نهياً لكما من الربّ عن الشجرة موجودٌ فعلاً، لكنّ ذلك حتّى لا تُصبحا ملكين أو خالدين).

- ونقول أنّ الشيطان أقنعهما (أنّه لم يكنْ ثمّةَ نهيٌ لكما عن الشجرة طالما أنّكما لستما ملَكيْن ولا خالديْن).

---

[1]- راجع:

http://www.isgkc.org/EnglishQuran/sura7.htm.
http://www.islamicity.com/mosque/quran/7.htm

- المفسّرون يقولون بأنّ الشيطان أخبر آدم بثبوت النهي، ونحنُ نرى أنّه أخبره بعدم وجود نهيٍ ربّانيّ، فكِّر وتأمّل وانظر أيّ المعصيتيّن ستكون أردأ وأشنع في الافتراضيّن؟!

لو تأمّل المفسّرون فيما قالوه حقّاً، لرأوا أنّ ما نسبوه لآدم وحوّاء أشنع من أيّ فعلٍ مهما جلّت معصيتهما حتّى لو تزاوجا مع شجرة الهمج، بل فعلهما بهذا أسوأ من فعل إبليس أو يُساويه، فأنْ يعلم المرءُ أنّ اللّه نهاه شخصيّاً عن شيء يقيناً، ثمّ يُقنَع بأنّ اللّه خدَعك بهذا النهي لأنّه أراد منْعَك عن خلودٍ وعن مُلْك، فيهجم على معصية ربِّه وهو متيقّن أنّها معصية ومعانداً للأمر، فعندئذٍ تُصبح القضيّة ليست مجرّد معصية، بل أهونها هنا معصية الأمر، هي الاستكبار الجريء والتطاول على الآمر العليّ لا على الأمْر فحسب، والأشنع منها سوء الظنّ به ونسبة الكذب والخداع إليه وغشّ النّصيحة، فهل هذا كلُّه فعله آدم وحوّاء؟!! للأسف البالغ، مع تحليلِ الأمر، هذا ما تقوله التفاسير، لو تنبّهوا!

هيهات لا، آدمُ وحوّاء أكرم من هذا الانحطاط والبُعد، وأقدس، وإنْ زلاّ أو فعلا ما فعلا، بل لو صدَق ما زعمه المفسّرون لما كان مِن معنى للآيتيّن اللتيّن تلتا:

١- (**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**)(الأعراف:٢١) جاءت بعدها مباشرة، فهل من معنى لقائل يقول (أُقسم باللّه أنّ اللّه خدعكما حين نهاكما عن الشجرة)؟ أيّ هُراء وتناقض هذا؟! لكنْ له معنىً منطقيٌّ جدّاً (أُقسم باللّه أنّكما لستما معنيَيّن بنهي اللّه، وأنّ الذي أقترحُه يُفيدُكما)، وهذا يتوافق مع الروايات التي يسوقها المفسّرون في اعتذار آدم[١]: (**يا جبرئيل إن إبليس حلف لي بالله أنّه لي ناصح فما ظننت أنّ أحدًا مِن خلْق الله يحلف بالله كاذبا**)، وأيضاً نادى آدم ربّه (**وعزّتك ما حسبت أنّ أحداً يحلف بك كاذباً**) و(**ربّ إنّه حلف لي بك، ولم أكن أعلم أنّ أحداً من خلقك يحلف بك إلا صادقاً**)، فهل يُناسب

(١) - ابن كثير، التفسير، سورة الأعراف؛ الشوكاني، تفسير فتح القدير، ج٣؛ القمي، تفسير القمّي، ج١.

هذه الاعتذارات "أنّه حلف لي بك أنّك نهيتني غشّاً وخداعاً"!، أم "أنّه حلف لي بك أنّ نهيَك لمْ يكنْ يشملني"؟ قرّرْ أنت.

٢- (.. **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ**)(الأعراف:٢٢)، فإنّ عبارة (**أَلَمْ أنهكما**) لا موضع لها أيضاً، لأنّهما -وفق هذا الزعم- يعلمان أنّهما منهيّان بنهيٍ خادعٍ مغشوش من الربّ، فينبغي أنْ يُخاطَبا (لِمَ ظننتما ظنّ السوء بي؟) أو (أحقّاً أنّ نهيي لمْ يكن في صلاحكما؟)، أمّا وفق رأينا فهما فعلاً بحاجة إلى قارع التذكير بالنهي الربّاني الذي تميّع لديْهما بواسطة الشيطان وصار كـ "لا نهي" فخرقاه، فيُخاطبا بصرامةٍ (**أَلَمْ أنهكما**) بتمامها.

فالخلاصة أنّ آدم وحوّاء لمْ يتيقّنا أنّ النهي سقط عنهما فعلاً بل ظلاّ شاكّيْن، لذلك يقول مولانا عليٌّ (ع) عن آدم (**فاغترّه عدوُّه نفاسةً عليه بدار المقام، ومرافقة الأبرار، فباع اليقينَ بشكّه، والعزيمةَ بوهنه**)، فهما خرجا يُجرّبان إذاً، والشيطان قد نصب لهما فخّيْن ليُقنعهما أنّ النهي بمعاشرة الشجرة قد سقط عنهما:

الأوّل: أنّهما ليسا ملَكيْن فلا يُمنع عليهما الاختلاط بهمج شجرة البشر.

الثاني: أنّهما غير خالدين، فيستطيعان الخروج وعدم ملازمة الجنّة.

فكان أنْ جرّبا الثانية ورأوا فعلاً أنّهما بإمكانهما الخروج والرجوع، فتعزّز الشكّ بسقوط النهي لدى آدم فانساق إلى المعصية.

النصّ الثاني: أمّا الوسوسة لآدم بالخصوص فقد جاءت في النصّ الثاني (**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**)، وقد تكلّمنا آنفاً في "ملك لا يبلى" وقُلنا أيضاً أنّ آدم له علْم بأمر يُدعى شجرة الخُلد، فخدعه إبليس بهذا، فماذا كان آدم يفقد؟ وماذا هو موعود؟

الجواب: "**شجرة**" النسل من ذرّيته التي "ستُخلَّد" الإنسانيّة، ثمّ "**ملْك**" أبديّ لهذه الشجرة الإنسانيّة التي هو رأسها وأصلها، والآن هو يرى أنّ الجنّة مُعارةٌ له وقد يفقد ملكها بالمخالفة وانتهاك القيود، ويرى أنّ مسألة إنشاء شجرةٍ (سلالة) له خالدةٍ قد

تأخّر، فضعف صبرُه عن الانتظار لذلك كان موضوع سياق القصّة في طه هو الصبر وعدم الاستعجال بالتحديد، وجاءت القصّة تفريعاً على نُصْح سبحانه لنبيّه (ص) (**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً* وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**)(طه: ١١٤، ١١٥)، وأنهى القصّة بتكرار نصحه لنبيّه (**فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ . وَاصْطَبِرْ . قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ**)، فأنت تلاحظ الصبر، والانتظار، والتربّص، وقوّة العزيمة والجلَد، وانتظار القضاء، وعدم الاستعجال بالمعلومة التي لديْنا بل طلب المزيد من العلم والنّضج، فالعزم الذي فقده آدم هو قوّة الصبر وعدم الاستعجال بدليل قوله سبحانه (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**)(الأحقاف:٣٥).

فهذه الثغرة التي منها دخل الشيطان ليُحقّقها لآدم الذي لمْ يصبر على الخطّة الربّانيّة طويلة الأمد، بالتحايل عليه ووعده الكاذب (**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**)(إبراهيم:٢٢)، فوسوس إليه ليُفسد الخطّة (هلْ أدلُّك على طريقٍ أسرع)، كما يُوسوس لكلّ آدمي اليوم "**ويُلقي في أمنيّته**"؛ فبدل تأجيل المرءِ ممارسته الجنسيّة لما بعد الزواج: (هل أدلّك على طريقٍ أسرع تشبع فيه؟!)، ويعدُ طالبَ الرزق بدل توخّي الحلال وانتظاره (هل أدلُّك على طريقٍ سريعٍ للربح؟!) وقِسْ على ذلك. فوعَد آدم بالخلْد على شاطئ "نينبردو" خارج الجنّة بملكٍ لا يبلى ولا يُفقَد، ودلّه على شجرة الهمج ليُكوّن نسله المُخلَّد منها، فيُصبح لديه "شجرة الخلْد" الخاصّة به، والموعود بها. بعد أنْ أقنعه سلَفاً حسب الوسوسة الأولى، أنّ معاشرة هذا النوع من البشر ممنوع فقط على الملائكة وعلى من هم حبيسو الجنّة أو هم على حالٍ واحد (الخالدون)، فقط. وهذا ما أخبره سبحانه عنه (**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**)(الأعراف:١٧٦).

هذا ما حصل لآدم، ويحصل لكلّ آدميّ، لأنّ الشيطان واحد، وهذا أسلوبه، فقط فكّر في مواقف معصيتك ستجدها هكذا إنْ لمْ تكنْ أسرع، وأكثر جرأة، وأقلّ طرافة. ولو مثّلناه في حياتنا بمثال:

إذا كان ثمّة أمرٌ حرامٌ ممنوعون من فعله، فكيف حسب التحليل النفسي نجترئ عليه؟ في البداية، يبقى شعور الصدّ عنه قوياً لأنّ الحرمة تكتسب قوّتها من هيبة الآمر نفسه بغضّ النظر عن ماهيّة المأمور به، أي موضوع الأمر (النهي). مع الأيّام يضعف هذا الشعور، لأنّنا صرنا نفكّر في موضوع الأمر، لا هيبة الآمر، فنبحث في منطقيّة الحرمة، وأسبابها، وقد نُشكّك فيها، تلك التي مهما قويت فلن تسمو لإعطائنا قوّة الممانعة كما تُعطيها هيبةُ الآمر نفسه، أمّا لو وجدنا أسبابَ المنع هشّة فهذه أوّل بدايات تهوين ارتكاب المعصية. ومع هذا فقد نصمد قليلاً. ثمّ نُفكّر: أليس في الاقتراب من المعصية فائدة؟ نحن لن نعصي، بل سنحوم قليلاً من بعيد حول حمى المعصية، فلعلّ هناك فائدة منعْنا أنفسنا من حيازتها، أو علْماً إضافياً وتجربةً وسرّاً نكتشفه، أو واجباً نقوم به. هذه هي الدفعة التي نحتاجها للهجوم على المعصية. وهذه هي خطوات الشيطان، كما بيّنتها الآيتان. خذ مثلاً:

المدير قال للموظّف: (لا تفتح هذا الصندوق)، ثمّ سافر.

في أوّل أسبوع: الموظّف، لا يفكّر حتّى أنْ يقترب من الصندوق.

في الأسبوع الثاني: يُفكّر: وماذا يُوجد في الصندوق لئلاّ أفتحه؟ لعلّه مجرّد اختبار لي، لعلّه فيه أسرار خاصّة بالمدير، أو لعلّه فيه تقريرُه الخاصّ عنّي وعن باقي الموظّفين، المهم النتيجة، أنّ الصراع النفسي قد ينحسم لصالح عدم فتح الصندوق.

في الأسبوع الثالث: صار يقترب، ويُنظّف الصندوق من خارجه، ويتلمّس القفل.

في الأسبوع الرّابع: يبدأ التحايل الأعقد؛ وماذا لو كان في الصندوق شيءٌ ثمينٌ جدّاً، وأتى سارقٌ وأخذه، أليس أنا الملام؟ أولا أكون أنا المتّهم؟ لمَ لا أفتح الصندوق بسرعة جدّاً لألمح ما فيه، فإنْ كانت أوراقاً ووثائق، حتّى ولو كانت تقارير عنّي فأُقْسم أنّي لن أنظر فيها، بل سأغلق الصندوق بسرعة، أمّا إذا كانت سبائك ذهب أو مجوهرات مثلاً، فسأنقلها حتماً من الصندوق وأخبّئها في مكان آمن من السرّاق والدخلاء، ريثما يعود المدير ببضع أيّام قبله، لأحفظها له، لأنّ قصد المدير ليس عدم فتح الصندوق حرفياً بل حفظ ما في الصندوق، وهذا ما سأقوم به!!

في الأسبوع الخامس: فتح الصندوق، وبمجرّد فتحه انفجر بما فيه في وجهِ الموظّف!

وإذا لمْ ينفجِر الصندوق، فحتماً حين يرجع المدير سينفجر غاضباً في وجه الموظّف، أمّا في حالة آدم فقد حصل الانفجاران. (انظر الصورة: ١٠)





(الصورة: ١٠)

هـ - الكلمات التي تلقّاها آدم

جاءتْ (الكلمات) التي تلقّاها آدم أيضاً إضافةً أخرى تمييزيّة لرصيد آدم على حوّاء، أضافها محبّو تمييز الرجل وتفويقه على المرأة، بلا اعتبار للحقيقة أو لمحاولة معرفتها، فكأنّ الأمور كلّها جاءت لتُثبت نصراً لآدم على حوّاء أو العكس، وكأنّما (**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) التي أكّد عددٌ من المفسّرين النبهاء أنّها ليست بين آدم وحوّاء، يُصرّون على جعلها بين آدم وحوّاء. فغاب موقع "حوّاء" من هذه الكلمات، لبداهة أنّها مؤخّرة دائماً لأنّها سبب المعصية؛ قدْ قطفت الثمرة وخدعت زوجها، وحين التوبة هو استلم (كلمات التوبة!) ثمّ أفاضها عليها، كانت واسطة الشرّ والشيطان إلى الرجل، وكان الرجل واسطة الخير والرحمن إليها! هكذا!

السؤال: ماذا لو كانت "حوّاء" أحدَ تلك الكلمات التي تلقّاها آدم أوّلاً، وأنّها التي حملتْ له "بعض" تلك الكلمات ثانياً؟! مَنْ يُصدِّق؟ لقدْ ظلّت "الكلمات" التي تلقاها آدم سرّاً، حاول المفسّرون والرواة الاجتهاد فيه لكشفها، وتشعّبت الأقوال فيها شرقاً وغرباً بحسب المذاهب الكلاميّة والروائيّة والاعتقاديّة وحتّى النحويّة، وحاصل جمع الآراء كلّها، هو التفسير بالترادف، والاستظهار بمصادر من خارج القرآن، لا تفسير اللفظ القرآني بالقرآن، فـ (كلمات التوبة!) هي أسماء خاصّة شريفة، أو رموز، أو طلاسم، أو جُمل وكلام وعبارات، أو صياغات أدعية مُستجابة! لذا فمن المنطقيّ الاستنتاج أنّ تناول الحلول من خارج القرآن وترْك كتاب الله ظهريّاً لن يُفضي إلى شيء.

القرآن حسب الاستقراء، بيّن لنا أنّ (الكلام) ليس هو (الكلمات)، فالقرآن كلام الله، وهو أيضاً كلمةٌ من الله، عيسى بن مريم كلمةٌ من الله وليس عيسى كلاماً لله، والذي لا تبديل له هو الكلمات (**وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**)(الأنعام:٣٤)، (**لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**)(الأنعام:١١٥)، (**لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**)(يونس:٦٤)، أمّا (كلام الله) فيُستبدل بـ (كلام لله) آخر، فالنبيّ (ص) حين قيل له (**ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**)(يونس:١٥) قال (**مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي**)(يونس:١٥) فالله هو الذي يُبدّل كلامه لو أراد، والله لمْ يُرِد لأنّ الله قد قال (كلمته) بأنّ القرآن العربيّ هو آية القوم، ولا تبديل لهذه الكلمة، ثُمَّ أنّ (كلامَ الله) في كتب السماء السابقة قد جاء غيره في القرآن (كلامه الخاتم)، وشريعته في نصوص كلامه لليهود بدّلها لغيرهم من الأمم. من شأن (كلمات الله) أن تتمّ وأن تنفذ وأن تبقى ولا ينالها التبديل، فهي أبديّة، فالخَلْقُ كلمات للربّ، وعودُ الله كلماتٌ له ولا تبديل لها، قراراته النافذة كلمات، تعاليمُه الأبديّة كلمات.

فما الذي تلقّاه آدم، وهو يُصبِّر نفسه في شقائه، ويضجّ لربّه تائباً خارج الجنّة بلا حوّائه، وبلا مواصلة من ربِّه، فاقداً الأمل وراجياً له في الرجعة إلى مقامه الضائع، أتلقّى (خلْقاً) (وعْداً) (قراراً) (منهجاً أبديّاً)؟ لقد أثبتنا في بحثنا أنّ آدم بمجرّد أن عصى أُهبط، وأنّ تلقّيه التوبة زامنَتْ – حسْبَ النصّ القرآنيّ – إهباطاً ثانياً متأخّراً لكائنٍ إنسانيّ ظلّ متواجداً في الجنّة بعد آدم، وسياق القصّة يُثبت أنّ الذي تغوّى عن

الرجوع إلى الجنّة (المحلّة الآمنة) بعد المعصية خارجها، ولمْ يستفد من محاولات تتبّع الأثر إليها (وهو "الخصف")، هو آدم بالخصوص، هو الذي غوى وحده، أمّا الكائن الآخر حوّاء فرجعت إلى مقرِّها، وقد أكّدتْ هذا أسطورة "إيتانا والنّسر" الأكديّة، أيضاً (**مَنْ ينتهك حدود (الربّ) فليفقدْ الطريق ولا يعدْ يعرف الدرب ولتبعدْه الجبال عن منافذها**)! وأشارت كثيرٌ من المرويّات إلى أنّ آدم ظلّ وحيداً لمائة أو أكثر من السنين يُعالج شقائه قبل أن يتعرّف بحوّاء مرّةً أخرى.

فما هي الكلمات التي تلقّاها؟ القرآن حسب السياق يجيبنا، وبلا حاجة للتسوّق خارجه لبضاعتنا؛ أنّ آدم تلقّى جميع ذلك حين قرّر الربُّ مواصلةَ عبده، تلقّى (خلْقاً) يأنس به، هو زوجته حوّاء وهي أولى الكلمات فأُعيدت له، تلقّى معها (قراراً) أبدياً ببقاء الذرّية في الأرض متاعاً إلى حين، على أنْ يعود الصالحون منهم إلى الجنّة، تلقّى ثالثاً (وعْداً) بمجيء الهدى لآدم وبنيه، عبر الملائكة (**هدى**)، أو عبر الرسل البشريّين (**رُسُلٌ منْكُمْ**)، وأخيراً تلقّى منهجاً أبدياً ليستقيم عليه هو وأبناؤه، وظلّتْ هذه التعاليم تعمل في كلّ الشرائع ساريةً لا تُنسَخ ولا تبديل لها كقوله لأوّل جيلٍ إنسانيّ (**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**)(الأعراف:٣١)، ومن هذه الكلمات انطلق آدم لتشييد البيت الحرام في مكّة. فعلى هذا نُعيد تصحيح المفاهيم: الكلمات التي تلقّاها آدم ليست هي "كلمات التوبة"، بل "كلمات زامنت التوبة" .(انظر الصورة: ١١، ١٢)



فتلقّى ـ كلمات (الصورة:١١)

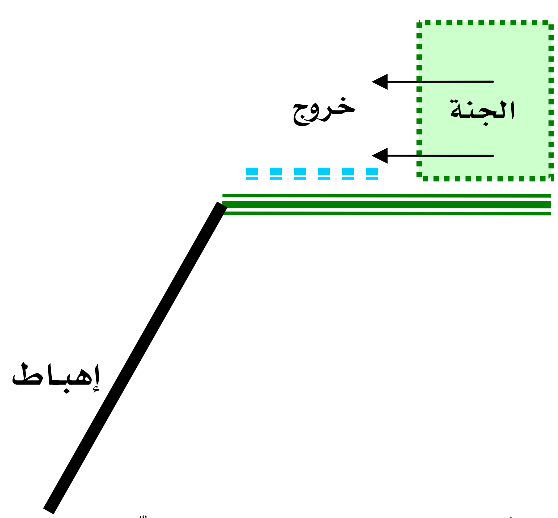


إحدى الكلمات التي تلقّاها آدم (وعْد أبديّ) (الصورة: ١٢)

ثاني عشر- جغرافيا قرآنيّة لجنّة آدم[1]

أ- هبوط إبليس من الجنّة

لنعلم أوّلاً أنّ "الخروج" غير "الإهباط" من الجنّة، الإهباط أكثر توغّلاً وبُعداً مِنَ الخروج، وقد بينّا ذلك من قبل لاحظ الشكل:



لذلك جاء القرار في سورة الأعراف التي هي السورة التي فصّلت في ثناياها من بدايتها إلى نهايتها أحوال تلك الحقبة وأشخاصها وما يكتنف معالم تلك الأمكنة من حقائق، جاء القرار لإبليس "بالهبوط" مباشرة مع أنّه كان في الجنّة حين خوطب مع الملائكة بالسجود لآدم، ما يستدعي بالضرورة أنْ يُطرَد منها (يُخرَج): (**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**)(الأعراف:١٣) فإهباط إبليس من الجنّة لمْ يتم إلاّ بإخراجه أوّلاً.

(١) – سنرى في "جنّة آدم تحت أقدام السراة" خارطة لتفاصيل الجنّة، حسبما اكتشفت من خزائن السومريّين، وأساء الباحثون والمترجمون فهمها.

إذن الإهباط يستدعي قبلَه إخراجاً من الجنّة، ولا يكون ذلك إلاّ بتصوّر معيّن، كأنْ نتصوّر -مثلاً- مرتَفعاً به سفحٌ في أعلى قمّته قصرٌ (**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**)(الحاقة:٢٢) و(الغاشية:١٠)، فإذا قيل لمَنْ في داخله: "اخرُج من القصر"، فليس عليه سوى أنْ يخرج، حتّى وإنْ بقي أعلى الجبل (خارج القصر) أو في سفوحه العليا القريبة من القمّة، لكنْ إنْ قيل له "اهبط من القصر" فهذا عليه أنْ يقطع المسافة من داخل القصر خارجاً إلى الأرض المنبسطة أسفل السفح، فلا تطأ قدمه الجبل بعدها، بل يهبط إلى الوادي والسهول البعيدة. هذا تماماً ما فُعل بإبليس، فإبليس وهو في الجنّة رُمي به إلى أقصى المدى، ولو قيل له "**اخرجْ**" أوّلاً فقط، لاستدعى حصول فعلٍ آخر منه أشدّ نكارةً ليُعاقب مرّةً ثانية بـ"**اهبط**"، والعارف بدلالة الحروف العربيّة يرى جليّاً كيف قيل له "**فاهبطْ منها ـ فاخرجْ**". ولمْ يُقَلْ له "فاهبط منها .. اخرجْ" بحذف فاء "فاخرج"، ليكون معنى الإهباط والإخراج واحداً إذْ تكون كلمة "اخرج" مفسِّرة لـ "اهبط" حينها. ولمْ يُقَلْ أيْضاً "فاهبط منها .. واخرج" باستبدال فاء "فاخرج" بواو، ليُظنّ أنّ في الجنّة مهبطاً أوّلاً ثمّ يأتي المخرَج منها كالعمارات الحديثة، بل الحقّ أنّ "فاهبطْ منها .. واخرجْ" تغدو خاطئة أيضاً ولا تستقيم بهذا التصوّر، إلاّ إذا أزحنا لفظة "**منها**" لنجعلها تبعاً لـ"**اخرج**" لتُقرأ هكذا "فاهبط .. واخرجْ منها"، لأنّه في الحال الأوّل ما دام "هبط منها" فقد خرج بالضرورة.

إذن، فعلى هذا، لماذا لمْ تكتفِ الآية بالقول له: (**فاهبط منها ـ إنّك من الصاغرين**) بحذف فعل (**فاخرج**) من الآية، ما دام الهبوط منها يعني الخروج ضمناً؟ سؤالٌ وجيه، يُوجّهنا إلى عجيب الإحكام القرآني.

فالجواب: أنّه لو قال كذلك لما عرفنا عن تضاريس الجنّة (الفردوس) شيئاً وكيفيّتها، فالعبارة القرآنيّة تُخبرنا أنّ الهبوط من الجنّة إلى الأرض (السهل) لا يكون إلاّ من مخرجها فقط، أي ليس للجنّة مهبطٌ من داخلها إلى سهول الأرض ووهادها (كأنْ يكون لها هوّة أو سلّمٌ داخليّ أو نفقٌ إلى أسفل الجبل). حتماً فيها مصعدٌ من داخلها إلى السماء كمنصّة انطلاق أو كبوابّة للسماء ("**أبواب السماء**" كما أشار القرآن)، حسبما أخبر سبحانه عن إبليس الذي طُرد من الجنّة باستكباره (كما في الآية ١٣، آيتنا التي نتكلّم فيها "**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا**")، وأنّه ظلّ حبيس

الأرض هذا العالَم المادّي (ولا يعني أنّه لا يستطيع النفاذ إلى من هم في المرّيخ أو القمر!) ولا يستطيع العروج إلى السماء التي هي عالَم آخر يُوازي هذا العالَم لكنْ وفق قوانين أخرى، لأنّ الجنّة هي بوابة ذلك العالَم وباب تلك السماء أو نفَقُ العروج إليها (**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ**)(الحجر:١٤)، وعلى منوال زعيمهم إبليس، أخبر سبحانه في نفس السورة عن "المستكبرين" أنّهم لا يدخلون الجنّة أيضاً كزعيمهم أيضاً وأنّهم لا تُفتّح لهم أبواب السماء: (**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**)(الأعراف: ٤٠) فتفتّح أبواب السماء لصعود أيّ كائنٍ روحانيّ عاقل وعروجه إلى السماء التي هي في بُعْد "ذبذبيّ" آخر يمرّ عبر دخوله الجنّة فقط لا غيْر، كما أنّ الهبوط إلى الأرض السُّفلى يمرّ عبر الخروج من باب الجنّة (وحتّى العبور إلى هوّة جهنّم هو بالخروج من الجنّة)، فليس منْ مهبطٍ إلى الأرض من داخل الجنّة، فمَن أريد له أنْ يهبط من الجنّة عليه الخروج منها أوّلاً، هكذا فُعل مع إبليس؛ أُهْبِط فلزم أنْ يخرج.

ولمزيد من تسليط الضوء قليلاً لكي لا نترك القارئ في حيرة، فإنّ محلّ الجنّة (دار الأبرار) مكانيّاً من تلك الجبال والمغاور حول بقاع مكّة، كمحلّ النفس من أعضاء البدن وعروقه، فكما أنّك لا ترى إلاّ البدن لا النفس، لأنّ النّفس تكمن في بُعدٍ آخر، فكذلك هناك. والجنّة العالية، هي عالية في مستواها الكونيّ، هي في بُعدٍ أسمى من هذا البعد المادّي الموازي لها أو التي حلّت فيه، إنّها كبعض المناظر ثلاثيّة الأبعاد التي تحوي منظراً ظاهراً وآخراً باطناً وبتركيز معيّن مستديم تستطيع أن تلمح المنظر الباطن بصفائه وجماله على أن تُحافظ على تركيزك، وبمجرّد زيغانك للحظة تجد نفسَك تُحملق في المنظر الظاهر الذي يراه كلّ أحد ببساطه، هذا الأمر أشار إليه القرآن بالقرى الباطنة التي بارك اللّهُ فيها في مقابل (**قُرىً ظَاهِرَةً**)(سبأ:١٨) وهي التي نسير فيها ونعيش عيشنا المادّي.

وللتقريب لنقلْ أنّ كثافة (دار الأبرار) أقلّ، فأيّ كائن تزيد كثافته عن كثافة الوسط الذي يحمله (أيْ الجنّة) فإنّه يسقط (يهبط) منها تلقائياً ويُرمى به خارجَ قداستها، كهبوط المطر إذا زادتْ كثافةُ مائه عن السحاب الذي يحمله، فبهذا نفهم كيف هبط إبليس منها ومعنى (**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا**)(الأعراف:١٣) ونفهم

عدم قدرته هو وأتباعه عن الدخول إليها وسرّ تسميتها بالوادي المقدّس، وحظيرة القدس، والمحلّة الآمنة، ودار السلام، فالتكبّر وهو تضخّم الأنا يُثقّل شخصيّة صاحبها بحيث يجد نفسه (كالحدَث/الثفل والثقل) الذي يضطر الجسمُ المعافى طبيعياً أنْ يتخلّص منه حفاظاً على سلامة أجهزته، بهذا نعلم أيضاً لماذا قال عيسى (ع) (**وأقول لكم أيضا أنّ مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله**)(متّى ١٩ : ٢٤) وأيّد ذلك القرآن، فملكوت الله التي أراها اللّهُ نبيّه إبراهيم (ع) قبل أن يؤول أحدَ ساكنيها الآن، هو هذا البُعد الآخر الساميّ الرّغد الذي بإمكان المرء الانتقال إليه بشرط أن يتسامى إنسانياً (روحياً) ويتخلّى عن جميع ما يُثقله إلى المادّة والجشع (**اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: لاَ تَخْرُجُ مِنْ هُنَاكَ حَتَّى تُوفِيَ الْفَلْسَ الأَخِيرَ!**)(متّى ٥ : ٢٦)، إنّها كالحديقة التي لا يستطيع الثعلبُ الدخول منْ ثقب سورها إلاّ إذا جاع، والإنسانُ كالسفينة التي إذا امتلأت ركست إلى قاع أرض المحيط وغرقت وإذا خفّت طفت وظلّت تجوب البحر الواسع، هكذا هي الجنّة، فما دامت أنفسُنا كبيرةً وأجرامُنا ضخمةً كالجمل فلن نستطيع الانسياب للعبور من ثقب بحجم إبرة (**مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!**)(متّى٧: ١٤)، يجب أنْ تتطامن أنفسُنا (نبيعها كما يقول القرآن) ونكون روحانيين بريئين كالطفل كما قال عيسى (ع)، فهي حالة من الصفاء ساميةٌ، تُصبح فيها، تؤهّلك لدخول حظيرة القدس، وأنت واقفٌ مكانك، لتدخل في عباد الله كخليّة من خلايا جسم واحد، وبمجرّد أنْ تلتفت لحاجاتك المادّية وأنانيتك تنفصل كانفصال المولود من جسم أمّه لتجد نفسك ملقيّاً على الأرض الثقيلة بحكم الجاذبيّة خارج أمّك الرحيمة التي خُلقتَ فيها، وبهذا نستطيع أن نستوعب ما قيل لآدم (**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى* وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى**)(طه:١١٨، ١١٩) وكيف كانت الجنّة أمّه ومحلّ خلقته وغير منفصل عنها يصل إليه كلّ شيء فيها بلا عناء منه، بل نستوعب التعبير القرآنيّ (**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**)(القارعة:٩) وكلّ تعابير (الهويّ) لمن يثخن ويخلد إلى الأرض إذْ ينفصل ويستبدل بأمّه أمّاً أخرى، ونستوعب أيضاً كون (النار) هي من مادّة الأرض، أسفل عميقاً تحت الجنّة السماويّة (أي السامية).

ب- خروج آدم وهبوطه

أمّا آدم، فالعجيب أنّنا لا نرى ولا مرّةً في القرآن أنّه وحوّاء أُخرجا أو طُلبَ منهما الخروج من الجنّة، بل على العكس أُمِرا بعدم الخروج منها، والذي نراه أنّهما أُهبطا فقط، بأمر الربّ، فكيف ولماذا؟ لنرجع إلى السؤال الذي سبق وأثرناه في الفقرة (حادي عشر: سرّ شقاء آدم وحده) وهو: هل اتّفق قرار الملائكة مع فعل إبليس، على إخراج آدم، وكأنّ الأمر كلّه تمثيليّة عليه، وعمليّة تواطؤ؟! لا، لمْ يتّفق، فإبليس "**أخرج**" آدم من الجنّة، والربّ "**أهبط**" آدم من خارجها. ذلك لأنّ آدم بكلّ بساطة قد خرج من الجنّة وابتعد بنفسه بكلّ طواعية وتسلّل "**بغرور**" بإزلال الشيطان القابع في أسفل الجبل، وبإيحاءاته التخاطرية وبوسوسته مع نفسه عن بُعد بأمانيّه الباطلة له بالخلد والملك والسيادة على الشجرة (السلالة) التي هو في الأصل قدْ خُلق وسُوّي ليكون سيّداً وربّاً عليها وعلى غيرها من كائنات أدنى، لا مَغويّاً بها، بل لمْ يكنْ ليخرج يُمارس دورَه وخلافته إلاّ بعد أنْ تهلك تلك الكائنات.

ومثلما التزمنا بهذا التفريق بين الخروج والهبوط، فلزم أنْ نعتني بالتفريق أيضاً بين مدلول (**اهبطْ منها**) و(**اهبط**) لوحدها. فـ (**اهبط منها**) لمن كان في الجنّة، أمّا "**اهبطْ**" فتتكلّم عمّن هو متواجد في أعلى السفح في محيط الجنّة خارجها.

فعلى هذا، نفهم الآيات التالية:

- (**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)(البقرة:٣٦)، هو مجرّد إهباط، وهي عمليّة إبعاد شاملة لكلّ المتواجدين على الجبل خارجاً قريباً من الجنّة، منْ بشر وجنّ، بمن فيهم آدم.

- (**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)(البقرة:٣٨)، هذا إهباط من الجنّة، هو إلحاق من بقي في الجنّة بمن أُخرج منها، ويشمل الآن حوّاء، والملائكة الذين تمّ إسجادهم

لآدم ليُكملوا مهمّتهم ودورهم خارجها مع الإنسان يحوطونه ويقومون عليه[1]، وهو في الحقيقة إهباط للجميع، الأوّلين والآخرين، لا أحد يبقى أو يدخل أو يرجع إلى الجنّة أو يُقيم بجوارها إلاّ بإذن المدبِّرين، فإنّ مركّب "اهبطوا منها جميعاً" تحتوي على "**اهبطوا**" و "**اهبطوا منها**" و "**جميعاً**"، فهي تعمّ جميع الفئات التي في الجنّة من ملائكة وإنس "**اهبطوا منها**"، وبالأولى جميع الفئات التي خارجها من إنس وبشر وجنّ "**اهبطوا**"، ولذلك كان المُتكلِّم السادة المدبّرين "**قُلْنَا**" ولو كانت الصيغة "**قال**" لتحكي أنّه أمر الربّ الأعلى، لكان الجميع هبط حتّى المدبِّرون، ولمْ يظلّ في الجنّة أحدٌ وصارتْ خاويةً على عروشها بلا مدبِّرين.

- (**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)(الأعراف:٢٤)، تشمل مَن هو خارج الجنّة في أعلى المنحدر من جنّ وإنس.

- (**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى**)(طه:١٢٣)، هذه آية مختصرة، طوتْ مرحلتي الإهباط بذكر أعلاهما لأنّ هناك اهباط، وهناك اهباط منها:

الإهباط: بعد المعصية، نال آدم والبشر الذين معه خارج الجنّة والشياطين المحيطين بالجنّة الذين تمرّدوا عن السجود مع زعيمهم.

الهبوط منها: نال إبليس لعدم السجود أوّلاً، ثمّ بعد معصية آدم بمدّة وبعد إهباطه نال الإهباط من الجنّة حوّاء والملائكة التي أُسجِدتْ.

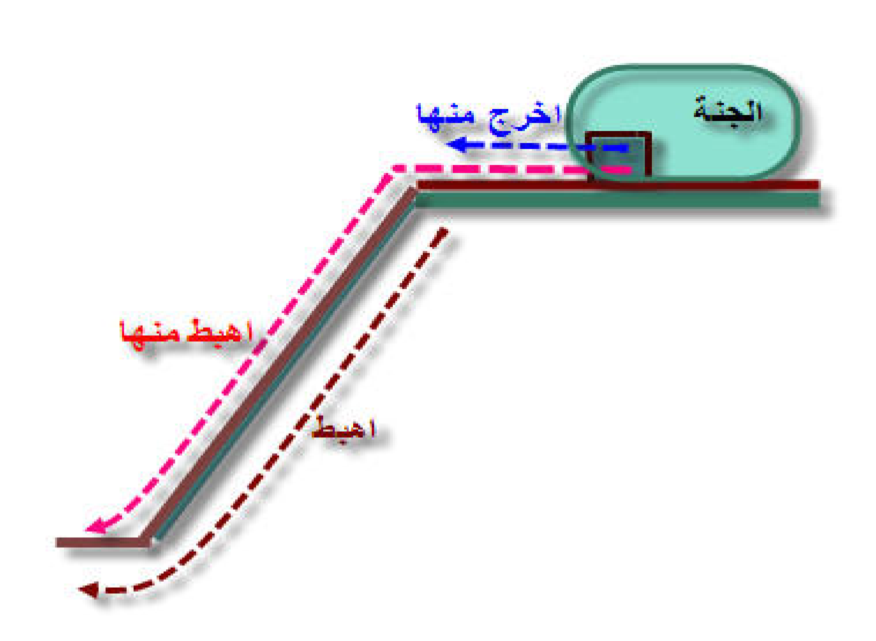
---

[1] - فإنْ قيل: كيف ينطبق خطاب "بعضكم لبعض عدوّ" و "إمّا يأتينّكم منّي هدى" على ملائكة أهبطوا، وهم معصومون فأيُّ هدى لهم؟

الجواب: أنّ الخطاب للربّ لا للمدبِّرين، وقرار إهباط الملائكة (المُسجدة فقط) من الجنّة إلى الأرض لأنّ دورهم مرهونٌ بالإنسان الذي أُهبط بدوره. أمّا الذي هم عدوٌّ له فهو جنس الشياطين، كلاهما يتصارعان هذا يُلهم الإنسان الخير وذلك الشرّ، وقد بيّن هذا سبحانه في سورة الأنفال أنّ الشيطان صار "جاراً" للمشركين، والربّ أرسَل "ملائكة مردفين" للمؤمنين. أمّا هُدى الله كتعاليم وأوامر فإنّه يأتي للجميع، حتّى للملائكة، وفي هذا الصنْف من الملائكة الذي يستلم ماذا قال الربّ مَن الذي أعلاه من حقائق، فسّروا قوله تعالى (وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)(سبأ:٢٣).

فاختصار الجميع في "**اهبطا منها**" لأنّها تشمل "**اهبطا**"، أمّا "**اهبطا**" لوحدها فلا تشمل "**اهبطا منها**"، بدليل تكرارها في البقرة "**اهبطوا**" أوّلاً لمن هو خارج الجنّة ثمّ "**اهبطوا منها**" ثانياً للذين هم بداخلها. وضمير الاثنين في "اهبطا" لتعني فئتيّن: فئة مستورة خفيّة (كالجنّ أي المستورون والملائكة المُسجدون منهم)، وفئة ماديّة ظاهرة (كالإنس والبشر)، وكلاهما موعودان بمجيء الرسل إليهم من الربّ كما بيّن سبحانه في قوله: (**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**)(الأنعام: ١٣٠). أمّا الملائكة المدبّرون فهم جنس آخر خلاّق غير هذين الجنسيّن المأمورين بالهبوط، لذلك كان الأمر الربّانيّ الأعلى "**قال اهبطا**" في موقعه. ونلاحظ أنّ فاعل القوْل الذين عُبّر عنهم ("**قُلنا اهبطوا**") هم المترجمون ووسائط أوامر الربِّ نفسه المعبَّر عنه ("**قال اهبطوا**"، "**قال اهبطا**")، فالسادة الأثيريّون هم أولو الأمر في هذه المسألة، يُنفّذون أمر الربّ الرّوح الأعظم، الذي هو من أمْرِ اللّه العليّ سبحانه.

فملخّص النتيجة: الهبوط منها = الخروج منها + الهبوط



ثالث عشر- ملخّص تعريفات المفاهيم

نُلخّص تعريفات ما مرّ علينا من تعريفات لمفاهيم قصّة المعصية الأولى:

- **الشجرة**: هي شجرة بشرية، أيْ سلالة ذكيّة غير واعية، منها تمّ اختيار زوجيْن ليُعاد خلقهما، فيُحوّلا بتسوية جيناتهما ونفخ روح الربّ، روح الإيمان والوعي، فيهما، يُحوّلا إلى الكائن الخليفة في الأرض: الإنسان؛ آدم وحوّاء[١].

- **قرْب الشجرة**: أي مقاربة تلك السلالة جنسياً، فالتزاوج مع الهمج يُنتج قابليّة لنصف إنسان أو أقلّ، ويجعل الصفّة الجينيّة مشوّهة ويُضمّر أثر الرّوح.

- **ذوْق الشجرة**: هو الاستمتاع النفسي برؤيتها والأنس بها وهو بدايات قبول مذاقها وقبول معاشرتها (سيلان اللّعاب).

- **الأكل من الشجرة**: هو التلذّذ بالاشتهاء الجنسيّ تجاه تلك السلالة، ومحاكاة حركاتها والاهتياج في هذه المحاكات الغرائزية الجنسيّة (بلْع اللّعاب) و(زنا النّظر).

---

[١] - من المناسب القول أنّنا نجهل ماهيّة الرّوح وكيفيّة نفخها، فلا أحد يستطيع الكلام في هذا، بعد أنّ بيّن القرآن محدوديّة ما أُوتينا في هذا الحقل (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)(الإسراء:٨٥)، نستطيع أن نلمس آثار الرّوح، من إبداع ومشاعر وسموّ وأخلاق وتطوّر ونبوغ وتشوّق للمعالي والكمال ..الخ، لكنّا ما دُمنا في مرتبة "العقل" فلا نستطيع كشف ما هو في درجة أسمى وأعلى، فكيفيّة نفخ الربّ الروح لا يُمكننا تصوّرها، ولا تجسيمها، سوى القول أنّ كينونة معيّنة من عالَم النّور ارتبطتْ بالكائن الأرضي، لنقل ثمّة وميض كونيّ سامٍ معلّقٌ به الآدميّ، ويرثه كلّ آدميّ، كيف؟ لا ندري، فكيف نُفخت الرّوح في حوّاء؟ هل من الربّ مباشرة؟ مُمكن لأنّا لا نملك تصوّراً للربّ ولا كيفية نفخ الربّ الرّوح أبواسطة المدبّرين أم لا. هل تمّ بالمدبّرين؟ هذا مُمكن أيضاً لأنّهم هم مَن نفخَ في مريم روح عيسى (ونفخنا فيها من روحنا). هل بأخذ عيّنة من آدم (الذي جهز قبْلاً) ومزجها مع طينة أنثى المخلوق الهمجيّ؟ مُمكن أيضاً لقوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)، هل بكلّ الكيفيّات؟ ممكنٌ أيضاً فهي لا تتعارض.

- **الخروج من الجنّة**: هو التحوّل من داخلها بالتسلّل عبر بابها المنيع إلى خارجها، وقد فعله آدم وحوّاء طوعاً بخديعة الشيطان لهما.

- **فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**: ليس هو الخروج من الجنّة، بل هو فعْلٌ فعلاه بعد تسلّلهما وخروجهما من الجنّة، وهي تشرح بدقّة أنّهما بتغرير الشيطان (خرجا عن اتّزانهما وحشمتهما واستوائهما السابق)[1] فصيّرهما يذوقان ويأكلان من الشجرة ثمّ يعصي آدم الأمر فيقرب الشجرة (معاشرة السلالة)، فكلّ سموٍّ كانا فيه وكلّ عصمةٍ وعلمٍ ووقار، قد انسلخا منه هناك وخرجا منه.

- **الهبوط من الجنّة**: هو الخروج من الجنّة العالية أوّلاً، ثمّ الهبوط على المنحدر النازل من خارجها إلى السهول القريبة، وقد جرى لحوّاء (وأيضاً للملائكة المُسجدين، ولإبليس قبلهم بدهر).

- **الهبوط** (مجرّداً): معناه أنّ المرء كان متواجداً خارج الجنّة لا داخلها، وعليه أنْ ينحدر من أعلى إلى السهول القريبة، وقد جرى "الإهباط" لآدم وللهمج وللشياطين الذين كانوا خارج الجنّة ممنوعين من دخولها.

- **اللّباس**: هو الدّرع الرّوحي للنّفس الذي كان يُغلّف آدم وحوّاء، وكانا ملتبسيْن به ويتعاملان به، الحالة الروحية الواعية، درعهما الواقي من الشيطان، والذي حين فُقِد صار الإنسان يُدبِّر أموره بالعقل فقط، والقليل ممّن عصم الله

---

[1] - إنّ تعبير (خرَج من) ليس بالضرورة أن يكون من حيّزٍ مكانيّ، فنقول خرجت المرأة من عدّتها، من نفاسها، وخرَج الرجلُ من طوْره، وقد أورد اللّهُ تعالى ٧ مرّات عن إخراج النّاس (من الظلمات إلى النّور)(البقرة:٢٥٧، المائدة:١٦، إبراهيم:١، إبراهيم:٥، الأحزاب:٤٣، الحديد :٩، الطلاق:١١)، وهي حالات معنويّة؛ عقليّة أو نفسيّة.

وبمنطق المقابلة بما أمر الله وما أغرى إبليسُ بعكسه، وضعتْ الآياتُ النقاط على الحروف (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. وَلا تَقْرَبَا هَذِه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالمينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممَّا كَانَا فيه ..) (اسكنْ الجنَّة) أفسدها (أزلّهما الشيطان عنها)، و(لا تقربا هذه الشجرة) بدأ إفسادَها بـ (فأخرجهما ممّا كانا فيه).

من يصل لتفعيل هذا الدّرع، أمّا الباقون فـ"**لباس التقوى**" يقوم جزئياً بمقامه، وهو مقدّمه لتحصيل لباس الجنّة (روح الإيمان).

- **دلاّهما**: جذبهما من مكانهما خارجاً رويداً رويداً، ليسترسلا منحدرين من الجنّة، فيستقي الشيطانُ بهما (كالدلْو) ما تعطّش لأجله من إيجاد ذرّية آدميّة مُحتنكة له.

- **عصى**: عصى الأمر المباشر بعدم قرب الشجرة، أيّ أنّه انتهك القانون الطبيعيّ والشرعيّ وعاشر صنْف سلالة الهمج، وهي خاصّة بآدم فقط.

- **غوى**: تُعطي معنى نسيان غاية التخليق الإنسانيّ أوّلاً، وحصول عمليّة إغواء جنسيّ ثانياً، وفقدان جهاز "الاسترشاد" الدّاخلي إلى الجنّة ثالثاً، وأخيراً وهو أهمُّها توليد نسل غويّ غير رشيد أيّ نسلٌ مختلطٌ غيرُ مُشرَّعٍ وغير مسموحٍ ربّانياً للإنسان الواعي بتكوينه.

- **السوّءات**: هي الحاجات المذلّة التي تسوء صاحبها، فليس الجنس والأكل ودخول الحمّام، من السوءات إلاّ إذا ضغطت على صاحبها لتلبيتها بطريقة غير واعية وغير محتشمة، أيّ بطريقة حرام أو غير لائقة، فهي الغرائز والميول إنْ طغت على العقل، هي "**ميلا مطغايا**" حسب التراث.

- **الخصف**: هو عمليّة عقليّة قياسيّة تعويضيّة عن فقدان نور الباطن (بصيرة الرّوح)، وهي استدلاليّة بمطابقة الآثار للمتابعة، صار إليها حوّاء وآدم ليعودا إلى الجنّة بعد الخطيئة والمعصية، بتلمّس ورق الجنّة وآثارها ليستدلاّ طريق الرجوع، فنجحت حوّاء وما فلح آدم بل غوى لأنّه الذي عصى.

الفصل الرابع

الإنسان الأوّل وبرنامج الشهادة

(إذا لم يكن من عادة المرء أن يسأل
نفسه: ماذا أرى في هذا الشيء؟ فإني لا
أستطيع أنْ أفعل له شيئاً)

(الحكيم الصيني كونفوشيوس)

ليس بمستطاع الإنسان الفرد اليوم أنْ يلمّ بكلّ الآيات الشريفة ذات العلاقة بموضوعٍ شائكٍ ومتداخل كالذي نحن فيه، مع أنّ آليّات البحث والتنقيب متاحة اليوم بما يستحقّ حمداً للّه حمداً لا مثيل له، إلاّ أنّ هذا ليس كلّ شيء، فهناك حسٌ رهيفٌ ينبغي التوفّر عليه، لا ندّعيه، وإلمامٌ بالقرآن على مستوى التأويل (العمق) لا ظاهر التفسير، وهذا كفيلٌ بالإطاحة بأيّ باحثٍ مثلنا خارج الحَرم القدسيّ لكتاب اللّه تعالى، ليس بوسعنا إلاّ اقتناصُ الآيات التي اعترضتنا منبئةً عن ارتباطها الصريح بموضوع قصّة المعصيّة، والمُفصحة بشكلٍ أكيد لأبصارنا بأنّها قطعةٌ ضروريّة لتركيب اللّوحة الكاملة لتلك الخارطة الأولى، فكانت هذه الآيات التالية أحدها، التي لا يجدي الحقيقةَ التي نرومَها، التغاضي عنها:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ❖ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ❖ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ❖ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ❖ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(الأعراف:١٧٢ – ١٧٦).

التفصيل: هذه الآيات، كانت مثار نزاع طويل لمْ ينته للآن بين المفسّرين ومذاهبهم، ونرى أنّ لها محوريْن مفصليّيْن، أوّلاً: إشهاد الربوبيّة؛ وفيه تمّ إشهاد ذرّية بني آدم، ورسم موقف الأجيال من وعي هذه الشهادة بوحدانيّة الربوبيّة، وتنشيطها. ثانياً: نبأ الذي انسلخ من الآيات.

إنّ سورة الأعراف تختصر مسيرة تاريخ هذا الكوكب الأرضي منذ خلْقه وتسويته وتهيئته، للمخلوق البشري الذي سيأتي في حينه، ثمّ ترينا بالتفصيل مرحلة اصطفاء الزوج الأوّل الآدميّ (آدم وحوّاء) من أولئك البشر الذين تمّ خلقهم بيولوجيّاً عبر زمن مديد ثمّ تصويرهم أيْ أخذهم الصورة الحيويّة المناسبة لاستهلال الكائن المبدع. فتمّ استقبال هذيْن العريسين، كلٍّ على حدة، "**فرادى**"، في الجنّة، وتخليقهما إنساناً بدءاً بآدم، ثمّ من نفس النسخة الجينيّة تماماً تمّ تخليق حوّاء، كما توضّح آيات الأعراف أيضاً (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**)(الأعراف:١٨٩)، منْ نفس الشفرة الإنسانية التي بُرمج بها آدم تمّ تخليق حوّاء ليقع الانسجام بينهما في كلّ ناحية جسدياً ونفسياً وروحياً. ثمّ عمدتْ الملائكة لمحاولة تأهيل المخلوقيْن الغضّيْن للمهمّة الجسيمة، لكنْ خللٌ وقع بإفساد إبليس وعجلة آدم وقلّة عزمه فحصلتْ المعصية ولمْ يكتمل التأهيل، فأُهبط الإنسان الأوّل للأرض للقيام بالمهمّة التي صارت أشقّ عليه الآن (**فتشقى**)، أُهبطَ لكنْ كإنسانٍ خديجٍ غير مكتمل فتأخّرت مسألة "**جعْل الخليفة**" وبقي تدبير الأرض في يد "سادة الملائكة" الكرام، ليكون الزمن الباقي المديد في الأرض (**المستقرّ والمتاع إلى حين**) هو محضنَ إنضاجِ هذا الإنسان وذرّيته ليعود ربّاً للأرض وخليفةَ اللّه، لتتمّ كلمةُ اللّه (**جاعلٌ في الأرض خليفة**) صدْقاً وعدلاً فيه.

بدأت السورة تخطّ التعاليم الربّانية التي تأتي من رسل اللّه الملائكيّين المنوطِ بهم تأهيلُ الإنسان ليأخذ دوره الكونيّ بدْءاً من بني آدم الأوائل، ثمّ سردت تاريخ الرسل البشريّين التالين وتلكّؤ أقوامهم في الانتهاض من حضيض الشرك أو البهيميّة التي انتُشل منها الإنسان، وتعطي لمحاتٍ من النهاية والساعة والحساب، ليبدأ بعدئذٍ للإنسان المكتملِ مشوارُ دوْرٍ كوْنيٍّ آخرٍ، والمجهول لديْنا الآن، في آخر آية من السورة.

احتراس مسبق: سبق أنْ ذكرْنا أنّ الإنسان الأوّل (آدم) هو غير آدم الرسول المعصوم (ع)[1]، فآدم الأوّل غير معصوم والقرآن شاهدٌ على ذلك بلا ريبٍ ولا عوَج، إلاّ لمن يبغونها عوجاً، والشيطان أقسم: (**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ* قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ* إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**)(الحجْر:٣٩- ٤٢) ، فاللّه عزّ وجلّ يُخبر، وكذا الشيطان عليه اللّعنةُ أيضاً: أنّ عباد اللّه المخلصين، ليس لإبليس سلطان عليهم، إلاّ الغاوين منهم، وهلْ تسلّط على آدم وأخرجه سوى إبليس؟! واللّه أخبر أنّ آدم قد "**غوى**"، والعباد المخلَصون أرقاهم الأنبياء كما أخبر تعالى في نبيّه يوسف (ع): (**إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**)(يوسف:٢٤)، وفي موسى النبيّ (ع) (.. **مُوسَى إنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً**)(مريم:٥١)، وفي سورة الصافات جعل الأنبياء وأتباعهم الناجين من الهلاك (**عباد اللّه المخلَصين**).

طبْعاً هذا، على فرْضِ مَنْ يقول أنّ العصمة ملازمة للأنبياء منذ ولادتهم، أمّا على رأي مَنْ يقول أنّ العصمة ليست بالضرورة أنْ تكون منحةً منذ الولادة بل هي بالمجاهدة والاكتساب فبإمكاننا تصوّر عصمة لآدم بعد المعصية والتوبة والاجتباء لا قبلها، وتصوّرنا نبوّته لنفسه ولأهلِه بمعنى اتّصاله بعالَم الغيب والملائكة وتسديده فهذا أوضح من كلّ الواضحات.

وقد روى أبو ذر أنه سأل النبيّ: (**قلت: يا رسول اللّه كم الرسل منهم؟ قال: ثلثمائة وثلاثة عشر جمّ غفير. قال: يا أبا ذر أربعة سريانيّون: آدم، وشيث، ونوح، وخنوخ وهو إدريس، وهو أوّل مَن خطّ بقلم**)[2]، فآدم الإنسان أوّل مخلوق واعٍ من جنسه، فكيف يكون رسولاً؟ وإلى منْ؟! والسريانيّة لهجة جاءتْ بعد حين من العربيّة

---

[1] - زيادة هذا البحث، راجعه في: بين آدمين- آدم الإنسان وآدم الرسول، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[2] - السيوطي، الدر المنثور، ج٢، ص٢٤٦.

القديمة، فكيف يكون آدم سريانياً، ولمّ تأت السريانيّة إلاّ بعد دهر، ما لم يكن المتكلَّمُ عنه هو آدمَ الرسولَ (ع) لا آدم أبا الإنسانيّةَ.

أوّلاً- إشهاد الربوبيّة

أ- وعْيُ الألوهة

لـو سـألنا سـؤالاً: هـل البـهائم تعقـل الله، وتعـي حقـائق الإلـه وعـوالم ملكوتـه؟ **الجواب:** لا، هـي مسخّرةٌ تسير وفق نظام، وعقلها يخدم غريزتها فحسب، ولا تفكّر في إله ولا في خلود ولا في عوالم أخرى ولا لها بعثٌ وحساب، فقط الكائن الواعي يُدرك هـذا. هـي تعـي نظامَهـا المربوبـة فيـه، بـوعيٍ جمعـيٍّ لا فـرديّ، لا يزيـد ولا يـنقص، فانتظامها (تذبذبها) في نظامها هو تسبيحها، هذه الحركة الهادفة المرسومة لها ضمن نظامها هي سجودُها بالكَرْه لانعدام الاختيار (لا بالكُرْه الذي ضدّ الحبّ).

الإنسان ككائنٍ واعٍ، كان كذلك الحيوان يوماً، لم يكن مذكوراً، مجرّد نفس حيّة بلا روح، إنْ أفسد أو سفك فليس عليه عقوبة لأنّه نظامه وطبيعته في قانون البقاء، وإنْ مات فليس عليه بعثٌ ولا حساب، يُهلكه الدهر وتنتظمه الطبيعة والغرائز وفق شريعتها، وعقلُه مُسخَّرٌ لهذا.

فما الذي نقلنا من ذلك الحضيض إلى هذا الوعي، وعي البحث عن الخالق، والجدل، وطلب الحقيقة المطلقة، وفلسفة الأشياء، والتميّز والتفرّد، والأخلاق، وشغف الاطّلاع كربٍ على كلّ الموجودات، وطلب الكمال، والإحساس بضرورة الخلود والبحث عن سرّه، ومحاولة تصوّر النظام الكوني والهدف والغاية والإحاطة والمُطلق؟ هناك أمرٌ تمّ زرعه فينا جميعاً منذ التخليق الأوّل، برْمَجنا على هذا الشعور العارم[1]، على

---

[1] - استخدمنا وسنستخدم مصطلح "برمج" و"برنامج" للتدليل على حصول عمليّة غرس أولى، تدوين، نظام أوّلي، توثيق، تثبيت ضرورات (علوم .. أحاسيس) لا يُمكن إزالتها في جوهر النفس الإنسانيّة، تكون بمثابة الحسّ الطبيعيّ الدّاخليّ والمذكّر المُضمر له والشاهد المستقيم دائماً، هذه الكتابة (التدوين) تمّت على مستويي الوجود الإنساني، النفسي المعنوي والجينيّ المادّي، فكلّ أمر معنويّ لابدّ له انعكاس مادّي في الإنسان كمرآةٍ له.

الإحساس بهيمنة الربوبيّة، والفقر إلى المُطلق، وتوق الوصول إلى سرّ الواحد الأحد، مهما طوّحت بنا أحداثُ الحياة وإفسادُها وأمواجُ مشاغباتها، فهناك لحظات ضعف وانكسار وتأمّل وتفكير تهزّ وجداننا تُشعرنا بالانتماء لكبير ذي سطوة، وعظيمٍ ذي إحاطة، يُفزعنا ويستفزُّنا لأنْ نعمل صالحاً، خوفاً من المحو المُفزِع من ديوان الوجود. مهما تعلّقنا تبريراً بمشاجب آثار الصحبة وتقاليد الآباء وأخطاء الآخرين علينا، فكلّنا يشعر أنّه مدان، ولابدّ أنْ يُدان لخطأه ولو فعلتْهُ الملايين قبله والملايين بعده. هذا الإحساس الذي يتفعّل في داخلنا في لحظات الفزع من الخطيئة، هذا النداءُ المُوجِع المُحذِّر، هو منْ فعل برنامج الإشهاد الربوبيّ الأوّل، يسري في جيناتنا، في برمجة عقولنا، في لاوعينا، في سرّ أنفسنا. فلا يستطيع أحدٌ أنْ يقول أنّه غفَل عن الخير وعن تعاليم الربّ يوم الحساب، أو أنّه ورث شركاً وفساداً وشروراً من أبويه، ذلك لأنّه مبرمجٌ في دخيلته سلَفاً على بديهة أنّه عاقلٌ مختارٌ وأنّه مربوبٌ ومحاسبٌ ومحاطٌ به، من دون تفصيل. كيف تبرِّر أنّك لمْ تكن تدري، وهناك نأْمةٌ قدْ أوخزتك يوماً من داخلك وسُجّلت، قائلةً لك: هذا خطأٌ يا فلان؟! كيف تهرب من نفسك، ومرصادُ كشْف الكذب مغروزٌ في داخلك، وصندوقك الأسود يُسجّل كلّ الذبذبات التي ذكّرتكَ في مواقف السّوء فلمْ تستجبْ؟!

ب- متى تمّت هذه البرمجة فينا؟

أوّلاً: بعيداً عن متاهات التفاسير ونزاعاتهم حسب عقائدهم، وتحكيم أنظمتهم المذهبيّة واللغويّة، وإعمالاً فقطّ للسياق القرآنيّ الدقيق البيّن، نلحظ بجلاء أنّ:

١- أخذ الذرّية لبرمجتها (توثيق إشهادها) هو منْ "**بَنِي آدَمَ**" لا من آدم.

٢- مدى البرنامج الزمنيّ هو إلى " **يَوْم الْقِيَامَةِ**".

٣- أماكن عمل البرنامج هو متوالية "الآباء والذرّية" (... **آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ**).

إنّ هذا يذكّرنا مباشرةً بملامح الخطّة الربّانيّة (الخمسين ألف سنة) التي ابتدأت بإيجاد أوّل إنسان آدم، وستنتهي بنهاية النّاس يوم القيامة، فأخْذُ الذرّية إذاً تمّ بعد

إهباط آدم كنقطة بداية لتكوين النّاس، ما يعني أنّ البرنامج هذا صالحٌ إلى يوم القيامة فقط، وهو الذي عبّرنا عنه بالمدى أو ظرف الصلاحيّة، فأَخْذُ الميثاق هذا له ارتباطٌ بالوجود الإنساني "بعد آدم" إلى "يوم القيامة"، كوجودٍ ماديّ في مستقرّ الأرض، كما عبّر عليّ (ع) عن ظرفه "**دار البليّة وتناسل الذرّية**"، هو هذا العالَم لا غيره، فهو ليس له ارتباطٌ بما قبل هذا الوجود من عوالَم كانت فيها نفوسُنا حسب سيرورتها التطوّريّة، لا علْمَ لنا بها وليستْ هي محلّ موضوعنا ولا هي في سياق الآيات الشريفة أيضاً، مثلما في المقابل أنّ هذا الميثاق المأخوذ لا ارتباط له بعوالِم وأزمنة ما بعد القيامة. هذا أمرٌ مهمّ لتحاشي مصائد ودهاليز القيل والقيل.

ثانياً: إنّ الذي يظهر أنّ برمجة الذرّية لمْ يتمّ الشروع فيها في الجنّة في آدم وحوّاء كمُورّثيْن، لأنّ المسار الإنساني لولا المعصية كان سينحو نحواً آخر بالكلّية سواءً على مستوى التناسل أو الطبيعة الجينيّة والجسمانيّة بل وحتّى محيض المرأة الذي هو "**أذىً**" ربّما موروث من تلك الحقبة الممتدّة للآن. لكنْ حين أُهبِط آدم إلى دار البليّة وتناسل الذرّية، إمّا أنّه تمّ "ضخّ" أو "تعزيز" (**insert or boost**) هذا البرنامج في الذرّية الأولى (**بني آدم**)، والتي هي أوّل نتاج ظهرَ من الإنسان المخلوق على الطريقة التناسليّة الطبيعيّة أيْ من ذكرٍ وأنثى، لا الطريقة الربّانية التخليقيّة الخاصّة بتحويل همجٍ بالغٍ إلى إنسان، فلضمان أكيدٍ للوعي الإنساني بالربوبيّة، تمّ غرْز هذا البرنامج في عرْض الجيل الأوّل (حاملِ مُخطّط الذرّية) سواءً كان جيلاً شرعياً على شرعة الإله (من آدم وحوّاء)، أو آخر من نتاج المعصية (من آدم والهمجيّة)، المهمّ أنّهم جميعاً من أفراد (**بني آدم**).

ج- ما هو الأخذ من الظهور؟ وما الذرّية؟

إنّ هذه البرمجة التوحيديّة، يبدو أنّ لها ارتباطاً بالتركيب العضويّ أو الجينيّ للخلق، كالخلايا الأولى (الجذرية)، أو خلايا الجذع، استقاءً من عبارة (**مِنْ ظهورهم**)[1]، هذا احتمالٌ أوّل. أو أنّ (**مِن ظهورهم**) تعني بكلّ بساطة أنّها برمجةٌ

---

[1] - كثيرٌ من علماء المسلمين الأكارم، أشاروا إلى حديث مُعجِزٍ للنبيّ (ص) عن عظْمة في أسفل

تمّت لا من أمامهم، بلْ بغير شعورٍ منهم (أي منْ الباب الخلفي كما نقول، وبلغة البرمجة في يومنا (BackDoor))، أي منْ ورائهم خفيةً كما قال تعالى (**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا**)(البقرة:١٨٩).

فالآية تبدأ بالأداة (إذْ) أي أنّه في مرحلة تاريخيّة تمّ هذا الحدث، و(إذْ) في القرآن تنطلق بنا دائماً لتقف عند نقطة زمانية محدّدة في مسيرة الكائنات الواعية، ونرى كثيراً منها تتعلّق بقصّة الآدميّ منذ خلقه بشراً، حتّى جعله إنساناً، فاقرأ:

(**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**)(البقرة: ٣٠).

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**)(البقرة: ٣٤).

(**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ**)(الحجر: ٢٨).

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**)(الإسراء: ٦١).

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**)(الكهف: ٥٠).

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى**)(طه:١١٦).

فالآية: (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ**) تجري في هذا النسق، في أحداث ما بعد مرحلة الوجود الآدميّ، وبالضبط بعد الإهباط مباشرة، في زمن الجيل الإنسانيّ الوليد الأوّل من أبناء آدم، إذ تمّ برمجة الوعي بالربوبيّة في مورّثات أبناء آدم الأوائل، لكيلا تخرج ذرّيّةٌ يوماً ما خالية من هذا البرنامج، فيعودوا مجبرين وراثياً كالبشر السابقين البهائميّين، فكلّ ذرّية بني آدم صاروا واعين ومُكلّفين بوعي خالقهم وبالإحساس بهيمنة الربوبيّة ورقابتها، في

العجز في آخر فقار الظهر (العصعص)، تُسمّى "عَجْب الذنَب"، وأنّها لا تفنى من الميّت، واكتشف العلم أنّها الخيط الأولي والعقدة الأولية والمنظّم الأوّل الذي يُعزى له مسألة تنظيم خلق الجنين. وحديث النبيّ (ص) الذي أثبته العلم والواقع، كما أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد في المسند ومالك في الموطأ ونقله صاحب قاموس محيط المحيط أيضاً (كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجْب الذنب، منه خلق، ومنه يركب) وآخر أورده البخاري ومسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والنسائي (ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا بلي إلا عظم واحد وهو عجْب الذنَب ومنه يركب الخلق يوم القيامة)، وهذا يُوافق بحثنا السابق (الخلق الأوّل) حيث نبتت البشرُ الأوائل كالحشيش من طين الأرض.

جيناتهم الموروثة كفطرةٍ، و"**لا تبديل لخلق الله**"[1]. فالإقرار بالربّ وراثيّ، فطريّ، حتّى لو كان الأبُ والأم أعتى العتاة، والشركُ موقفٌ اختياريّ يأتي من التقليد أو من أيّ اعوجاج نفسيّ.

أمّا خطاب (**أنْ تقولوا**)[2]فهو مع الشاهدين الحاضرين أي مع ذرّية بني آدم بعد خروجها للحياة، مع الذين يسمعون هذا الخطاب منْ آيات القرآن سواءً كانوا مشركي مكّة أم نحن، بدليل تغيّر ضمير الخطاب من غائبَ لمُخاطَب، حتّى أنّ القارئ يُدرك تماماً أنّه أحد المخاطَبين.

والآن: "**ذرّيتهم**" هلْ هي كلّ النّاس؟

لا، وإلاّ لقال سبحانه "ذرّياتهم" كما أخبر عن الآخرة حين يجتمع الجميع (**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**)(الرعد: ٢٣)، ودعاء الملائكة أيضاً: (**رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**)(غافر: ٨)، فـ "الذرّية" مفهومٌ يقابل "الآباء" بالنسبة للموجود المُزامِن، بدليل المقابلة في الآية نفسها، فالآباء ما ننحدر منهم، والذرّية ما تنحدر منّا وتقول قواميس اللغة أنّها النّسل. هذا وجه، والوجه الثاني، أنّ "الذرّية" لو قرّبناها بمثال النّطفة، فهي تأخذ بُعديْن: صاعداً ونازلاً، الصاعد فاعل والنازل مفعول، فلو قُلتُ لإنسانٍ ما "نُطفتك" فهي تعني إمّا النطفة التي خُلق هو منها، أو تعني نُطفةً خرجتْ منه يُخلَق منها أبناؤه، فالأولى فاعلة له، والثانية مفعولة له. و"الذرّية" هكذا أيضاً.

و"ذرأ" الذي جاءت منه "ذرّية" التي أصلها "ذريئة" بمعنى الخليقة، يقترب معناها اللغوي من "ذرى/ذرّى" أي نقّى، وبذر، فالذرّية إذاً هي البذور النقيّة الفاعلة (المخلّقة) المُنتجة لغيرها، هي الأصول للأنفس الحيّة، وبهذا نفهم آية (**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ**

[1] - (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(الروم:٣٠).

[2] - (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف:١٧٢) .

نُوحٍ)(الإسراء:٣) (**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**[1])(يس:٤١) فكيف يُخاطب سبحانه أهل مكّة أيّام البعثة المحمّديّة بأنّه حمل ذرّيتهم في الفلك المشحون، الذي هو فُلك نوح أيّام الطوفان قبلَهم بأكثر من ٣٥٠٠ من السنين؟ كان الأولى أنْ يقول أنّه حمل آباءهم (أسلافهم)!. لكنّنا لو وضعنا كلمة "النطف التي منها خُلقوا" مكان كلمة "**ذرّيتهم**" لتقريب الفهم فقط لاتّضح المُراد، حيث الذرّية هنا هي البذور النقيّة والأصول لنسل الإنسانية الخالية من شرْكة الهمجيّة، قدْ حُملتْ مع نوح لأناس هذه المنطقة العربيّة الضيّقة التي تُحيط بمكّة، لئلاّ تبطل المعرفة الربّانيّة السويّة وتغبش الفطرة بغلبة "الشرْك النسليّ" الذي استشرى أيّام نوح (ع) وهو ذو قابليّة أكثر لمحضن "الشرك الاعتقاديّ" (**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**)(الأعراف:١٧٣)، وأوّل شرْك في النسل بهذا المعنى فعله آدم الأوّل فأبطل بفعله صفاء الذرّية ونقاوتها. فكان من الرحمة إعادةُ تركيز العهد الأوّل في الذرّية الأولى من بنيه.

د- لماذا ذرّية بني آدم لا ذرّية آدم؟

لماذا لم يقل سبحانه "ذرّية آدم" كما قال مرّة (**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ**)[2](مريم:٥٨). بعبارةٍ أخرى: لماذا الآية ليست: **وإذ أخذ ربّك** "مِنْ آدم ذرّيتَه"، بدلاً مِن "**من بني آدم ـ ذرّيتهم**"؟!

(1) – الفلك المشحون هو فلك نوح لقوله تعالى (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)(الشعراء:١١٩)، ولو استبدل سبحانه كلمة "ذرّيتَهم" هنا في آية "يس"، بكلمة "آباءَهم" أو "أسلافَهم" (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) لأعطت قريباً من المعنى المراد، لكنّها لنْ تدلّ على أنّ آباءهم أو أصولهم التي حُملتْ مع نوح التي منها كان الانتشار في هذه البقعة، كانت نقيّة خالية من شرْك الهمجيّة، بل، أما كان هذا علّة الإغراق بالطوفان يومها؟!

(2) – مع التنويه إلى أنّ آدم المذكور في هذه الآية هو آدم الرسول (ع) لا آدم الإنسان الأوّل، على ما سنبيّنه في بحثه.

الجواب باختصار: لأنّ آدم عصى ربّه وأطاع الشيطان، الشيطان قد دخل على البرنامج النفسيّ لآدم وأنساه أموراً ("**عهدنا إلى آدم ـ فنسي**")، فهناك عهدٌ أوّل مأخوذ على آدم فنسيه، وهذه الأمور لو ظلّت متوارثة تبعاً لنزعات آدم الأوّل، لكان يحقّ للذراري أنْ يقولوا أنّا ذرّية آبائنا المشركين[1] ورثْنا هذا الخلل، أو قلّدناهم ولم يكن لدينا في برنامجنا ما يُنافي التقليد الباطل، فحين فسد برنامج آدم وجب إصلاحه أو تعزيزُه لأنّه برنامج الإنسانية كلّها بمن فيهم الأنبياء، لكنْ تمّ إصلاحُه في النسخة الثانية المتفرّعة منْ آدم في بنيه عملاً بقاعدة (**فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِه**)(الحج:٥٢)، على مستوى المورّثات (الصبغيّات) وُضع فيها "**صبغة الله**" التي لا تبديل لخلق الله فيها، الإقرار بالربوبية العليا.

والجواب بالتفصيل: لأنّ التخطيط الإلهيّ كان يقتضي من آدم وحوّاء أنْ يبقيا في الجنّة ولا يخرجا منها، حتّى تهلَك شجرة الهمج شيئاً فشيئاً في آلاف السنين، آدم استعجل وخرج من الجنّة قبل أوانه (**وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً**)(الإسراء:١١)، ومارس أمراً لمْ يُعَدَّ له ولمْ يُزوّد حسب التخطيط كفرخ النّسر حين يستعجل الخروج من عشّه ولمْ يكتمل جناحُه فحتماً سيسقط ولا ندري هل بإمكانه توريث أبنائه بعدئذٍ القدرة على الطيران أم لا، فآدم لمْ يكتمل برنامجه لتوريث ذرّيته كلّ الوعي المطلوب بالربوبية، لأنّه لمْ يكنْ مرادٌ منه إنشاء ذرّية ولا الخروج للأرض، وبعدما عصى جاء القرار الطبيعيّ بإهباطه خارج المصنع الربّاني (الجنّة)، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية فإنّ آدم حين تسلّل خارج الجنّة وارتكب المعصية، قد خسر رداء الرّوح (**اللباس**)، فانحسر عنه درْعُه الحصين، ولعلّ الجوّ الكونيّ آنذاك حسب طبيعة الأرض أيضاً التي كانت في حقب عصرٍ جليديّ والنشاط الشمسي حسب دورتها في موقعها في المجرّة، أنتج حقلاً

---

[1] – ننبّه ضرورة أنّ "الشرك" هنا مع أنّه يأخذ معنىً اعتقادياً، إلاّ أنّه يُلائم أيضاً أنْ يكون شرْكاً سلوكياً بالخروج عن الزوجيّة المناسبة (وهو اللباس الآخر أيضاً)، لإدخال وإشراك غير الزوج أو الزوجة في العلاقة الجنسيّة، لذلك نرى الآية تتكلّم على مستوى الذراري (أو النُطف لو قرّبنا الفهم)، وبهذا نفهم آية (الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً)(النور:٣)، حيث المشركة هنا وإنْ احتملت العقائديّة، فإنّها في الصميم أيّ مشركةٍ مع زوجها غيرَه ولو كانت متديّنةً متلفّعةً بسبعِ جلابيب سُود!

غير ملائم لخروج الآدميّ، ما سوف يُودي بالذرّية أنْ تتعرّض لموجات من الطاقة السلبيّة على مستوى النّطفة في الأصلاب (البرنامج المخبوء)، فمن آدم فاقد الرّوح ومن الكون الموبوء، قد يُشوّه خلقة الله السامية، وإنّ من تلك الذرّية سيكون المرسلون والنبيّون، فوجب علاج المسألة بإعادة شحن تلك الطاقات المفقودة وتطهير برنامج الذرّية ممّا وقع فيه من دخول شيطانيّ، ليُحكم اللّهُ آياته، ويغلقها عن الشيطان.

علاوةً على أنّ آدم سبق واعتجل الأمر وكوّن بالمعصية نسلاً، كوّن "**بني آدم**" من تلك الهمج، فلم يعدِ إعادة برمجة آدم تغني لأنّه أتى بذرّية خطأً، ثُمّ سيكوّن نسلاً مع حوّاء أيضاً، فجبْرُ الذرّية المتكوِّنة والتي ستتكوّن هو الأولى والأهمّ بل هو المنطقيّ، فتوجّهَ القرارُ الربّاني إذاً لإصلاح الذرّية فحسب، وآدم بقي إمّا خالياً من برنامج التوريث الصحيح لاستعجال خروجه فلم يكتمل تخليقُه الشامل على كلّ المستويات لكلّ مهمّات الخلافة الأرضيّة (**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**)(الانبياء:٣٧)، أو أنّ إبليس قد أوقع فيه الخلل حين أخرج آدم من آدميّته العُليا، كحال كلّ نُسخ البرامج الأولّية عادةً ما تكون ناقصة ويُكشف نقصُها بالتجربة. فكان لابدّ من تدراك هذا الخلل خارج مصنع الجنّة، حيث أنّه لا عودة لآدم إليها في حياته وعاد إليها بعد موته، ينبغي تدارك الخلل في خارج مورّثات آدم إذ أنّه هو الذي تسبّب بإتلاف نسخته أو بعدم رسوخها فيه، فليس سوى "بني آدم" المولودين من آدم مباشرة، المرشّحون ليكونوا جيل توريث "**برنامج أساسيّات الإقرار والوعي بالربوبيّة**" للإنسانية كلّها، (**البرنامج الفطْري الواعيّ الذي لن يفسَد ولنْ يُمحى مهما حصل من تشوّه جيني أو سلوكي أو تربويّ لدى الآباء وسيتمّ نشْره واستنساخه توريثاً عبْر أجيال الإنسانيّة**)، فقط الجيل الأوّل وُضِع فيه ثمّ جاءنا وراثةً، تماماً كالرّوح فقط نُفخت في آدم ثمّ جاءتنا وراثة، فكان يأخذ الربّ (أو قُلْ يدخل الربّ/الرّوح الأعلى على برنامج) كلّ وليدٍ جديد لآدم لتعديل برنامجه الجينيّ له ولكلّ الذرّية التي ستنحدر منه، (**وأشهدهم**) عائدة على الاثنين "بني آدم وذرّيتهم"، ليتوثّق فيهم صبغيّة الإقرار بالربوبيّة (توثيقها بحيث لا يمكن زوالها، ويُحتمل أنْ يكون توضّع شقّها المادّي في جينات العقل نفسه).

فلو درى النّاس كم امتنّ سبحانه على عباده، وحاط الذرّية بهذا الإشهاد التأكيديّ على فطرتهم، لئلاّ يضلّوا، لشكروا هذه اليد الحانية ليل نهار، واستحيوا من مُسدي النِّعَم، وما كان أكثرهم فاسقين.

هـ- كيف أخذ الربّ الذرّية؟

لا علْمَ لنا بطرائق الربّ اللامحدودة والخفيّة. لكنّ المستفاد من كلمة "**أخذ**" التي تعني قبْض الشيء وجمْعه والتصرّف فيه ووقوعه تحت سلطان اليد، أنّه يُوافق نسبة خضوع الجهاز إلى مُبرمِجه، فكأنّ نظام الذرّيّة صار تحت تصرّف الربّ يفعل به ما شاء ويكتب فيه ما شاء، من أسطر وتعاليم، فهذا الأخْذ هو تصرّف محض لإعادة البرمجة أو تعديلها أو تحفيزها وتنشيطها أو تقويتها. ولا عجبَ، فإنّ الإنسان نفسه قد استطاع بالهندسة الجينيّة الدخول على جزء من الشقّ المادّي لهذا النّظام لتعديله (المدوّنة الجينيّة)، والإنسان أيضاً بسلوكه الجنسيّ الخاطئ أيّاً كان أو اختيار الشريك الجنسيّ الخاطئ فإنّه يبثّ خللاً على المستوى الجيني في الذرّية، وهذا ما قدْ قُلنا أنّ آدم فعله مرّةً، ولهذا جاءت المرويّات الشريفة عن النبيّ (ص) وأهل بيته (ع) بتوخّي هذا الجانب بتخيّر النُطف وتعهّدها وبناء الأجواء السليمة لسلامتها، ويكفينا أنْ نعلم أنّ مجرّد تفكير الزوج حين المعاشرة في غير زوجته بشهوة أُخرى، أو تفكير المرأة حين المعاشرة أو الحمل أو الوضع، سواءً كان تفكيراً سلبيّاً أو إيجابيّاً، له انعكاس مادّي مصاحب في تدوين الأسطر الجينيّة للجنين المتخلّق؛ والفيروسات ثانياً تستطيع الولوج عليه أيضاً لتشويهه، وهذا أمرٌ معلوم طبّياً؛ والشيطان من جهة ثالثة قادرٌ لمن أتاح له وأذن، الدخول على هذا البرنامج (الشقّ النّفسي منه) للاستحواذ على صاحبه ثمّ قد ينعكس ذلك على الشقّ المادّي نفسه فيُحدث خللاً خلْقياً (مسْخ)، إلاّ الصبغة (المقدار الفطريّ، ومثبّت الشهادة) فلا تبديل لخلْق اللّه فيها؛ والملائكة الكرام الموكلة بالإنسان تدخل على هذا البرنامج الجيني بلا إذن (Administrators)، لأنّها أربابُ تخليقه، وقد قدّمنا آنفاً في بحث خلق آدم (الخلق الأوّل) أنّ منظِّم الحياة والموت والبعث على الصعيد المادّيّ، كبرنامج، موجودٌ في نواة النطفة الأولى، من الآية الشريفة (**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً**)(الإنسان:٢٨)، فهذا موقع

"**أسْـر**" الإنســان المشــدود لمصــيره، والأسْــر أو الــربْط هــو نفســه رابطــة أو سلســلة الدي.إنْ.إيه، الخاصّة بكلّ "إنسان". وملَكُ الموت (كوجهٍ ربّانيّ مُدبِّر) يدخل على هذا البرنامج لتعطيل حيويّته وفاعليّته، ولا أحد يمنعه أو يحسّ به ويراه.

فهكذا الربّ، حين أخذ الميثاق الأوّل، هو بهذا النّحو الأخير، بقيامه بـ "شدّ أسْـر" كلّ وليد بالربّ، وتوثيقه من داخل كلّ جزيئة حيويّة في الإنسان، فكلّ ذرّة في الإنسان على مستوى الجذر تشهد بحاجته وانشداده للربّ، قائلةً "**بلى**" لأنّه ليس الإنسان الذي يُحرِّك خلاياه ولا نظامه بل هناك مُبرمِج أعلى (حكيم أسمى) يُديره ويُديرها، وما منْ موجودٍ إنسانيّ إلاّ ويعترف، وإنْ كابر، أنّه يُوقن شعورياً في قرارته بقوّةٍ أكبر منه تتحكّم في الموجودات وإنْ لمْ يعرف ما هي، فإمّا أنّه يُحبّها، أو ربّما يأملها، أو يخافها ويرتعد منها، الكلُ يدري هذا، وحتماً نطق به وشَهِد لو مسحَ دهانَ الغرور وخلَع رداء الكبرياء.

و- مكوّناتُ برنامج الشهادة، وموقعُه

هلاّ كشفنا عن مكوّنات هذا البرنامج الجيني وما فيه من ثوابت:

من المعلوم طبّياً، أنّ أكبر عضو في الجسم البشري، هو الجلْد، ونحن قُلنا أنّ "برنامج الإشهاد بالربوبية" هذا، مركوزٌ على المستوى الجيني، أي أنّه موجود في نواة كلّ خليّة من المائة ألف مليار خليّة التي في جسم الإنسان، والتي يحوي الجلد كثيراً منها، فحين نقرأ قوله تعالى (**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)(فصلت:٢١)، نرى أنّ الجلود تشهد، وتنطق بمعلومات سجّلتْ فيها، ونرى الإشارة بعدم الاستغراب من نطق تلك الخلايا حين الحساب معلّلاً بعبارة (**وهو خلقكم أوّل مرّة**)، فالبرنامج الذي منه تخلّق الإنسان الـ (دي.إن.إيه) أوّل مرّة، "المُنظِم الأوّل" هو البرنامج الذي لا استغراب في استنطاقه مرّةً أخرى من أيّ خليّة لأنّه فيها جميعاً. وهذا ما يقوم به العلماء الآن لمعرفة سرّ خارطة الجينوم البشريّ.

واستيحاءً من عبارة (**أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**)، نرى أنّ الله قد غرز شاهداً داخلياً أوّلياً بالربوبية، وهذا غير الشاهد التسجيلي للأعمال، لكن يبدو أنّ فكرتهما ومقرّهما واحد، سوى أنّ الأوّل برمجة غير قابلة للكتابة (Read only)، والثانية متغيّرة (Read & Write). هذا الشاهد الذي أُقيم على النفس، هو بمثابة شهادة الله على كلّ نفس، صبغة الله، نداء الله الخفيّ (الضمير)، ذكْر الله، مقام الله في كلّ نفس، فهو يتحرّك في مستوى عقليّ واعٍ، لذلك قلنا سابقاً أنّ المتوقّع محلّه مرتبطٌ بجينات العقل، في مستواه البيولوجيّ.

ونُلفت النّظر أنّ فرضيّة توضُّع البرنامج في شفرة جينات الإنسان الكامنة في كلّ خليّة، والذي هو "**كتاب حفيظ**" فعلاً، إنّما هو على المستوى المادّي (البيولوجي)، وكما في عالَم المادّة هناك نُسخةٌ تُقابلها في عالَم الرّوح[1]، حيث يتّصل العالَمان وحيث عالَمُ المادّة له انعكاس في عالَم الرّوح (النّفس)، فثمّة توضُّع آخر في "نفْس" الإنسان أو هالته اللامرئيّة المحيطة به، تحتفظ بسجلّه الكامل أيضاً، السجلّ الثابت المبرمَج الأوّل، والسجلّ المتغيّر معه، كما قدّمنا آنفاً، وقدْ بيّن سبحانه هذا العالَم النفسي اللامرئي، الذي هو غلاف طاقة حيويّ يُحيط بالجسم، في آيات كثيرة، هي خارج بحثنا[2].

---

[1] – هذه الثنائية، تُحاكي ثنائيّة مفردتي "الكتاب" و"القرآن"، فالأوّل نزل على الرّوح، والثاني في العقل، فكان الكتاب مثنى (المعنى واللغة، القلب والقالب، وحيٌ ونُطقٌ)، فهذا النّظام أو الديوان أو "الكتاب الحفيظ" أيضاً أو السجلّ الإنساني هنا، هو على المستوى المادّي (البيولوجي) في شفرته الجينيّة، وهو على المستوى الرّوحي في هالته المحيطة بالبدن المادّي والتي لا شأن للعلم التجريبي بها.

[2] – مثل: (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)(البقرة:٨١)، (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ)(الحديد:١٢)، ما يعني أنّه في العالَم الآخر سيكون منظوراً، وللمؤمنين هالاتُهم النوراء، والكافرون في الظلمات، وفي عمى، (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً)(الإسراء:٤٦)، (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)(الفتح:٦)، (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)(الأنعام: ١٢٢)، وهذا الإحياء ليس إحياء من موتٍ جسدي بل من موتٍ روحيّ ... الخ .

أمّا محتوى هذا البرنامج، فبإمكاننا التعرّف عليه من العبارة المختزلة (**ألستُ بربّكم؟ قالوا بلى**)[1]، أربع كلمات لكنّ صياغتها وتركيبتها تُعطي الكثير.

حين تقول لشخص: ألستُ حبيبَك؟ فهذا معناه أنّك ستطلب منه أمراً، هذا معناه أنّه يعمل بخلاف هذه الحقيقة أو يشكّ فيها، وهو معناه أنّك أحدُ أحبّائه أيضاً. أمّا حين تقول له: ألستُ بحبيبك؟ فهذا معناه أنّك أنت حبيبُه الوحيد. هذه فائدة دخول الباء على الخبر المنفيّ.

تصوّر رجلاً تتعامل معه على مدار الساعة، وفي كلّ ساعة يتّصل بك ليقول لك: ألستُ أنا حبيبَك الوحيد؟ فماذا تراه يعني؟ يعني أمرين:

١- أمراً من عنده: وهو أنّه لأجل أنْ يُقنعك بأنّه حبيبك الوحيد، كلّ ساعة يعطيك هدية، نعمة، عطيّة، خير، ويدفع عنك ما تكره، ويريك العجائب والفنون، ويرسل لك مَن يأخذ بيدك، لذا يتّصل ليعرف هل وقع هذا في عينك شيئاً، وأقنعك أنّه الوحيدُ المحبوبُ المُرتجى؟

٢- أمراً من عندك: وهو أنّك صرتَ لجهلك تفتّش عن حبيب آخر بدلَه، أو لا تشكره، أو لا تحبّه، أو لا تذكره، أو تعاديه وتتّخذ غيره أنيساً، ثُمّ تتلقّى الصدمات من خيانات الأحبّة المزيّفين. فيتّصل بك ليذكّرك بأنّك لن تجد أبداً آخرَ غيرَه يكون لك كما هو خالصٌ لك.

لذلك فإنّ السطر البرمجي (**ألستُ بربّكم**) وحده، يستدعي هذين الأمرين: ترقُّبَ الإنسان اعتناءَ ربّه به، وتغمّدَه بالنعم منه والهدى وإرسال الرسل منه، لذلك يقول تعالى: (**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**

---

[1] - العبارة هي (ألستُ بربّكم؟ قالوا بلى، شهدنا)، لكنّ نرى أنّ "شهدنا" خارج الكلمات لأنّها تغذية مرتدّة لعبارة (وأشهدهم على أنفسهم – ألستُ بربّكم؟ قالوا بلى – شهدنا)، فالمعنى أنّ الربّ جعل منهم وفيهم على أنفسهم شاهداً داخلياً يشهد على أنفسهم الحاجة إلى ربّ والإقرار به، جعل فيهم برنامج الشهادة وهو المرموز له بالأربع كلمات، أمّا "شهدنا" فتعني أنّ البرنامج استقرّ مكانه وتنشّط وقام يعمل تلقائياً بهذه الشهادة المبرمجة.

قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا)(الأنعام:١٣٠)، فلاحظ "**شهدنا على أنفسنا**" كيف تُفعِّل التذكيرات بالرسل وغيرها برنامج "**أشهدهم على أنفسهم**"، لذلك نلاحظ هذه البرمجة الأولى في بني آدم الأوائل هي التي شرّعتْ لأنْ يُقال لهم (**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**)(الأعراف:٣٥)، فإتيان المذكِّرين كالرسل هو تفعيل للشعور المبرمج ذاتياً فينا عن ترقّب فعْلٍ من الربّ يستعرض به نفسَه علينا (**ألستُ بربّكم**)، فالأملُ الإنسانيّ والتوقُّع وبحثه الدؤوب عن يدٍ رحيمةٍ منْ قبل اللّه الرحمن تأخذ بأيدينا لتنتشلنا وترينا آياته وتدلّنا عليه وتهدينا وتعلّمنا وتوفّقنا، هو من صميم الفطرة، برمجةٌ فينا على مستوى الضرورة إرثيًا.

فالإنسان مبرمجٌ على مستوى جينات النطفة الأولى (خلاياه الأولى والمُنظِّم الأوّل) بمعرفة أنّ الربّ لا يدعه سدى، (**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً**)(القيامة: ٣٦، ٣٧)؛ مبرمَجٌ على أنّ اللّه سيَعْرِضُ نفسَه دائماً إليه، لأنّ هذا غرضُ خلقته إنساناً، ويتجلّى له في كلّ شيء، حتّى لا يجهله في شيء ليقول في ضميره: (**بلى**) أينما وجّه وجهَه، وكما قال سبطُ رسول اللّه (ص) الحسينُ بنُ عليّ (ع) وسيد العارفين في دعائه بعَرفة (**إلهي علمتُ باختلاف الآثار وتنقّلات الأطوار أنّ مرادك منّي أنْ تتعرّف إليّ في كلّ شيء حتى لا أجهلك في شيء**)؛ فهو مبرمجٌ على حصر الربوبية وقصْرِها للواحد المستحقّ (حسب دلالة الباء "**ألستُ بـ ربّكم**")، ونفيها عن غير مستحقّها من الأنداد الزائفة، وهذا هو بذرة الضمير الديني الموجود في كلّ إنسان مهما عتا وأنكر، فإنّ له لحظاتٍ يشعر بوخز هذا البرنامج الكامن، وعند الاحتضار تُبلى السرائر، وليس من إنسان إلاّ ويرجع يَصغي إلى هذه النداءات المكمّدة في آخر لحظات عمره ليقول (**بلى**) مريضةً على شفتيه الذابلتيْن، اسمعْ لفرعون (**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: آمَنْتُ**)، فما بالك بغيره؟!. بل (**ألستُ بربّكم**) ربّ الجميع، برْمجتْ الإنسانَ على وعي ضرورة وجود نظامٍ شاملٍ محيط بجميع المخلوقات ومددُها منه (**ربّكم**)، وجعلتْهُ مبرمَجًا على الاستثارة (بـ "**ألستُ**") لأنْ يكتشفه لأنّه مقرٌ به من جذوره. وإلاّ فما الذي أقضّ مضاجع العلماء والمفكّرين والفلاسفة والباحثين والعارفين ليُصحروا في رحلاتهم الفكريّة طلباً للحقائق النّاظمة للوجود والمُفسِّرة له، لولا أنّهم مبرمجون ومُستفَزّون ومُحَفَّزون؟!

برمجتِ الإنسانَ على إمكانيّة رؤية الله في كلّ شيء، واستحضار ذكْرِه من أيّ شيء، وغزوه القلوب منْ حتّى لا شيء؛ برمجت الإنسان على شغفه لأنْ ينسجم مع الكائنات كلّها ويتناغم في (**بلى**) واحدة، برمجته على حبّ التناغم والنظام والوحدة، والانزعاج من الفوضى والعبثيّة والنشوز.

ومن "ميم" الجمع في "**ربّكم**" و"واو" الجمع في "**قالوا**" من جهة أولى، ومن إثبات وحدة "**ربّ**" وإقرار "**بلى**" من جهة ثانية، فالشفرة الجينيّة/الصبغة الربوبيّة هذه (**ألستُ بربّكم؟ قالوا بلى**) المكوّنة من أربع كلمات، تحوي إقرارين مكرّرين: إقراراً بانتماء "الجميع" لبعضهم البعض أفقياً (الأخوة الإنسانيّة/الكونيّة)، وإقراراً بانتمائهم "لربّ واحد" عمودياً (الأخوة الدينية). وهي تضمّ مركّبين (سطرين):

١- ألست بربّكم.

٢- قالوا بلى.

الربّ يسأل (**ألستُ**)، ونحن نجيب (**بلى**)، هذه هي قصّة الربّ والإنسان كلّها وقدْ برْمَجَنا عليها، هو يرمي بألغازه في دروبنا ونحن نحاول حلّها لنتعرّف إليه، هو يستثير عقولنا ونحن نفكّر لنصل إليه (**مرادك منّي أنْ تتعرّف إليّ في كلّ شيء حتّى لا أجهلك في شيء**). والآن نأتي إلى المحور الثاني للآية لنُكمل التفصيل.

ثانياً- نبأ الذي انسلخ من الآيات

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منْ الْغَاوينَ﴿ وَلَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا وَلَكنَّهُ أَخْلَدَ إلَى الأَرْض وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَل الْكَلْب إنْ تَحْملْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلكَ مَثَلُ الْقَوْم الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا فَاقْصُص الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)(الأعراف: ١٧٥، ١٧٦). فما علاقة هذه الآيات سياقياً بما سبق؟

أوّلاً: حبّذا أنْ يستذكر القارئ الكريم ما قدّمناه قبل بضع صفحات من ضرورة التفريق بين آدم الإنسان غير المعصوم وبين آدم الرسول (ع) المعصوم عن الخطايا،

ليبقى معنا ومع القرآن العزيز، بذهنه فقط، لا بسبقيّاته وعاطفته ومقدّساته الموهومة.

ثانياً: من المفيد أنْ نذكر أنّ سورة الأعراف بدأت بقولها (**كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ**)، فالحقّ الذي يقوله الكتاب المُنزَل ينبغي ألاّ نتحرَّج من قوله، وينبغي على الآخذ بالقرآن ألاّ يشعر في صدره حرجٌ من حقائقه وإنْ نازع موروثه واعتقاده.

إنّ **سورة الأعراف**، استهلّت حديثها عن قصّة آدم ثمّ بنيه في عشرين آية مفصّلة، بحيث لنْ تجد هذا المقدار القصصي عن آدم إلاّ فيها، ثمّ أعادتْ الأمر قريباً من ختامها، بهذه الآيات أعلاه عن بني آدم وإشهاد الذرّية.

ينتهي السرد القرآني من بني آدم وذرّيتهم، وتوجّه الربّ إلى بني آدم بدلاً من آدم لتثبيت "**صبغة الله**" في جينات أجيال الإنسانية كلّها، بعد أنْ أبطل آدم التخطيط الربّاني الذي له ولذرّيته في اتّجاهٍ معيّن، آدم الذي احتضنته سادة الجنّة (الآمرون الأرباب)، ورفعوه من حضيض البهائميّة (حيث سيطرة الطبائع والغرائز واللاوعيّ) إلى عالم السيادة، ليكون ربّ هذه الأرض وخليفة الله، وعُلّم الأسماء كلّها وغلب الملائكة في علمه، وجعلوا له سمات الأرباب وعلامات السادة (**آتيناه آياتنا** = "اربطْ عليه صورة الأرباب" كما في الأساطير)، لكنّه خلع رداء سموّه الرّوحيّ شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم، حتّى صار يُجادل الملائكة التي تخدمه ليخرج من الجنّة، "**فانسلخ**" من لباسه الربّانيّ (نزع عنه الشيطان لباسه كما بينّا سابقاً)، انسلخ من علمه وممّا كان فيه من عجائب وآيات، "**ليتبعه الشيطان**" خارجاً وليتلقّفه بالكامل فيوقعه إلى حضيض "**الأرض**" ليطلب "**الخلد**" فيها بذرّية غير مسموحٍ بها (أيْ شجرة الخلد)، و"**اتّبع هواه**" في تلك اللّحظة التي عصفت بعقله، **فيعصي ربّه** بتلك المعاشرة المحرّمة، **ويغوى**، وقد عرفنا تكوين نسل "**الغاوين**" غير الشرعي سابقاً، كان لدى أبينا آدم خياران أنْ يكون خامس السادة الروحانيّين الآمرين **يرفعونه** معهم، أو أنْ يهوي **بهواه الأرض** حيثُ الشيطان الذي هوى قبْله، فاختار الثاني، وصار حتّى لو مُنع من الخروج يتمرّد، لأنّه **لهث** وراء الخديعة "**شجرة الخلد**"، إنْ منعوه ودفعوه **وحملوا عليه**

ليحبسوه عن الخروج ظلّ يلهث للخروج، وإنْ تركوه وشأنه خرج، حتّى أنّه في المرويّات أنّ الملائكة حينما همّت أنْ تذود آدم عن الشجرة نُودوا "**دعوه، إنّما تُذاد البهائم لا مَن أوتي عقلاً يذود به نفسَه**".

ربّما يظنّ القارئ أنّا بالغنا في آدم ونسبنا له ما لا يُحتمل، فننبّه أنّنا علينا أنْ نتجرّد من القداسات الزائفة فهي مانعنا الأوّل وليس ما نقوله، ووضّحنا أنّ آدم الإنسان غير آدم الرسول (ع)، وأنّ آدم الإنسان تاب اللّه عليه واجتباه بعد معصيته، وهذا لا يعني ألاّ يكون هناك في حياة الإنسان لوثةٌ وسقطةٌ تجعله يدفع الثمن غالياً، ألمْ يكن كبار صحابة رسول اللّه (ص) وهم خير القرون وقامتْ عليهم أركانُ الدّين آثمين ولهم جهالات قبْل مجيئه (ص) لهم وسطوعه عليهم بالنّور والهدى والتوبة والاجتباء؟! ثُمّ أنّ الكلام على آدم الإنسان هو الكلام على كلّ إنسان (آدميّ) فإنْ كان لآدم سقطةٌ واحدة في عمره غُفرتْ له واجتُبي، فلمؤلّف هذه السطور ولغيره في كلّ يوم سقطات لا يُدرى تُغفَر أم لا، لذلك يضرب اللّه بأبي الإنسانيّة المثال لأنّ أكثر الناس ينسون إنسانيّتهم ويعودون إلى طوْرهم البشري الحيواني ليلهثوا بطبيعتهم، كما حدث لآدم لساعة واحدة، ويبقى يحدث لغيره من الناس ٦٠٠ ألف ساعة، أيْ طوال سبعين سنة، هي طول عمرهم العاقل، وقد ندم آدم وبكى عشرات السنين على خطأ ساعة، لكنّ الناس لا تبكي ساعة واحدةً على كبائرِ أخطاء عشرات السنين!

وقد جاء فى الحديث أنّه عند معصية آدم ناداه ربُه: "**يا آدم لا تجزع من قولى لك "اخرج منها" فلك خلقتها ولكن انزل إلى الأرض وأذلّ نفسك من أجلي وانكسر فى حبّي حتى إذا زاد شوقُك إليّ وإليها تعالَ لأدخلك إليها مرة أخرى، يا آدم كنتَ تتمنى أن أعصمك؟ قال آدم نعم، فقال: "يا آدم إذا عصمتك وعصمتُ بنيك فعلى من أجود برحمتى؟ وعلى من أتفضل بكرمي؟ وعلى من أتودّد؟ وعلى من أغفر؟ يا آدم ذنب تذلّ به إلينا أحبّ إلينا من طاعة تراءي بها علينا، يا آدم أنين المذنبين أحبّ إلينا من تسبيح المرائيين**". إذاً، ليس معنى هذا أنْ نُبالغ في معصية آدم، بل هو بكْر الخليقة الإنسانيّة، الذي خاض تجربة المشيئة والعلم والوعي

والاختيار بلا سابق خبرةٍ ولا مثالٍ يُحتذى ولا خبرة، فأطاع دهراً وعصى مرّةً ثمّ تاب أبداً، وكما قال نبيُّ الأمّة (**كلُّ ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون**)[١].

فاللّه يرحم ويتوب على الجميع، لكنّه أيضاً لا يُحابي أحداً، بل يريد من بني آدم أنْ يأخذوا الدرس من أبيهم، ونصحنا جهرةً ألاّ يفتننّا الشيطان كما فعل في أبويْنا، فسبحانه ولمصلحة الإنسان ولهدايته وتعليمه "**يقصّ الحقّ، وهو أحكم الحاكمين**"، وطبعاً كرامة أبينا آدم أرمزت الآيات ولمْ تُسمّ الأسماء، وقامت المأثورات والمفسّرون بطمس معالم الآية صيانةً لقداسة أبينا آدم أبي الإنسانيّة الأوّل، وهو صحيحٌ في وجه، فقالوا أنّ الآيات في شخصية توراتيّة تُدّعى "بلعام بن باعورا" عاصرت موسى (ع)، وقالوا أنّها نزلت في أميّة بن أبي الصلت الشاعر، وقيل أنّها في أبي عامر بن النعمان بن صيفي الراهب، فهذه كلّها انطباقات لو صحّت، والحقّ أنّها نزلت صالحةً لكلّ إنسان أنعم اللّه عليه بالعلم والعقل وقاده طبعه وهواه إلى الاستسلام للغريزة وسيطرة الشيطان.

لكنّ الآيات أساساً تتكلّم عن شخصٍ محدّد في لحظات سقوطه في براثن الشيطان وكيفيّة ذلك، ولها ارتباط بالسياق، في واقعة تاريخيّة مفردة صارتْ "**نبأ**" ينبغي أنْ يُتلى ويُذاع للعبرة، انسلخ من الآيات التي جاءت لترفعه فحملها دهراً ثمّ طرحها جانباً في عصفِ ساعةِ غلبةِ الهوى وانسلاخٍ من الآيات الرفيعة، فمن هو هذا الشخص المحدَّد؟

لا نذهب بعيداً، يميناً أو شمالاً، آدم أوّل مَنْ فعل ذلك، ثمّ تاب. ولو استرسل القارئ ليتتبّع (الأثر: الذي هو القصّ) لوجد أنّ سورة الأعراف نفسها قدْ قدّمت أوسَع قصٍّ عن آدم ومعصيته وتحذير بنيه منذ بدايتها.

عناصر القصّة:

١- القصّ والنبأ والتلاوة.
٢- إيتاؤه الآيات وانسلاخه منها.
٣- الإتّباع والاتّباع.
٤- مثل الكلب.

---

[١] - أحمد بن حنبل، المسند، ج٣، ص١٩٨؛ الترمذي السنن، ج٤، ص٧٠.

أ- القصّ، والنبأ، والتلاوة

ثمّة إشارة مهمّة لقوله سبحانه في نهاية القصّة (**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**)، فهي إذن قصّة، لها ذيول في القرآن، وغايتها أنْ يتفكّر الجميع، وهو غاية خلق الإنسان (جعله مفكّراً)، هذا القصّة ينبغي أنْ تكون موجودة في القرآن، و"**تُتلى**" بدليل البداية (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**)، فأين هو هذا النبأ الذي علينا أنْ نتلوه (أي من القرآن لا من المرويّات)، وهو قصّة لها تفاريع؟

طبعاً لا يمكن أنْ تكون هذه الفقرة هي المراد تلاوتها وقصّها فقط وهي (**فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**)، لأنّ العبارة ستؤول هكذا:

(واتلُ عليهم نبأ الذي فعل كذا وكذا ولم يفعل كذا وكذا، فاقصصْ قصصه) فأين هو النبأ الذي علينا أنْ نتلوه إذ أنّ ما بعد "الذي" هو صلة الموصول، وأين قصَصُه لنقصّها؟

نجد في القرآن، انفصال النبأ المراد تلاوته بالأداة "**إذْ**"، فمثلاً:

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قرّبا**)(المائدة:٢٧).

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ**)(يونس:٧١).

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قال**)(الشعراء:٦٩).

فآيتنا هذه تُثبت أنّ ثمّة في القرآن ذكْراً لـ:

١- قصّة   **٢- نبأ**   **٣- تلاوة**

فهل قصّ علينا نبّي الأمّة (ص) نبأً، وتلاه علينا قرآناً، عن "بلعام" أو غيره؟ لا لمْ يفعل، بل أنّ رواية "بلعام" ليستْ عن رسول الله (ص) وإلاّ لما اختلفوا في تعيين صاحب القصّة بين "بلعام" و "أميّة" و"أبي عامر"، هذا فضلاً عن أنّ الرواية لا تُتلى! فلا يوجد

في القرآن "بلعام"[1] ولا غيره لنتلو عنه شيئاً، لا يُوجد إلاّ قصّة آدم يثبت فيها القرآن كلّ ألفاظ هذا النبأ المراد تلاوة قصصه، وهذه القصّة هي باكورة الأمثلة البشرية كلّها في التخلّي عن الهدى لأجل الهوى لذلك يقول في نهايتها (**ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا**)، والـ"**مثل**" لكي يكون مثلاً للإنسانية، يُؤتى به من أوّل تاريخ فعْله ومن أبرز أبطال فعْله، لا من وسط التاريخ أو من مغموريه الذين لمْ يسمع أحدٌ بهم.

ولأنّ "القصّ" في العربيّة معناه تتبّع الآثار، ومنه جاء "القصاص" أيضاً، فقصّ القصص، أي أنّ تتبّع آثار (أخبار) آدم وحيثيّات المشاهد الأولى وظروفها نجدها منثورة في القرآن كلّه وتُتلى، وبقصِّها أيْ بتتبّعها أيضاً في التاريخ وفي أنفسنا نجد آثارها باقية بارزة لكلّ متفكّر، تعمل في مسيرة الإنسان كلّه، وهذا ما أدّى بالمسيحيّة أنْ تفترض أنّ عيسى (ع) جاء لرفع خطيئة آدم عن كاهل البشريّة، وهو صحيح بالمعنى الذي نفهمه لا الذي يُقال فكلُّ الأنبياء والمصلحين -بما فيهم آدم بعدما اجتباه ربُّه- جاءوا لرفع آثار أمثال هذه الخطيئة لينطق الرّوح القدُس في الإنسان مرّةً أخرى، أمّا "بلعام" وغيره من المجهولين فلا أثر له لا فينا ولا في التاريخ ولا في القرآن ولا في التراث الصحيح، ولولا أنّ البعض استلفه من اليهود (أو دسّوه بأنفسهم) وذكره على هامش الآية هذه لما سمع به أحدٌ.

---

[1] - المرجّح أنّ دخول شخصيّة توراتيّة في التفسير مثل "بلعام بن باعورا" الذي كان كاهناً مستجاب الدعوة حسب الزّعم، هو من أثَر الدسّ اليهوديّ، لأنّ زبدة القصّة أنّ شعب بني إسرائيل مبارك ولا يُمكن حربه ولا لعنه لأنّ الله معه ويحميه مهما زنا وأفسد كما تقول القصّة، وتسويق تاريخ اليهود وتسطير بل أسْطرة ملاحم لقومٍ كان موقفُهم مخزياً وجباناً مع موسى (ع) نفسه، فهم يقولون في التفسير أنّ هذا الرجل "بلعام" كان يملك الاسم الأعظم (وهو تفسير "آتيناه آياتنا"!)، فأراد الدعاء على موسى وقوم الإسرائيليّين، فانسلخ من لسانه الاسم الأعظم ونساه، أي هي حكاية تُشبه نسيان علي بابا كلمة "افتح يا سمسم" لدخول مغارة الكنز، مع أنّ الانسلاخ هو نزْع يحدث بالتدريج لا دفعةً واحدة، ومع أنّ القرآن يعكس الأمر تماماً فيقول أنّ الشخص هو الذي انسلخ من الآيات، لا "الكلمات"، عفواً "الآيات"، هي التي سقطتْ، عفواً "انسلخت" من لسانه! هذا أقلّ وأعجل ما يُمكن أن يُقال نقداً لأمثال هذه المرويّات المخالِفة لنصّ القرآن المبين.

ب- إيتاؤه الآيات وانسلاخه منها

"السلخ" في اللسان العربيّ هو نزع شيء من شيء يُغطيّه وبالتدريج، كما بيّن تعالى مخبراً عن حمرة المغرب كيف يُنتزع (يُسلَخ) غشاء نور الغلاف الجوّي شيئاً فشيئاً حتّى يظهر الليل (**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**)(يس:٣٧)، أيّ أنّ هذا الشخص كان عليه شيءٌ يُغطيّه ويحميه بمثابة درْعٍ له، ونزع نفسَه منه شيئاً فشيئاً، هذا الشيء هنا سُمّي "آياتُنا"، وقدْ رأينا أنّ الشيطان ظلّ ينزع وينزع عن آدم لباسه الرّوحاني حتّى انسلخ من اللباس تماماً فخرج من الجنّة. فهل يصدق هذا "السلخ" على أحد ممّن اقترحتْهم روايات القصّاصين؟!

لكنْ فعْل "نزْع اللّباس" شيئاً فشيئاً يُعزى هناك للشيطان، ويُقابله "الانسلاخ من الآيات" الذي هو فعْل آدم الإنسان، فلماذا اختلف الفاعل مع اختلاف التسمية؟ لنذهب أوّلاً فنتحرّى ماذا أوتي (أيّ أُعطي بالمجّان وهو في مكانه) آدم من آيات.

الآيات: هي العلامات، الدلائل، الإشارات، الإرشادات، البراهين، التي تدلّ على أمرٍ أو شخصٍ ما، قال القرآن (**آيَةَ مُلْكِه أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ**)(البقرة:٢٤٨) إتيان التابوت علامة على ملك طالوت، و"آيات القرآن" دلائل على وحدانية الله وعلى صدق الرسول (ص) وعلى الحقّ والصراط السويّ.

أوّلاً: آيات دالّة على قابليّة سموّ آدم فوق مستوى الملائكة بحيث لا يعصي أبداً:

(**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..**) هو الأولى منها بخلافة الربّ.

(**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ..**) هو الأعلم منها بالأسماء بما عرضه الربّ من نماذج مستقبلية فنّد به زعمهم أن الإنسان غير صالح للخلافة.

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا**) هي التي سجدت له لا العكس.

أفلمْ يكنْ تمييز الربّ لآدم، ونفخ روحه فيه، وتعليمه الأسماء كلّها، وبيان فضله عند الملائكة، وإسجادهم له، آياتٍ على أنّه يُراد رفْعُه.

ثانيا: آيات دالّة على عداوة إبليس الخاصّة لآدم، فينبغي منطقيّاً عدم تصديقه:

(**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**) شهدها آدم أمامَه عياناً.

(**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**) شهدها آدم.

(**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**) شهدها آدم، وإبليس يُشير بـ "هذا" احتقاراً لآدم.

(**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ**) خبرٌ صادق موجَّهٌ من المدبِّرين جميعاً بكلّ أدوات التوكيد (يا آدم) توجيه مباشر بالاسم، (إنّ) توكيد، (هذا) للإشارة إلى إبليس بالتعيين، (عدوّ لك) للاختصاص، (ولزوجك) تأكيد ثانٍ للاختصاص.

(**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ**). تقديم (**لكما**) + لام الصلة، يفيد أنّ عداوة إبليس خاصّة للإنسان.

ألَم يكن عدم سجود إبليس لآدم وتوعّده للجنس الآدميّ والذّرّية بالإضلال وطرده من الجنّة ورجمه، وعهد المدبّرين والملائكة لآدم بشديد عداوة إبليس له ولزوجه، وتحذيرهم إيّاه من الاغترار به وطاعته، علامات وأدلّة (آيات) كافية تمنعه من تصديقه ومتابعته؟

ثالثاً: آيات دالّة على عدم لزوم الخروج من الجنّة التي هي محلّ سكنه وأمنه، وعدم الاغترار به:

(**فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**)

(**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى**) ومع هذا فالنتيجة كانت تصديق (**يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**)!

(**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا**) ومع هذا فالنتيجة (**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا**).

ألَم تكن حياة الجنّة الرغيدة، المكتفية من الحوائج، ثمّ النصائح الربّانيّة والملائكيّة المؤكّدة بعدم مفارقتها، واتّخاذها سكناً، آيات تمنع من التطلّع إلى غيرها كملْك ومكان يُخلد إليه؟

رابعاً: آيات صريحة في النّهي عن قرب الشجرة (معاشرة الهمج) بحال:

(**وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**) أكّدها سبحانه مرّتيْن والنتيجة (**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**).

(**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ**) والنتيجة أنّهما صدّقا قول عدوّهما بنفي النهي (**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**).

ألَم يكن بيان النهي عن الشجرة واضحاً؟ بل وجاء معلَّلاً أيضاً بـ "تكونا من الظالمين"؟ وكما بيّن عليّ مولانا (ع) (**وأوعز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التعرّضَ لمعصيته والمخاطرةَ بمنزلته**)[1]!

هذا عدا عن أنّ "أشرف" هذه الآيات التي أوتيَها، هي سمات المدبّرين الروحانيّين، كما هو في التراث (في المرويّ: "أنّ آدم خُلق على صورة الربّ"، ولدى السومريّين: "ربط عليه صورةُ الأرباب")، لذلك يقول المدبِّرون من ملائكة الوحي بضمير جمع المتكلِّم "**آتيناه آياتنا**" أيْ سماتنا، وهذه الآيات وحدها من شأنها أنْ ترفعه لو أراد (**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ**)، لكنّ الرفعة لا تكون بجبر مَنْ لا يُريد إلاّ غيْرَها!

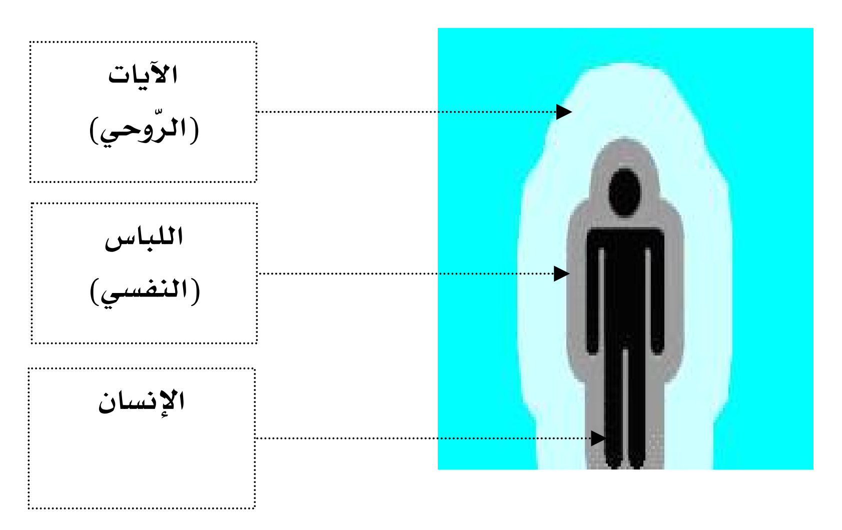
فالآن، صار لدينا مجموعة من أربعة أصناف من الآيات (آيات تميّز وسموّ، آيات تبيّن عداوة الشيطان، آيات على ضرورة ملازمة الجنّة وعدم استبدالها، آيات على الالتزام بالنهي وعدم المخاطرة والتعدّي)، فهل تخلّى آدم عن الآيات؟ نعم تخلّى عنها كلّها، وبالتدريج، فقد تخلّى عن تساميه شيئًا فشيئاً، وتخلّى عن عداوته لإبليس وصار يسمع لوساوسه كالنصائح، وتخلّى عن الجنّة موطناً وسكناً وشغف فضُولُه بخارجها، وأخيراً أسقط نهي مقاربة الشجرة وعصى ... (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ**

---

[1] – الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج١، ص١٧٧.

آيَاتِنَا، فَانسَلَخَ مِنْهَا). وهي نفسُها (**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**)(طه:١١٥) أمرناه فلمْ يأتمر وصبّرناه فلمْ يصبرْ وعهدنا إليه مسئوليّةً ومنزلةً فنسيَها وتركها وفرّط فيها وخاطر بها، هو الانسلاخ الذي قال بشأنه عليّ (ع): (**فباع اليقينَ بشكِّه، والعزيمةَ بوهنه**)[1].

الآن نُدرك لماذا أنّ (الآيات) وهي (اللباس)، إلاّ أنّها من جهة آدم تُدعى (آيات) ومن جهة الشيطان تُسمّى (لباس)، الآيات طاقة تحيط بالعقل والقلب الآدميّ. واللباس طاقة تُحيط بالنفس الإنسانيّة، لاحظ الشكل:



فسُمّيت "آياتٌ" حين انسلخ آدم منها، لأنّها آياتٌ لآدم وحده، وعلامات لآدم، وقناعات لآدم، وتعليمات وإرشادات وبراهين وأدلّة لآدم، ولا شأن لإبليس بها كآيات، فالآيات تتعلّق بعقل وروح آدم، لكنْ إبليس يريد أن يخترق النفس البشريّة بنزع اللباس الذي نسجتْه الآيات حوْل النفس والجسد، فطالما هناك قناعات (أيّ إيمان) تصدّ إبليس فهناك (لباس) واقٍ، فالحرب الشيطانيّة تقتضي نزع هذا اللباس ليعرى صاحبُه ويصير مُخترقاً للفيروس الشيطاني الذي يروم التحكّم في إدارة الشخص

---

[1] – الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج١، ص٢٢.

المُختَرق، لذلك فالشيطان يوسوس ليُغيِّر المرءُ قناعاته ومتى ما تغيّرت سقطت دروع المقاومة، فلا نعجب أنّه بمجرّد أنْ (انسلخ آدم من الآيات) روحيّاً أي (نزع عنه الشيطان لباسَه) نفسيّاً، صار سهلاً أن يصطاده الشيطان ويُملي عليه فعْل المعصية خارج الجنّة ويغوى (**أتبعه الشيطان، فكان من الغاوين**)، (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**).

ج- الاتّباع والإتْباع

لو سألنا سؤالاً: أيُّهما حصل أسبق اتّباع الهوى، أم إتْباع الشيطان، وهذه هي الآيات: (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ❖ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**)(الأعراف: ١٧٥ ، ١٧٦) لظنّ ظانٍّ أنّ إتباع الشيطان وقع أوّلاً حسب ترتيب الآية، هذا غير صحيح.

إنّ الآية الثانية تُخبر عن حالٍ لآدم لمْ ينسلخ فيه بعدُ من الآيات، لأنّ المدبّرين الكرام يقولون أنّه كان لديهم خيار رفعه بها (أيْ أنّ الآيات ما زالت إذّاك موجودة مع صاحبها) لكنْ بشرط إيقاف آدم نفسه من الانكباب إلى الأرض، (فاتّباع الهوى) حصل أوّلاً وأدّى بآدم إلى الخروج من الجنّة إلى الأرض موعوداً وعْد غرور بالخلْد فيها.

أمّا (إتْباع الشيطان) فحصل بعد الانسلاخ من الآيات تماماً، الأمر الذي سمّى مقدّماته القرآن (فأخرجهما ممّا كانا فيه) و(ينزع عنهما لباسهما) كما بيّنّا قبل قليل. ولقد احتارتْ التفاسير في معنى (إتباع الشيطان) وكيف ينسلخ المرء من الآيات ثمّ يتبعه الشيطان؟ أليس المفروض أنّ الشيطان هو الذي تسبّب في انسلاخه عنها؟ وحين أرادوا تطبيقها على شخصيّة بلعام بن باعورا أو غيره، لمْ يستطيعوا أن يقولوا كيف انسلخ من الآيات، وكيف أتبعه الشيطان، فضلاً أنّ السورة (الأعراف) مكّية لا علاقة لها بالشخصيّات المقترحة، والبعض هرب من تعيين أحد وقال أنّ القصّة كلّها تمثيل غير واقع، مع أنّ اللّه سبحانه يقول أنّها قصّة، ونبأ، ويُخبر عن أحداث وقعت ومشاعر وجزاءات! والبعض أعمل سكّين الترادف فقال أنّ "أتْبع، اتَّبع، تَبِعَ" بنفس

المعنى، أي أعقب ولحق! وانشغالنا بالتفريق يُخرجنا عن المراد، لكن كفى بكتاب الله هادياً على العكس.

"أتبعه": إمّا معناها فعلاً (أعقبه ولحقه)، كقوله تعالى (**فأتْبعه شهابٌ ثاقب**)، أو بمعنى (صيّره له تابعاً) يستجيب لأوامره. وعلى المعنييّن تصحّ القصّة، بل إنّ القصّة لا تصحّ بمفرداتها وحيثيّاتها إلاّ على ما جرى على آدم بالخصوص لا غير، و(**لرفعناه**) وضدّها (**أخلد إلى الأرض**) مفردتان تُناسبان تماماً جغرافيّة الجنّة العالية التي أسفلها الأرض، والشيطان لا يُمكن أنْ يمنَع أنْ يُتبع/يلاحق أحداً، فكيف يعجز عن أحد قد اتّبع هواه فلا يقدر على اللحاق به لأنّه للآن لمْ ينسلخ من "الآيات" بعد؟! لا أحدَ في الأرض في عصمة من الشيطان كهذي الحالة، حتّى الأنبياء يقتربُ منهم ويُحاربهم ويُحاربونه ويستعيذون منه ويدحرونه، هذا النّبأ القرآنيّ عن شخصٍ كان محروساً بآيات تُرعب إبليس، لا يستطيع الشيطانُ الاقتراب منه لأنّه متسلّحٌ بآيات (المدبّرين) ولمْ تطأ الأرضَ رجلا هذا الشخص بعد، الأرض التي الشيطانُ سيّدُها الشرّير، فوسوس له الشيطان عن بُعد بما يُحرّك الهوى فيه لإخراجه من مكمنه المحروس بالصواعق والشهب والرجوم للشياطين، فتطلّع إلى الخروج من مأمنه الحريز، يلهثُ يريد شجرةَ الخُلد في سهول الأرض خارج الجنّة الآمنة، فاتّبع هواه (أوّلاً) وأخذ يلهثُ ليَخرج ولا يريد أنْ يُمنَع فيُرفَع، فقيَّد أيدي المدبّرين عن مساعدته، فما أنْ خرج حتّى تمّ نزع اللباس كاملاً، بالانسلاخ من آيات الحراسة والرّفعة، وصار عارياً لمخاطر الأعداء، هنا وفقط هنا، في هذه اللّحظة القاتلة استطاع الشيطانُ المُبْعد عن تلك البنانة المحظورة أنْ يفترسه، (فأتبعه) لحق به واصطاده وصيّره (تابعاً) له لحظتها، يُملي عليه ما يفعل، فما الذي فعل؟ الآية تُجيب (فكان من الغاوين) وتلك التي في سورة طه تجيب (وعصى آدم ربّه، فغوى)، الأمرُ نفسه.

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ❖ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ❖ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**)(الأعراف: ١٧٥ _ ١٧٧).

بقي أنْ نزيل عُقَد الحبال المتشابكة للذين يتصفّحون التفاسير، ونُعيد الآيات لمنطقيّتها حتّى لا تُحطب الأمور على بعضها، فقد تمّ الخلْط بين الشخص صاحب النّبأ، والكلب، والقوم المكذّبين بالآيات، وجُعلوا واحداً، فنُشير سريعاً، ما دُمنا لسنا بصدد التفسير، إلى ترتيب منطقيّ للآيات:

١- ثمّة نبأ في القرآن يُتلى كقصّة عن شخص آتاه (المدبّرون من الملائكة) آياتهم فانسلخ منها ...

٢- ذلك الشخص — قبل أن ينسلخ من الآيات- كان بالإمكان رفعه بها بشرط أنْ لا يقطع صلته تماماً بالآيات، ويتّبع فقط هواه.

٣- ذلك الشخص قد أصرّ على التخلّي عن الآيات التي ترفعه، وأصرّ على التعلّق بهواه فقط بلا مدبّرين. ولم تكُ من طريقة لمنعه من الانحدار، لا الآيات عادتْ تُجديه، ولا الترك يُجديه قطعاً.

٤- هذا الشخص، وهو في هذه الحالة، الآياتُ أو الانسلاخُ منها لا يفْرقُ لديْه، يكون قد تمثّل، أيْ انطبق عليه مثَلٌ ينطبق على كثيرين.

٥- مثلُه كمثل الحيوان اللاهث الذي لا يُمكن إيقاف لهثه، لا بالزّجر (الآيات)، ولا بالترك (على هواه).

٦- طبعاً هذا المثلُ للحيوان اللاهث ينطبق على كثيرين أيضاً، (**ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا**) الذين صاحبوا دعوة النبيّ (ص) وأتى لهم بآيات التوحيد والعزّ وآيات القرآن والعلم ليرفعهم بهم، فكذّبوا بها (وهذا غير صاحب النبأ الذي انسلخ من الآيات قديماً).

٧- أمّا المثلُ السّيء الذي بين الثلاثة، مثَل صاحب الآيات، مثل الكلب، مثل القوم الذين كذّبوا، فهو المثل الثالث، هو أسوأ نموذج موجود وحاضر حينما كانت تُتلى هذه الآيات المكّية في عصر الرسالة (**سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**).

٨- إذا كان يُعذر سادة الملائكة في ترْك المنسلخ عن الآيات يمضي مع هواه بالرّغم من كرامته عليهم وعلوّ شأنه وتميّزه، وفي ترْك الكلب يلهث لأنّه من طبيعته، فإنّ هذا المثَل الأخير (النماذج الأخيرة) التي كذّبت بآيات النبوّة والتي هي أسوأ مثلاً، فالربّ أعذر في ترْكهم يخسرون أنفسهم ورفعتهم لذلك عقّب سبحانه في نهاية السياق عنهم (**وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**)(الإعراف: ١٨٦).

د- مثَل الكلب

وأخيراً، نُلفت انتباه القارئ الكريم أنّ المُخيّلة العاطفيّة قد تُفاقم من إنكار هذا الرأي، فتتوّهم أنّ الآية سمّت الذي انسلخ من الآيات كلباً، فلذا لا تليق بآدم، أو نحن صيّرنا بهذا الرأي آدم كلباً! فهذه مبالغة عاطفيّة، أوّل ما تُزري بآيات الكتاب المبين ونظامه، وثانياً باللسان العربيّ الذي هو لغة تواصلنا، وثالثاً تُرْخص بقيمة الحقيقة أو بطلبها في مزادات انفعاليّة واستباقات جاهزة.

ثمّة تصوّرٌ خاطئ نابعٌ منْ جعْل (مَثَلُ هذا كمَثَل ذاك) مساوياً لـ (هذا مثْلُ ذاك)، وهذا كفيل بتشويه كثير من الآيات كما فعلته بعضُ التفاسير، فالأسلوب الأوّل أمثالٌ يضربها الله وليست تشبيهات فرديّة كالأسلوب الثاني، فكما لا يجده القارئ مناسباً أنْ يبدأ يومه هكذا:

(يُخاطب أباه العجوز الذي أنفق مال شقائه عليه قائلاً (**أسرعْ يا أبي يا حبّة القمح، فقد تأخّرنا**)، ثُمّ يصل إلى مدرسة ابنته فيُسلّم على حارس المدرسة منادياً إيّاه (**يا كلب**) ويلقى هناك صديقاً له استردّ هبته التي وهبها منه مناديا إيّاه (**يا كلب**) أيضاً، ثمّ يتوجّه لينصح ابنه الصغير في السيّارة والذي تعلّم الصلاة توّاً لكنّه لا يزال يُخطئ في كيفيّة السجود المعتدل ويُسمّيه (**يا كلب**)، وفي الطريق يلقى صديقاً له يعدّه منافقاً ويُحيّيه (**يا ريحانة**)، ثَمّ يؤوب إلى بيته لتستقبله زوجته فيُحيّيها أيضاً (**يا ريحانة**)، ويدقّ بعدها جرس الباب فيتفاجأ بعالِم ضالّ من محلّته فيُرحّب به قائلاً

(**حيّاك تفضّل يا سراج ويا مصباح**)، ولمّا خرج ذاك العالِم الضالّ تنهد قائلاً (**خرج الحمار**).

فما حكاية ألغاز هذه القصّة، فهل صاحبُنا يعيش في حقل حيوانات ليفعل كلّ هذا؟ كلا، بل ربّما فسّر لنا ذلك بأنّ:

- قوله لأبيه كان لقوله تعالى (**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ**)(البقرة:٢٦١).

- قوله للحارس تعويلٌ على حكمة سمعها تقول (**مثل الحارس الأمين مثل الكلب الذي يذود الذئاب عن الغنم**).

- قوله لصديقه المسترجع هبتَه لقول يُروى عن النبي (ص) (**العائدُ في هبَتِه كالكلب يعودُ في قيْئه**)[1].

- قوله لابنه الصغير الذي لمْ يُحسِنْ السجود لقوله (ص) (**اعتدلوا في السجود ولا يسجدْ أحدُكم وهو باسطٌ ذراعيه كالكلب**)[2].

- لصديقه المنافق لقول نبي اللّه (ص) (**مثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيّب وطعمها مرّ**)[3].

- لزوجته لقول النبيّ (ص) (**المرأة ريحانة وليست بقهرمانة**)[4] فهنا التمثيل بالريحان لضعفه البدنيّ، وأعلاه لطعمه المرّ ورائحته الحسن.

---

[1] – البخاري، صحيح البخاري، ج٣، ص١٣٤؛ مسلم، صحيح مسلم، ج٥، ص٦٥؛ الترمذي، سنن الترمذي، ج٢، ٧٩٧.

[2] – البيهقي، سنن البيهقي، ج٢، ص١١٣.

[3] – البخاري، صحيح البخاري، ج٦، ص٢٠٧. محمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٨٣٨.

[4] – الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج٣، ص٥٦.

- للعالم الناشر للعلّم مع ضلالته لقول نبي الله (ص): (**مثل الذي يُعلّم الخير ولا يعمل به مثَلُ السراج يضئ للناس ويُحرق نفسه**) وفي أخرى (**مثل المصباح**)[1].

- للعالِم الضالّ لقوله (ص): (**يُلقى العالِمُ في النّار فتندلق أقتابُه، فيدور به كما يدور الحمار في الرحا**)[2]، وأقتابُه: أمعاؤه.

- فهل ما فعله هذا "الذكيّ" يليق بأداء اللسان العربي، أو بلسان التواصل الإنسانيّ؟! طبّعاً لا.

فمتى قالت الآية – أو قُلنا– أنّ "آدم" كلب، أو كالكلب؟! الآية تقول أنّ الإنسان كلّ إنسان سواءً كان آدم أو غيره – وبالذّات نحنُ في كثيرٍ من أحوالنا– قد يستولي عليه غرضٌ أو هوى أو فكرةٌ أو رغبةٌ فيُصبح مهووساً بها يبيع الغالي لأجلها والرخيص، إلى درجةٍ لا ينفع معه لا هجْرٌ ولا زجْر، تماماً كما لا ينفع أيّ أسلوب سواءً كان الزجر أو الهجْرِ لذاك لكائن الحيواني الذي يعرفه الجميع (وهو الكلب) عن جعله يتوقّف عن اللهث بلسانه، ذلك لأنّها طريقة تنفّسه وتبريده، فمَثُلنا في تلك الحالة المستحوذة التي لا يُجدي معها شيء كمثل الكلب حين يلهث لا يجدي لإيقاف لهثه شيء وكمثل الشيب في الرأس إن تركته أو قلعته فسيبقى، وكمثل القارئ الذي لا يقنع إلاّ بما في دماغه إن أوسعته أمثلةً وتوضيحاً لن يقتنع وإن تركت الشرح لن يقتنع، والأمثلة بهذا الشأن كثيرة، فليس آدم كلباً، ولا الذي يغلط في سجوده كلب، ولا حارس المدرسة الأمين كلبٌ، ولا مُسترجع صدقته كلبٌ، ولا نحن كلُّنا إن استولت علينا بعض هواجسنا أو رغباتنا أحياناً .. نُصبح كلاباً!! بل هي تمثيلات للأحوال لا للأشخاص، لمناسبة وُجدتْ من زاوية معيّنة، والمناسبة هنا هي طغيان حالة على صاحبها واستحواذها، وانسلاخُه بالتّالي وتنصّله ممّا أُريد له أنْ يتّصف به أو يتطبّع عليه.

---

[1] – محمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٢٨٤١.

[2] – الشهيد الثاني، منية المريد، ص١٥٢.

فلْيتشبّه الإنسان بالكلب، ولا ضيّر، في مداومة حراسته لصاحبه ولما أُوْكِل، وشراسته على عدوّ صديقه، في وفائه وإخلاصه، في طاعته لسيّده، لكن لا في لهَثه وحرصه[1]، لا في أكله قيئه، لا في طريقة جلوسه وإقعائه، لا في نباحه وعوائه وهريره.

---

[1] - لعلّ تسمية "كلب" جاءت من "كلب" أيّ تعلّق بالشيء وحرص عليه، لذلك نُسب الحرص إلى الكلب، وحرصه هذا هو الذي جعله وفيا لصاحبه، هذه الكلمة "كلب/كلاّب" أي التعلّق هي التي صارت في الغرب (Clip)، وأيضاً قريبٌ منها بإبدال الفاء بالباء (كلف) أي تعلّق بـ.

الفصل الخامس

الجنس الآدميّ تكوّناً وانتشاراً

(كمْ مِنْ ضلالة زُخرفتْ بآيةٍ من كتاب الله، كما يُزخرف الدّرهم النّحاس بالفضّة المموّهة)

(الإمام الصادق (ع))[1]

أوّلاً- من هو آدم؟ وكيف جاءت ذرّيته؟

هذا السؤال سألناه في بحث (الخلق الأوّل) وأرجأنا إجابته بالتفصيل إلى محطّة هذا البحث، وممّا قُلناه هناك الآتي:

ثمّة مَن يقول بأن "آدم" ما هو إلاّ جنسٌ جديد، وليس اسماً لرجلٍ فرد، وحواء أنثاه وزوجُه هي أيضا جنس جديد وليست واحدة؛ ورأي آخر يقول بل هما فردان فقط آدم وحواء ولا أحدَ معهما؛ والحقيقة إنّ عملية التدخّل في صفّ الجينات في هذا الكائن البشري الذي كان سائدا وموجوداً لرفعه عن طريق صفّ صبغيّاته/جيناته/موروثاته في صفّة جديدة متميّزة كما يوثّقه تُراث أمّتنا الواحدة (ويُؤكّده القرآن الكريم) لم يكن مقتصراً على فردٍ واحد فقط، لأنّ هذا سوف يُوقعنا في إشكالية: إذا كان المخلوق رجلاً واحداً وامرأة واحدةً فكيف تكاثرا؟ هل ما أنجباه من أولادهما من الذكور والإناث هما البداية؟ ثم تناكح الأخوة بعضها بعض؟ كما تقول بعض الآثار المدسوسة من أنّ (**حوّاء ولدت أربعين بطْناً وكانت تلد في كلّ بطن ذكرًا وأنثى، وكان آدم (ع) يُزوّجُ ذكَر كلّ بطن بأنثى من بطن آخر**)!! هذا أمرٌ مهول، من بقايا الهمجيّة البدائيّة، سيوقع الإنسانية في إشكالية خطيرة، وانزلاقة عظيمة في أولى

---

[1] - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج١، ص٢٦٩.

عتباتها، والله سبحانه لا يأذن بهذا، ولا سرّ تخليقه آدم إنساناً عاقلاً روحانيّاً متسامياً عن الطوّر الهمجيّ يسمح بهذا أو يليق به! إذْ كيف يحرّم سبحانه مثل هذا النكاح ويبدأ به ولو اضطراراً؟! هذا يوقع مَن أخذ بهذا الرأي في تناقض عسير اعتقاديّ وفلسفيّ وتاريخيّ وتشريعيّ، ثمّ أخلاقيّ.

إذن هل الرأي الأوّل هو الصحيح، أنّ "آدم" و"حوّاء" هما جنس لا فردان؟ أيْ كالبشر الأوائل الذين خرجوا من بذور الطين رجالاً ونساءً! كلا، وإنْ تلفّع بالصواب، إلاّ أنّه ليس بالحقيقة، إذ أنّ آدم وحواء – قبل أنْ يكونا آدم وحوّاء- كفردين بشريّين، استدرجا الدخول عبر "ورْد" الماء (الأرْدن) إلى أن وصلا حوض التطهير (الكوثر)، وهنالك اغتسلا أوّل غسل يطهّرهما من دنس الهمجية والجاهليّة الأولى، ثم ما لبثا أنْ حاطتهما الملائكة الصافّات: (**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً**)(الفجر:٢٢)، وهذه الآية بالتحديد، لها خصوصية معيّنة؛ هي صورة النهاية فعْلاً، إلا إنّها أيضا صورة البداية، صدى هذا الموقف نراه في الأعراف-٢٩: (**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**)، فالبداية كانت مع الآدم والحواء، فرداً فرداً، "**فرادى**"، والعودة بالموت كذلك، وهو ما أخبره سبحانه (**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ**)(الأنعام: ٩٤)، والتشبيه هو بمجيئهم فرادى إلى مقرّ أرباب التدبير/الملائكة حيث جنّة آدم والجبل العظيم، فهذ المجيء يتكرّر مرّتيْن؛ (**أوّل مرّة**) حين دخل ذانك الكائنان البشران كلاً على حدة (فرادى) مركز الملائكة، وكانت صافّةً صفّاً وبينها الربّ المسئول عنها وهو الرّوح العظيم، فسُوِّيا ونُفِخ فيهما من الرّوح وأُطلق عليهما آدم، وحوّاء؛ و(**ثاني مرّة**) المجيء بعد موت الإنسان، حسب نصّ الآية، فليس هو ظرْف المحشر الذي يأتي فيه الجميع، فلا يَترك أحدٌ ما خُوِّل وراءَ ظهره إلاّ بالموت، فتأتي تلك النّفوس البشريّة إلى نفْس المكان، مقرّ الملائكة، نفساً نفساً، كلّما ماتت نفسٌ ذهبتْ هناك لتُعرَض على الربّ والملائكة، فتُحاسب فإنْ استحقّت الرّوح نُفِخ فيها وأُلبِستْها، وإلاّ حُرِمتْ وطُرِحتْ في نار البرزخ أو مكابدته.

هذا خلْق الإنسانيّة الأولى لا البشريّة الأولى، وهو الذي كان قرْب الحوض في الجنّة. وهذا يدلُّك مرّةً ثانية أنّ أسطورة نينماخ وإنكي بشأن خلْق الإنسان تمّت في

الجنّة حيث الملائكة الصّافون وحيث الحوض "الأبسو" كما يُسمّيه السومريّون. فالبداية كانت مع الآدم الفرد والحواء الفرد صُفّا وسُوّيا وعُدّلا ثم نُفخ فيهما من الروح .. وتحوّلا إلى كائنٍ آخر هو "الإنسان" .لكنّ حوّاء ليست هي الأنثى الوحيدة التي تمّ نقلها من الطور الهمجيّ إلى الطور الإنسانيّ، هي الوحيدة مع "آدم" الإنسان، لكنّ القدرة الإلهيّة قدْ صنَعتْ (سوّت وعدّلت) غيرَها بعد إهباط آدم من الجنّة بمعصيته، هذه النساء الإنسيّات خُلّقن خصّيصاً ليتزوّجهما أبناء آدم وهُمْ ذكور، وقدْ دلّ القرآن على هذا وكذلك بعضُ المأثورات الصحيحة)[1]. فكيف دلّنا القرآن والتراث الديني للأمة الواحدة على هذا الأمر؟

ثانياً- بنو آدم واللباس والريش

بعد أنْ استعرضت آيات سورة الأعراف بالتفصيل، قصّة خلق آدم ومعصيته، انتقلت لبدايات الحقبة الإنسانية في الأرض، لبني آدم، فنقرأ:

(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ❖ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ❖ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ❖ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ❖ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّه مَا لا تَعْلَمُونَ❖ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ❖ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّه وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ❖ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ❖** قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

[1] - راجع بحث: الخلق الأوّل – كما بدأكم تعودون، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ❖ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ❖ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ❖ **يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**❖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنْ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ❖ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ)(الأعراف:٢٤ – ٣٨).

عجيبةٌ هذه الآيات، وعجيبٌ سرّ آيات الأعراف كلّها، وتناسقها العجيب ووحدتها، لقد بدأ القرآن يقصّ علينا بإيجاز تاريخ الحالة الإنسانيّة ما بعد جنّة آدم وإهباطه وحوّاء إلى الأرض حتّى يوم الحساب. لوهلة قد يتحيّر قارئ الآيات حين يقصر أن يرى ترابطا، وربّما يتوه في النقلات فلا يكاد يُمسك بخيط الموضوع، فيتوهّم تشعّب الآيات وتشطّرها على مواضيع جمّة متفرّعة، مع أنّ موضوعها واحدٌ لا غير، هو موضوع الإنسان الأوّل وكذا الأخير، عبّرت عنها جملة (**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**)، فالغرض هو عودة آدم (الآدميّ)، عودة الخليفة الإلهيّ، عودة ربّ هذه الأرض، هو غرض التجربة الإنسانية في الأرض، تكوين بنية بشريّة ربّانية مخلصة هي خلايا المخلوق الخليفة "آدم"، أرباب الأرض، هي المعبّر عنها بالآية (**فَرِيقاً هَدَى**) ليعودوا إلى الجنّة وإلى المقام المفقود.

ربّما ظنّ مَن تعرّض لتفسير هذه الآيات أنّ "**بني آدم**" فيها هم كلّ النّاس، لو أراد القرآن أنْ يعني الناس كلّهم لقال (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) فقد قالها عشرين مرّة في مواضع عدّة، في حين أنّه لمْ يخاطبهم (**يَا بَنِي آدَمَ**) إلاّ خمس مرّات، أربع مرّات هنا بالتوالي في (الأعراف)، وواحدة في (يس) يوم الحساب، في محضر أبينا آدم، الذي هو بذرة، وأصل، وأبُ جميع الناس المحاسبين. لا خلاف أنّ الآيات تصلح لإرشاد كلّ آدميّ،

ولكنّنا نريد أنْ نعرف الحقيقة، لا أنْ نستفيد الموعظة فقط، الحقيقة العلميّة نُريدها. فمن هم بنو آدم المخاطبون هنا مباشرة؟

إنّهم الجيل الأوّل للإنسانية، أبناء آدم المباشرون أوّلاً ثمّ أبناء أبنائهم وأحفادهم، البذرة الأولى للأمم، ودليلنا هو رابع آية التي ختمتْ تسلسل النداءات، تقول: (**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**)، فالجيل المخاطب بهذه الآية هو قطْعاً جيلٌ ما قبل مرحلة الرّسل، بُشّر لأوّل مرّة باحتمال استئناف هدى السماء عبر ابتعاث رسلٍ بشريّين، وهذه الآية توازي في مضمونها البشارة (الكلمات) التي تلقّاها آدم بعد الإهباط، وهي لبنيه ومَنْ بعْدَهم في الحقيقة (**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً**)(البقرة: ٣٨) وأيضاً (طه:١٢٣) بنفس النصّ[1]، وهذا يفيد في التأكيد أنّ آدم – الإنسان الأوّل هو غير آدم الرسول، فالأنبياء معصومون عن مثل خطيئة آدم الإنسان، وزمانُ الرسل البشريّين لمْ يأت بعد ولن يأتي إلاّ بعد مدّة، ويستطيع المرء أنْ يلمح دليلاً آخر، إذ يجد –بعد تلك النداءات– في حديث حساب الأمم، عبارةَ: (**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ**)، فـ"**أخرى**" الأمم هي الأمّة الأخيرة التي بدأت بالنبيّ الخاتم (ص) وهي المخاطَبة بالآيات المتخلّلة بين آيات النداء (والتي كتبناها بالخطّ الخفيف)، و"**أولاهم**" هي أمّة أبناء آدم وما انحدر منها، المُخاطَبة بالأربع نداءات (**يا بني آدم**) (والتي أثبتناها بالخطّ الثقيل). إذن، فمع أنّ المعنيّ بالنداء هم جيل الإنسانيّة الأوّل، غيرَ أنّ قصّة الإنسان – في أيّ زمانٍ كان– واحدة، والوصايا إليه في أصولها واحدة، والنتيجة واحدة، والأغراض واحدة، لذا قام القرآن باختصار التاريخ كلّه رجوعاً إلى الإنسان الأوّل حيث أولى الوصايا الربّانية، بخلط نقطة الصفر (البداية)، بنقطة الوحي (الخاتمة)(والخاتمة تبدأ من زمن نزول القرآن في عصر الرسالة إلى عصرنا الراهن).

---

[1] – وإنْ كانت آية (فإمّا يأتينّكم منّي هدى) أعمّ من (إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم)، لأنّ الثانية تعني رسلاً بشريّين، والأولى تشمل الرسل البشريّين والرسل الملائكيّين، فمرحلة الآية الأولى أسبق من مرحلة الآية الثانية، فقيل للأجيال الأولى: متى ما تأهّل الجيل الإنساني لحمل الرسالة (تأهّل للعصمة) قدْ تُبتعث منه رسلٌ.

إنّ مناداة (**بني آدم**) جاء بعد آية قرار إهباط أبويْهما من الجنّة (**اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ**)، وبدلالة مخاطبته لهم: (**كما أخرج أبويكم من الجنّة**)، فكلّ الآيات التي سُقناها والتي تبدأ بـ (**يا بني آدم**) كانت لأولاد آدم ثمّ أحفاده ومن يليهم حالَ بدء التاريخ الإنساني، وكلّ الآيات التي تخلّلت بينها هي آيات إبّان عصر الرسالة (وعصرنا)، بدليل وجود (**قلْ**) الآمرة للنبيّ (ص) (ولكلّ حاملٍ لرسالته)، أنْ يردّ دعوات فريق الضلالة، قائلاً: أنّ الهدى ليس بدعاً بل هو البداية والأصل، كلّ ما يأمر به اللّه جاهليّةَ أمّة محمّد (ص) أو جاهليّة عصرنا، فقد أُمر به أبناء آدم منذ خرج من الجنّة، لقد بدأت التعاليم الربّانية هذه التي جاء بها محمّد منذ بدء الإنسانيّة مع أبناء آدم وأحفاده، فجاءت الآيات بعرضٍ بديع ترسم النصّ الحرفيّ لما جاء لأبناء آدم من جهة منذ القدم (**التراث**)، وما يُقابله ممّا توسّع به القرآن من نصّ (**المعاصرة**)، توسّع القرآن بالتعاليم تطبيقاً للعبارة الأخيرة التي عُهدتْ لبني آدم وفتحت طريق الزيادة في التشريع والتفصيل (**يا بني آدم إمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**)، فهذا – أي هذه الآيات وهذا الإخبار- هو التطبيق المباشر لقصّ رسولٍ منّا (ص) آياتِ اللّه علينا.

فالنصّ التاريخيّ الأوّل التراثي القديم (الآيات ٢٦ + ٢٧ + ٣١ + ٣٥)[1]، وهي التي تبدأ بنداء "**يا بني آدم**" نختار منه مثلاً آيته الثالثة:

(**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**). فقابله القرآن بما تخلّله من آيات شارحة قبْل النصّ ذاك وبعْدَه،

[1] – الآيات التاريخيّة التي خُوطب بها جيل الإنسانيّة الأولى هي فقط:

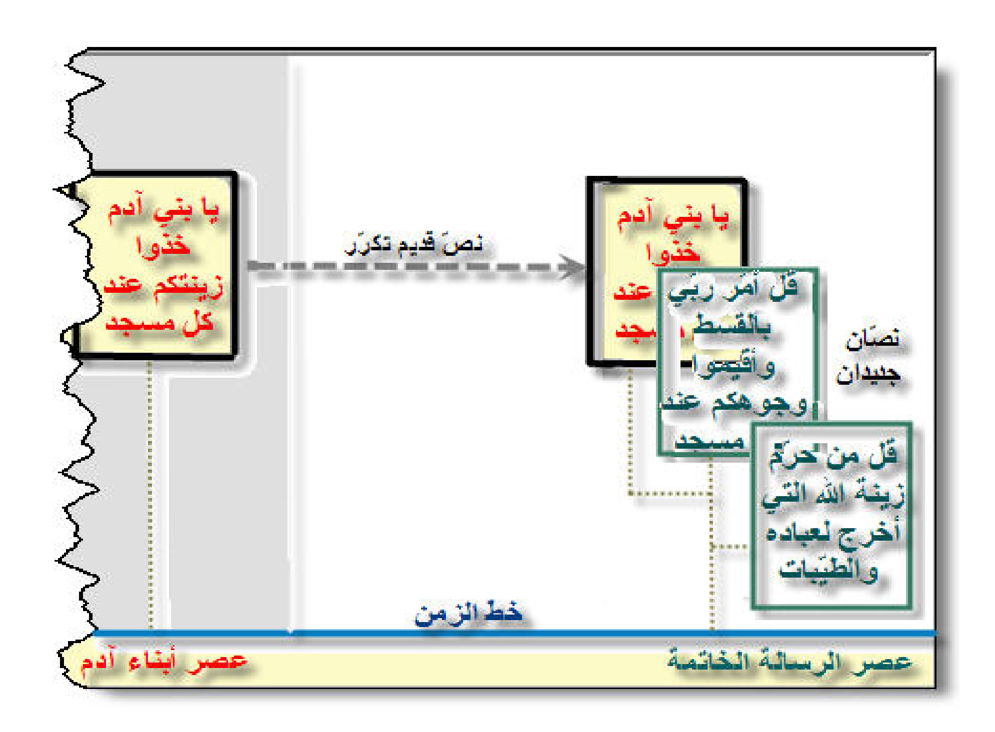
– يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

– يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

– يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)

– يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)

بنصوصٍ معاصرة مُكافئة، بقوله: (**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**) وهو الاعتدال في كلّ شيء وإعطاء كلّ أمرٍ حقّه، من أكل وشرب وغيره. وبقوله (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**) و قوله (**قُلْ - وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**) فهذه النصوص الثلاثة تتّكئ بالتمام على النصّ الآدميّ الأوّل في كون هذا الأمر هو شرْعَ البداية، فحريٌّ به أن يبقى ويُفصَّل فيه إلى النهاية.



النصّ التاريخيّ الذي نزل لذراري آدم (جيل الإنسانيّة الأوّل)	ما قابله من نصيّن تفصيليّين معاصرين (نزلا في الملّة الخاتمة)
يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)	١- **قُلْ** أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩) ٢- **قُلْ** مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢)

وبمقارنة النصّين واختبار لغتهما ومضامينهما وأشخاصهما، نستطيع رسم معالَم للحقب التاريخية وتطوّرها، وكيف نجد الدعوة للتزيّن بمطلق ما يزين، ولا تمنع العبادة ولا الالتزام للتزيّن بل ينبغي التزيّن بكلّ ما يزين خارج العبادة من عقل وخلُق وأدب ولباس ومظهر وشكل وسلاح، وإباحة الأكل والشراب المعتدل، ونرى في العصر الأخير تعقّد المجتمع وانتشار تحريمات عشوائيّة للزينة وللطيّبات على حساب الأصول من إخلاص وأخلاق، أصول نادى بها في (**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**).

فإذا كان الجاهلون يُقابلون اللّه بشينهم ويحجّون عراةً مثلاً أو بالعقائد الفاسدة التي تشينهم كعقلاء، فاللّه قد أمر منذ البداية الإنسان المصنوع الأوّل، بأنْ يأخذ زينته (ما يزينه) عند كلّ مسجد، كلّما توجّه للّه، بعقلٍ يزينه، بلباسٍ يزينه، برائحة تزينه، بأخلاقٍ تزينه، بوقارٍ يزينه، فما الذي بدا حتّى حُرِّفَ هُدى اللّه فصار الإنسان أمام ربّه والبهيمة سواء؟! أو صار قاسياً متشنّجاً يُحرّم كلّ ما أحلّه اللّه للإنسانية منذ بدئها؟!

فعلى هذا، نصلُ إلى تشنيع القرآن عليهم فعلهم الفاحشة (الزنا)، ويقولون أنّهم وجدوا آباءهم عليها، وأنّ اللّه أمرَ بها، والعجيب أنّ الوحي يأمرُ محمّداً (ص) بأنْ يقول أنّ اللّه لا يأمر بالفحشاء، بل حرّم الفحشاء، ويترك القرآن أمر الدفاع عن الآباء

أنّهم فعلوا فاحشة! فأين نجد هذا في الإسقاط التاريخيّ في النصّ الآدميّ الأوّل؟ وأين هي الفاحشة وتحريمها؟ وأين ما ظهر منها وأين ما بطن؟ وأين خطأ الآباء غير المُتطرّق له قرآناً؟

ليس لدينا إلاّ النداءان الأوّل والثاني وهما (**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ❖ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ..**) فهي تشرح خطأ الآباء المُغْفَل، وتأمرهم بعدم طاعة الشيطان في هذه المسألة بفقدان التقوى كما فقدها الأبوان "آدم وحوّاء" لوهلة فاتّخذ التاريخ الإنساني مجرىً غيرَ مجراه الذي أحبّه الربّ وأعدّه لهما. فآدم خدعه الشيطان إلى الفاحشة الباطنة والظاهرة، وحوّاء إلى الفاحشة الباطنة، بعد أنْ استدرجهما لينزع عنهما لباس الوعي واليقظة والسموّ والعلم، لباس الرّوح، فسقطت زينتُهما وظهر شينُهما (**بدت سوآتُهما**)، فحين ينزع المرء لباس الحياء والعلم والعقل والتقوى، سيخرج من جنّة الطاعة وحصن الإله، وسيرتكب ما يسوء لا محالة.

اللباس المواري للسوءات .. والآن، ما هو اللبّاس الذي أنزله الله على أبناء آدم، وما هو الريش؟

قبْل أنْ نُجيب، علينا أنْ نعلم أنّ اللّباس والريش، كليهما لا ينفعان إلاّ بُرْهةً في مواراة سوءات مَن فقد تقواه، وقد قُلنا أنّ السوأة هي الحاجة التي تضطرّ المرء إلى فعل ما يُسيء إليه لتلبيتها إنْ طغتْ على عقله، هي الحاجات التي تُذلّه وتزري به وتُحقّره حال تلبيتها بطريق الخطأ. التقوى وحدها تنفع ولو دون لباس مادّي.

وربْطاً لمصير الأبناء بالآباء، فآدم كان لديه كلّ ما "يتريّش" به في الجنّة من أكْل رغد ونعيم (كائناً ما كان الأكل)، وكان لديه لباس (كائناً ما كان معنى اللباس، وقد قدّمنا معناه أنّه أثرٌ رّوحيّ كدرعٍ بيضاويٍ نوارنيّ يُحيط به)، حين كان آدم غير ملتفتٍ إلى غرائزه، لأنّ حياته روحانية محضة متردّياً بلباس اليقظة "روح القُدس" (الذي سيُسمّى بقيّته بعدئذ ومستواه الأدنى "لباس التقوى" أو روح الإيمان)، فهو مُهيّأٌ له الهيمنة على الحاجات البدنية والنفسيّة (**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى❖ وَأَنَّكَ لا**

تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى)(طه: ١١٨، ١١٩)، فهذا له لأنّه ضمن سلطانه، فأكْلُه الرغد معارف وحقائق واستكشاف وعلم ونور، ولمْ يبدأ مرحلة الخصف، بالاحتياج للمادّة، واتّخذ له ستراً مادّياً إلاّ بعد المعصية خارج الجنّة، فحين خلع لباس التقوى الرّوحي بدتْ له حاجاته وسوءاتُه كلّها.

فإذا كان آدم وحوّاء الجنس العاقل المُلهم المُفكّر، فعّلا العقل العمليّ (الخصف) فبالضرورة أنْ ينسجا لهما لباساً مادّياً بعد المعصية وبعد الالتفات إلى الحاجات وبعد رؤية ما عليه شجرة البشر الآخرين منْ عُري فاضحٍ مُخجلٍ لهما فانبثق فيهما إدّاك الضمير الأخلاقي ومفهوم الحياء والستر، فأَوْلى أنْ يكون أبناؤهما غيرَ عراةٍ كالبهائم.

نستطيع القول أنّ اللّه قد امتنّ على بني آدم بتعليمهم كيف يوارون سوءاتهم (أيْ حاجاتهم التي تذلّهم أو تمتهن كرامتهم أيّاً كانت ويُلبّونها بالطريقة المحترمة) ليبقى ابنُ آدم مكرّماً كما قال تعالى (**ولقد كرّمنا بني آدم**) وليس أحدها تعليمه تعاليم الآداب، كاتّخاذ بيت الخلاء (المرحاض)، ولبس الثياب الساترة، والمسكن الذي يُظلّهم، ودلّهم على موارد هذه المصنوعات (الثياب والبيوت) من أجزاء الحيوانات والنباتات لإصلاح حالهم، (وهذا ما تُومئ له كلمة "ريشاً" لمن قرأها منفصلة، والرّيش هو ما يتريّش به ويُتقوّى لتحسين الحال)، هذا التعليم بيّنه سبحانه بالتفصيل في سورة النّحل (**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ* وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ**)(النحل: ٨٠، ٨١).

فكلّ شيء يستر حاجةً تسوء وتُذلّ وتفضح، هو "**لباس**" ابتداءً بأعلاها وهو النّسك الرّوحي. لكن مع فقْد اللباس المادّي وعدم توفّره، ماذا يفعل المرء؟ هل يفقد تقواه أيضاً؟ مَن "يجوع" ولا منْ أكْلٍ هل يأكل لحم أخيه؟ منْ "يعرى" بلا مسكن هل يغتصب أرض مسكين أو يتيم؟ منْ اشتعلت غريزتُه ولا يجد زوجاً له هل يزني ببهيمة أو بامرأة غيره أو بما حُرِّم عليه؟ هل يزني شاهراً ظاهراً أو بالعين وتوْقِ النفس باطناً؟

أم ماذا؟ لذلك تُوصيهم الآية أنّ لباس التقوى خير، وهذا اللباس لمْ يتمّ إنزاله (أو تعليمه) الآن لأنّه معلومٌ لدى الأبويْن من التعليمة الأولى (لاحظ أنّ كلمة "**لباسُ التقوى**" جاءت مرفوعة، لأنّها غير معطوفة على اللباس الذي أُنزل، بل على كلّ إنسان أنْ ينسجه ممّا جاءه من التعاليم الربّانية مستفيداً منْ علمه وإيمانه وسُموّ همّته ومحبّته لخالقه الذي رفعه من حضيض البهيميّة فصار مذكوراً)، ولنْ يتهيّأ أبداً استرجاع لباس الروح، لباس العالَم الآخر الحقيقيّ، إلاّ بالمحافظة على مقدّماته وأدنى مراتبه هو "لباس التقوى" لذلك قال تعالى (**وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**)(الزخرف:٣٥).

أمّا "**ريشاً**" فكلّ مَنْ يقرأ الآية يجد نفسه يتوجّه لا شعورياً منساقاً بالتقليد أنّها تُحدّد ثلاثة أشياء:

١- "**لباساً يُواري سوءاتكم**" ٢- "**ريشاً**" ٣- "**لباسُ التقوى**"، لمْ يتوقّف أحد ليسأل: هل هذا صحيح؟ أهي ثلاثة أشياء حقّاً؟

لو سألنا هل "الريش" ممّا يُواري السوءات؟ الإحكام القرآني يقول: لا، وإلاّ لجاءت الآية هكذا: (أنزلنا عليكم لباساً وريشاً يُواري/يُواريان سوءاتكم).

نعودُ إلى السؤال السابق: إذا كان "الريش" ثاني الأشياء المفصّلة لبني آدم في الآية، فلماذا لمْ تأْتِ الآيةُ هكذا: (أنزلنا عليكم ريشاً، ولباساً يُواري سوءاتكم، ولباسُ التقوى ذلك خير)؟ فهذا التسلسلُ أسلم ليتمّ الاستدراك بلباس التقوى على لباس المواراة بلا فاصل بالرّيش. فإذا كان كلّ ذهن يعلم أنّ "**لباس التقوى**" هو فعلاً تعقيباً على "لباس المواراة"، حتّى أنّ أيّ قارئ يُلغي تلقائياً من ذهنه مشاغبة "الريش" التي في الوسط، ويُدرك أنّ لباس التقوى يَستدرك على لباس المواراة، فهذا دليل أنّ الآية لا تتكلّم إلاّ عن شيء واحد هو اللّباس فقط، ثمّة لباسٌ مادّي (بأنواع كثيرة) يُواري السوءات ويسدّ الحاجات، وثمّة لباسٌ آخر معنوي (التقوى) يفعل الفعل نفسه، وكما أخبر نبيّ الأمّة أنّ على قويّ الشهوة أنْ يتزوّج أو يصوم، أيْ يستعمل إمّا اللّباس المادّي أو المعنويّ، وإلاّ فإنّه إنْ عدَمَ الزوج أو فقدَ التقوى قد ينساق للزنا بالعين أو بالفرج.

فالآية بتركيبها تُشبه الآيات:

(**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً**)(البقرة:١٢٥) فالبيت جُعل لغايتين:

١- مثابةً، ٢- أمناً.

(**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً**)(النحل:٦٤)، فالكتاب أُنزل بوظيفتين:

١- للتبيين، ٢- هدى.

(**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**)(النور:٣٤)، آياتٌ أُنزلت:

١- مبيّنات (الأحكام)

٢- قصصاً من الأوّلين تُحاكي وتُماثل واقعهم

٣- موعظة للمتّقين.

فعليه:

(**قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً**) هناك نوع مادّي من الألبسة المنزلة، له وظيفتان:

١- موارياً السوءات، ٢- ريشاً.

أيّ لباساً موارياً، ولباساً ريشاً. فـ "**ريشاً**" ليست معطوفة على "**لباساً**"، بل صفة ثانية عطفاً على الصفة الأولى للجملة الفعليّة التي معناها "موارياً". فهو لباس **يدفع** السوء عن صاحبه من جهة (يُواري سوءات)، و**يقوّيه** ويُسدّده للخير من جهة أخرى (ريش).

إذن، المُنزَل شيءٌ واحد هو "لباس" صفته الأولى أنّه "يواري السوءات"، وصفتُه الثانية أنّه "ريش" يُتريّش به، ومعنى الريش في العربية، هو ما يُصلح به الحال ويُتقوّى به، والسهم حين يُكسى بالريش إنّما لينطلق إلى هدفه فلا ينحرف، فهذا اللباس، أو هذا النوع من اللباس المُنزَل يُواري السوءات من جهة، ويُقوّي أبناء آدم ويُصلح حالَهم ويُعينهم في الانطلاق لمهامّهم وأهدافهم، فما هو؟

كلّ ما كان هذا شأنه فقد أُنزل إليهم إنزالاً ماديّاً أو كتعليم، مثل: تعليمهم لبْس الثياب المحترمة الواقية، وإنشاء المساكن، ووضع النظام (السلوكي والأخلاقي) الملائم الذي يستظلّ به الفرد الآدمي ويأمن، وغير ذاك من لباس صناعيّ أو اجتماعيّ. لكنْ ماذا عن اللباس المادّي الذي أُنزل فما هو؟

ما دام اللّه يُخبرنا أنّه أنزل على بني آدم "لباسا يواري سوءاتهم"، ولفظة "**لباساً**" نكرة تفيد الجنس، و"**سوءاتكم**" كثيرة لا واحدة، وإنّ أسوأ حاجة وأشدّها هي حاجة الجنس، وهي فخّ إبليس الذي اصطاد به أباهم آدم مع أنّ له زوجاً هي حوّاء، والقصّة واحدة وأصداء المعصية الأولى تتردّد، أمعقولٌ أنّ اللّه سبحانه يمتحن الأبناء -وهما في الأرض في شباك الشيطان وبلا أزواج- بأشدّ منْ أبيهما صفوته من البشر، وُضع في الجنّة، ونُفخ فيه الروح في أتمّ وعيه، وقُرنَ مع أكمل زوجة وأطهرها، وحظي بتحذيرٍ متواصلٍ من الملائكة، وأُكرم بالتعاليم، ومع ذلك غفل آدم ففعل ما فعل فتتكشف له حاجاته المذلّة (أيْ سوءاته) وتُغويه امرأةٌ من البشر غير العاقل، ثمّ يأتي القُرآن ليُخبرنا أنّه أنزل لباساً يُواري سوءات الأبناء، فماذا عن سوءة الحاجة إلى زوج، أيُعاشرون إناث ذاك البشر الهمجيّ (الشجرة) وقد حُرّمت عليهما؟ كيف سيتّقون الفاحشة التي انزلق فيها الآباء لئلاّ يحتجّوا "وجدْنا عليها آباءنا"؟ والتي دارت قصّة المعصية الأولى حولها؟ بل كيف ستأتي ذُرّية آدم، وهو ليس لديه في أوّل دُفعةٍ سوى أبناء ذكور، حسبما يلوح؟ وكيف يمتنّ سبحانه بأنّه وارى سوْءات الأبناء بأحد الألبسة التي أنزلها، مع أنّ الرغبة تحرقهم؟

الجواب: لابدّ من أنّ اللّه قد خلّق من بعض أولئك البشر، نساءً كحوّاء، مُخلّقاتٍ إنسيّات، لسْن من بنات آدم، بل جرى عليهنّ ما جرى على آدم وحوّاء من تعديل جينيٍ ونفخ روحٍ، وهنّ أحد -بل أهمّ- لباس أُنزل ليُواري سوءات الأبناء، كما أخبر سبحانه عن مثل هذا اللباس (**. نِسَائِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**)(البقرة:١٨٧) هنّ كُنّ: "**لباساً**" "مواريا" لحاجة الأبناء من جهة و"مُقويّاً" للأبناء على الطاعة ("**ريشاً**") من جهة أُخرى. لذلك نرى انسياب التعقيب بـ "**لباس التقوى**" على "**ريشاً**" الآن، لأنّ وظيفة هؤلاء النساء كلباس للأبناء، في مواراة السوءات أمرٌ، بينما وظيفتهنّ في تقوية الأبناء ومعونتهم في الاندفاع لمهامهم وفي تسديدهم ومشاركتهم في قضايا المعرفة والإيمان والعمران هو ما يستجلب نسج لباس التقوى الربّاني فرديّاً وأسريّاً.

ونقول أنّ "**لباساً**" من أهمّ مصاديقه هو تلك النساء الإنسيّات المُخلّقات خصيصاً لهم لتكوين الذرّية الإنسانية، لما قدّمنا من ترابط الآيات، وبدليل أنّ اللّه بعد أن نادى الأبناء بأنّه قد أنزل عليهم هذا اللباس، أوصاهم مباشرة بدون عطف: (**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا**)، فلقد كان أبواكما يملك كلّ منهما الآخر، يحظى بزوجه، ولكن لم يُغن ذلك الأب عن الخروج من "لباسه" الزوجيّ إلى غيره ممّا حُرّم عليه من أزواج ما دام قدْ نزع لباسه الآخر الأسمى والأعصم "الرّوحي" (الذي يُمثّله الآن "**لباس التقوى**" لدى الأبناء)، وبدليل التعقيب ثانية بالقول مباشرة: (**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا**)، فالموضوع مترابط، فضلاً أنّه إذا ما جئنا لأوّل مخلوق وقلنا له، سيأتيك من ذرّيتك رسلٌ، فهذا إشارة أنّه سيُنتج ذرّيةً حتماً، وبدوره يستلزم أن نكون أعطيناه زوجةً تكون أمّ هذه الذرّية الموعودة، هذا بالضبط ما قاله اللّه لبني آدم في رابع نداء: (**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**).

هذا اللباس قد فُرض على بني آدم بدلالة (**قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً**) وليس (إليكم)، وليس لهم مناص إذّاك من الاقتران بتلك النساء المُخلّقات لأنّهن خُلقن لهم خاصّة، فانصرافهم عنهنّ إلى غيرهنّ حرامٌ وظلمٌ من جهتين، الانصراف عنهنّ حرام لأنّهنّ فرْضٌ نازلٌ عليهم، والانصراف إلى غيرهنّ حرام لأنّ الباقي غيرهن إذّاك هنّ منْ الشجرة المحرّمة (الهمجيّات)، الانصراف هو نوعٌ من "نزع اللّباس" الذي وقع فيه الأبوان حين كان آدم لباس حوّاء وحوّاء لباسه، ففسخا (بعد نزع لباسهما الرّوحي) هذا اللباس الزوجيّ، واشتهى كلّ منهما غير زوجه (ينزع عنهما لباسهما ليُريهما سوءاتهما)، لذلك قالا (**ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**) فكلّ منهما ظلَم نفسه وظلم نصفَه الآخر.[1]

---

[1] – ينبغي التمييز بين قول آدم وحوّاء (ظلمنا أنفسنا) وقوله تعالى (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)، فليس إقرارهما بظلم أنفسهما إقراراً بأنّهما قد قربا الشجرة، وإنْ كانا كلاهما ذاقا وأكلا منها، ذلك لأنّ (ظلمنا أنفسنا) أخفّ جرْماً من (الظالمين)، فالذي ذاق الشجرة المحرّمة (الشهوة إلى تلك السلالة) والذي أكل (فأخرجته حاجته عن اتّزانه) كلاهما سيعودان على نفس مرتكبهما بالضرر وإنْ زاد فعلى الزّوج العشير، فيُناسبه تعبير (ظلمنا أنفسنا)، أمّا الذي (يقرب

عموماً، بهذا اللباس الزوجيّ بدأت الذرّية الإنسانيّة قويّةً كما أرادها سبحانه، لذلك نرى انتساب هذه الذرّية إلى بني آدم بالخصوص لا إلى آدم في قوله في سورة الأعراف أيضاً (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**)(الأعراف:١٧٢) كما بيّناه سابقاً، وبهذا اللباس تكتمل دائرة "**لباساً**" الذي يُواري "سوءات" الأبناء، لكنّه ليس كافياً لعدم الوقوع في براثن الشيطان والإغراء بفعل الفاحشة مع أولئك الإناث البشريّات المتوافرات، كما فعل الأب مرّةً قبْلاً ثمّ تاب أبداً، وكما ستفعل الأجيالُ اللاحقة وكثيرُها لنْ يتوب، وكما فعل أحدُ أبناء آدم غير المباشرين (الذي قتل أخاه للسبب ذاته، "قابيل" حسب المروي) الذي خلع لباس التقوى وأخبر عنه سبحانه (في سورة المائدة ٢٧) أنّه لمْ يكن من المتّقين بخلاف أخيه المتنازع معه الذي التزم التقوى والتزم زوجه فتقبّل اللّه منه. ولتواجد الجنس الهمجيّ وإناثه العاريات، فالتقوى في عرْف تلك الحقبة أبرز مظاهرها هذا المفهوم، و"**لباس التقوى**" هو اتّقاء غضب اللّه في معاشرة الشجرة/السلالة البشريّة المتخلّفة (غير المُخلّقة/غير المؤنسنة)، مثلما أنّنا لو كنّا في بلدٍ إباحيّ تعرى فتياتُه وأكثر في الشوارع والطرقات، وخوطبنا (اتّقوا اللّه) فالمعنى الأوّل إن لم يكن المنطقيّ والوحيد، هو الاحتراس من الرغبة إليهنّ أو الانفلات في الحضيض معهنّ.

وهذا يُبيّن لنا مرّةً أخرى أنّ التوحيد والوصايا الإلهيّة وأخلاق السموّ والعفّة والاعتدال، قد بدأت منذ آدم لا أنّها تطوّرت، ولا أنّ الإنسانيّة قد اخترعت دينها -كما يقول بعضُ المفكّرين والمحلّلين التاريخيّين المعاصرين- من ظواهر الطبيعة كشعورٍ فطري[1]. فالدين بدأ مع الإنسان، وكان رجلُ الدين هو الإنسان نفسه، حين كان

الشجرة) الهمجيّة بالمعاشرة فقد ظلَم (أيْ جنى على) الذرّية أيضاً وكلّ الذراري التي تأتي من هذه السلالة، فسينضاف إلى قائمة "الظالمين" الذين تزاوجوا مع الهمج، أو تناكحوا خارج حدود شريعة الربّ، "الظالمين" الذين علم الربّ أنّهم سيكونون، بل علم إبليس أيضاً أنّهم سيكونون، فلذلك لمْ يقل "فتكونا ظالميْن" بل قال "فَتكونا منَ الظالمين"، والقرآنُ لا يُطلق وصف (الظالمين) خالية إلاّ لمن تعدّى على الغير، لا على مَن ظلم نفسَه فقط.

[1] - هذا الرأي له وجهٌ لكنْ لا على الجنس الإنساني الصرف (بني آدم وحوّاء)، بل على الجنس الإنساني الهمجيّ، وهو الذي تولّد من آدم والهمجيّة، وملأ الأرض وتطوّر، واختلط الجنسان، ولم يعُد الأمرُ يفرق الآن بينهما، فالكلّ (بنو آدم)، الكلّ أناسٌ مكلّفون وعقلاء ومُخاطبون من اللّه بالاستقامة.

الدينُ فرضاً إنسانياً والتزاماً فطرياً لقرب خروج الإنسان من مصنع الربّ، وتماسّه بعالم الملائكة الأطهار وأرباب التدبير، لذا نجد هذه الرائحة الروحيّة مع القوى العلويّة وروح التديّن رائجةً في أساطير الأوّلين، أمّا الآن فليس إلاّ المادّيةُ الخانقة التي تسحق عظام الروح من جهة، واحتكارٌ لقشور الدين لرجالٍ دون الناس جميعاً من جهة أخرى.

وإنّنا بقراءتنا لاحتجاجه سبحانه عليهم على تشوّه الدّين بعد أن جاء نقيّاً لأبناء آدم، ويتشوّه فيُنقّيه الربّ برسولٍ جديد، فيتشوّه، فيُنقّيه الربّ برسولٍ آخر، فيتشوّه ويُرتكب به الفواحش به وتضييقات الظُلم، حتّى يُقال: (**اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**) فيُحتجّ عليهم (**قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**) (**أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**) (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ**)، لنتساءل: منْ الذي حرّف حقائق القرآن المعطاء، وحقائق توراة موسى؟ إنّ أصابع الاتّهام تُشير إلى الذين "**أوتوا الكتاب**" و"**أورثوا الكتاب**"، فصادروا حقائقه بأفهامهم وهو تحريف الكلام عن مواضعه الصحيحة، ونصبوا من أنفسهم آلهةً مقدّسةً جديدة، وتفسيرُهم وآراؤهم وقواعدهم باتتْ تُقدّس من دون كلام الله، وكلامُ الله إمّا غاب نصُّه الحقيقي كالتوراة، أو تعطّل نصّه ممنوعاً من اللّمس والتبصُّر والتدبّر والاكتشاف كالقرآن الشريف، فما خيرٌ من الدّين ليُحيي الإنسان ويُطلق عقله في استقامة، وما شرٌ من الدين ليقتل الإنسان ويخنق مواهبه ويُضلّه عن السبيل، الدّين سلاحٌ ذو حدّين، يأتي بالنور إنْ استقام وبالظلمة إنْ تشوّه، يستعمله الله لهداية الإنسان، والشيطان كذلك لإغواء الإنسان، ولهذا حكى القرآن (**لكم دينُكم، ولي دينِ**)، فما توعّد اللهُ أحداً توعّده أصحاب الدين من تحريفه وطمس معالمه، وألاّ يستأثروا به وبحقائقه، أو يطمروها، أو يستأكلوا به، يستأكلوا به أسماءَ الناس، وعقولهم، ومدائحهم، والوجاهة والسمعة والزعامة والطاعة والتقديس بالباطل، ومع الأسف هذا حال كثيرٍ من أدعياء الدين يومَنا!

لقد ركّز سبحانه "**التقوى**" منذ البداية، وأنّ أبا الإنسانيّة جمعاء آدم، الإنسان العاقل، المتردّي بلباس التقوى كان مرشّح خليفة الربّ، والتقوى لم تكنْ يوماً، ولنْ تكون، حركاتٍ متماوتة، وشفاهاً ذابلة، وسبحةً وخاتماً وجُبّةً ولحيةً وانثناء صدرٍ ظاهراً ينطوي باطناً على عُجْبٍ وغرور وإحساس بالتقدُّس والعلوِّ على الآخرين، التقوى تحدث للأبيض والأسود، مُتاحةٌ للعربيّ والأعجمي، للأمريكي والأفغانيّ،

للمتصدّين باسم الدّين ولعامّة عباد اللّه، هي لبني آدم جميعاً، مشاعٌ للعالمين، كما قال نبيّ الأمّة (ص) (**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**).

فلقد نبّه سبحانه منذ البداية، أبا الإنسانيّة جمعاء آدم، فيما حكاه نبيُّ الدين الخاتم (ص): (**علَّم اللّهُ تعالى آدمَ ألْفَ حرْفةٍ مِن الحرف وقال له: قُلْ لولدك وذرّيتك: إنْ لمْ تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحِرَف ولا تطلبوها بالدّين، فإنّ الدّين لي وحدي خالصا، ويلٌ لمن طلبَ الدنيا بالدّين، ويْلٌ له**)[1]، ما أفزعَه من تهديد لو درى حقيقته المنتحلون!

هذا المرويّ يُبيّن لنا مرّةً أخرى حقيقة النداء الإلهيّ الأوّل لأبناء آدم وذرّيته، كما يُبيّن أنّ الإنسان منذ وُجد وُجد عالماً ومفكّراً وله لغة، لكنّه لم يكن يملك الوسائل، وإنّ بعض علماء الغرب يُشكّكون في زعم تطوّر الإنسان وبرهانهم أنّ الشعب العربيّ الذي بنى الأهرام كان متفوّقاً علينا إنسانياً وحضارياً وعلمياً بالنظر إلى وسائله العمليّة والتقنيّة المتاحة آنذاك.

ثالثاً- أبناء آدم في التراث والمرويّ

لقد كانت هذه إشكالية في التراث الدينيّ، وبالحقّ هي إشكاليّة لمن لمْ يرجع إلى نصّ سماوي، وعوّل على اجتهاده القاصر في فهم التاريخ الإنساني وفق المُخطّط الإلهي، فالبعض اقترب من الحقيقة وآخرون شذّوا عنها، وآخرون شطحوا بعيداً.

فيُحكى عن الصابئة المندائيّين وهم قومٌ موحّدون يرجعون في كثيرٍ من تعاليمهم إلى صحف آدم الرسول وشيث وإدريس (ع): (**أمّا أسطورة زواج بنات آدم (ع) من إخوانهن، فإنّ الدين الصابئ المندائي قد خالف الأديان الأخرى في هذا التأويل، ففي محاضرة للباحث غضبان الرومي ـ أكّد: بأنّهنّ لم يتزوجن إخوتهن، بحسب العقيدة المندائية، إنما أمَر الله بنقل بنات آدم إلى عالم آخر يُسمّى (عالم العهد) فيتزوجن هناك، وجيء بفتيات من العالم المذكور تزوجن أبناء آدم، وبهذا**

---

[1] - المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١٠، ص٢٠٦؛ محمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج٣، ص٢٠٧٧.

(الانتقال) تخلّص الدّين الصابئ من أسطورة الزواج من الأخوات، لأنّ الدين الصابئ يعتبره محرّمًا)[1]

أمّا لو طالعنا كتب الروايات لدى طوائف المسلمين وقصصهم ماذا نجد؟ بدايةً، مع شكّنا – وشكّ كثيرٍ من علماء الرواية والدراية من المسلمين- في صحّة كثير من الروايات المنسوبة إلى النبيّ (ص) أو الصحابة أو أهل بيته (ع) لا سيّما وأنّ كثيراً منها مدسوسٌ عليهم أو مختلط بالإسرائيليّات أو مشوّش النقل، لكنّا لو فتّشنا في ثناياها بحثاً عن السمين بين الغثّ، لاستطعنا أنْ نستلّ منها بعض العبارات التي تُؤكّد هذا المعنى، فمثلاً نجد في كتب قصص الأنبياء، نقلاً عن تلك المرويّات:

- (**أهبط الله على آدم حوراء يقال لها ناعمة في صورة إنسيّة**).

- (**ثم ولد لآدم هابيل فلما أدرك أهبط الله إلى آدم حوراء واسمها نزلة**).

- وعن الإمام جعفر الصادق (ع) (**إن الله عز وجل أنزل حوراء من الجنّة إلى آدم فزوّجها أحد ابنيه وتزوّج الآخر من الجنّ فولدتا جميعا، فما كان من الناس من جمال وحسن خلق فهو من الحوراء وما كان فيهم من سوء الخلق فمن بنت الجان**)[2]، طبعاً، لا يشكّ عاقلٌ أنّ "**الجانّ**" هنا لا يمكن إلاّ أنْ يكون النوع البشريّ الآخر الوحشيّ غير العاقل المُختفي في المغارات والكهوف، وليس الجنّ المخلوق من نار[3].

- وعن أبيه الباقر (ع) قال: (**إنّ آدم لما ولد له أربعة ذكور، فأهبط الله إليهم أربعة من الحور العين، فزوّج كل واحد منهم واحدة فتوالدوا**)، والحور العين أصلهنّ من فتيات الهمج اللاتي يسكنّ الكهوف، لأنّ "حور" أو "أور" هي المغارة،

---

[1] – نقلا عن: محمد الجزائري، المندائيون الصابئة، ص ١٦٥ .

[2]– الصدوق، علل الشرائع، ج١ ، ص١٠٣ .

[3] – وعن هذا المعنى من الجانّ، بيّن القرآن نوعاً من الحيّات التي تُصدر خشخشة وتهتزّ وتختفي في المغارات، لذلك تُسمّى "جانّ"، فقال تعالى في عصا موسى التي تحوّلت لمثل هذه الحيّات (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً)(النمل:١٠).

أُخذن إلى الملائكة الصافّات في الجنّة وأُجري عليهنّ التعديل الجيني ونفخ الروح والأنسنة ثمّ أهبطن.

هذا يعني أنّ الرواة قد علموا بالفكرة بأنّ ثمّة تخليقاً آخر غير الذي جرى على آدم وحوّاء، على بشريّات، تمّ تأنيسهنّ، ثمّ إنزالهنّ على أبناء آدم الذكور، ولا يهمّنا العدد فكلّ راوي فهمها وسردها وصاغ العبارة كما فهم، وأحسبُ أنّ اسم "هابيل" و"قابيل" كان يُضيفه الرواة للتوضيح ظنّاً منهم أنّ هذا يخدم الشرح في الرواية، فتمّ الخلط في التاريخ، على ما سنُبيّنه. لكنّ فائدةٌ أخرى نُضيفها ونُسجّلها، أنّ الروايات أثبتت وجوداً للتزاوج مع الجنس الهمجيّ (**وتزوّج الآخر من الجنّ**). وقد سأل رجلٌ جعفر الصادق (ع): كيف بدأ النسل من ذرية آدم (ع) فإنّ عندنا أناسا يقولون: إنّ اللّه تبارك وتعالى أوحى إلى آدم (ع) أنْ يزوج بناته من بنيه، وأنّ هذه الخلق كلهم أصله من الإخوة والأخوات، فقال الصادق (ع): (**سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، يقول من يقول هذا: أنّ الله عزّ وجلّ جعل أصل صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال والطهر والطيب؟**) قال زرارة : ثم سئل (ع) عن خلق حواء وقيل له: إنّ أناسا عندنا يقولون: إنّ اللّه عز وجلّ خلق حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصى، قال: (**سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! يقول من يقول هذا: أنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجةً من غير ضلعه، وجعل لمتكلّمٍ من أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام يقول: إنّ آدم كان ينكح بعضُه بعضًا إذا كانت من ضلعه، ما لهؤلاء؟ حكم الله بيننا وبينهم**).

تلك إذاً رواية صريحة في نبذ هذه الخرافات والمدسوسات، ومع هذا، فالرواة ينسبون المتناقض في كلام النبيّ (ص) وآل بيته، فهو على حدّ نسبتهم (ع) إلى الجهل بكتاب اللّه وقد نزل فيهم وإليهم ومنهم، إنّ ممّا يُؤسف أنّ الرواة أنفسهم قد نسبوا إلى السجّاد علي بن الحسين (ع) (وإلى عليّ الرضا (ع) أيضاً): أنّ آدم زوّج أبناءه من بناته: **ثم حرّم الله نكاح الأخوات بعد ذلك.**

فقال له القرشيّ متسائلاً: فأولداهما؟ قال عليُّ بن الحسين (ع): **نعم**، فقال القرشيّ: فهذا فعْلُ المجوس اليوم، فقال عليّ بن الحسين (ع): **إنّ المجوس إنما فعلوا ذلك بعد التحريم من الله!**

ثمّ قال علي بن الحسين (ع): **لا تنكر هذا، أليس الله قد خلق زوجةَ آدم منه ثم أحلّها له؟ فكان ذلك شريعة من شرائعهم، ثم أنزل الله التحريم بعد ذلك!!**

فهذه رواية مدسوسة ومكذوبة على أهل بيت النبيّ (ص) للإزراء بهم أو لتسويغ تلك الدخائل التوراتيّة على لسان هذه السادة، وإلاّ فما الذي استبشعه الصادق (ع) أعلاه؟ أيستبشع ويُشنِّع على قولٍ يعلم أنّ جدّه السجّاد (ع) أو حفيده الرضا (ع) كانا قائليّه.

وقال الصادق (ع) أيضاً: (**أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنة اسمها "بَركة" فأمر الله عز وجل آدم أنْ يزوّجها من شيث فزوجها منه، ثم نزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة اسمها "مُنزلة" فأمر الله عزّ وجلّ آدم أنْ يزوّجها منْ يافث فزوّجها منه فولد لشيث غلام وولد ليافث جارية، فأمر الله عزوجل آدم حين أدركا أنْ يُزوّج بنت يافث من ابن شيث، ففعل ذلك فولد الصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أنّ ذلك على ما قالوا منْ الإخوة والأخوات**)[1].

بيّنتْ هذه الرواية أنّه لا شأن لقابيل وهابيل بالنسل الإنسانيّ بل لأبناء آخرين يُدعون شيث ويافث، وأمْرُ إنزال حوراء من الجنّة، وهي الطريقة التي خُلِّق بكيفيتها آدم وحوّاء، جليٌّ في الرواية، وإن كنا سنعرض فرضية أخرى مفصّلة في بحث "بين آدمين".

رابعاً- المُخلّق وغير المُخلَّق

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي**

[1] - الروايات عن أهل البيت (ع) أعلاه الصحيحة والمكذوبة نقلناها من المجلسي، بحار الأنوار، جزء ١١، ص ٢٢١-٢٢٦.

الْأَرْحَام مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)(الحج:٥).

إنّ الذي يبدو حسب اللغة والضبط القرآني أنّ المضغة قد وصفت بمخلقة وغير مخلّقة في آن واحد، وذلك حسب المعنى السياقيّ للعبارة، لا أنّ ثمة مضغة مخلّقة، ومضغة أخرى غير مخلّقة[1]، ولا أنّ الجنين هو المخلَّق، والسّقط هو غير المخلَّق، لأنّ كلام الآية هو مع مَنْ كان مخلوقاً من هذه المبادئ، ولا مِنْ خطابٍ مع سقطٍ ميّت، فالسؤال: كيف تكون المضغة تحوي صفتيْ التخليق وغير التخليق في آن؟

يقول علماء الطبّ، أنّ طوْر كتلة الجنين في تلك المرحلة يبدو متميّز المعالم في أجزاء وغير متميٍّز في أجزاء أخرى، أيْ أنّ الكتلة كاملةً غير مصنّفة بعد، فهي في برزخ بين التخليق واللاتخليق. هو مصنّف وغير مصنّف، مستو وغير مستو، مخلّق وغير مخلّق، متشابه وغير متشابه. إنّها إذاً لحظة متميّزة من اللّحظات، للنظر ولرؤية التحوّل ومشاهدة آثار القدرة الخلاّقة وهي تعمل (In Action)، تحوّلٍ ما يُمكن أنْ يبقى ميّتا إلى حيّ، أو عبور وانتقال لا شيء إلى شيء، أو لا صورة إلى صورة، لا عضوَ إلى عضو ...الخ. وكأنّك كـ"خزّاف" في يدك طين، تريد أنْ تعمل منه إنساناً فابتدأت عمليّة التشكيل، وصنعت الصدر والذراعين والرأس، أمّا الجزء السفلي فلمْ تُشكّل معالمه بعد بل بقي عجين طين، في تلك اللحظة، هذا الطوْر، نُطلق عليه: مُشكّل وغير مُشكّل، "**مخلَّق وغير مُخلّق**". (انظر الصورة: ١٣)

---

[1] - فإنْ أشكل البعض بقوله تعالى (وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ)(الرعد:٤) على أنّه نوعان منفصلان من النّخيل لا نوعٌ واحد، وافقناهم، لأنّ الوصف فيما إذا كان يدور على موصوف مفرد، وكلمة "النخيل" هنا جمع، والمحصّلة: أنّ النخيل صنوان وغير صنوان، أي نخلات من أصل واحد (صنوان) ونخلات ليست كذلك (غير صنوان)، ومجموع: "نخلات" صنوان + "نخلات" غير صنوان= " نخيل صنوان وغير صنوان"، فنتيجة العبارة صحيحة، أمّا لو قُلنا (نخلةٌ صنو وغيرُ صنو) فهنا المشكلة!



جنين (embryo) طور المضغة، يتخلّق من ناحية الرأس، وجزؤه السفلي لم يتخلّق بعد، وتتشابه في هذا الطور أجنّة الكائنات (الصورة: ١٣)

(**مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ**)، عجيبٌ موقع العبارة اللُّغز "**لنُبيّن لكم**" المُعقَّب بها مباشرة والتي تجاوزها المُفسّرون أو قاموا يُفسّرونها باعتجال، فلماذا جاءت هنا بالذّات في هذا الموقع العجيب؟ إنّ افتراض وجودِ محذوف (لنُبيّن لكم كذا وكذا)، أو مفعول نبحث عن تحديده من خارج الآية يُنافي هندسة القرآن المستغني بنفسه والبليغة عباراتُه. فالتبينُ هو لنفي الريب المذكور في بداية الآية كمنطلق لها وكمحور ارتكازٍ لموضوعها، فيُقال للمرء: "إنْ كُنتَ في ريب من كذا فهاك انظرْ لتتبيّنْ".

فهذه المرحلة التحوّليّة من اللامُخلَّق إلى المُخلّق، هي مرحلة إخراج الموجودات المتميّزة عن طورها السابق، هذا ما ينطبق تماماً على البشر الهمج لحظة الاشتغال عليه، قبلاً هو غير مخلّق إنساناً، الآن في عمليّة تخليقه -في طين الجنّة- هو مخلّق وغير مخلّق، بعد الانتهاء منه هو مخلّق مستوٍ، "**أنشأناه خلقاً آخر**". هذا المشهد هو

لحظة التبيين المعنيّة، هي اللحظة التي رآها ذاك النبي الذي سأل إحياء الموتى، فأري حماره الرميم يتخلّق أمام ناظره، انطلاقاً منْ غير المخلّق إلى المخلّق، لذلك تبدأ الآية: (**إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ**)، ثمّ قال سبحانه: (**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**) فهناك حقبة تحويل التراب إلى بشر قبل هذه المراحل كلّها، لكنّهم لمْ يشهدوها ليتبيّنوا (**ما أشهدتهم ... خلْقَ أنفسهم**)، وهناك مرحلة القفزة إلى الطور الرحمي بالمقدار الذي يُمكن رؤيته وهو يعمل، في مشهد المضغة القابل للرؤية لنتبيّن (حيث حجم الجنين ٤ سم تقريباً)، فبصورة مصغّرة يستطيع منكرُ المعاد أنْ يتبيّن هذه الإمكانيّة حين يرى كيف يتخلّق الجزءُ اللامُخلَّق ليلتحق بالمَخلَّق ويصير كائناً حيّاً مخلّقاً مصنّفاً، كأنّه يرى خلْقَ الإنسان (تصويره) منْ طين، يُعالَجُ على يد خزّاف ماهر عظيم.

فالتبيين هنا لأمريْن:

١- تبيين إمكانيّة نشوء خلْق جديد وأعضاء جديدة من الجزء غير المخلوق، أمام الناظر، هو كالخلْق من التراب الذي لا يحملُ ملامحَ ما سيأتي متخلّقاً منه، لذلك قال سبحانه بعد أربع آيات في سياق الخطاب نفسه (**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**)، فهي العمليّة نفسها، إذْهاب طوْر وإتيان بطور جديد على ركامه وأنقاضه.

٢- تبين أنّ القدرة الربّانية سبق وخلقتهم من تراب، من مادّة مغايرة، فلذلك فلْينظروا هذه اللحظة، كيف تتحوّل مضغة المادّة اللّحميّة غير المخلّقة إلى أعضاء مخلّقة، فتكون جنين إنسان، أو ترفع القدرةُ أيديها عن التخليق فتعود المادّةُ لأصلها وتُلفظ من الجسم دماً، لذلك قال سبحانه بعدها على لسان ملائكة التخليق (**لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ**)، فما كلّ مضغة تتحوّل بكاملها إلى مخلّقة وتعبر ذلك البرزخ من لا مخلّقة إلى مخلّقة إلاّ تبعاً لقانون ربّانيّ (المشيئة)، وقد بيّن نبيّ الدين والعلم (ص) هذه المرحلة الحرجة التي يكون فيها الجنين البشريّ بين العدم والوجود بقوله (**إذا وقعتْ النطفةُ في الرّحم بعث الله ملَكاً، فقال: يا ربّ مخلَّقة أو غير مخلَّقة؟ فإنْ قال: غير مخلَّقة مجّتها**

الرَّحْمُ دماً)[1]. ولذلك فإنّ من فسّر "**غير مخلّقة**" بالسقْط هو باعتبار هذه النتيجة والمآل الاستثنائي، لا أكثر.

لقد قدّمنا في "بحث: الخلق الأوّل" التالي:

١- أنّ خلق البشر الهمج، قد مرّ في طوريْن:

أ - خلْقه من تراب (الإنشاء من الأرض) في بداية الخلق البشري.

ب- خلقه من نطفة التزاوج الجنسي بعد دهر (الإنشاء في الأرحام).

٢- أنّ خلق آدم وحوّاء، قد مرّ في طورين:

أ - تولّدا من نطفة (الإنشاء من الأرحام) ككلّ البشر السابقين.

ب- أُعيد تعديلهما في طين الجنّة.

٣- أنّ خلق بني آدم (البشر الإنسان)، وهم الناس، يتمّ (للآن وحسب العادة) من النطفة في الأرحام، وليس من تراب، إلاّ باعتبار أصولنا تاريخياً أو مكوّناتنا طبيعياً، لكنّ الآية تتحدّث أساساً عن الأصل التاريخي، لأنّها تُعدِّد مراحله بالأداة "**ثُمّ**".

وهذه الآية جاءت تُعلن عن النشأة البشرية التي زامنت مرحلة التخلّق "الترابي" ثمّ "الرّحمي"، "لتبيّن" للإنسان أو تُومئ له، بأنّه كان يوماً ما ليس إلاّ مخلوقاً بشرياً، "غير مخلّق" كإنسان، ثمّ تدخّلت ملائكة التخليق، وأرباب التدبير، بأمر الله، لتُخلّقه إنساناً في الجنّة. فلديْنا (زمنَ آدم) جنسان بشريّان: أحدهما مخلوقٌ إنساني، وثانيهما غير إنساني، فأيّ تزاوج بينهما سيُنتج مخلوقاً ثالثاً هو مخلوق "إنساني وغير إنساني"، "مخلّق وغير مخلَّق" إنسانيّاً، وهذا هو النوع-حسب المرجّح- المتوفّر في العالَم اليوم.

فالإنسان (وآدم أولُهم) بتزاوجه بالهمج أبقى حالة "المخلّق وغير المخلّق" قائمة وأدامها، فكان لزاماً على البشر (الإنسان غير الإنسان) أنْ يعبروا من اللامخلّق إلى

---

(1) - ابن حجر، فتح الباري، ج١، ص١٣٣.

المخلّق، والقليل قد عبَر بشريّته إلى إنسانيّته، وأكثرهم ارتدّوا على أعقابهم، فعادوا كالأنعام أو أضلّ، وفي مثل هذا ألمح تعالى (**نَذِيراً لِلْبَشَرِ* لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**)(المدثر:٣٦، ٣٧)، فالتقدُّم يتمّ بالعبور من البشريّة للإنسانية، والتأخّر هو بالإخلاد إلى الأرض والبقاء في طور البشريّة المحضة والهمجية ونزع لباس الروح وإنكار الإله وترك القيَم، الأمر الذي سيُفضي يومئذٍ أنْ (**يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً**)(النبأ: ٤٠)، هذا العبور التامّ لكلّ نفسٍ من الهمجية إلى الإنسانية هو فلسفة التأخير في الأرض حتّى حين، هو ظرفُ النقاهة وبرزخ التطهُّر، وهو ملء خيار الإنسان وقادرٌ عليه وله الأجر والرّفعة في إنجازه.

عوج بن عنّاق:

ونجد في التراث وفي الخرافات أيضاً شخصية تترنّح بين الحقيقة والخيال تُدعى "عوج/أوج بن عناق"، ونُسجت حولها الخيالات والخرافات، واحتملتها التوراة، وسمّى قوماً منها "بني عناق"[1]، جعلوها شخصيّة باغية باطشة متوحّشة قويّة البدن، وزاد الخيال فيها كثيراً من البهارات، تمتدّ منْ عصر آدم لتُزامن عصر نوح (ع) بمحاولة تلك الشخصيّة التعلّق بالسفينة لإغراقها، ثمّ حتّى عصر موسى (ع) حيث جاء تعبير "بنو عناق" في التوراة في مواضع عدّة كتعبير عن الأقوام الجسيمة القويّة الشكيمة (راجع التثنية ٣: ١١)، فما هو افتراض حلّ لغز هذه "الأسطورة"، يا تُرى؟

---

(١) – وهذا بخلاف "الجبابرة" أو العماليق، وهم أقوام العرب أهل المدن والحصون، الذين ذكرتهم التوراة كما في النص التالي:

(ثم رجعوا من تجسّس الأرض بعد أربعين يوما فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش وردّوا إليهما خبرا وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض. وأخبروه وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتزّ والمدن حصينة عظيمة جدا. وأيضا قد رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثّيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن)(سفر العدد ١٣: ٢٥-٢٩).

المتابع اللبيب، الذي أدرك من القرآن قصّة آدم ومعصيته الأولى ومقاربته الشجرة (السلالة البشرية الأخرى) سلالة الهمج، يمكنه أنْ يتصوّر أنّ ثمّة نسلاً لآدم من تلك الأنثى، وباعتبار أنّ تلك الأنثى بلا هويّة كالبهائم، فلا اسم لها، لكنّ ابنها هو ابنُ آدم، فهو إنسان هجين منْ "عناق" البشر الإنسان والبشر الهمج، نطفة مخلّقة وأخرى غير مخلّقة، لكنّه يُعدّ في ديوان الإنسان (أيّ "بني آدم")، فالجنس السائد جينياً هو الإنسان كيفما كان التزاوج بين هذين الجنسين. ونظراً إلى أنّ المعاشرة المحرّمة التي اجترحها آدم بلغتْ "أوج" المخالفة "ميلا مطغايا" أو "ميلا متعايا" بالسريانية، ميلاً طاغيا بلغ "الأوج"، وأنّه "عوَج" عن السبيل الربّانيّ، فالثمرة هي "أوج/عوج" بن "عناق"، والعناق هو المعاشرة ليس إلاّ، وهو تعبير آخر لتعابير محاكية "ثمرة المعصية" "تفّاحة آدم" "ثمرة الشجرة المحرّمة". فهذا الوليد الذي تمخّض من هذا الـ"عناق" في "أوج" المخالفة، يحمل بذرة الـ"عوج"، فتربّى مع سلالته المتوحّشة وبيئته، وبتزاوجه انتشر "الجين" الإنساني وساد فيهم، لكنّ جنسه السابق المتوحشّين ذوي الأبدان القويّة، تمّ طردهم من جوار الجنّة بعد المعصية، ثمّ بالطوفان أُبيد معظمه في المنطقة، لذا نسمع في المدوّنات التراثية والخرافات عن تعلّق هذا الجنس بقارب نوح ومحاولتهم إغراق السفينة.

لكنّ تزاوج الإنسان بنساء ذاك الصنف ظلّ سائداً لدى العصاة على طول الخطّ ليولّد جنساً إنسانياً عاقلاً فيه من التوحّش والبطش، التزاوج الذي تُطلق عليه التوراة أنّه يتمّ بين "أبناء الله" و"بنات الناس"، فنتاجه يستحقّ أنْ تسمّيه أسطورة التوراة "بني عناق"، لأنّهم هكذا تولّدوا، من شهوة فقط لا قانون أسرة، إذن "عوج بن عناق" رمزٌ لمن يتولّد من سفاح بين المُخلوق الإنسانيّ (المُخلّق) وبين إناث الآخر المتوحّش (البشريّ)، بل هو كلّ نتاج يأتي من نكاح يجري وفق الطريقة الهمجية لا الربّانية، لذلك وصفت بعض القصص أنّه طويلٌ جدا وحين يستلقي يمتدّ إلى مسافة شاسعة على الأراضي، ذلك لأنّه أمّةٌ من البشر المفسد لا فردٌ واحدٌ كما يُتخيّل، واليوم عالمُنا يغصّ بأبناء الـ "عوج بن عناق".

الفصل السادس

شواهد المعصية الأولى في أساطير الأوّلين

حتّى الجهاتُ الأربع التي تشعبتْ أسهمها مُنطلقةً
في رحلةٍ لا تدري أيٍّ بأخواتها، فإنّ سحبها إلى الوراء
القهقرى، يفرضُ عليها أنْ تتقاطع في نقطة، هي
المركز الأمّ، هكذا هي الشعوب، اللغات، والأساطير
(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

(البقرة:١٤٨)

من المناسب القوْل، وإخلاصاً للقارئ، أنّ هذا الفصل بقدر ما هو ممتع وغريب، هو مُلغِزٌ وصعب، لأنّه يُحاوِل أنْ يسبر القصّة على مستوى جذرها التاريخيّ، حيث الأسطورة والمحكيّات المخزونة ومطبّات الخرافات وانحراف الخيالات، ولأنّه فصلٌ يعتمد على اللّغة وإنْ تحرّفت أصواتُها، وتفكيك مداليلها اللفظيّة بالرجوع إلى أصولها القديمة كلهجات عربيّة قابلة للفهم، بناءً على اعتقادنا بأصالة العربيّة العامّية لكلّ اللهجات القديمة، ولأنّه فصْلٌ يبتني على مفاهيم ومسمّيات غريبة لا عهْد للقارئ المسلم (على الأغلب) بها، ذلك أنّ أكثر المسلمين قد انبتروا بثقافة المذاهب عن ثقافة القرآن الأولى، وانبتروا بالتاريخ "الإسلاميّ" عن تاريخ الأمّة المجيد موغل القدم، ولأنّها سيتمّ تناولها بشكلٍ ومّضيّ أو سريع، وبمعالجة تختلف جذرياً عن حتّى الذين كتبوا في الأساطير أو الذّين حلّلوها خطأً، فمن حقّ القارئ (غير المتعمّق أو غير النّهم) علينا أنْ ننصحه بتجاوز هذا الفصل إلى الذي يليه رفقاً به، مع أنّا إنّما نتوخّى له الرّفعةَ والوعيَ لا الرّفقَ أساساً.

والآن، تُرى هل حكتْ أساطير الأوّلين شيئاً عن معصية أب الإنسانيّة؟ هل كانوا يتّصلون بجذورهم وبداياتهم، أم أنّ هذا الفضل نختصّ وحدنا به؟!

لقد قدّمنا في بحث خلق آدم (الخلق الأوّل) ملمحاً عامّاً عن الأساطير[1]، وقد نوّهنا إلى إشارة القرآن إليها كاشتقاقات من "**الصحف الأولى**" و "**زبر الأوّلين**"، واتّفاق مضامينها في قضايا التوحيد والبعث والحساب اعتقاديّاً، وقضايا الأخلاق والقيَم والعدل اجتماعياً، مع رسالات الرسل، باعتراف المشركين أنفسهم حين يُطابقون ما يجيء به رسلُ الله من مقولات مع "أساطير الأوّلين".

أولئك الآباء الأوّلون الذين انتشروا كذراري لأبناء آدم، من شبه الجزيرة العربيّة، وبقوا متاخمين لأرض الجنّة المفقودة، حيث الأرض المقدّسة، والبقعة المباركة من الشجرة[2]، وراحوا يُنشئون التجمّعات والقرى حول المركز الأوّل الذي ظلّوا يتيمّنون بأسماء أنهاره وجباله ووديانه وينشرونها شمالاً في الشام أو جنوباً حيث اليمن أو

---

(1) - للتوسع في دراسة أثر أساطير الأمّة القديمة، وصدق مضامينها، وارتباطها بالسماء والمعلّمين الأوائل، كمعلّمٍ تراثي ينبغي احترامه وفهم مفاتيحه، يُراجع بحث: الأسطورة توثيق حضاريّ، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

(2) - (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)(القصص:٣٠)، هذا نداء لموسى على جبل الربّ (الطور)، وهو في الجغرافيا نفسها، في شبه الجزيرة، ومقصدُنا هو عبارة (الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ)، فمعنى الشجرة الحقيقيّ وإنْ كان مجهولاً ويحتمل أنّها شجرة النّار كونها معرّفةً ولإشارة موسى في الآية التي قبلها بقوله لأهله (أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) ولسماعه النداء (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا)(النمل:٨) فالبقعة المباركة من الشجرة، هي البقعة التي يصدر منها النداءُ الربّانيّ من شجرة ناريّة تلتهب. (بهذا الاحتمال تكون "منْ" بيانيّة). ومع هذا إلاّ أنّ الآية قد تُومىء إلى القضيّة التاريخيّة التي موضوعُنا بصددها، وهي أنّ فعْل "بُورك" تضمّن معنى "قُدّس" و"طُهّر"، فتكون تلك البقعة التي حلّ بها موسى (ع) في وادي طوى، قدْ طُهِّرت من شجرة الظالمين والمفسدين ابتداءً من الشياطين مروراً بالهمج، فهي من البقاع المقدّسة الأولى التي نُفي إبليس والهمج والعُصاة عنها. (وبهذا الاحتمال تكون "مِنْ" متعلّقة بالفعل المتضمَّن في "المباركة"، أيْ المُقدّسة والمطهّرة منْ..).

غرباً حيث وادي النيل وسواحل أفريقيا الشمالية والشرقيّة، أو شرقاً حيث العراق وساحل الخليج العربيّ (الآن).

لقد تفاجأ الآثاريّون حين اكتشفوا كنوزاً علميّةً لا تُقدّر بثمن من آثار تلك الأقوام مدفونة في نينوى ونپور وأوگاريت وماري وبلاد النيل، ولو وضعها القارئ أمامه، مع تجاوزه سلامة ترجماتها، لهاله أنْ يجد ثقافته فيها مسكوبةً؛ من روحانيّة وحكَم وأخلاق وتعاليم وقصص وشرائع واعتقادات، ولأدرك ارتباط الأمّة الواحدة الوثيق بجذورها، وارتباطها بالسماء من جهةٍ أخرى، كما أكّدت السماء ذلك لأبينا آدم ولبنيه منذ البداية أنّها لنْ تنقطع عن تعليمنا وتهذيبنا (**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**)(الأعراف:٣٥)، بضمانة الرحمن الذي (**عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**)(العلق:٥).

فهل عُلِّم الأوائل قصّة أبيهم آدم واحتفظت بمعالمها وتعاليمها؟ قطعاً نعم، وقد تكفّل القرآن بالإجابة حين نقل لنا أنّه قد وجّه يوماً ما خطاباً لبني آدم (**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**) (الأعراف:٢٧)، فالقصّة كاملة يعرفونها. لكنْ هل دوّنوها لنا، أو سطّروها في قالبٍ أسطوريّ رمزيٍّ (شعريّ/أدبيّ/قصصي/ملحميّ)؟

المنطق يقول: ينبغي ذلك، لأنّ القصّة الأولى تحتوي أسّ خلافة الأرض، وأبجديّة التقيّد بالنّظام، وضرورة التمسّك بتعاليم الربّ، ومصافاة الملائكة وتقديسها، ومخالفة الشيطان، وقانون الأسرة، وقدسيّة الزواج، والتوبة، والصلاح والأخلاق، وتوقّي الشقاء والآفات، وإقامة المعابد وخلوص التقديس (**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**)(الأعراف:٣١)، وصراع القوى المجهولة من ملائكة وشياطين على توجيه الإنسان وصياغة مشاعره، أليست هذه الأمور هي عماد كلّ أساطيرهم لمن يطّلع عليها؟

فالمنطق يقول: حتماً ينبغي تسطير مثل هذه القصّة، لكنْ بصورة رمزيّة، رمزيةً احتراماً للآباء الأفاضل وآدم أوّلهم، الذين هم سبب وجود الإنسانيّة وتعليمها العلوم

وتهذيبها أيضاً، الأمر الذي يُقدّسه الأوائل مثلما ينبغي أنْ نفعل نحن. والحقيقة أنّ أسلوب الترميز المؤدَّب أو التورية التي استخدمها القرآن الكريم بالصياغة الراقيّة في كلّ جوانبه، هو الأسلوب الأمثل في مثل هذه القصّة، بالألفاظ المهذّبة والرمزيّة، لكنْ ليس على حساب الحقيقة.

والمنطق يُعلن أيضاً: ما دام القرآن سطّرها فحتماً سطّرها الأوائل، لأنّ اللّه ضمن تعليم الإنسان كلّه لا إنسان الأمّة الخاتمة فقط، ولأنّ قصّة الإنسانيّة واحدة والناس كانوا أمّةً واحدة، وأنّ أصلهم واحد، ومهمّتهم واحدة، وانحرافهم واحد، وحسابهم في الأخير هو واحد، فينبغي أنْ يكون الدرس الأوّل واحداً للجميع.

❖ التنبّه لمزالق الترجمات الاستشراقيّة

للقارئ الحصيف أنْ يحكم بنفسه إنْ كان الأوائل فعلاً سطّروا القصّة أو لمْ يفعلوا بناءً على ما سنُقدّم، أو ربّما سطّروها ولمْ نعثر عليها، أو لمْ يمنّ علينا "الغربُ" بترجمتها بعد فأُخفيتْ كما أُخفي الكثير، حيث أنّ معظم آثار منطقتنا مُخبّأةٌ في مراكزهم وجامعاتهم ومتاحفهم! ونستوردها بلغتهم وكأنّها ليست عربيّة أصلاً، فضاعت معالُمها اللغويّة والثقافية من فرط عمليّات التحويل والتحوير.

وفي هذا يشكو أحد مفكّرينا العرب بقوله:

(وما ذنبنا نحن العرب، أو ذنبُ لغتنا إذا كانت لغات المستشرقين لا تحتوي على حروف: ح، ض، ط، ظ، ذ، ح، ع ، الهمزة... ليعود إلينا "**نطر**" بعد أن يتحوّل في عقولهم "**نتر**" و"**حينما في الأعلى**" والتي كتبت هكذا أصلاً "**إينما إيلي- ش**" فلأن لغات المستشرقين لا تحتوي حرف "ح" يترجمون "**حينما**" إلى Enuma وتعود إلينا "إينما"، ويترجمون "نطر" (أي الحارِس الرقيب والناطر/الناظر) إلى "**نتر**" Ntr فتموت الـ "**ط**" لتقف بدلاً منها الـ"ت" وبسبب عدم وجود حرف "ع" في لغاتهم يترجمون أعلى إلى Ili وتعود إلينا "**إيلي**"، وبسبب عدم وجود "ض" يترجمون أرض إلى Ard وتعود إلينا مشوّهة "**أرد**" ولأن لغاتهم لا تحتوي على "ح" و"ص" يترجمون حمص إلى "**إيميس**" Emis فتعود إلينا إيميس، وحماة تصبح Emat إيمات و"دمشق" ديماشكي Dimashki

ونتلقفها غريبة عن لغتنا، لأننا نتناول ما يعطوننا إياه كمقدس غير قابل للنقاش أولا، ولأننا لم نهيئ الكوادر العلمية التي تعرف لغتنا العربية حقّ المعرفة عبر تطوّرها التاريخي والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ..، لكني فوجئت ومنذ سنوات عندما قرأت: "**إينوما إيلي شي**" وترجمتها للعربية تعني "**حينما في الأعلى**" وقلت في ذهني: ولماذا يكتبون "وترجمتها إلى العربية"، أليست العبارة بحدّ ذاتها عربية فصحى خالصة يفهمها أيّ عربي أينما كان شريطة إعادة الحروف المشوهة على أيدٍ جاهلة بلغتنا أو قاصدة تشويهها إلى وضعها السليم؟!!!(١)

ونُضيف أمراً آخر نراه مزرياً بحالنا الثقافي ووعينا الحضاريّ، أنّ كثيراً من متناولي أساطير أمّتنا لا يُكلِّفون أنفسهم عناء النظر في صحّة الترجمة (التحوير) المُصدَّر لنا من الغرب عن أساطيرنا ومتون مدوّناتنا، لأنّا نأخذ ترجماتهم واجتهاداتهم في احتمالات معناها كعلْمٍ ذي وثاقة، فالوثاقة فقط في الآراء التي صدرت في الغرب، بينما يستغرب المتتبّع أن يلفى حتّى طلبة جامعاتهم وأكاديميّهم يناقشون تلك الآراء التي استوردناها ويأتون بترجمات أخرى وبنظريّات مغايرة لنصوص سومر وأرض النيل، ويقدِّمون الأطروحات في هذا ويُبدِّلون ما استحكم من افتراضات ويطوّرون ويُنظِّرون، فلماذا نحن متفرّجون ونقَلَةٌ فقط، أليس لدينا الدّماغ واللّغة؟! والحمد لله أنّ قرآننا حافظ على وجوده بهذه اللغة، وإلاّ لو كان "سيناريو" وصول بضاعتنا إلينا على منوال تلك المدوّنات لما قرأناه اليوم إلاّ (Eza ja nasrallah walfath)، (إزا جا نسرالآه ولْفاث) فلا ندري هل هناك نسرٌ قد جاء أو جاع، ولنْ نصل إلى مرادنا في آية من أكثر من ٦٠٠٠ آية إلاّ بعسْرٍ شديد، أنّها (**إذا جاء نصرُ الله والفتح**)!

وعلى هذا المنوال، نودّ أن نُلفت الانتباه إلى أنّ الكلمة التي ترجمها المعتنون بالأساطير "آلهة" كانت "**ذي- نجر**"، وباعتبار وجود سبقيّة لدى المترجمين الآثاريّين أنّ آباءنا في المنطقة كانوا متعدّدي الآلهة ووثنيّين وغيرها من سفاسف، فهم وإن لمْ يعرفوا يومَها وللآن الدلالة الصوتيّة واللفظيّة للكلمة تلك، لكنّهم بما أنّهم وجدوها كبادئة أمّام أسماء تلك القوى الربّانيّة، فترجموها حسب السياق إلى (Deity) التي

---

(١) – جمال الدين الخضّور، عودة التاريخ– الانتربولوجية المعرفية العربية، ج١، ص ١٠٦ .

تعني "إله" و"ربّ" أيضاً، ثُمّ مَن عرّب الأساطير مرّةً ثانية عن الإنجليزية التي احتفظت بألواح أساطير منطقتنا، عرّبها مترجمونا العرب وللأسف كما العادة من دون رجوع لأصل المتون إلى كلمة "آلهة"! بينما لدى جامعات الغرب ما زال البعض يضعها كما هي من دون تأويل ويكتبها (dingir) ولمْ يحسموا معناها بعد، فما هي هذه الكلمة، لو أُعطينا إجازة التفكير، كما يُعطى طلبةُ الغرب؟!

نجد أنّ من معاني "نجر" الأصل (أي المنشأ)، وهي أيضاً اسمُ علَمٍ لأرض مكّة والمدينة من وسط منطقة السراة[1]، ونرى "نجران" جنوباً أيضاً. فيا ترى ذي نجر (دنجر) التي ترجمها المترجمون أنّها أرباب أو آلهة، ما تعني؟ إما أنّها صاحب الأصل، سيِّد مكة، أو المكّي، أو "السُراة" العُلويّون أنفسهم أي الكبار والخلاّقون والمسئولون الأوائل عن صياغة الأشياء وإنشاء أصولها، إذ "نجْر" لُغةً هو الصناعة والإنشاء والتسوية، وبحسب اللهجة الكنعانية هو "النحت" أيضاً[2]، ومن "مكة" وما حولها من أرض السراة تمّ تسوية الأرض، والكائنات، ثمّ البشر، ثمّ الإنسان، ثمّ انطلقت بعثات الأنبياء منها، فالخطّة الربّانية وأيادي التسوية والنحت والصقل والتهذيب والصياغة (النجر) وبعثات الأنبياء والمعلّمين كانت تنطلق من هناك. وفي الأسطر الإنجليزية التالية نجد أنّ "دنجر" حسب اجتهادهم، قد تعني السماء (سمو) حسب ما كتبوها، أو "إلو/إلّ"[3] وهو "علّة" أي سبب وواسطة (الأسباب/وسائط التدبير) والألوهيّة في الفكر الإسلاميّ.

---

(1) – بطرس البستانيّ، محيط المحيط، ص ٨٨٠.

(2) – يحيى عبابنة، اللغة الكنعانيّة، ص٤٣٣ .

(3) – The Sumerian word for `god' is dingir, Akkadian ilu. The sign to represent this, is the same as AN `heaven', and also used as a determinative (classifier) attached to the name of the deity to indicate his/her divine nature. In transcription the sign is represented with a d from dingir in superscript, liked Enlil. It is not pronounced. http://www.crystalinks.com/meso.html

The ancient Sumerian sign "**dingir**" (Figure A) is found on clay tablets in the Uruk IV period (3300-3200 BCE) and comprises one element of the earliest known writing system in the world. On the Uruk IV tags it signifies "sky" or "god" and was apparently pronounced "AN" or "**DINGIR**". In Old Akkadian it was pronounced "šamû", meaning "sky", or "ilu" -- "god", and was used as a determinative sign next to the names of deities, denoting divinity.(١)



رمز دنجر بالأكاديّ

يُلاحظ أنّ الشكل عبارة عن أربع صولجانات أو مطارق ملوكيّةٍ (رمز الآمر "هامر") مجتمعة على بعضٍ كوضع الفرسان السيف على السيف، أو المتحالفين اليد على اليد (**يد اللّه فوق أيديهم**) وهو رمز لمجمع الأرباب لدى الأوائل (مجمع الألوهيّة كما في التوراة)، وبهذا يُماط اللثام عمّا عجز عن معرفته مفسّرو الغرب، حيث البعض ظنّها نجمة كالنياشين الفخريّة، وآخر عدّها مجرّد رمزٍ اعتباطي للإشارة للآلهة(٢)، بينما هي أربع صولجانات، أي أربعة أرباب مدبّرين، أربعة ملوك (ملائك) روحانيّة تحت إمرة "إيل/آن" ربّ الروح الأعلى، ولدى السومريّين عرفوا بـ (آن، إنليل، إيا، نانا)،

---

(١)- راجع للمزيد:

http://www.sitchiniswrong.com/Disciple william_henry.htm

(٢) - راجع أعلاه، الفقرة الإنجليزية ما قبل السابقة في الهامش، عن كون "dingir" مجرّد علامة وبادئة غير مصوّت بها تُعبّر عن مظهر ربّانيّ.

ثمّ تبدّت هذه الأسماء في وظائف أقلّ فنشأت أسماء (صفات) مثل "نانا" صار لها أوصاف (نين-هور-ساج (نين-كور-أساگ)، نينمو، مامي، نينماح، ثمّ عشتار) و"إيا/حيا" صار "إنگي" و"إنليل" صار "مردوخ" و"آشور"، وحرّك أولئك المدبّرون قوى الطبيعة مثل "أوتو" الذي صار "شمش/شمس"، وبرزت نواتج جديدة ومسمّيات لتلك القوى والمظاهر والمخلوقات الوليدة "دموزي"، "بعل"، "أدد"، "أرشكيجال" (أرش-كي-گَلْ = عرش-قِيَعْ-جلّ= عرش (قاع) الأرض الجليل، إذ أنّ الكتابة حينها كانت من دون أدوات التعريف) ... وغيرها، ولولا القدسيّة التي أحاطها الأوائل بمظاهر الطبيعة واحترامهم لها، لنظرتهم الإيمانية العميقة المرتبطة بالقوى الربّانية والانتساب الرّوحيّ، لكان بإمكانهم صياغة كلّ تلك الأسماء في موضوع علميّ واحد بسيطٍ لا يزيد على صفحة واحدة، لكن إذّاك ستزول معالِم القداسة ويضمحّل بريق الروح في تلك اللغة الناضحة بالأسرار.

طبعاً، هذا لا يعني أنْ ليس هناك استغلال وإضلالٌ من كهنةٍ (رجال دين) منحرفين، وبلادَةٌ حصلت للشعوب وانتكاسات اعتقاديّة، لمَنْ يأتي بعدَ تلك المدوّنات الأصليّة بقرون، فيكون منتحلاً، ويُضيف في التراث تدويناً ونشراً ما ليس منه، ويُصيّر تلك الأسماء ورموز تلك القوى الطبيعيّة والربّانيّة، أوثاناً تُعبَد، فهذا حصل ويحصل وما زال يحصل لكلّ دينٍ وتعليم، لكن لا على يد الصنّاع الأوائل أصحاب الصياغة الأولى، فما نستهجنه قراءةً عن "زرادشت" المجوس اليوم، لا من الدّين الأصل بل ممّا أُضيف فيه، وكذلك ما نستهجنه ويمجُّه العقل في "اليهوديّة" أو "المسيحيّة" أو "الإسلام" هو من إضافات وتشويهات وانتحال وتحريف "المُبطلين والجاهلين والغالين" متى غاب العلماءُ الحقيقيّون، كما في حديث النبيّ (ص): **(يحمل هذا العلم مِنْ كل خلفٍ عدولُه؛ ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)**[1].

عموماً، سنبدأ فصلنا بأسطورة مشهورة ذكّرنا نصّفها في بحث "الخلق الأوّل" ونُعيده لضرورة سياقيّة، لمتابعة جزئها الثانيّ المعتني بالمعصية الأولى:

---

(1) – أكثر من مصدر، منها: الغزالي، المستصفى، ص٣٧٢؛ ابن الجوزي، الموضوعات، ج١، ص٣١؛ المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١، ص١٧٦.

أوّلاً- أسطورة "عندما رسم الآلهة المدينة"[١]

سبق أنْ قُلنا أنّ كلمة "الآلهة" هي من ترجمة الناقلين[٢]، والتعبير الأنسب كان "القوى/الأرباب"، فعبارة "عندما رسم الآلهة المدينة" بإمكان ترجمتها إلى عبارات احتماليّة كثيرة هي:

عندما: ...

رسم: خطّط/هندس/شيّد/صاغ/فصّل/وضع/أسّس ..

الآلهة: الأرباب/القوى/المدبّرون/الملائكة/السادة/الأثيريّون/الروحانيّون/العُلْويّون/ ملوك السماء ..

المدينة: البيت/المقام/البناء/المسكن- حيث "مدَن": تعني أقام، بنى، سكن، بات.

فمن تلك الاحتمالات نستطيع أنْ نخرج بمئات التراكيب التي تبدو مناسبة. وبإمكاننا اختيار (حينما- وضع- المدبّرون- البيت/المقام- الأوّل)، والذي هو تماماً قول القرآن (**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**)(آل عمران:٩٦)، والذي هو نفسه جنّة سكنى الخليفة[٣]، آدم حينها، وهو مقام إبراهيم في زمنٍ آخر، ومقرّ أرواح أبرار النّاس في الأرض بعد مماتهم، كان هذا أوّل بيت مقدّس يُسجد لله فيه، بيت روحانيّ أُنزِل من السماء[٤]، مزار الموحّدين، هذا البيت هو

---

[١] – هذا النصّ الآخر له تكملة، حتّى أنّ الأسطورة نفسها يُطلق عليها البعض "أسطورة إيتانا والنّسر".

[٢] – إنّ الكلمة التي ترجمها المعتنون بالأساطير "آلهة" كانت "ذي. نجر"، وقد شرحناها قبل قليل.

[٣] – راجع: جنّة آدم-تحت أقدام السُراة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية، وأيضاً: نداء السراة – اختطاف جغرافيا الأنبياء، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[٤]– راجع: صموئيل كريمر، من ألواح سومر، ص٦٢؛ وفي أسطورة "إينمركار وربّ أراتا"، حيث "إينمركار" إين=عين/حارس، مرّ= سيّد/ربّ، كار= كور الجبل (أو أنّ "مركار" هي "م- عركار" حيث الميم الأولى للتعريف، والراء الأخيرة لصياغة اسم الفاعل كما ورثتها الإنجليزية اليوم، أي المعارِك المحارِب البطل، تتخاطب هذه القوى/الأرباب فيما بينها، بين القوّة الحارسة لجبل النور العظيم

"المدينة" المعنيّة في النصّ وهو المسكن، لذلك نجد ترتيلة لنصٍّ آخر تُقرأ للربّ (وهو "إنليل" في مسمّى السومريّين)[1]:

مدينة "نفر" (نيبور) ذات مظهر يبعث الخوف والرهبة ...

"نفر" هي المزار حيث يسكن الأب (الجبل العظيم) ..

منصّة البركة والخير في معبد "إيكور" الذي يعلو

الطود الشامخ، الموضع المطهّر

أميره (الجبل العظيم) الأب إنليل

فقد أقام عرشه على منصّة "الإيكور"[2]، المزار الساميّ

"إينماركار"، وقوّة الخصب الكونيّ "إنانا":

(Let Aratta build a temple brought down from heaven).

راجع موقع: (http://www.piney.com/BabEnAratta.html)

فواضح أنّ الأسطورة تُحاكي البدء، حيث جبل "أراتا"، هو جبل النور، وفيه المعبد والمزار القصيّ الذي أُنزل من السماء، و"أراتا" هذا هو الجبل المقدّس الذي رحل إليه لوجال بندا جدّ جلجامش رحلته البطوليّة لطلب نصرة الأرباب والاستعانة بمدد (سيّد المعاركين إين-م-عرك-ار):

A **third** epic, ***Lugalbanda and Enmerkar***, tells of the heroic journey to **Aratta** made by Lugalbanda in the service of Enmerkar. (http://www.piney.com/BabGloss.html).

و"أراتا" هذا، هو الجبل الذي سمّته التوراة "أرارات"، ولعلّها مكوّنة من مقطعين "أرَ-أرات" و"أرّى" أي اشتعل، اتّقد، فهو الجبل البركاني، جبل النار، أرات المتوقّد. أو هو "أور أرات" و"أور" هي حور أي مغاور السكن، وأرات (والبعض يقول أنّها "عراد" بإبدال العين والألف، والتاء والدال حسب اللهجات القديمة): جبل البركان. ولعلّ "أرَتّ" أو "عـرَدّ" هي تحويرات صوتية من "أرَض"، كما صارت في الإنجليزية اليوم "أرت" "إرث Earth".

[1] - نسخة النصّ مأخوذة من: وديع بشّور، الميثولوجيا السورية - أساطير آرام، ص ٦٣.

[2]- لعلّ كلمة "إيكور" مركّبة من "إيك-أور" حيث إيك: هي أشجار الفردوس/الجنّة. وأور: هي حور وغور، أيّ بيت/مغارة، فالمجموع يعني "المسكن الفردوسيّ". كما يُمكن أنْ تكون "إحْكور" أيّ إحْجور أي المكان المحجور والممنوع والقاصيّ وغير المُدرك والخفيّ، تماماً كما تصفه الترتيلة في عباراتها. أو

المعبد الذي لا تُردّ ولا تُبدّل نواميسه المقدّسة، مثل السماء ...

إنّ نواميسه المقدّسة كنواميس "العمق" ما من أحد يستطيع إدراكها

وقلب المعبد كالمزار القاصيّ وسرٍّ خفيّ كسمت السماء ..

بيت إنليل، إنّه جبل الخير العميم

الـ "إيكور" بيت اللازورد، المسكن الساميّ الذي يبعث الرعب في القلوب

إنّ رهبته وخشيته لتُضاهيان السماء ...

إنّ هذا النصّ العجيب لآبائنا القدماء الذين اعتنت بهم اليد الربّانيّة وسدّدتهم، لَيعجّ بالعلوم وينضح بالأسرار، وليست "نيپور" هي تلك المدينة التي في سهل جنوب العراق الخصيب، كما يظنّ المترجمون فليست تلك مزاراً سامياً قصيّاً وليست هي جبلاً عظيماً ولا تبعث الرعب والرهبة، بل هي الجبل العظيم حيث جنّة آدم[1] (المسمّى "إنليل" أيضاً لأنّه على صورة الربّ (إنليل) الذي نفخ فيه من روحه)، والقارئ للنصّ يدرك ببساطة أنّ المقصود هو مكان سامٍ جدّاً ومهيبٌ جدّاً وقصيّ جدّاً، يُسمّى "نفر"، وهو المكان "الوفير" والخصيب وفيه "نافورة" المياه المقدّسة، فنلاحظ أنّ "**المدينة**" هي نفسها "**مزار**"، و"**معبد**" أي مسجد وبيت طاعة محضة لا كبْر ولا معصية فيه، وأنّه "**جبل**"، و"**بيت**"، و"**مسكن**" سامٍ. وإنّ عبارة "**المزار القاصي وسرّ خفيّ كسمت السماء**" تستدعي في الذهن فوراً مسمّىً قرآنياً هو "**المسجد الأقصى**" الحقيقيّ والأصل، الذي في الجنّة أيضاً وعلى ذلك الجبل والطود الشامخ، الذي يُذكّرنا بـ "**الطور ـ والبيت المعمور**" وأسفله "**البحر المسجور**".

هي كما تُترجم إي-كور، بيت الجبل("EKUR "Mountain-house)؛ إذ "كور" تعني الجبل، و"إي"="حيّ" أي الأحياء السكّانيّة، مكان الحياة، مجمع سكني، والنصّ يقول هذا أيضاً.

[1] – ونصّ آخر يرينا أنّ "نيبور/نفر" هي الجنّة تحديداً (**في الوقت الذي لمْ يكن قد خُلق الإنسان بعد، ويوم كانت مدينة "نفر" مأهولة بالآلهة فقط، كان فتاها هو الربّ "إنليل"**) وديع بشور، الميثولوجيا السورية، ص ٧٣، فالكلام هنا عن الجنّة قبل وجود الإنسان، فهي ليست إذاً مدينة "نفر" جنوب العراق التي بُنيت بأيدي ذرّية الإنسان بعد خروجه من الجنّة ببضع عشرات ألف من السنين.

❖ **فماذا عن تلك الأسطورة؟**

إنّ أقدم نصّ لهذه الأسطورة السومريّة ("**عندما رسم الآلهة المدينة**" أو "**إيتانا والنّسّر**") قدّ وصلنا من العصر البابلي القديم (٢٠٠٠- ١٦٠٠ ق.م)، وعثر عليه في موقع مدينة سوسة العاصمة العيلامية، كما وصلنا نصٌ منه آخر من العصر الآشوري الوسيط (١٦٠٠-١٠٠٠ ق.م)، ونصٌ ثالث من مكتبة آشور بني بعل من نينوى يعود للقرن السابع قبل الميلاد، وهو النصّ الأكثر اكتمالا ووضوحاً من بين تلك النصوص، وإنّ بعض المؤرّخين أوصل شواهد هذه الأسطورة ومضامينها إلى ٢٦٠٠ ق.م. أيّ أنّ الأسطورة دامت "مكتوبةً" أكثر من ١٣ قرناً إلى ٢٠ قرناً فيما يُعلَم، أمّا شفويّاً قبْل ذلك كم دامت؟ فالله أعلم.

وعلى خلاف الذين قرأوها بعين تاريخيّة أو أدبية أو جزئية عابرة، أو لتمرير فهم أو تحليلٍ معيّن على السومريّين الذين زعموا أنّهم غير ساميّين[1] (ويعنون أنّهم غير عرب) فكانت شواهدهم من هذه الأسطورة وغيرها بالتعلّق بترجمات خاطئة لمفردة أو لألفاظ وعبارات منها، وخلافاً للذين ظنّوا أنّها أسطورة تشويقيّة أو خرافية[2].

سنحاول نحنُ - بإيجاز شديد- فهْم ما تقوله الأسطورة، ببساطة الأوّلين، الذين كانوا قريبيّ العهد بالإنسانيّة الأولى، وكانت الحقائق والاعتقادات والطبيعة تشغل مساحة أذهانهم، لا الافتراضات ولا التنظيرات ولا الاجتهادات، ولا حتّى الأدب الشعبيّ إلاّ كقالبٍ يخدم السلوك والدين وتعليم الاجتماع السويّ والنظام الملائم. وكانوا

---

(١)- السومريّون غير ساميّين فعلاً، لكن لا على النحو المزعوم، فهم يقصدون كونهم غير ساميّين أنّهم غير عرب أيّ ليسوا من هذه المنطقة، بناءً على التقسيم الاستشراقي الاستعماريّ بعد تعميم فكرة توراة الكهنة وأنّ النّاس جميعاً هم من أبناء نوح؛ سام وحام ويافث، لكنّ الحقائق تُكذّبهم إذْ السومريّون قبل سام، وهم عرب، وليس الناس جميعهم أبناء نوح (ع).

(٢)- البعض عدّها خرافة لعسر تفسيرها لديه وعدم وجود ترابط بين جزئيها، وبإمكانك أنْ تعثر على مثل هذا الرأي لدى بعض المترجمين الغربيّين مثلما هو لدى د. إدزارد، قاموس الآلهة والأساطير، ص ٦٠، وقد أوردها أيضاً فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، ص٢٥١، ضمن فرع القصّة الخرافيّة.

يُجسّدون الفكرة ويُموقعونها في حياتها حسب محسوساتهم، كانوا بعيدين عن التجريد لأنّه يسمو عن الطبيعة، وهم يريدون أنْ يعيشوا الطبيعة، فأسماء الله الحسنى تتّخذ لديهم تشخّصات طبيعيّة لتناول الفكرة، فاللطيف قد يُجسّد بالهواء، والرحيم قد يُجسّد بالأم، والمعاقب قد يُجسّد لديهم بالرعد والبرق، وسنلفى في هذه الأسطورة الشمس (شمش) وهي تقوم مقام القيّوم، الشهيد، القائم على كلّ نفس بما كسبت، العادل، وجه الله الذي أينما نولّي نجده، الكاشف بنوره لكلّ خبء، هكذا ينبغي أنْ نفهم ترميزاتهم لئلاّ نجحف بهم.

ونحن سننقل النصّ، الذي هو عن ترجمة غربيّة، من كتاب (رينيه لابات، سلسلة الأساطير السوريّة) كما هو موجود بنسخ قريبة في كتب فراس السوّاح، وسومر أسطورة وملحمة ص ٢٥١، كما في الهامش، وموجودة مجملة في كتب أخرى كما في الميثولوجيا السورية ص ٢٢٧ وغيرها من مصادر، بل يستطيع المرء العثور عليها في الإنترنيت باسم أسطورة إيتانا (ETANA MYTH):

أ- النصّ الأوّل:

وضع الآلهة مخطّط المدينة..

وأسّس الآلهة المدينة..

وضع الآلهةُ أساساتها...

(التعليق: مضمون الأسطورة يُحاكي المشهد القرآني "**إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة**"، والمدينة هي الجنّة الأرضية المهيّئة للخليفة الأرضيّ كما قدّمنا أعلاه، بعد استقرار الأرض بكلّ موجوداتها وأساساتها التي هيّأتها الملائكة المدبّرون، وهي التي تنقلها التراجم أنّهم "آلهة" ونرى أنّ الترجمة المُثلى والأصحّ كانت "قِوى" أو "أرباب" في النصّ السالف والآتي وفي كلّ النّصوص، أمّا تعليقنا على الباقي فسنضعه أمام أسطر النصّ، بإيجاز مبالغ فيه)

والآلهـة الكبـار أنونـاكي محـدّدو الأقدار	(أنوناكي[1]: السادة الأنقياء/الملائكة الأطهار، يُحدّدون الأقدار في "يوم القدر")
تذاكروا وهم في المجمع بشأن البلاد	(مجمع الملائكة/الأرباب، حيث الجنّة الأرضية المقدّسة والمركز، والبلاد هي: الأرض)
مع آلهة الكون الذين يخلقون كلّ شكل	(المدبّرون من سادة الملائكة الذين خلقوا الأرض وهيّأوها، وخلقوا الكائنات بإذن اللّه)
مهيبة كانت الايجيجو في نظر البشر	(صنف الملائكة-الجنّ الزائرة الأرض "حجيج" منذ القدم، وهي متأجّجة "أجيجٌ")
لقد حدّدوا للبشر عيد رأس السنة	(بدْء اليوم الربّاني، رأس السنة، ٢٥ كانون الأوّل، يوم القدر، بداية الإنسان)[2]
دون أنْ يعيّنوا ملكاً يحكمهم	("البشر" موجود، لكن كبهائم ذكيّة، دون خليفة وملك)
فلم يكن حتى ذلك الزمان	
من عمَرةٍ أو إكليلٍ	(أيْ "آدم" لمْ يُوجد، ولا حضارة، ولا عقل مفكّر مدبّر، يصلح لتاجٍ وعرش)
ولا من صولجان مرصع باللاّزورد	
ولا مِن عرش قد أقيم حتى ذلك الحين	(العرش هو رمز المدبّر، الخليفة)
وكـان الآلهـة السـبعة يوصـدون الأبواب وراء البشر	(البشر فصيل غير مذكور لدى الملائكة ولا يُؤبه له، ولا اتّصال معه)

---

(1) – أنو-ناكي: أنو: أنا/ذات، ناكي: نقي/أنقياء، فهي أنقياء الذات/ الذوات النقيّة، أي الأصول، مبادئ الضرورات.

(2) – راجع بحث: ليلة القدر – عيد الخليقة، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

وفي الأماكن المأهولة

كانوا يوصدون الأبواب	(البشر لم يدخلوا الجنّة المأهولة بالملائكة، ليس بعد، إنّما بدأ ذلك بآدم فقط)
وكان الايجيجي يحيطون بالمدينة	(الملائكة المتأجّجة يُحيطون بالجنّة الأرضيّة/السماويّة "**والملك على أرجائها**")
وفي هذه الحالة	
كانت عشتار ترغب في إيجاد راعٍ للبشر	(هو الخليفة، ودور "عشتار" كقوّة واضح، لأنّه نسل بشريّ)
فكانت تفتّش عن ملك للبلاد	("عشتار أو أنينا" هي قوّة الخصب، والتخليق، والنسل، هي إحدى فعاليات الملائكة الصافّة)
وترغب " أنينا" في إيجاد ملك البلاد	(بمعنى أنّ "عين السماء" تبحث للأرض الزاهية، والطبيعة الأرضيّة، عن ملكِها)
فأخذ "إنليل" في التحرّي	
عن عروشٍ في السماء	(أيّ بين الملائكة إنْ كانوا يصلحون كخليفة ومدبّرين والعرش هو المدبّر[1])
ففتّش في كل مكان عن عرش الملك	
لأنه لم يكن بعد من ملك في البلاد[1]	(يقول المندائيّون: "أنّ روحاً أُحضِر من عالَم الأنوار" لتُودَع في آدم الكامل)

---

(1) – بهذا نستطيع تفسير كثير من الآيات غير المفسّرة إلاّ باعتسار وتكلّف ومجافاة للعربيّة المبينة مثل (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)(الحاقة:١٧)، (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)(البقرة:٢٥٩) فعروشها هم أهلها المدبّرون لها وتقوم بهم، في هذه الآية وفي التي مثلها (الكهف ٤٢) و (الحج ٤٥).

وعندئذ نزلت الملكية من السموات	(إنليل ربّ الروح نزل بالرّوح من السماء وبأمرِ جعْل الخلافة في أحد البشر)
فقرّر إنليل أن يخلق ملكاً للبلاد	(من البشر سيخلق إنساناً ملكاً للأرض، ونسله سيكونون أربابها ومدبّريها)
وآلهة البلاد.	(قدّمنا أنّ الصواب لكلّ كلمة "آلهة" لدى المترجمين هي "أرباب" أو "مدبّرون")

ب- النصّ الثاني:

فتح النسرُ فمَه وقال للحيّة

تعالي نتصالح نحن الاثنين

ولنكن شريكين أنت وأنا

فتحت الحية فاها وقالت للنسر

تعال إذن نعقد صلحاً أمام "شمش" (الشمس)

ولتكن هناك عقوبة شديدة لمن يخلّ بالعقد

وليكن لنا نحن الاثنين بمثابة محرّم من قبل الآلهة

تعال ننهض ونتسلّق الجبل

ولنقسم بالجحيم أن نبقى أصدقاء

وعندئذ أقسما اليمين أمام شمش:

منْ منّا يخل بقسم شمش

---

[1] - يقول أوفيد في كتاب مسخ الكائنات عن هذه الحقبة: (ولم يكن قد ظهر بعد بين الكائنات من اتّسم بطابع الآلهة، وكان جديراً بأنْ يملك الذكاء الخارق الذي يُتيح له أنْ يكون سيّد سائر الخليقة. ثمّ كان أن خلق الإنسان).

فليقدّمه شمش إلى يد الجلاد

من منا ينتهك حدود شمش

فليفقدْ الطريق ولا يعدْ يعرف الدرب

ولتبعدْه الجبال عن منافذها

والسهم الذي يطلق فليرتدّ عليه

وليصرعْه فخّ شمش المحرّم، ويجعله أسيراً

ولما أقسما بالجحيم أمام شمش

وبعد أن نهضا وتسلقا الجبل

ولّدا سوية وسوية ولّدا

وكان ذلك في ظلّ شجرة صفصاف حيث وضعتْ الحية فراخها

بينما وضع النسر فراخه فوقها

وفي يوم من الأيام بينما كل واحد منهما يراقب الكواسر

وعندما كان النسر يأتي بصيد من الثيران أو الحمار الوحشي

كانت الحية تأكل مع فراخها من هذا الصيد

وعندما كانت الحية تجلب من صيد العنز البري أو الغزلان

كان النسر يأكل مع فراخه من هذا الصيد

وعندما كان النسر يجلب من صيد فهود الصحراء ومن حيوانات البر

كان النسر وفراخه يأكلون بدورهم منها

فالنسر والحالة هذه كانت له حصّةٌ من الغذاء

كبرت فراخه وأصبحت بالغة

وبعد أن كبرت فراخ النسر ونمت أجنحتها

راودت النسر أفكارٌ سيّئة

وبعد أنْ راودته الأفكار السيئة

قرّر أن يلتهم صغار حليفته

ففتح النسر فاه وقال لصغاره:

إني سألْتهمُ صغار الحية

وحتى أفلتَ من غضب الحيّة

سأصعد إلى السموات وأستقرّ فيها

ولن أحطّ بعدها على رؤوس الشجر لآكل من ثمارها

فانبرى أصغر الفراخ وكان أذكاهم

قائلاً لأبيه النسر

يا أبت لا تأكلها لأنّ شبكة شمش ستنال منك

إن لعنة شمش ستطرحك وتأسرك

إنّ منْ ينتهك حرمة شمش

فإنّ شمش يحيله إلى يد الجلادين

ولكنّ النسر لم يُصْغ إلى كلام ابنه

وما كان منه إلا أن نزل والتهم فراخ الحية

في المساء عند المغيب عادت الحيةحاملةً بعض اللحم

ووضعته قرب جحرها

وتطلّعت فرأت عشّها قد اختفى

فانحنت ولكنها لم تجد فراخها

فبأظافرها فلحت الأرض

وارتفع الغبار من العشّ وغطى السماء

وبعدها نامت الحيّة وهي تبكي

انهمرت دموعها أمام شمش



النسر والحية والشجرة (الصورة: ١٤)

قائلة

لقد وثقتُ بك يا شمش البطل

إنّي قدّمت إلى النسر كل تقدمات الصداقة

لأنّي خفت من قسمك واحترمته

ولم أفكّر بالأذى تجاه صديقي

أما هو فقد بقي عشه سليماً وأما أنا فعشّي خرب

إنّ عشّ الحيّة أصبح مكان التوجّعات

فراخه بقيت سليمة بينما فراخي فقدت

لقد نزل والْتهم ذرّيتي

إنّ المصيبة التي أحاقت بي، نعم يا شمش، إنّك تدركها

فإذا كانت شبكتك بالحقيقة سعة الأرض

وحبالك ملء السموات الواسعة

فيجب ألاّ يفلت النسر من شبكتك

إنه صانع الشر والخطيئة

فلما سمع شمش شكاوي الحية

فتح شمش فاه وقال:

اسلكي هذا الطريق الذي يجتاز الجبل

ومن أجلك قتلت ثوراً وحشياً

فافتحي جنبه واثقبي بطنه

واستقرّي في بطنه

وعندئذ، فإنّ جميع طيور السماء تنزل لتأكل من لحمه

ويكون النسر قد أتى ليأكل من لحمه

دون أن يدرك الشقاء الذي سيحلّ به

ومن اللّحم فإنّه سيفتّش عن الرّخص

فيقترب من الدهن الذي يغطي الأحشاء

وعندما يلج أمسكي بجناحيه

اقطعي ريشه ورفلته

وانزعي جناحيه واطرحيه في جحر

حيث يموت من الجوع والعطش

وكما قال لها البطل شمش

ذهبت الحية واجتازت الجبل

وعندما وصلت إلى الثور الوحشي

فتحت جنبه، ثم ثقبت بطنه واستقرت فيه

وعندما أتت جميع الطيور

وحطّت لتأكل اللحم

فلو كان النسر على علم بما سيصيبه

لامتنع عن أكل اللّحم مع جماعة الطير

بيد أنّ النسر فتح فاه وقال لفراخه

هيا ننزل ونأكل نحن أيضاً من لحم الثور الوحشي

فقال أصغر فراخه وهو الأذكى

قال هذه الكلمات لأبيه:

لا تنزل يا أبت! ربما كانت الحية كامنةً في جوف الثور

ولكن النسر لم يأبه له فقال:

سأنزل وآكل من لحم الثور الوحشيّ

كيف يمكن للحيّة أن تأكلني

إنّه لم يصغ إلى فراخه ولم يصغ إلى ما قاله ابنه
فنزل وحطّ فوق الثور الوحشيّ
وفي المرّة الأولى دقّق النسر في اللحم
ليرى كل شيء أمامه وخلفه
وبالدرجة الأولى دقّق في اللّحم
فتّش كل ما يمكن أن يكون أمامه وخلفه
وأخذ يتقدّم خطوة خطوة وبكل حيطة
حتى وصل إلى الدّهن الذي يغطي الأحشاء
وعندما دخل تعلّقت الحيّة بجناحيه
ففتح النسر فاه وقال للحية
اشفقي عليّ وسأقدم لك هديّة لو كنت خطيبتي
غير أن الحية فتحت فمها وقالت:
إذا تخليت عنك فبماذا أجيب شمش في الأعالي
إنّ نتائج عقابك سترتدّ علي
العقاب الذي أنا بالتأكيد سأفرضه عليك
وما كان منها إلا قطعت ريشه ورفلته
ونزعت جناحيه وطرحته في جحر
حيث يموت من الجوع والعطش
وفي كل يوم كان النسر يتضرّع إلى شمش ويقول:
هل حقاً سأموت من الجوع في هذا الجحر
من يعرف أنّي أُسام هنا من قصاصك
أنا النسر دعني أعيش
وإلى الأبد سأمجد اسمك

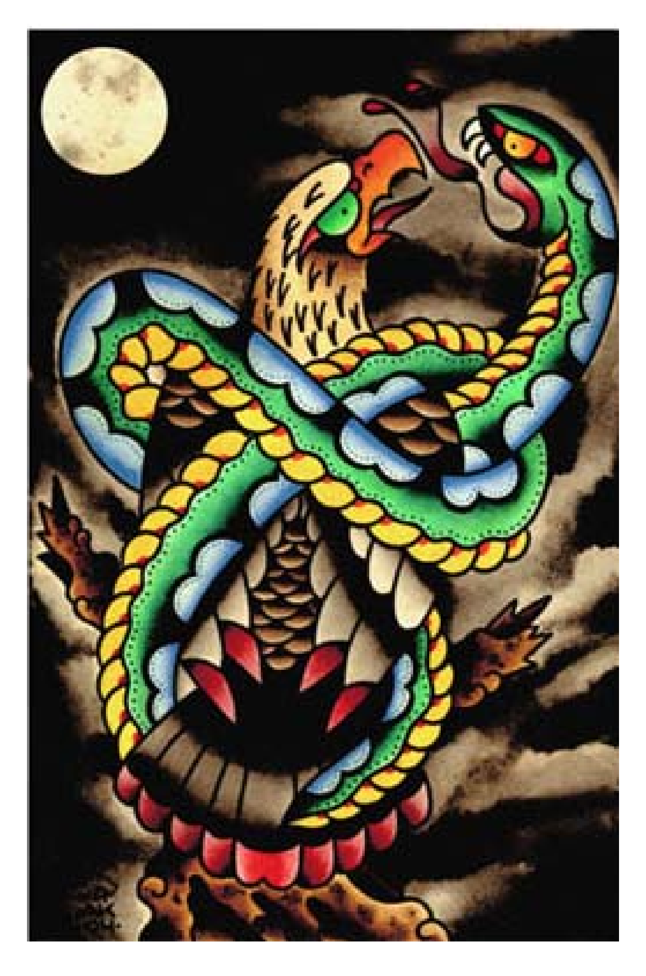
فتح شمش فاه وقال للنسر:

أنت كنت سيئاً، لقد قرّحت قلبي

لقد انتهكتَ حرمة الآلهة وكلّ محظور

وحتى إذا أشرفْت على الموت فلن أقترب منك!

ولكن لا فسأرسل لك إنساناً يساعدك. (انظر الصورة: ١٥)



الحيّة تقبض على النسر (الغريزة تسيطر على العقل/الهمجيّة تصطاد آدم)

(الصورة: ١٥)

أسطورةٌ متشعّبة تُتاخم الخرافة، حُبكتْ في تفاصيلها، حتّى بدتْ وكأنّها تصلح فقط لمسرحيّات الأطفال، وهذا ما حصل فعلاً حيث صيغت هذه الأسطورة لمسرحيّات الأطفال. ولقد احتار الباحثون جداً في النصّ الثاني الآنف، ومدى علاقته بالأوّل عن تصميم الأرباب المدينة أو المركز الربّاني، ولماذا عُطفتْ بعده مباشرةً، فمعظمهم يئس من إيجاد رابط، حتّى قالوا أنّهما قصّتان غير متجانستيْن، فما ارتباط تنصيب ملك للبلاد، خليفة للبشر، حيث مجمع الملائكة والربّ إنليل، بنسر وحيّة تحت ظلّ شجرة؟

وآخرون اجتهدوا في مغازٍ مفترضة بعيدة، والبعض قال أنّ الثانية مقحمة بغرض التشويق، وقد استبعد المفكّر الأستاذ "فراس السوّاح" التفسير الذى يرى فى قصة الحيّة والنسر حكاية ذات طابع تشويقىّ تم إدماجها فى السياق العام للقصّة الرئيسة لأغراض أدبيَّة محضة. فرأى أنّ التلازم الطويل بين القصتين فى جميع النصوص التى وصلتنا من الأسطورة، وعبر أكثر من ألف عام، يدفعنا إلى استبعاد هذا التفسير.

ويُعذَر أولئك الباحثون فعلاً، لأنّ مسألة إيجاد رابطٍ هو أمرٌ عسير حتماً بلا تكلّف فجّ بل هو مستحيل بالفعل، ما لمْ تتفسّر الفقرة (القصّة) الأولى كالتي أوردْنا لا كالذي أوردوا، وما لمْ يُتنبّه إلى بعض العبارات النصّية كمفاتيح، من أنّها تتكلّم عن خلق الإنسان الأوّل (آدم) الخليفة ملكاً على الأرض ووارثاً لها، في ذلك الموضع المهيب حيث مجمع الأرباب والجنّة الأرضية المقدّسة (لا في مدينة "كيش"، وإنْ كان من تلميح على أنّها "كيش" فلتشخيص الفكرة وتفعيل واقعها و"تبْيئتها[1]"، ذلك أنّ الأسطورة هي

[1] – التبيئة: هو جعل الشيء متكيّفاً مع البيئة الجديدة المنقول لها، وبها يمكن المحافظة على عناصر القصّة من جهة وتسهيلها للعامّة من جهة أخرى، باستخدام أسماء البيئة الجديدة، كما كان "إنليل" في الملاحم السومريّة، صار "مردوخ" في بابل، و"آشور" في آشور. وكما كانت "أنانا" السومرية (العينان)، "عشتار" البابلية (مشيعة العترة)، و"عناة" الأوجاريتية السورية (العناية)، و"أنتا" (الأنثى الأمّ) ثُمّ "إيزيس" المصريّة (الحازية البصّارة)، و"العزّى" لدى عرب الجزيرة، و"أفروديت" الإغريقيّة (أنف الروْض)، و"فينوس" اليونانية (فانوس)، لكنّ الدوْر وسمات الشخصية هو نفسه، وكان رمزها نجمة الصباح والمساء أو"الزُهرة" رمز الشعلة والعين الساهرة لحراسة الحياة وإبقاء جذوة الحبّ، فهي قوة الحب والخصب والتزاوج والحياة والغرائز والجمال والنور.

ثقافة شعبية لا نخبويّة متعالية، فالمدينة مقدّسة، والبيت، والأسرة، والزواج، والريّ، والزراعة، والنظام، والملوكيّة، كلّها مقدّسات لأنّها عناصر تمّدين الإنسان وربطه بخارطة القوى الإلهيّة وبمفهوم الخلافة والتمكين.

فتأتي الفقرة (القصّة) الثانية حسبما نُرجّح، لتكشف عن طبيعة هذا المخلوق الجديد الذي اختير ملكاً بأمر السماء، وتركيبه السيكلوجي المُستحدَث، فجاءت بقصّة مشوّقة مرموزة أشبه بالخرافة، وبتفاصيل مضافة للحبك القصصي، ولتحكي بها الصراعَ الأوّل الذي اعتمل في التكوين الإنساني الغضّ، بين شقٍّ رفيعٍ فيه (العقل والذكاء – النسر الروحانيّ) الذي له الهيمنة ويستطيع أنْ يُحلّق بصاحبه في الأعالي ويرفعه إلى السماء أو يهوي به في الحضيض، والشقّ الآخر دانٍ (النفْس – الحيّة الأرضيّة) بحاجتها وغرائزها وعفويّتها، "فالحيّة" جاءتْ رمزاً لأيٍّ "نفسٍ حيّة" فهي نفس حوّاء مرّة، نفس آدم مرّةً ثانية، نفس إبليس مرّة ثالثة، هي بإطلاقها مركّب "النفس الحيّة".

ففي التعاهد الأوّل بين النسر والحية هو "صعود آدم وحوّاء" الجبل وسكنهما في الجنّة "**الوارفة الظلال**"، وأكلهما الرغد كلّ يوم، حسب التعبير القرآني، كلّ واحد مع شريكه وكلّ واحد مع نفسه. (حوّاء لها نسر أيضاً هو عقلها، ولها حيّة هي نفسها، لكنّها خارج القصّة لأنّها لمْ تُخطئ خطأ آدم)، ونلاحظ أنّهما يُقسمان بالجحيم لأنّ الجحيم هناك أسفل الجبل، ويفصله عن الجنّة سورٌ، كما بيّن القرآن، ويُسمّيه البابليّون "نار-جال" أي النار الجليلة، أو النار المُحيطة (التي تجول).ثمّ بدأ آدم بكسر هذه الشراكة وهذا التوازن الروحيّ-النفسيّ (العلويّ-السفليّ)، فظلم آدم (العاقل) النفس (الحيّة) وهي شريكته، أوّلها نفسه وثانيها نفس حوّاء معه، فالحيّة – النفس الطبيعيّة، والنسر – الإنسان السامي.

نجد أنّ الإنسان السامي ينحطّ ليأكل فراخ الحيّة، أيْ أنّه صار يقتات من الغرائز، ممّا تُفرّخه النفس، وقد يكون فراخ النفس (أفكارها) من إبليس لأنّه "يُفرّخ في صدر الآدميّ أفكاره" حسب التوجيه النبويّ، فحين أكل السامي- النسر (العقل) فراخ الدانيّ- الحيّة (النفس) أخلّ بالتوازن النفسي والسلام الأبديّ.

بينما فرْخُ النسّر (أيّ الضمير وهو آخر عنقود العقل وأصغر أبنائه، وأذكاهم لأنّه دائماً متوقّد) يهتف به "**لا تفعل**"، "**وأنّ المنتهك لحدود الرقيب (شمش) سيفقد الطريق ولا يعود يعرف الدرب، ولتبعده الجبال عن منافذها، والسهم الذي يطلق يرتدّ عليه**"، وهذا بالضبط وبالتمام ما سيحصل لآدم حين انحدر عقلُه ليقتات من غرائز النفس وفراخها، الأمر الذي حرمه من تكوين ذرّية إلهيّة (سمائية) غير مشوبة بالبهائميّة من حوّاء، وهو صار يعتقد أنّه بأكله المحرّم من الغرائز سيجعله ملَكاً سماوياً (**سأصعد إلى السموات وأستقرّ فيها، ولن أحطّ بعدها على رؤوس الشجر لآكل من ثمارها**)، وهذا بالتمام أيضاً وعْدُ إبليس له كما بيّنه القرآن أنْ "يكون ملَكاً يصعد حيث شاء، أو يكون من الخالدين لا يحتاج الأكل"[1].

ولماذا "شمش" أي الشمس بالذّات دون باقي القوى الرامزة للصفات الربّانيّة؟ لنقرأ ما يقوله "كريمر": (والواقع أنّهم -أي السومريّين- قد خصّوا عدّة آلهة بالإشراف على النّظام الأخلاقي بكونه وظيفتهم الأساسيّة، كالإله الشمس "أوتو")[2]. إذن خطيئة "آدم-النّسر أخلاقيّة لا غير.

فحين انحدر آدم العاقل (النسر) ليُصبح هو "**صانع الشرّ والخطيئة**"، عُوقب بالطبيعة نفسها، من الحيّة نفسها، أيّ من النفس مطلقاً، ومن "**شبكة الأرض الواسعة**"، باستدراجه خارج الجنّة وخارج وكْره ومأمنه، وهذه المرّة النفس (الحيّة) تأتي مختبئة في جلد ثور (طُعْماً) ليفترسها آدم-النسر، هذه "النفس-الحيّة" هي الآن تمظهرٌ لإبليس[3] ساق لآدم أنثى بهائمية ليُعاشرها وهو يضمر له الشرّ لاصطياده

[1] - هذا الرأي من إيماء الآية لا من ظاهرها، من مفهومها لا منطوقها، وإلاّ فظاهرها حسب السياق قد بيّناه في الفصل الثالث، بخلاف ما قاله المفسِّرون قاطبة.

[2]- صامويل كريمر، من ألواح سومر، ص ١٩٣.

[3]- لقد حفل كلام الأنبياء بترميز إبليس بالحيّة (فقبض على التنين الحيّة القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيّده ألف سنة)(رؤيا٢٠ : ٢)، وعن النسر أنّه الرّوح أو التسديد والعقل (فأعطيت المرأة جناحي النسر العظيم لكي تطير إلى البرية إلى موضعها حيث تُرَبّى زمانًا وزمانين ونصف زمان من وجه الحية)(رؤيا ١٢ : ١٤).

وحبسه في الأرض بعيداً عن جنّته وسموّه، (والثور كان دائماً رمز الإخصاب)، فهبط إلى الإخصاب، إلى اللّحم، من علوّه من الجنّة ليقتات من الغرائز، و"أخلّ بالعقد" مع حوّاء، وارتكب الـ "**محرّم من قبل الآلهة**"، و "**أكل من اللحم وفتّش عن الرخص**"، "**حتى وصل إلى الدهن الذي يغطي الأحشاء وعندما دخل**"، أوصاف دقيقة لا تخفى، لحالة استيلاء الغريزة الجنسيّة وإيقاعها!

"**فلو كان النسر** (آدم) **على علم بما سيصيبه لامتنع عن أكل اللّحم مع جماعة الطير**" مع أولئك البشريّين الهمج، وقالت له الملائكة التي تخدمه لا يُخرجنّك الشيطان منها فتشقى، ولكنّه خرج ونزل وأكل، وحذّرته بوصاياها كما يُخبر التراث "إيّاك أنْ تخرج إلى هؤلاء البشر فإنّ إبليس يختبئ لك فيهم"، ونجد هنا "**لا تنزل يا أبت! ربما كانت الحية كامنة في جوف الثور**"، لكنّ آدم-النّسر أصرّ، وخدعه غروره فعصى وأكل منها وغوى، "**سأنزل وآكل من لحم الثور الوحشي، كيف يمكن للحية أن تأكلني!**"، "**فاصطادته شبكة الأرض**" لأنّه أخلد إلى غرائزها، وجرى عليه القانون الإلهي أنّ "**مَنْ منا ينتهك حدود شمش، فليفقد الطريق ولا يعُدْ يعرف الدرب، ولتبعده الجبال عن منافذها**" فصار آدم بعد هذا الانتهاك -دون حوّاء- لا يدلّ طريق الرجوع إلى الجنّة وأُهبط وأُبْعِد عن منافذ تلك الجبال المقدّسة.

ثمّ – حسبما سيأتي- سيتكلّم باقي النصّ بوضوح عن عقاب آدم بسجنه في الأرض، وشكواه لعدالة السماء (الشمس) التي تراه وترى مسكنته، وتصف ضجيجه وبكاءه وتضرّعاته اليوميّة رغبةً في العودة للتحليق في الأعالي حيث المقام الأوّل المفقود في الجنّة وفقدانه "**ريش**" جناحيه أي صلاته الروحية التي تقطّعت بالملأ الأعلى، فصار من أولى مهمّات آدم، ليعود كائناً سامياً يطير في السماء، أنْ يحفظ قانون الزوجية الذي انتهكه، ويجلب النبتة (التعاليم السماوية) لإنجاب ذرّية صالحة إنسانيّة، لا همجيّة هجينة، مع حوّاء فقط، وعليه أنْ يُعلّم ذلك الآخرين (وكلّهم من أبنائه)، وصار على كلّ إنسان عاقل وهو النسر في نهاية المطاف يروم هذه الرفعة في جوار الملائكة الأبرار أنْ يكون كرسول السماء، يرفع الناس والمحتاجين والسائلين والآتين (يمثّلهم إتانا)، فوق جناحيه (**واخفض جناحك للمؤمنين**) إلى عالم السموّ "**سموات آنو**" من بوابة السماء (بيت الآلهة) وهي الجنّة التي هي "**بابِل- باب إيلِ**" باب الله كما يقولون، ولا يمرّ هذا

السموّ والنجاة إلاّ عبر الحفاظ على الدعوة للّه (**يا صديقي إنّ السموات رائعة، تعال لأنهض بك إلى سموات "آنو"**)، وعبر الحفاظ على "القداسة الزوجية والأسرة" والإصرار على "إنجاب أبناء/سلالة سماويّين شرعيّين" فقط.

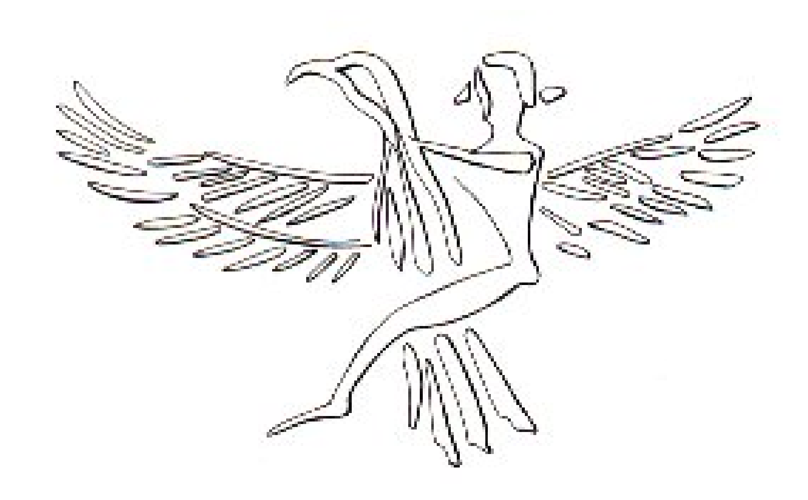
هذا، حسبما يبدو، ملخّص ما تقوله الأسطورة. والتي صارت تُتلى كحكاية ملوكيّة أشبه بتعويذة لهم، وكدعاءٍ لالتماس الذرّية الصالحة، وباعتناء السماء بتسديدهم، مع أنّ تفاصيلها الدقيقة كما رأينا تنوء بأمرٍ عظيم.

وإنّ أوّل معنى لرمز "**إيتانا**" هو آدم نفسه، لأنّه أوّل ملوك الأرض، كما يُخبر النصّ الأوّل، فكان يريد الإذن (إيذان/إيتان) بإنجاب الذرّية الصالحة من حوّاء في الأرض، بعد تلك الخطيئة التي حرفت مسار الإنسانيّة كلّها، حتّى تاب اللّه عليه (**النسر**) وأخرجه من العقوبة "**الحجر**"، وقدّمت له السماء "العصافير" وهي كلمات التوبة (**فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه**) = (**فتناول النسر العصافير** -من شمش- **واستعاد قواه**)، ثمّ كان مطلوبه إنجاب الذرّية الصالحة، ونعلم بهذا لماذا تأخّر سنّ إنجاب آدم، لأنّه بقي في العقوبة ردحاً وفي الندامة زمناً طويلاً، حتّى سأل الذرّية الصالحة (**اكشف لي عن النبتة التي تؤدّي إلى الإنجاب، أزحْ عن كاهلي هذا الثقل واجعل لي اسماً**).

وهذا الترميز يدلّنا أنّ الإنسان ليس له نهوض إلى الأعالي وإلى السماء إلاّ بواسطة عقله (نسره)، فإذا كان عقله حبيس الرغبات أو العقوبات فعليه أوّلاً أنْ يُطلق العقل ويفكّ هذا الأسر ويسترضي السماء بالعهود على الأعمال الصالحة، وإلاّ فالسماء لا تُصغي لمن ليس له وسيلة تحليق ووصول.

ولذلك نرى، سقوط "إيتانا" مرّةً ومرّتين، في صعوده للسماء، ونرى النسر يتلقّفه المرّة بعد المرّة، لأنّ الإنسان (إيتانا) متى ما سقط نسره (عقله) فليس له شيءٌ يُوصله للسماء ويرفعه، وسقوك العقل هو بقناعته بالباطل والغرور كما فعل آدم بقناعته بقول إبليس، أمّا إذا لمْ يسقط العقل-النسر، فإنّه يعرف الخطأ والصحّ، ما يعني أنّه قادرٌ على التحليق، فقد يسقط صاحبه غير عامد في خطيئةٍ معيّنة وعقله يعلم أنّ ما

يفعله خطأ وعن هوى، فهذا لا تنقطع عنه يد الإله أن ترفعه لأنّ عقله/نسره معه[1]. (انظر الصورة: ١٦)



نقوش الأكاديّيين لإيتانا يحمله النسر (الصورة: ١٦)

والأسطورة -عمداً- قد جعلت من شخص إتانا كائناً إنساناً مستقلاً ثالثاً — كما فصلتْ بين النسر والحيّة- لسببين:

الأوّل: لأنّ هنا يبرز أوّل معلَمٍ لظهور الإنسان الأرضيّ خارج الجنّة، بتشخّص آدم وزوجه حوّاء، وهذا إنّما حصل مع التوبة تماماً حيث تعرّف آدم لحوّاء مرّةً أخرى.

الثانيّ: ليكون رمز "إتانا" امتداداً تاريخيّاً لكلّ خليفة ربّانيّ، ولكلّ زوج صالح يأتي، أنْ يطلب ذرّيته الصالحة من "السماء" من "باب اللّه" وعبر تعاليمه فقط،

---

[1]- قارن صورة النسر المحلّق بصديقه، والعقل الذي يحملُ صاحبه ويرفعه ويسمو به في التراث الإسلامي، ملاحظاً ما تحته خطّ، إذْ يقول نبي الأمّة (ص) (إنّما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم)، وقوله (ص) (إنّما يُدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له)، وقوله (لكلّ شيء مطيّة ومطيّة المرء العقل)، وقول عليّ (ع) (أفضل حظّ الرجل عقله، إنْ ذلّ أعزّه، وإنْ سقط رفعه)، وغيرها .. (محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ص ٢٠٣٢ وما بعدها).

فالأسطورة لا تريد أنْ تقصّ الحادثة كمُؤرِّخ تاريخيّ يُخاطب العقل العلميّ، بمقدار ما تريد أنْ تُناجي الرّوح والوجدان بالموعظة وتُبقي فائدة الدّرس للأجيال. فاقرأ التكملة:

وكان إيتانا[1] يتوسل إلى شمش كل يوم

أيها السيد تلفظ بأمرٍ من أجلي

امنحني نبتة الإنجاب

اكشف لي عن النبتة التي تساعد على الإنجاب

ارفع عن حملي واجعل لي اسماً

فتح شمش فاه وقال لإيتانا:

امش في هذا الدرب واجتز الجبل

انظر الى ثقب وانظر إلى ما في داخله

ففي داخله يوجد نسر

إنه هو الذي يكشف لك عن نبتة الإنجاب

وكما قال البطل الإله شمش

أخذ إيتانا طريقه واجتاز الجبل

---

(1)- لم يُطلعنا الباحثون سرّ تسمية الرجل "إيتانا" سوى تتبّع أنّ أوّل ملوك سلالة كيش كان يُدعى "إيتانا"، ولا نشكّ في هذه المعلومة، لكنْ بدلاً من تحويل كامل الأسطورة على الملك، لماذا لمْ يكن العكس، فالأسطورة لا تُخبر بأنّ "إيتانا" ملك، بل لا يملك قدرة الإنجاب، وتوسّلاته للسماء، فليس فيها بهرجة ملوكيّة، فتبقى المسألة مرهونة بالمختصّين باللّغات، ليتتبّعوا الاسم "إيتانا"، هل هو أصله "إيذانا"؟ هل هو من "إتيانا" من الفعل "أتى" أو "آتى" أي أعطى؟ هل هو من "أثّ/أتّ" حيث تمّ تأثيث جناح النسر بالريش؟ هل هو من الفعل "حتن/ختن" وهو النسب والصهر الذي به تتولّد الشعوب، والتي جاء تسمية "إثني" منها وزعموا أنّها يونانية؟ أم هي ببساطة تعني "الثاني" حيث "إيثان" = إيتان =الإنسان الثاني، الآدمي الثاني..

رأى الثقب ونظر إلى ما في داخله

فرأى فيه نسراً مقعداً

وهذا ما دبره شمش أخيراً من أجله

فتح النسر فمه وقال لشمش سيده:

إذا أخرجتني من هذا الحجر

وإذا قدّمت لي عصافير واستعدت قواي

فسأعمل كل ما يقوله

شرط أن يقوم بكل ما أقوله له

وبناء على أمر البطل، أخرجه إيتانا من الحجر

فتناول النسر العصافير واستعاد قواه

وعندئذ فتح النسر فمه قائلاً لإيتانا

أنت إذن، قل لي لماذا أتيت إلى هنا

فتح إيتانا فمه وقال للنسر:

يا صديقي أعطني " نبتة الانجاب"

اكشف لي عن النبتة التي تؤدي إلى الإنجاب

أزح عن كاهلي هذا الثقل واجعل لي اسماً

قال النسر "لإيتانا"

يا صديقي إنّ السموات رائعة

تعال لأنهض بك إلى سموات " أنو"

ألصق صدرك بصدري

وضع يدك على طرف جناحي

وطوق بذراعيك أعلى الجناح ...

وبعد أن صعدا إلى سموات آنو

اجتازا باب آنو وأنليل وإيا

فسجد النسر وإيتانا معاً ـ الخ

سأحلّق بك إلى أعلى من هذا في السماء...

وبعد فرسخين سقط (أيّ إيتانا)

وسرعان ما هبط النسر والتقفه فوق ظهره ـ الخ (انظر الصورة: ١٧)



رسم تخيّلي لأسطورة إيتانا فوق النسر، تحليق الروح بصاحبها لتريه العوالِم اللامرئيّة له ككائن أرضي (الصورة:١٧)

ثانياً- أسطورة "أوزيريس وسيت وحورَس" في بلاد النيل

أوّلاً، نُلفتُ الانتباه، أنّ أسماء أبطال الأساطير وشخصيّاتها الفاعله، تبدو متحرّكةً على ثلاث مستويات على الأقلّ:

١- المستوى (الأوّل) الكوني (قصّة الكون)، حيث مظاهر الطبيعة وقواها المُحرّكة (القوى الربّانيّة).

٢- المستوى (الثاني) الإنسانيّ البدئي (قصّة الإنسان)، وتشكّل الخليقة، حيث آدم الإنسان وذرّيته وقصصهم.

٣- المستوى (الثالث) المعاصَر (قصّة الحضارة)، حيث تاريخ الحضارة صاحبة الأسطورة وأبطالها وملوكها ومعلّميها.

فسنجد أنّ الاسم الواحد يتجلّى في القصص جميعاً (قصّة الوجود الكوني، والإنساني، والمعاشي)، وتختلط الأمور بالتماهي بين المستويات والانتقال الرمزي من مستوى لآخر، وهذا ما أربك مفسّري الأساطير، وأورث الظنون بأنّ تلك الشخصيات آلهة تُعبَد، قياساً بحضارة الإغريق وكذلك بمشركيّ العرب والأمم الذين فعلاً ألّهوا بجهلهم تلك الأسماء.

وثانياً، لا يخفى أنّ الشعوب قدْ دأبَتْ "تُوطّن" فيها قَصص التاريخ الإنساني البدئيّ (المستوى الثاني)، بهذا ظنّ كلُّ شعبٍ أنّه أصلُ دُنيا النّاس، لأنّ قصّة الأصل سيقت للتداول مركبّةً على شخوص أبطال وقدّيسيّ تاريخ ذلك الشعب أو ذاك، فلا عجب أنّ "نوحاً" مع أنّ القرآن قدْ "مَوْقَعُه" في جزيرة العرب، إلاّ أنّنا نراه موجوداً كمُواطنٍ لدى السومريّين، ثمّ البابليّين، ولدى الهنود أيضاً، بل وعند قبائل أمريكا اللاتينيّة كذلك، بل هناك لا أقلّ من ٣٣ وثيقة تاريخيّة كلّها تُمركز بطل الطوفان لديْها، لحقيقة أنّ الشعوب صارت تتّخذ من أسماء آبائها الأوائل أسماءً لتلك القصص الربّانيّة المُوحاة أو العكس، كما رأينا "إيتانا" رمزاً لآدم في بابل، ولدى الإغريق تماهى السيّد "زيو/ضيو =ضيا" وهو "زيوس" الفينيقي مع بداية الخليقة الإنسانيّة وصيّروه ربّاً فعلاً لا مجرّد ربّ مدنيّةٍ وحضارة وتعليم، فالتاريخ -على مستوى الأسماء

والشخصيّات على الأقلّ- يبدأ لديّها من أصول آبائها، وكذلك العرب، بدأوا بآدم الرسول (ع) ونصبوه بداية للتاريخ الإنساني، لأنّهم اندثر لديهم ما قبله عدا عن عدم بزوغ التدوين بعد، والبداية بآدم الرسول صحيحٌ كحضارة، لكنّه غير صحيحٍ كتاريخ.

أمّا عربُ وادي النيل فقد بدأوا بـ "تحوط/Tehuty/Thoth" (ذو الإحاطة بالأسرار، وهو لدى شعوبٍ أخرى "هرمز" مُعلّم الرمز/وإدريس المُدرّس/أخنوخ: أخ الإناخة أي معلِّم التوطين من وسائل استقرار وتمدّن واستيطان)، فقد بدأوا بإدريس مع إيزيس وأوزيريس فعلاً وكحقيقة تاريخيّة، إذْ كان لهؤلاء الثلاثة فعلاً فضلٌ على العالَم بنشرهم العلوم الإنسانيّة، وأسّسوا حضارةً في مصر قبْلَ الألف الخامس قبل الميلاد وعلّموا الناس الزراعة هناك والملاحة والكتابة والحساب والفلك والمهن الصناعيّة ونبْذ الهمجيّة وتدشين الأسرة والنظام الاجتماعي، لكنّ النّاس بعد دهورٍ مديدة ماهوا بين تلك الشخصيّات (أسمائها) وبين أصول الخلق من جهة أولى وبداية التاريخ العالَميّ الإنساني من جهةٍ أخرى، فتماهت "إيزيس" مع القوّة الخصبيّة الأولى مرّة، العناية (أنات/إينانا/عشتار) مثلما جسّد الإغريق "أفروديت" و"فينوس" بدلاً منها، فبعد أن كان أوزيريس، وسيت، وإيزيس، ونفثيس (أو نفسيس) أبناء لـ "**نوت** Nut" أيّ الماء البدئي الأوّل و "جِبّ Geb" أيّ الأرض كمنشأ لقوى الخليقة (وهذا في مستوى قصّة الكون)، تمظهرت تلك الأسماء مرّةً أخرى مع بداية الخلق الإنساني فكانوا أبطالاً لقصّة أسطوريّة أخرى، هي قصّة الخطيئة الأولى وصراع الإنسان (أوزيريس) والشيطان (سيت)[1] (مستوى قصّة الإنسان). (انظر الصورة: ١٨ - ٢٧)

---

(١) - بإمكان الرجوع إلى هذه الأساطير وشخصيّاتها وما ننقله من تعليقاتٍ مقتبسة - عدا ما بُيِّن بشكلٍ خاصّ- إلى الموقع الإلكتروني:

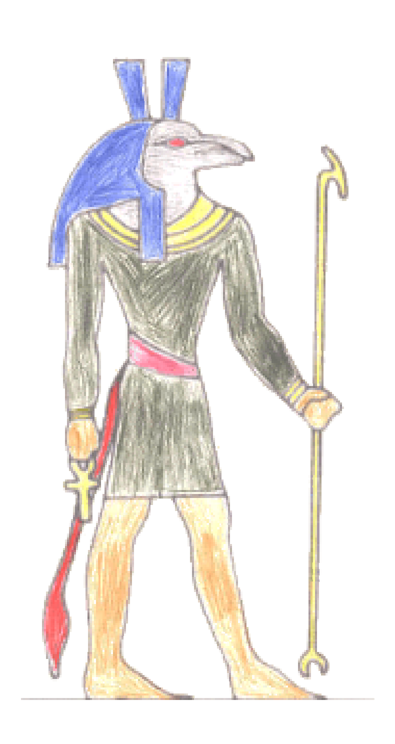
http://www.egyptianmyths.net/section-myths.htm



أوزيريس **osiris** (الصورة: ١٩)



إيزيس **Isis** (الصورة: ١٨)



سيت/شيط **seth** (الصورة:٢١)



تحوت/ت-حوط: ذو الحوّط (الإحاطة) الـذي علّـم الكتابـة ودرّس العلـوم (إدريـس) ووضع الرموز (هرموز) (الصورة:٢٠)



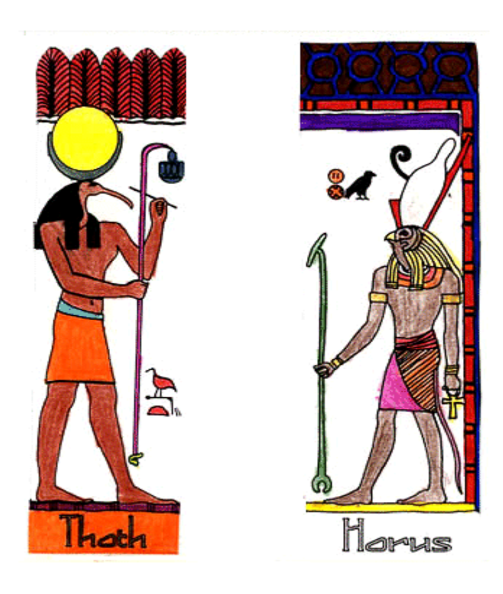
حت- حور **hathor** (الصورة: ٢٢)



إيزيس وابنها حورس (الصورة: ٢٣)



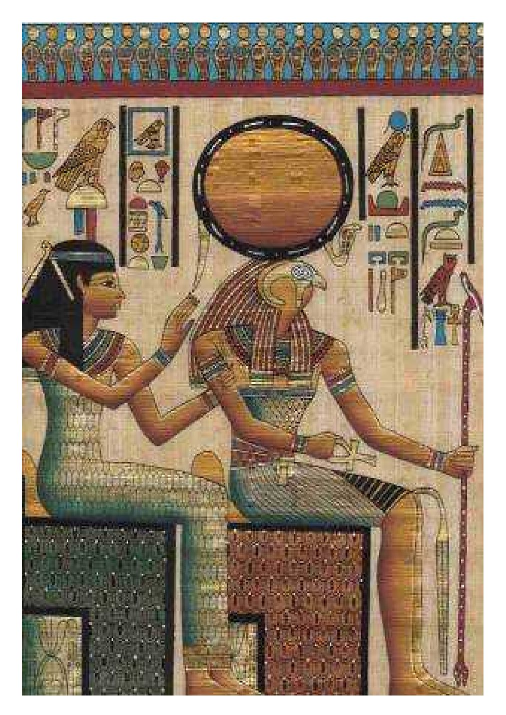
سخمت/شكمت **sekmet** (الصورة: ٢٤)



تحوط (إدريس) يساراً، وحر (حورس) الحارس يميناً(الصورة: ٢٥)



أنوبيس **anubis** (الصورة: ٢٦)





حورس وزوجته حت-حور (الصورة: ٢٧)

فالخلاصة أنّ هناك فعلاً شخصيةً تُدعى "أوزيرس" لها تاريخ يرجع ربّما إلى أكثر من ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد وله زوجة تُدعى "إيزيس" جابوا الأقطار العربيّة كمعلّمين مع النبيّ "إدريس"، هاتان الشخصيتان (أوزيرس وإيزس) حين تتماهى ثانياً مع القصّة الإنسانيّة الأولى تلجُ شخصيّاتٌ في القصّة مثل "سيث" و"نفتيس"، وحين تتماهي مرّةً ثالثة مع قوى الكون والطبيعة يُمثِّل "أوزيرس" "بعل/أدونيس" خصْب الزروع لدى السوريّين الذي يُقطَّع ويموت وهو "تموز" لدى البابليّين، وبالتّالي تُمثّل زوجته "إيزيس" القوّة الباعثةَ له، قوّة الخصب والحياة (إنانا، عشتار، عنّاة، فينوس ... الخ).

مُلخّص قصّة الأسطورة أنّ أربع شخصيّات إخوة (في الخلْق) أبناء (صنائِع) للربّ، "أوزيريس" الصالح، وزوجته الصالحة "إيزيس"، و"سيت" الشيطان الحاسد لأخيه الصالح والمُبغض لزوجته الصالحة، ثمّ "نفثيس" المتلوّنة رفيقة "سيت" الشيطان من

جهة والتي أغرت "أوزيريس" في غياب زوجته ليُعاشرها هي بدلاً من زوجته في سكْرة عقله، وكان هذا سبب قتل "سيت" "لأوزيريس"، ثمّ لملمت "أوزيريس" أوصال زوجها وأحيته بكلمات ربّانيّة سحريّة وأتت منه بالذرّية "حورس" التي اعتنى بها الربّ "رع" وانتصرت الذرّية "حورس" على "سيت" الشرير بعد صراع مرير.

ويُوجز صاحبُ كتاب الميراث العظيم القصّة بقوله (إنّ "ست" يُصارع أخاه "أُسير" (أوزير) على ملكيّة أرض الربّ "جب أت" .. ويصرعه، فتبحث "إيسة" (إيزى) عنه حتّى تجده في "نديت" مقتولاً فتُحييه مؤقّتاً كي يُولدها "حُر" الذي يكبر بسرعة ويُصارع "ست" صراعات أسطوريّة جانبيّة، ثمّ يشكوه أخيراً إلى مبادئ الكون: الأرباب السابقين، وعندها يستعيد حقّه بالملكيّة، أيّ بالسيادة على الحياة البشريّة في أرض الربّ).[١]

و"نديت" مؤنّث "نُد/نُتء" يُذكّرنا بأرض "نود"، و"نودي" حيث آدم وأبناء آدم، وهو الجبل ومرتفعات السراة "نُد = نُتء" البروز الأرضي أو الجبلي، والندّ التلّ المرتفع في السماء[٢]، فـ "نُد/نُتّ" أرض جبلية مرتفعة، والأرض الغليظة تُسمّى "نَهْض" وستُلفظ بالسريانيّة والغربيّة اليوم "نَدّ" أيضاً. وإذا علمنا أنّ أدواة التعريف في لهجات العرب هي أربع: اللام، الذال (سواء لُفظت تاء أو دال أو زاي)، الميم، الهاء (وإن لُفظت ألفاً)،[٣] فسنُدرك كيف من جذر (النون والدال) أو (النون والتاء)، التي بمعنى الأرض

---

(١) – أحمد يوسف داؤد، الميراث العظيم، ص ١٧٩.

(٢) – ابن فارس، مقاييس اللغة، ص٩٦٢.

(٣) – مثال: لام التعريف: المرء – ميم التعريف: امبارح أي البارحة – ذال وهي التي صارت في الإنجليزية وغيرها واستخدمها العرب بمعنى ذو وبمعنى الذي- الهاء وتجد اللغة "العبرية" المأخوذة من اللهجة الكنعانية مليئة بها للآن: هدقلة أي الدقلة وهي النخلة، هكَل/هيكل أي الذي جلّ، الجليل، هذا أي الـ ذا، المشار إليه، هرشف: الرشف والتحسّي القليل، وكلمة "رنّ" أي صاح وصوّت التي صارت بالإنجليزية "رنگ"، فبإضافة هاء التعريف "هـ-رنّ" أي المُصوِّت، الصائح، النادب، البُكاء، ومنه جاء "هـرَن" العاميّة التي لدى الغرب "Horn"، وهو البوق المُصوّت، ومنه جاء تسمية "هارون/هاران" أي المصوّت والنادب والمُذكّر والنذير في قومه، بل وما زلنا في العاميّة نستخدم الهاء

الغليظة أو المرتفعة، صارتْ لدى الغرب "لَند La-nd" حيث اللام للتعريف للأرض، (وبهذا تكون "**إنج-لند**" أرض النجاة لمن جاب البحر من الفينيقيّين أو سلالاتهم)، و"مُنت Mo-nt " حيث الميم للتعريف، للمرتفعات. ومن ذلك سُمّيت "هند" فالهاء للتعريف، أي الأرض، تيمّناً بالأرض الخصيبة الأولى "نُد"[١].

فرجوعاً للأسطورة، لو تأمّل المتأمّل مع تجاوزه عناصر التشويق ومع فكّ رموز الأسطورة، ومع حذْفنا "سين" القداسة والربوبيّة التي كان العرب الأوائل يُضيفونها في ختام الأسماء، لما رآها إلاّ تحكي قصّة غلبة الشيطان (شيط/سيت) على آدم الخليفة/وزير الربّ (أوزير)، حين حسده كما تقول الأسطورة[٢] وأراد أنْ يكون مكانه، و"سيت/شيط" ذو العيون الحمراء هو تجسيدٌ وتمثيل للشرّ، حتّى أنّه لمْ يُولَد بصورة طبيعيّة بل مزّق جانباً رحْمَ أمّه وخرج[٣]، أرجو أنّ القارئ قد وعى هذا الترميز وانكشف له! إنّه ببداهةِ ترميزٌ لانفصال إبليس عن العالَم الأمِّ الذي احتضنه، وتمزيقه عالَم النقاء الذي كانَ يرفلُ فيه مُسبِّحاً سابحاً، ليستعلنَ خروجَه شيطاناً، ليُولَد كشيطان بعد ولادة آدم، لذلك نرى أنّ "أوزير" وُلِد قبلَ "سيت".

فعمد سيت/شيط (ربّ الشرور كما يُسمّونه) إلى حيلةٍ لقتل "أوزير" (معنوياً/روحياً) بإخراجه منْ فُسحة ما هو فيه وإدخاله في تابوتٍ زاهٍ مُغرٍ ثُمّ الإيصاد عليه، وهذا تمثيل لإخراج الشيطان آدم بعد تغريره إلى سجنٍ الدنيا وظلمتها

فنقول هالكتاب، هالرجّال أي هذا الرجال.

[١] – لمزيد من بحث اللغات راجع: اللسانُ العربيّ- بُعد فطريّ وارتباط كونيٍّ، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[2] – But "Set" the Evil One, their brother, envied "Osiris" and hated "Isis"

(أي أنّ أخاهما سيت الشرّير (يرمز للشيطان)، حسدَ أوزيريس (يرمز لآدم) وبغضَ إيزيس (رمز لحوّاء)، يُذكّر هذا بآية تحذير آدم من الشيطان "إن هذا عدوّ لك ولزوجك".

[3] – Seth was evil since birth, because he ripped himself from his mother's womb by tearing through her side. Seth was the embodiment of evil. He was depicted with red eyes and hair.

وخسـارته فسـيح الجنّـة، هـذا يُـذكّرنا مـرّةً ثانيـة بحكايـة "النَّسـر/آدم" في الأسـطورة السـابقة لـدى شـعب آخـر، الـذي قبضـت عليـه الحيّـة وأغلقـت عليـه الحفـرة لـدى البـابليّين. ثُـمّ تحكـي كيـف أنّ "أوزيـر" بعدئـذ اسـتُنقذ بزوجتـه المتنبّئـة البصّـارة (إيـزى/حيـزى) تمثيلاً لحـوّاء الـتي تملـك سـرّ النطـق باسـم "رع" أي الرعايـة الربّانيّـة، جاءت له بكلام الربّ المقدّس فأحيته، وكيف أنّ الشيطان قبْلُ قدْ وزّع أعضاء "أوزير" في الأرض بعد قتله (أيْ أدّى به إلى تشتيت ذراريه بتلك المعصية الطاغية)، وأنّ زوجته لمْ تعثـر علـى العضـو الجنسـي لزوجهـا لأنّ "سـيت" أخفـاه وضـاع في البحـر (وهـذا لا حاجة لتفسيره)، لكنّ حوّاء (عفواً: إيـزيس) جاءت بكلماتها السـحريّة الكاملة وجمّعت أوصـال زوجهـا وأحيتـه مـدّةً كافيـة (بتلقّـي كلمـات التوبـة والمراجعـة) لإنجـاب وريثـه (الحارس/حورس)[1]. كما نلحظ أنّ "سيت" في الأسطورة هو أخ "أوزير" وهـذا صـحيح لأنّهما كليهما مخلوقان بالقوّة الربّانيّـة نفسـها لـذلك قـال "سـيت/شـيط" عـن أخيـه في العبوديّة والخلْق (**أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلقته من طين**).

أمّا الشخصيّة الرابعة فهي "نفْث/نفس Nephthys/Ne-bet-het" وجلـيٌ أنّـه رمـز لجنس المخلوق النفساني (مثالٌ لأحده: الأنثى البشـريّة)، هـي النفس مطلقاً بغرائزها، فأحياناً هـي عدوّةُ صاحبها وتخونه، وأحياناً صـديقتُه، فلذلك تجعلها الأسـطورة أختاً للجميـع، وقرينـةً للشـيطان "سـيث" ونظيرتَـه[2]، وعاشـرتْ (أيْ تلـك الـ "نفْـس" الأنثـى الهمجيّة) "أوزير" بعد أن أذهبتْ عقْلَه وأغوته وتـراءت لـه بصـورة زوجتـه "إيـزيس" وولـدتْ منه "أنوبيس". فالرمز أيضاً بسـيطٌ فمـع أنّ "نفْـس" قرينـةُ "سـيت" إلاّ أنّ "سـيت" لـيس لـه أولاد منها لأنّه ليس من جنسها مادّياً، بل عاشـرت تلك الـ "نفس" "أوزيـر" لتكوين ذرّيـة (ذرّيـة "ميـلا-مطعايا" الميْـل الطـاغي، والشـهوة الجامحـة، حسـب السـومريّين)، فكلاهمـا

---

(1) - (whereupon Isis brought Osiris back to life long enough to get pregnant with his son)
http://www.usc.edu/dept/LAS/wsrp/educational_site/uscarc/isis.shtml

(2) - Nephthys was considered to be Seth's counterpart and wife. She was always associated with him. Even so, she was depicted as the loyal friend and sister to Isis

بشـران، وهـذا الفعـل مـن "أوزيـر" أيّ مُعاشـرته "نفـس" هـو إسّـفين انقضـاض "سـيت" الشيطان عليه وقتله (معنوياً)، فالحكايةُ مهما ذهبتَ وجئتَ، نفسُها.

و"أنوبيس" هذا، كالعادة، صار له تماه آخر كملاكٍ للموتى، المسئول عن تحنيطهم والمسئول عن تلقّي الروح السماوي، ثمّ مراقبة ميزان الحساب، فهذا تماهٍ آخر على مستوى عالَم "القوى الملائكيّة"، وهو يُوافق اسم "أنوبي" أي "إنابة + أنّب" أي "الإنابة" إلى الربّ، بالإماتة والحساب، و"تأنيب" النفس على ما فرّطت. لكن هذه الوظيفة التي تماهى بها مرّةً أخرى "أنوبيس" بعد أنْ كان يمثّل ذرّية الخطيئة، لَتدفعُنا لنُدرك السرّ والحكمة ودقّة الذين أسّسوا تلك الأساطير، ليكون "أنوبي" البشريّ الحقيقيّ، المذكّر بالإنابة والحساب وشرف هبة الرّوح التي تلقّاها من آدم بتحويله من كائنٍ نفساني (بشريّ) إلى آخر إنسانيّ وإحيائه بها كما تحيا أيُّ نفسٍ مجرّدة بمنحها روحَ السماء.

أمّا الشخصية السادسة في الأسطورة فهي "حورس/ Heru/Hor/Horus"، فإذا كانت سين الختام للقداسة، فهو "حُرّ" أي الكائن الإنساني ذو المشيئة والذي عليه انتزاع حرّيته من استعباد الشيطان والغرائز، وإنْ كانت السين أصليّة، فهو الرقيب الحارس على أمانة (الرّوح) الحرّية والاستخلاف، لئلاّ يُستعبد بالشيطان فيفقدها، هو الذرّية الإلهيّة إذاً التي احتفظت بنقاوتها "إيزيس/حوّاء" حين ذهبتْ تبحث عن زوجها لتستنقذه من موته (المعنويّ طبْعاً)، وبعدَ ذاك ليخرج بالمعاشرة الشرعيّة للزوْجيْن الحبيبيْن إلى الوجود هذا المخلوق الإنسانيّ المنتظر الحُرّ "الحارس/حورس"، وهو ابن "إيزيس/حوّاء" و"أوزيريس/آدم" أي يمثّل ذرّية آدم وحوّاء الفعليّة، فعلى ابن آدم أنْ يكون "حورس/حارس" للذرّية الآدميّة، حُرّاً من الشرْك والشَّرَك الشيطاني "سيت/شيط" الشاطّ حنقاً وحسداً لأخيه الإنسان[1].

وفعلاً تمضي الأسطورة لتسوق جولات صراعٍ بينهما، وينتصر حُر "حورس" وينفي شيط "سيت" في البرّية بعدَ وقوف مجمع الأرباب معه بزعامة "رع" أيّ الرّاعي/الربّ، أو قل "**الرعاية**" الربّانيّة، لكنّ الأسطورة تقول أيضاً أنّ صراع "حر" مع

---

[1] - "Set" was filled with evil and jealousy

"شـيط" مـا زال قائمـاً ولا يكـون خـلاص العـالَم إلاّ بهـذه المدافعـة، (فهـي إذن معركـة الإنسان والشيطان!).

وتختلط القصّة بين "أوزيريس" الفعليّ كأب ربّانيّ لشعب مصر النيل وبين آدم الأوّل كأبٍ للإنسانيّة جمعاء، لأنّه كما قُلنا أنّ التاريخ الإنساني في مصر النيل يبدأ بأوزيريس فيتّحد لديْهم بشخص آدم، فكان آدم فاتح الإنسانيّة (وفتاح كقوّة ربّانية يُدعى Ptah) متماهياً مع فاتح الإنسانيّة في مصر (أوزيريس)، بل وتبدّى "أوزيريس" في شخصيّة ثالثة تُدعى "سَكَر"، وظنّ المترجمون أنّها ثلاثة آلهة (فتاح-سكر-أوزير) اندمجت في واحد كالثالوث المسيحي[١]، ولمْ يدروا أنّها رموز تقديسيّة لقصّة الإنسان من أوّله لآخره تتماهي مع الأصل الجغرافي للإنسان، فتماهي "أوزير" مع "فتاح" الإنسانية "أي آدم" (لا "فتاح" الخلق، وهو القدرة الربّانيّة)، أدّى لاستقدام إحداثيّة المركز الأوّل إلى الذاكرة وهو "سَكَر"، وهو جبل من سراة شبه الجزيرة العربيّة[٢]، أحَد معالم البقعة التي كان فيها آدم كأصل، وحيث دُفن فعْلاً فيها "أوزير/أوزيرس" لاحقاً، ودليل آخَر أنّهم استهلّوا بأوزيريس تمثيلاً عن آدم الأوّل أب الخليقة الإنسانيّة، هو جعلهم ميلاد أوزيريس الخامس والعشرين من ديسمبر[٣]، وما هو إلاّ مولد النّور الإلهيّ، وبزوغ الطفل الربّاني (خلْق آدم)، والذي كرّره تراثُ الأمّة الواحدة وسمّاه

---

(1) - Sokar (Seker) was the primary god of the Memphite funeral cult and its nearby burial grounds and tomb sites. He was seen as a manifestation of the resurrected Osiris, and in later dynasties he was combined with Ptah and Osiris into one deity, Ptah-Sokar-Osiris. (http://touregypt.net/godsofegypt/seker.htm).

(٢) - وسُمّي "شكَر" في حديث لرسول الله (ص)، وجبل حمومة أو الحمة، وجبل "شكر/سكر"، وهو يقع بالقرب من أُحد رفيدة، صار أسكار لدى الفينيقيّين، وأشكار لدى بابل وسومر، ولمزيد التعرّف على معالمه راجع ما كتبه أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري القديم- المركز ص ٣٩٩-٤٠٤، وما نقله عن هاشم النعيمي، وعن حمد الجاسر، في تاريخ عسير لفؤاد حمزة، ص١٢-١٣ .

(٣) - راجع: http://www.yahweh.com/booklets/Xmas/Xmas.htm

القرآن "ليلة القدْر" وصار يحتفل به المسيحيّون بعدئذ على أنّه مولد عيسى (ع) تيمّناً به، وهو الأمر ذاك نفسه(١).

وهذا بالتمام ما نجده في بقاع عربيّة أخرى حيث اتّحد هذه المرّة آدمُ الرسول بآدم الأوّل لدى عربِ الجزيرة ومنهم بنو إسرائيل كما دوّنوه في توراتهم ودوّنته العربُ في شجرة الأنساب، وهذا أمرٌ حلّلناه في بحث "بين آدمين". أمّا لدى الفرس فقد اتّحد جدُّهم الأعلى وملكهم ومؤسّس وجودهم في تلك البقعة "جيومرث" بآدم أيضاً فقالوا أنّ جيومرث هو آدم أبو البشر(٢). وهذا ما ذكره "زرادشت" الذي يُحتَمل أنّ معنى اسمه "ذو-الإرادة"، حين مناظرته لعلماء فارش المشركين والوثنيّين، فقال أنّ "أهرمان قتل كيومرد أوّل البشر، والذي منه ظهرت بذور بني آدم"(٣)، وأهرمان هو روح الشرّ (الشيطان) وله أعوان "ديفا" وهي مثل "ديفلس" وقد حلّلنا هذه الكلمة سابقاً أنّها ذي إبلاس (الأبالسة)(٤)، وواضح أنّ هذا القتل هو قتل روح آدم باستزلاله وإخساره مقامه، وآدم أبو الناس هو "كيو-مرد" ("جيو-مرت")، فالقصّة تتكرّر.

---

(١) - راجع بحث: ليلة القدر- عيد الخليقة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

(٢) - انظر: ابن النديم البغدادي، فهرست ابن النديم، ص١٥؛ الطبري، تاريخ الطبري، ج١، ص١٢، ص٩٨، ص١٠٤، ص١٣٢؛ والمسعودي، التنبيه والإشراف، ص٧٥. وأعتقد أن "جيو-مرت" أنّ جيو/گيو هي گيع (قيَعْ) أي قيعان الأرض، وهذا يُبيّن أنّها تسمية سكّان جبال، حيث السهول هي القاع، وهم سريان جبال السراة العرب، ومن "جيو" جاءت جيولوجي، أي لغة الأرض وأسرارها، أمّا "مرت" وصارت بعدئذ "مرد" بالفارسيّة أي الرجل والبطل، والعربيّة "مرأ"، و"مَر/مار" هو السيّد والبعل والشريف، وما زال يُضاف كلقب لرجال الدين المسيحي ومنه ماري أيضاً، ولعلّها جاءت من الفعل "أمر" أساساً الذي منه تشعّب الأمر والأمير في الجذور القديمة، فالذي يبدو أنّ معناه "سيّد البقاع".

(٣) - سليمان مظهر، قصّة الديانات، ص٢٩٩.

(٤) - "إبليس" قالوا أنّها من الإبلاس أي اليأس، وهذا معقول، لكن لا يعني أنّ إبليس منذ وُجِد كان اسمُه إبليس، وهذا ما صار يَشْكل على البعض، بل لقد اقترن اسم "إبليس" به في القرآن منذ تمرّد على الأمر لا قبْل، كأنّه (يئس) أنْ يجد له موضعاً في المشروع الربّاني المُستحدث (مشروع جعل خليفة بشري) ثمّ زاد وتكبّر وانتفخ وطغى وتحوّل إلى شيطان رجيم، فلمْ يُسمِّه القرآن في أحداثِ

ثُمّ، تُواصلُ أسطورة قُدامى عرب وادي النيل لتسردَ بعد موت "أوزيريس" (أو آدم) تدشينَ رحلته إلى دار الأمن ومقرّ الأرواح وعالَم الموتى حيث يُقيم مُنتظراً ذرّيته وشعبه لحسابهم، وتُسجِّل توصية الأب المُعلّم الأخيرة لأبنائه "حورس"، بحربٍ لا هوادة فيهما مع الشيطان "سيت"، حين يسألَ الأبُ ابنَه (أبناءه): "ما أنبلَ ما تنوون فعله مع الشيطان؟ فيقولون: نحاربه بضراوة وننتقم منه جزاءً لما فعل في أبوَيْنا"[1]. وأنّ الحرب هذه لنْ تنتهي على مستوى المادّة والرّوح حتّى يعود "أوزيريس" مرّةً ثانية إلى الأرض فيذبحُ "حورَس" (الحرّاس الحقيقيّون الأحرار) الشيطانَ "سيت" بمحضرِ الشفيع "أوزير"[2].

بقي أنْ نذكر شخصية أخرى تُدعى (حِتّ-حُرا Het-Hert/Het-/ Hat-hor heru)[3]، و"حت" هي "خت" أي أخت ومساندة وقرينة ومعينة وصاحبة ومُعلّمة ومازالت راهبات النصارى وناشرات الدين يُدعوْن "أخت"، أمّا "حُر" هو "حُر" السالف ذكره (حورس) هذا من جهة، وهي "حرا/حرت/حرة"[4] الحرّية، المشيئة، (خت-حره =

بعدئذ إلاّ شيطاناً، وقد أكّد سبحانه أصل هذا الفعل "أبلس" أربع مرّات لا اعتباطاً كقوله (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)(الروم:١٢)، هذه اللفظة العربيّة هي التي دوّنها الكهنةُ في التوراة (دي-أبولُس) (دي هي ذي بمعنى الذي وهذا واضح فليس إلاّ لام التعريف مضافة، أي الذي أبلس)، صارت باللاتينيّة (Di-abolos)، ثمّ "ديابول" بحذف السين ظنّاً أنّ السين النهائيّة كانت زائدة حسب عادة الإغريق، ثمّ دي.ول، بالإقلاب بين الباء والفاء، والتي تُسمّى الآن دي.يل (Devil)!

(1) - One day "Osiris" said to the boy: "Tell me, what is the noblest thing that a man can do?"
And "Horus" answered: "To avenge his father and mother for the evil done to them."

(2) - And after this the spirit of "Osiris" passed into Amenti to rule over the dead until the last great battle, when "Horus" should slay "Set" and "Osiris" would return to earth once more.

(3) - http://www.egyptianmyths.net/hathor.htm
،http://touregypt.net/godsofegypt/hathor.htm

(٤) - "حُر" البعضُ يفترضها "حور" أيضاً، و"حور" أو "أور" تعني المغارة (غُور)، والجنّة، ولدينا في

صاحبة مشيئة وإرادة، كما نقول أخو الحلم، أي صاحب الحلْم، وأخو الجهل، وأخْت الكرَم)، فهي مُعلّمة وناشرة الحرّية الإنسانيّة. يقولون أنّ هذه الشخصية (حتحورا) كانت مخلوقة من الربّ "رع" كحال الجميع، وكانت بدايتها شرسة متعطّشة للدم ولونها المفضّل الأحمر، وتقتل الرجال، سلّطها الربّ على الرجال الذين يعصونه، كان اسمها أو اسم جنسها (سخمت/شكمت Sekhmet)[1] والتاء للتأنيث وفسّروا الاسم بمعنى الشراسة والقوّة والتدمير[2] حتّى صارت تجلّياً للقوّة في الحروب (التي فسّرها المترجمون بـ"إلهة الحرب")، حتّى أنّ استدرجها الربّ "رع" يوماً وأذهب عقلها فأزال توحّشها وغرز فيها الحبّ فأصبحت سيّدة الجمال والرقّة والحبّ، وعُدّت مثل "إيزيس/حوّاء"، وصارت سيّدة للأرض إلى جانب السيّد "حورس". و"شكمت" هذه يقولون أنّها كانت قرينة "إفتاح"، وولدتْ "نفر-تم"[3]، مع أنّ الأسطورة تقول أنّ "نفر-تم" ليس له أب ولا أمّ بل وُلد من زهرة اللوتس المائيّة[1].

التراث الإسلامي "الحور" في الجنّة، وقدْ مرّ علينا أنّ أبناء آدم أُنزل عليهم حوريات من الجنّة، أي بشريّات من سكنة الكهوف تمّ تعديلهن إنسانياً في الجنّة ثُمّ أُنزلن خارجها، فيصدق عليهنّ تعبير "خت-حور" أيضاً، أي الحوريّات.

[1] - سخم: من معانيها الفاسد والنتن والأسود والغليظ والفجور والضغينة، وشكم: من معانيها الأنوف الذي لا ينقاد (راجع: بطرس البستاني، محيط المحيط، ص٤٠١، ص ٤٧٨)، ولفظ "سكمت" غير بعيد عن "سقمت" أيضاً وهو الوباء والمرض.

[2] - Sekhmet's capacity for destruction is well-documented. In one story, Ra sends her to punish those mortals who have forgotten him and she ends up nearly destroying the entire human race. Only the cleverness of Ra stops her rampage before it consumes every living thing. her husband Ptah and their eldest child Nefertem.(http://touregypt.net/godsofegypt/sekhmet.htm)

[3] - "نفر/نثر" البستاني، محيط المحيط، ص ٨٧٨، نقول "نثرت المرأة" فهي نثور أي خصيبة كثيرة الولد، والثاء في اللهجات القديمة كانت فاء، و"نافورة/ناثورة" منها. ولعلّ أصل "نفر/نثر" بالدلالة الحرفيّة هو كما، يقول أحمد داوود، تاريخ سوريا الحضاري-المركز، ص ٣٦٤ أنّ "نيفر" في القاموس السرياني = "ني" الربّة (القوّة الفعّالة)، "فر" الوفرة والخصب، فهي قوّة الخصب والانتشار. وما زلنا

فهذه الرموز لا تضحى صعبةً إلاّ على الذي يُسفّل علوم القوم ويظنّهم يُخرّفون أو يهّرفون، فزهرة اللوتس كانوا يرمزون بها على بداية الخلق لأيّ جنس، باعتبار أنّ الخليّة الحيّة الأولى تكوّنت في الماء كما حكى القرآن، كزهرة اللوطس ومنه جاءت كلمة "لوط" أي الرغبة الذاتيّة والحبّ والالتصاق والاندماج، وكيفيّة بداية الخلق أنّه في الماء أمرٌ أثبته العلم اليوم فقط، و"فتاح" هو تجلّي القوّة الربّانيّة الأولى التي قدحتْ زناد خلق الكائنات، وبمعيار البزوغ البشري فإنّ "افتاح" هي رمز لحقبة الإنسان الحيويّة الأولى في الدهر المنسيّ، أيْ طوره البشري الهمجيّ الذي افتتح به وجودَه، و"نفر-تم" هو الخصب التام المحض، أي الطبيعة الصارمة ودورتها التزاوجيّة اللاواعية (كشريعة عشتار في الفكر البابلي)، هذا بالتمام هو حال الطور البشري الأوّل الذي هو على عقيدة الخصب بالكَره لا بالطّوع، فـ "شكمت" كانت من هذا الجنس البدائي "العشتاريّ مفهوميّاً")[1].

إذن، فهذه الشخصية التي كانت في الأصل "شكمت/سخمت" وصارتْ بتدخّل الرعاية الربّانيّة "خت-حر"، لا تحتاج إلى شرحٍ طويل، فهي بالحرف الواحد وبالتفصيل الدقيق تحكي بالرمْز عن جنس إناث البشر الأوّل الهمجي الخالي من الروح الذي انبثق مع بداية افتتاح الجنس البشري (رمزت الأسطورة لهنّ بنسبتهنّ إلى "**إفتاح**" أوّلاً وليس "رع")، ثُمّ استدرجتهنّ يدُ "رع" "الرعاية الربّانيّة" (ملائكة التدبير والتعديل والخلق)، فأُنْعِم عليهنّ بتحويلهنّ إلى إنسيّات واعيات يعرفن الحبّ والجمال والأنسنة والاجتماع والإبداع، وليكنّ سادة للأرض مع أبناء آدم الأحرار أولي المشيئة (حُر) حُرّاس الذرّية. هذا يؤكّد لنا مرّةً ثانية ما أثبتناه منْ طريقة خلق حوّاء وآدم، في بحثنا السابق "الخلق الأوّل"، بتدخّل اليد الربّانية وانتخابِ زوجيْن من الهمج (فصيلة الـ "شكمت")، لتصنع من المخلوق اللامذكور إنساناً مذكوراً سامياً.

نفهم "ثر" الثراء بأنّه الوفرة والامتلاء والسعة.

[1] - According to myth, he (Nefertem) had no father and no mother, instead being born from a lotus blossom.
http://touregypt.net/godsofegypt/nefertem.htm

ثمّ ظلّت هذه الأسماء الأسطوريّة ووفقاً لدلالاتها تتمظهر في كلّ قصّة سواءً على مستوى العالَم العلويّ بين قوى الطبيعة وقوانين الخصب، أو في مستوى العالَم الإنساني الأوّل الذي اختفت معالمُه وضاعتْ أسماءُ أشخاصه الحقيقيّين، لكنْ احتُفظ بملامح تلك القصص الأولى طريّةً بملامح رمزيّة مخبوءة في تاريخ الآباء المقدّسين المعروفين و"تأسطرت" لتبقى ذُخْراً للأجيال الإنسانيّة، تُخبرها بأصلها الربّاني والرّوحيّ الأوّل.

ثالثاً- مدوّنات سومر وبابل

أوّلاً: لا يُمكننا الدخول في فهم أساطير أو مدوّنات سومر من دون فهم مفاتيحها، وإنّ من مفاتيحها معرفةَ هويّة الشعب الذي أنتجها، ولغته بدلاً من التخمين في الفراغ أو جعله "لا سامياً!" بمعنى دخيل على المنطقة من خارجها، وتبرز تلك المفاتيح في أجلى ظهورها في الأسماء؛ أسماء المواقع والمواضيع والشخصيات، هذا المفاتيح التي بها تُفكّ شفرة الأسطورة الرمز إلى معنى.

ثانياً: ينبغي أنْ نُلحق محكيّ الأسطورة بأحد المستويات الثلاثة التي استعرضناها في النقطة السابقة، حتّى لا تضلّ بوصلتُنا أمام خارطات الأساطير المتشابكة بأسمائها المُشتركة ضمن المستويات الثلاثة.

هذان أمران مهمّان ينبغي عدم الغفلة عنهما، وإلاّ وقعنا فيما وقع فيه المترجمون الغربيّون لأساطيرنا ومدوّناتنا، بجهلٍ أو بعمد. إنّ الذين تعاملوا في كثير من الأحيان، بهذه النظرة، لتفسير تلك الأساطير لم يفهموها لأنّهم لمْ يفهموا ثقافة شعبها ولمْ يُسلّموا بعربيّته ولا عربيّة الأسماء (سريانيّتها)، فوجّهوها غير التوجيه الذي لأجله قامت ودُوّنت، ذلك أنّ أقدر الناس على التفسير هم الذين ولدت هذه الأسطورة بثقافتهم وبلغتهم ويُدركون الترميز المستخدم، فحين يتمّ الخلط بين أسطورات الحقائق التعليمية، والمدوّنات التي لتاريخ الملوك وملاحمها وأخبار مدنها، لتداخل المفردات المشتركة والأسماء والرموز ووحدة الصياغة الأدبية[1]، يصبح الأمر شائكاً

---

[1] - هذا الأمر هو الذي حدا بإيزيس بإرشاد حتحوت (إخنوخ النبيّ – إدريس)، بفصل الكتابات

علـى الباحـث، فـإنّ فـكّ كلمـات الأسـطورة شـيء وتفسـيرَها أمـرٌ آخـر. هـذا مـا حـدا بالبـاحثين أنْ لا يـروا (بـذرة "**سـين** Suen"/ نطفـة "سـين") سـوى أنّهـا خلـق إلـه القمـر وولادته، وأنّها أسطورة بشريّة طريفة (راجع من ألواح سومر ص ١٦٣ وما بعدها)، مع أنّها تعني غير ذلك إذْ "سين" تعني القمر فعلاً لكن ليس القمـر هـذا، فقـد سمّـوا القمـر "قمرا" حين أرادوا، وتكلّموا عنه بعلمٍ فلكيٍّ متقن يعرف كرويّة الأرض ودورانها حـول الشمس ومنازل القمر قبل ٤٠٠٠ آلاف سنة، بوصف لا يقلّ عن آخر ما وصلت إليه العلوم الحديثة[١]، وإنّما عنوا بسين، النور الإلهي (اللّه) الذي في العربيّة "سنا" وصار في الإنجليزية "sun"، وبذرة النّور الإلهيّ هي الروح التي بُذرت في الإنسان التي كان على آدم وحوّاء عدم التفريط بها بالانحدار إلى المستوى البشريّ اللاواعيّ، هذا ما قالته حوّاء لآدم (نينليل لـ إينليل في الأسطورة السومريّة)، وإلاّ كانت المواليد بشريةً مقدّراً لها أنْ تعيش في العالَم الأسفل (أيْ الأرضي) بدلاً من السماء/الأعلى"الجنّة"، فإنّ الكائن الروحانيّ هو الذي يستحقّ الصعود، والكائن الغرائزي يخلد إلى الأرض ولا يُرفع لأنّه دنّس الروح (البذرة الإلهية، بذرة سين، بذرة النّور).

أ- إنليل والإنليليّة (الروحانيّة/الإنسانيّة)

سنستعرض اسماً واحداً هو "إنليل"، فمن هو "إنليل"؟

هو روح "مجمع الأرباب"، رئيسها، ومجمع أرباب (أيْ سادة) الملائكة يتكوّن من أربعة، وهم يُحدّدون المصائر، أي يُدبّرون الأمر الربّانيّ، الذين سمّاهم القرآن "**المدبّرات أمرًا**" وأكّده القرآن الكريم والتراث الإسلاميّ المرويّ، فإنليل لدى السومريّين

الشعبية عن الكتابات المقدّسة، لئلاّ يختلط التاريخ بالدين، واللامقدّس بالمقدّس، والوهم بالحقائق، الأمر الذي وقع فيه المسلمون أيضاً، وكلّ أصحاب الملل، حين خلطوا القرآن وأقوال النبوّة باجتهاداتهم أو الأسوأ بتقوّلات مدسوسة.

[١] - راجع ملحمة "إينوما إيليش" اللّوح الخامس في مصادرها، مثلاً: وديع بشّور، الميثولوجيا السوريّة، أساطير آرام، ص ٢٠٨، أو:

http://www.gatewaystobabylon.com/myths/texts/classic/enuma.htm#5

السريان الشرقيّين الذين كُتِبت العين ألفاً، هي "إين-لِ-ايل" أي عينٌ لـ إيل، إين/عين: هو رقيب ومسئول ومُعيَّن وعَناية، و"إيل" هو اللّه، فهوَ عناية اللّه، عينُ اللّه، اللّه "إيل" الذي سموه "آنو/حانو" الحاني/ السيّد/الربّ، وصارت السيّد والسيّدة تُلفظ لدى الشعوب شرقاً وغرباً من أوربا إلى الصين (حانو/آنو/آن/هانو/هون/حنّا/ آنّا/هانم/خانُم .. إذْ الخاء حاء في بعض الكلمات)، فإنليل عين الربّ، سيّد الملائكة، الروح الأعظم، سيّد النسمات، وأصل كلّ حيّ، كلّ ذي نفسٍ وروح. فمن أسطورة الطوفان على لسان "زيو سدرا" أيّ ذي الصدارة، وهو نوح (ع) الذي وهب له "إنليل" الحياة الخالِدة (**فاهَ "آن" و"إنليل" بِـ "نفَس السماء" و"نفَس الأرض" فانتشر . وظهر النبات والزرع وارتفع**)[1].(انظر الصورة: ٢٨)



إنليل (الربّ) الذي سُمّي آدم به، ويُلاحظ هالة الروح حوله
(الصورة: ٢٨)

(١) - صمويل كريمر، من ألواح سومَر، ص ٢٥٨ .

ولو توغّلنا في ثقافات الأمّة الواحدة لرأينا "إنليل" (عين الله وعنايته) هو الذي قام بفصل السماء عن الأرض، ومهّد هذا الكوكب للحياة (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ**)(يونس:٣)، هذا ما دوّنه الكهنة في مستهلّ سفر التكوين التوراتي، وسمّوا "إنليل" (تجلّي الله) "ياهوا"، وبدا هذا واضحاً في إخماد براكين الأرض وخلق اليابسة منها، البراكين التي سمّوها تنانين وحيّات سامّة وحارقة، فلدى السومريّين كان "إنليل" من قضى على تمرّد الطبيعة وأفنى تنانين البحر ليبزغ السلام والسكينة في العالَم، وسمّى البابليّون قُدرةَ الله هذه التي مردغت ورضّخت الطبيعة الثائرة "مردوخ/مردوغ"، وسمّاه الآشوريّون "آشور" وغيرُهم "هاثور" أي السيّد "الثور"، و"عناة" (عينُ الله وعنايته) لدى الفينيقيّين في ملحمة الخلق (عنّاة والبعل)، وفي المزامير(٧٤: ١٣-١٧): (**أَنْتَ شَقَقْتَ الْبَحْرَ بِقُوَّتِكَ كَسَرْتَ رُؤُوسَ التَّنَانِينِ عَلَى الْمِيَاهِ أَنْتَ رَضَضْتَ رُؤُوسَ لَوِيَاثَانَ جَعَلْتَهُ طَعَاماً لِلشَّعْبِ لأَهْلِ الْبَرِّيَّةِ أَنْتَ فَجَّرْتَ عَيْناً وَسَيْلاً. أَنْتَ يَبَّسْتَ أَنْهَاراً دَائِمَةَ الْجَرَيَانِ لَكَ النَّهَارُ وَلَكَ أَيْضاً اللَّيْلُ أَنْتَ هَيَّأْتَ النُّورَ وَالشَّمْسَ أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تُخُومِ الأَرْضِ الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا**).

كما أنّ "إنليل" هو القوّة الربّانية المضطلعة بالخلق والتي خلقت الإنسان ووضع في يده المعول للعمل وخدمة الله وسبيله، وله معبد "بيت الله" أوّل بيت، في الجنّة الخصيبة ذات النافورة:

"نفر" هي المزار حيث يسكن الأب (في الجبل العظيم)

منصّة البركة والخير في معبد "إيكور" الذي يعلو

الطود الشامخ، الموضع المطهّر

أميره (أيْ أمير الجبل العظيم) **الأب إنليل**

فنرى أنّ أمير مجمع المدبّرين "إنليل" وهو عين الله فيهم، وروح الربّ. بهذا الفهم نرى أنّ كلّ ما له علاقة بسرّ الحياة يُعزى لعناية الله "عين إيل" (إينليل)، فهو سيّد النسمات جميعاً (ومنها الهواء) أيضاً. وباعتبار أنّ "عين إيل" (إين-ل-إيل = إينليل) هو الواسطة الذي نفخ في الإنسان الرّوح (روح الله)، ليكون مثيلاً للربّ

"إيل/إيلو/إيلوس/آن/الله" بحسب التسميّات لدى الشعوب، فصار الإنسان هو "إنليل" مُصغَّراً، أيّ عين لله فيما تحت يديّه، وبمعنى آخر خليفةً للربّ على الأرض، لذلك نجد في أسطورة "إيتانا" أنّ "إنليل" هو الذي اختار من البشر ملكاً للبلاد، أي خلّق الإنسان الخليفة، نفَخ الروح فيه، صيّرَه إنليلاً آخر في محيطه. فـ "الإنليليّة/التعيين الإلهيّ" وصفٌ، لعين الله في أيّ مجّمع تدبيريّ، تمثيلُ الربّ، رئاسة تدبير مُدبّرين بإذن الله. فملحمة الخليقة السومريّة التي تُعزي الخلق إلى "إين.ل.يل"، جاءت بنسختها البابلية لتسمه باسم آخر له "مردوخ"، في ملحمة الإينوما إيليش (حينما أوّلاً)، ولمْ تترك القارئ يتحيّر حتّى قليلاً، ففي الفقرة ١٤٥ من اللوح السابع يُسمّى مردوخ "إنليل" الآلهة[١]، فإنليل إذن وصف، فهناك إنليل الآلهة (الأرباب/الملائكة)، وهناك "إنليل" البشر قطعاً. فالإنليليّة سمات وصبغة.

فنستنتج أنّ "إنليل" اسمٌ مضى على مستويين، مستوى سماويّ، ومستوى بشريّ، لأنّه وصفٌ مشترك بين الإنسان والربّ، فكلّ نبيّ أو معلّم ربّانيّ للحضارة هو إنليل[٢]، لأنّه خليفة للربّ بما امتلك من إبداع الروح.

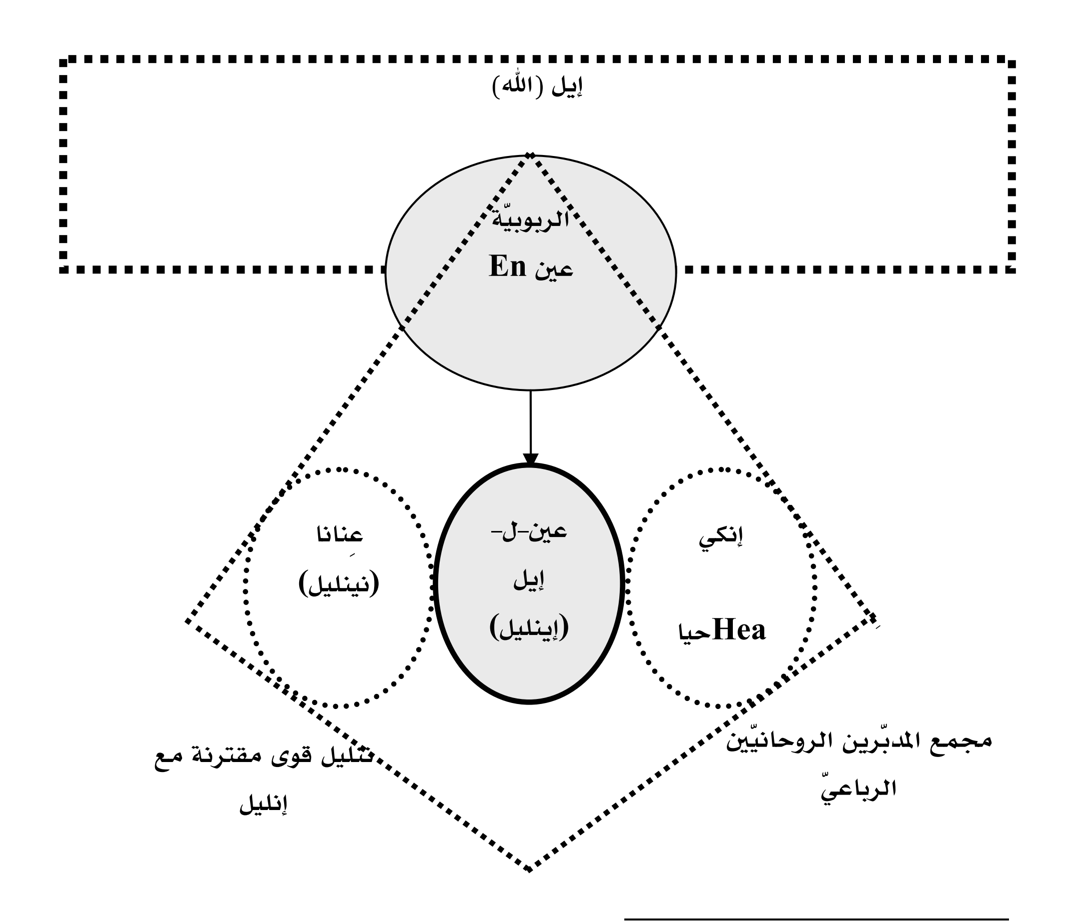
فالإنليليّة (التي هي رقابة إلهيّة) سمات تتعلّق بالروح، من تدبير وعدل وعلم، فهي سرّ الأنسنة لذا نجد المظهَر "إنليل" هو مصدر قرار الطوفان على البشر حين استولت عليهم الهمجيّة وضيّعوا الإنسانيّة (في أسطورة أتراحاسيس)، وسمّاه اليهود "ياهو"، وهذه تحتمل "يا هُوَ" نداء للغائب إشارة لله العليّ، والأقرب أنّها تعني "إنليل" نفسه، الروح، يا هَوا، أيّ هواء .. ريح .. روح .. نسمة، فهو "إنليل" أيضاً، لذلك نرى كل وصف توراتيّ ليَهْوَا يجعله مماسّاً مع الإنسان، كحال إنليل الأساطير وكمدبّرات الملائكة القرآنيّة.

---

(١) - رينيه لابات، سلسلة الأساطير السورية- ديانات الشرق الأوسط، ص ٧٨.

(2) - Without Enlil, the great mountain, no cities would be built, no settlements founded
No stalls would be built, no sheepfold established، No king would be raised, no high priest born..." (Kramer, S. N. History begins at Sumer, 1981, pg. 92)

ونقـرأ أنّ حمـورابي يُعلـن في مقدّمـة شـريعته أنّ (آن ومـردوخ) زوّداه "بالإنليليّـة" ليسوس البشر بها[١]، وكذلك "آن وإنليل" زوّدا أصحاب الشرائع من ملوك السومريّين والأكديّين ليُقيموا العدل والرفاه ونشر الخُلق المتسامي[٢].



---

(١) - د. إدزارد، قاموس الآلهة والأساطير، ص ١٠٢.

(٢) - صمويل كريمر، من ألواح سومَر، ص ١٩٣، وأيضاً ص١٧٣، حيث يقول: وكان الإله! "إنليل" هو الذي يُعلن اسم الملك ويُعطيه "صولجانه" وينظر إليه بعين الرضا، .. وأنّ "إنليل" كان يُعَدّ إلهاً مُحسناً رحيماً ويُعزى إليه تدبير وخلق أهم العناصر المنتجة في الكون .. ويُعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم.

فسيّد الملائكة المدبّرين هو "أنليل" الحقيقي ذلك المدعو في التراث الديني "الروح" الذي ينزل مع الملائكة كأمير وسيّد فيها (أي روح المجمع الربّانيّ التدبيريّ) (**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**)(القدر:٤). أمّا "إنليل" الإنسانيّ (آدم) فحين فسد أُهبِط من الجنّة.

ولمْ يفهم مفسّرو أساطير سومر وبابل كيف تولّدت القوى الطبيعيّة (التي ترجموها "آلهة" وبيّنّا خطأ ذلك) من "إنليل"، فـ "إنليل" هو ربّ الملائكة (أيْ آمرُها) لأنّه الرّوح العظيم فهو سيّدها ومعلّمها ومسئولها (**"إنليل" - آلهة الأرض تسجد له خشية ورهبة، وتتذلّل آلهة السماء أمامه**)[1]. وبالأولى، لمْ يفهموا كيف أنّ "إنليل" يُولَد في نصّ آخر من أبوين هما "آن" وهي السماء، و"گي" (قيع) وهي الأرض، فإنّهم لا يفهمون من الولادة إلاّ الولادة البشريّة، مثلما جعلوا (الإله! مردوخ ابن الإلهة! دامكينا!!) ومردوخ هو إنليل نفسه و"دامكينا" ذا المُكنة والمكانة أي القدرة، فمردوخ تجلٍّ للقدْرة ليس إلاّ، فالسومريّون يعنون بالتولّد التسبّب والتعاقب والعلّية والتجلّي، فإنليل هو نسمة الرّوح أصل حياة الإنسان، وهو يُحاكي نسمة الهواء الذي هو أصل حياة الكائنات، الذي تشكّل بعد تكّون الغلاف الغازي كواقٍ عن أشعة الشمس الضارّة، وبعد تشكّل يابسة الأرض وبحرها، جاء الهواء من (**گي/گيا**) أيْ مع عدم لفظ العين، منْ "قيَع" الأرض (منْ تبخّر مياه الأرض ونفث دخان وبخار وهباء براكينها) هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى حجْز السماء المتأيّنة (**آن**) له، وهو الذي عبّر عنه السومريّون في أسطورة "إنليل والفأس" "**حينما فصل إنليل السماء عن الأرض**"[2] أيْ بالهواء المتشكّل وفيه الأكسجين، والذي عبّر عنه تراثنا الإسلاميّ (**يا مَنْ كبس الأرض على الماء وسدّ الهواء بالسماء**)[3].

---

[1] - صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٧٥.

[2] - صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٦٠-١٦٣، وأيضاً وديع بشّور، الميثولوجيا السوريّة، ص٦٥.

[3] - من دعاء الإمام الحسين (ع) يوم عرفة: الطوسي، مصباح المتهجّد، ص٧٩، ٢٤٤، ٥٠٤. وأيضاً، المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٥، ص٢٢٠، ج٩٢، ص١٨، ج٨٧، ص١٥٤، ج٨٣، ص٢١٠. وأيضاً، باقر

ومع أنّ كريمر يقول ص ١٦٧ (**على أنّه ينبغي أنْ نؤكّد بهذا الصدد أنّ المعنى الحقيقي المؤكّد لجملة أسطر منها لا يزال غير واضح، ومن الجائز أنّ مغزى هذا الجزء من الأسطورة سيُحوّر في آخر الأمر**)، وهذا تماماً ما حصل، طبعاً هذا مع تسليمنا بصحّة الترجمة أوّلاً، وبصحّة الترتيب ثانياً، بل وبسلامة "أسطرة" القصّة بجوانبها الكاملة غير مبتورة ثالثاً، وأعتقد أنّ كلّ تلك الأمور غير مسلَّم بها بل العكس هو الصحيح.

فأوّل خطأ وقع فيه المترجمون و"كريمر" منهم، هو الخلط بين "إنليليْن" "إنليل" البشريّ (آدم) و"إنليل" الإلهيّ، وهذا ما حداه للقول تعقيباً على القصّة الرمزيّة: (**هذه الأسطورة تُبيّن لنا تصويراً جليّاً الصفة البشريّة أو صفة التشبيه التي صُوِّرتْ بها الآلهة السومريّة، فقد كان حتّى أقوى الآلهة وأعلمها وأحكمها يُعدّ بشراً في هيئته وأفكاره وأعماله، وكان الآلهة كالبشر ـ يحسّون بالأحاسيس والعواطف البشريّة وفيهم أيضاً صفات الضعف البشريّ**) الكلام صحيح حينما نُطبّقه على "إنليل" البشري وهو آدم، لا على "إنليل" الربّ، فما ذنب السومريّين إنْ كان المترجمون لم يفقهوا ما دوّنوه؟! ثُمّ راحوا يُشكّلون إشكالات عقيمة لا حلّ لها، حتّى وصلوا إلى أنّ هذه الإشكالات العلميّة التي افترضوها طبْعاً "**لمْ تدرْ بخلد المفكّرين السومريّين**" "**لمْ تدرْ بخلدهم أبداً**"[1]، وهي فعلاً لمْ تدرْ بخلدهم أبداً لأنّهم ليس لهم ارتباط بكلّ هذا الذي تُرجم وحُرّف وأُسيء فهمه عنهم، ولمْ يطرأ على بالهم! ففي الوقت الذي يُثبتُ المُترجمون تأكيدات السومريّين على مقام "إنليل" كربّ أعلى ممجّد:

في السماء[2] هو أميرُها الأوّل، وفي الأرض هو عظيمُها وكبيرُها ـ

وبين "الأنوناكي" هو ربُها العظيم ـ

شريف القرشي، حياة الإمام الحسين، ج١، ص١٧٤ . والطبري، تاريخ الطبري، ج٦، ص٥٣٦، وقد نسبه لهارون الرشيد .

(١) – صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٧٠ .

(٢) – يقصدون بالسماء هنا المقرّ السماوي الشاهق الذي لمْ يفهمه المترجمون أيضاً، وسمّوه "الأيكور" في جبل السماء والأرض.

وعندما يُقدِّر المصائر وهو في جلاله ورهبته، فلا يجرؤ إلهٌ على أنْ ينظر إليه[١].

ومع هذا فسترى كريمر والمترجمين يُصدِّقون أنّ "الأنوناكي" أي الملائكة، طردوا "إنليل" الربّ من مقرّ الأرباب!! ولمْ يُكلِّفوا أنفسهم عناء فهم المسألة، فهل يقع أولئك المدوِّنون الأوائل الذين كانوا على مستوىً حضاريّ وثقافيّ رفيعٍ بل باهِر، في هذا التناقض الرخيص الضحل؟ الذي حلُّه بسيطٌ جدّاً؛ مع افتراض وجود مصداقٍ آخر لـ "إنليل" بشريّ وهو آدم، سيُطرد من مقرّ "الأرباب/المدبّرين" أي الجنّة، لفعلةٍ منافيةٍ فعلَها، هو تدنيس الرّوح:

كان "إنليل" يتمشّى في كي-أور .	(كي-أور = قيِّع غور=أرض المغارة، خارج الجنّة، والتي سمّوها مدينة هي عدَن).
عمد الآلهةُ العظامُ بمجموعتهم الخمسين	(أيْ الملائكة)
والآلهة الذين بيدهم تقدير المصائر، سبعتُهم	(أيْ سادةُ الملائكة، وهم المدبِّرون الأثيريّون لدى المندائيّين)
أن قبضوا على "إنليل" في الـ "كي-أور"	(وقالوا له):

"يا "إنليل" أيّها الفاسق، اخرج من المدينة،

"اخرُجْ يا "نونامنِر Nunamnir"، يا أيّها الخليع، من المدينة"[٢].

---

[١] - صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٧٧ .

[٢] - صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٦٦ .

فنرى الملائكة تقبض على "إنليل" (البشريّ طبعاً)، كما رأينا في تراثنا جبريل يقبض على آدم ويُخرجه، فهو تراثٌ واحد.

إنّ الافتراض بأنّ "إنليل" تعني الربّ كما تعني مثيل الربّ (آدم) أيضاً، الذي عميتْ أذهانُ المترجمين أنْ يلحظوه، هو الذي يتّسق مع أيّ تحليلٍ مجرّد، وإلاّ فأيّ عقلٍ تائه أو ملتوٍ يُحلِّل مقولات أيّ أمّة سيخرج منها بتناقضات جمّة حسب التحليل الملتوي، ويكفينا مثالاً مطابقاً قولُه سبحانه (**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً**)(يوسف:٤١)، فلو أدخلنا هذه الآية في "ماكينة" تحليل أولئك المترجمين، لما فهموا أنّ كلمة "ربّ" تستوعب الإلهيّ والبشريّ (وهو هنا "ملك" القوم) ولأبدوا اندهاشهم وإشكالاتهم كيف ربّ السماء والأرض الذي يُحرّم الخمر ويُعاقِب عليه ولا يحتاج للأكل والشرب، يُسقَى خمراً؟!

فلمْ يفهموا كيف حملت "ننليل" بثلاثة "أرباب!" من أرباب العالم الأسفل، من "إنليل" الذي هو "آدم" هذه المرّة، فهذه الثلاثة ليسوا إلاّ أبناء آدم (إنليل) الشرعيّين من حوّاء (ننليل) وهم سادة الأرض حينها وممثّلو اللّه وبداية السادة الأنقياء البشريّين سواءً كانوا في فترات متعاقبة أو متباعدة (على غرار "الأنو-ناكي" أنو: الأنا/السيّد/الذات، نَكي: نقي، وهم الذوات النقيّة، الملائكة الأطهار).

فينقلون من ترجمة الأسطورة التي ليس بين يديْنا نصّها الحقيقيّ، فسنتعامل معها كمحتمل، كما تعامل "كريمر" نفسه، فسطورها ركيكةٌ ومتناقضة ومُغلّب عليها فكْر المُترجم نفسه، ولقد تتبّعناها في كلّ النسخ المترجمة فرأيتا اختلافات كثيرة، والذي يهمّنا فقرتيْن منها:

المشهد الأوّل: ننليل على ضفّة برَدى

حينما كانت مدينة "نفر" مأهولةً بالآلهة فقط، تُوصي المرأة العجوز أم "ننليل" المُسمّاة "**نان بارشيجونو**" (Nunbarshegunu) ابنتها، قائلةً لها:

(في المجرى الصافي أيّتُها المرأة، اغتسلي.

تمشّي يا "ننليل" على شاطئ نهر الـ "ننبردو"
فإنّ ذا العيْنيْن المشرقتيْن، إنّ السيّد ذا العينيْن النيّرتيْن
"الجبل العظيم"، الأب "إنليل" ذا العيْنيْن الجميلتيْن سيراك
إنّ الرّاعي ـ الذي يُقدّر المصائر، ذا العينيْن الجملتيْن
سيراك وسيُعانقُك ويُقبِّلُك)[١]

وينتهي السرد، بطاعة تلك الفتاة لأمّها، وتمشّيها على نهر النينبردو واغتسالها ورؤية إنليل إيّاها ومن ثمّ اغتصابه لها. نين بردو، أي "ذات المغتسل البارد" الذي أشار القرآن إلى مثله (**هذا مغتسلٌ بارد وشراب**)، و"بردى"، هو النهر الذي شهد الخطيئة الأولى عند قدامى السومريين، أيْ على ضفّة ذلك النّهر فسقَ "إنليل" عن أمرِ القوى الربّانيّة، فزرع في رحم المرأة "ميلا متعايا" كما سيأتي، فغضب الأرباب عليه وطردوا "إنليل" من الجنّة كما بيّنّا للتوّ.

وبدايةً ينبغي لنا أنْ نُوضِّح أمراً، أنّا نظنّ ظنّاً معتدّاً به، أنّ كلّ النصوص التي أتت على ذكْر "ننليل" البشريّة، إنّما هي نصوص طقسيّة في مسألة الزواج، لتعليم المرأة وتشويقها للحياة المقبلة عليها، وربْطها طقسياً بالمركز الأوّل وبالمعاشرة الزوجيّة الإنسانيّة الأولى، حيث استهلّت بذرة الإنسانيّة، ولا نستغرب أن يُشرَّع غسْلٌ قبل "ليلة الدُّخلة" كما نُسمّيها، لتأكيد قصّة تعرّف الأنثى بإنليل (الربّ) أو إنليل (آدم)، وهذا يحتاج إلى قليلٍ من الشرح:

إنّ هذا النصّ، شرَح بالدقّة أنّ ثمّة مكاناً خصيباً يُدعى "نفر" سُمّي "نفر"[٢] من الوفرة، وقد شرحناه خلال هذا البحث، وأنّه الجنّة الأرضية نفسها، كما بيّنّا ذاك في أسطورة إيتانا السابقة، وأنّها موضع المدبِّرين والملائكة، وأنّ الدخول إلى "نفر" من الخارج يتمّ عبر متابعة الأنهار الخارجة من الجنّة وأحدُها نهر "برَدى" المغتسل البارد. فمن هي المرأة التي أطاعت أمّها وتسلّلت هناك ؟ (انظر الصورة: ٢٩)

---

(١) – صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٦٥ .

(٢) –"نِفر"= عين الوفرة، ني– فر، سيّدة الخصب، ومنه جاءت نافورة.



مازالت الناس إلى هذا اليوم لمْ تحدْ شعرةً عن هذا الترميز، فتصف الطبيعة بالأنثى، وتُسمّيها الطبيعة-الأمّ، وفي تراثنا الإسلامي كثيرٌ من ترميز الدنيا بالمرأة (الصورة: ٢٩)

إنّ هذه الأمّ أمٌّ رمزيّة، وهنا هي الطبيعة بالتحديد، كما في الإنجليزيّة (mother nature)، التي رمزوا لها باسم "**نان- بَر- شيجونو**"[1]، أيّ أمّ البرايا (المخلوقات)

---

[1] - "نان - بر- شجونو": نان: فسّرناها كثيراً، وهي السيّدة والربّة والمعتنية والأمّ وما زال في العامّية تُسمّى الأمّ الكبرى وأصل العائلة نانا، نينا. بر: تعني برّ أي الخارج، وبريّة من برأ، أي الخليقة والكائنات (ومنها صار "بر" بمعنى ابن في السريانيّة، ومنها جاءت برْث أي ولادة في الإنجليزيّة). شِجُنُو: تعني سجْن، وشَجن أيّ حزن، فلعلّ معناه "سيّدة برّ الشجَن، أيّ الفصيلة الهمجيّة التي كانت

السجينة (غير المختارة)، وهي نفسُها التي قُلنا في المبحث القرآنيّ أنّها "الشجرة" البشريّة، سلالة البشر الطبيعيّ اللاواعي المُكرَه بلا مشيئة، وهي نفسها التي ستُدعى جنس "ليليت" لدى بابل والتوراتيّين، وسنذكرها في الفصل السابع، وقالوا أنّها زوجة آدم الأولى، وقولُهم نصفُه صحيح ونصفه خاطئ، فإنّ هذا الصنف من الإناث هو زوجٌ طبيعيّ لآدم (الذّكَر) فعلاً لكنْ قبل أنْ يُخلَّق ليُصبح "آدَمياً" له اسمُ "آدم" بل حينما كان مثلهنّ نكرةً لاواعياً، والكهنة وأهل التلمود لمْ يقصدوا هذا قطْعاً بل لمْ يعرفوه، والوجه الخاطئ، أنّ ثمّة أنثى من جنس (ليليت) من (الشجرة اللاواعية) من (البَريّة الفاقدة حرّية المشيئة "نان بار شيجونو")، لكنّها لمْ تكن أوّل زوجة لآدم قبل خلْق زوجه حوّاء -كما فهموا ونسجوا الخيالات- بل هي أوّل عشيرٍ جنسيّ، فإنّهم أُعْلِموا أنّ آدم كوّن ذرّيةً "إنسانيّة- همجيّة" قبل تكوين النسل الإنسانيّ عبر حوّاء، فلمْ يرتأوا حلاً إلاّ بأنْ يُصيِّروا تلك الأنثى الهمجيّة زوجاً لآدم قبل زمنِ خلق حوّاء، والذي أعماهم عن الحقيقة هو أنسوجاتٌ ثانية تورّطوا فيها بجعل الشجرة شجرة زرْع والحيّة حيّة زاحفة وغيرها، بينما قصّة المعصية غير الملفّقة تضع النقاط على الحروف؛ أنّ آدم ومع وجود حوّاء عصى ربّه فخرج من الجنّة وعاشَر أنثى (حيّة) (من جنس الشجرة اللاواعية) على شاطئ برَدى، وكوّن منها ذرّيةً غيرَ مؤنسنة كاملاً، لذلك اتّخذ الربُّ قرارَ إهباطه ومن بعدِ مدّةٍ تاب عليه فأهبَطَ له زوجَه حوّاءَ ليكوِّنا نسلاً إنسانياً خالصاً صالحاً.

فالأسطورة تعليميّة نسويّة تحثّ الأنثى على التعرّض لزوجها ليبذر فيها بذرة النسل الإنسانيّ، وهذا جرى -كأصلٍ- مرّتيْن:

المرّة الأولى: أنّ شجرة السلالة البشريّة الطبيعية (المرأة العجوز أي الطبيعة السائدة ثمَّتَ "نان- بار-شيجونو") هي أمّ حواء قبْلاً (أمّ رمزيّة: الغريزة، الشجرة، الطبيعة)، قادتها بإيحاء غرائزي إلى الجنّة عبر متابعة شاطيء نهر بردى، حيث "إنليل-الرّوح"، أيْ حيث الربّ "إنليل-الروح" يريد صناعة "إنسانة" كزوج للإنسان

تسود البر (الأرض) التي سيهبطها آدم بعد خسارته جنّته الوارفة لتُصبح له "برّ الشجَن"، والأقرب أنّ (نان بار شيجونو) أمّ-البريّة-الحبيسة المُكرهة التي لا حرّية لها ولا مشيئة، فالكائن اللاواعي مُسخَّر تُحرِّكه الغرائز فقط، فالطبيعة هي سيّدة البشر اللاواعي، هي أمّ البرايا اللامختارة (بار-شجونو).

الروحاني "إنليل-آدم"، فلابدّ من استدراج تلك الأنثى إلى الجبل العظيم، إلى مغارة الجنّة، عبر نهر "نان بردو" (العينان الباردة) لتصل إلى "نفر" أيْ نافورة النبْع الصافي، المأهولة بالأرباب (الملائكة) المنتظرين لتطهيرها وإعادة تخليقها، المعبّر عنه رمزاً بالاتّصال والتقبيل، وهو في الحقيقة صفّ الجينات و"تقدير المصائر" ونفخ الروح، والسيّد ذو العينين المشرقتين، النيّرتيْن، الجميلتين، هو ربّ (قوّة/فعاليّة) حوض التطهير، "فيه عينان نضّاختان" عانقها وقبّلها (لأنّه فم وثغر "ثغر/فم الأنهار حيث أُخِذ نوح/(أوتونافشتيم) بعد وفاته)، لأنّها تقلّبت فيه ولامس جميع جسمها ودخل فيها وغمرها، وهذا ما يحدث للمؤمنين في الحياة الأخرى يتطهّرون في "الحوض" قبل دخولهم الجنّة.

أمّا اغتصاب الربّ "إنليل-الروح" لننليل-حوّاء البشرية في القارب أثناء سيره في النهر، فهو رمْز لما جرى على حواء (قبل أنْ تكون حوّاء) وهي خائفة مذعورة كأيّ كائن غرائزي حيّ (كما يُصوّر الآن في خطف الكائنات الفضائية للأطباق الطائرة لإنسانٍ ما وإجراء العمليّات عليه، أو خطفنا لأيّ حيوان من الغابة للتجارب أو للتحسين، يُعبَّر عنه باغتصاب)، فهي مراحل تخليق حوّاء في حاضنة مائيّة/طينيّة كالتي خُلِّق فيها آدم قبلَها بفترة، أمام ملائكة "تقدير المصائر" الصافّة حتّى انتهت "بزرع بذرة الإله سين"، أي بنفخ الروح[1].

أما الأرباب العظام الكبار "الأنو-ناكي" (الأنا النقيّة) محدّدو الأقدار الخمسون[2]، فهي ترمز أيضاً إلى الزمن الإنساني الذي يتنزّل كلّ ألف سنة منه ملائكةُ السماء المتعهّدون للإنسان والأرض، فهي تنزّل خمسين مرّة ابتداءً من خلق الإنسان-آدم، "**لقد حدّدوا للبشر عيد رأس السنة**" هو بداية المولد الإنساني[3]، مولد ربّ/سيّد الأرض.

و(الآلهة) السبعة الكبار التي تقدّر المصائر فالسبعةُ هو الرقم المقدّس التامّ للخلق؛ أربعة منهم مباشرون وهم المعروفون في التراث وثلاثة غير مباشرين وهو

---

[1] - صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٦٥.

[2] - صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٦٦، وكذلك: رينيه لابات، سلسلة الأساطير السورية- ديانات الشرق الأوسط، ص ٣٤٩.

[3] - ليلة القدر - عيد الخليقة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

يُحاكي القوى الأربع المادّية الماء والتراب والنار والهواء، والثلاثة الروحية النفس والعقل والرّوح، وأمّا (آلهة) الأنوناكي فمنهم الملائكة الذين خرجوا مع آدم من الجنة وأُسجدوا له وبعضهم حرّاس الجنّة الأرضيّة، ومنهم صاروا بعدئذٍ طوّافين (حجيج) حول الإنسان وحول البيت المعمور بالأرواح بوجود أرباب/سادة التدبير فيه (في الجنّة) "إيجيج-حجيج" وهي تشمل الجن (المستورين) أيضاً فهم "أجيج" أي مخلوقات متأجّجة، ويبدو أنّ منهم ملائكة مجموعتنا الشمسية باعتبار الأرض كعبة هذا الكون (الشمسيّ) ومركز مدبّريه، فهم حجيج (إجيجي) لهم حجّات إلى الأرض، وهذا ما بيّنته المرويات الإسلاميّة أيضاً بطواف الملائكة حول البيت المعمور في السماء، والسماء "هنا" ليست الفضاء بل المكان السامي، "نفر"، الجبل العظيم، جبل السماء والأرض، وأكّد القرآن هذه الحقيقة بوجود (إجيج) حرس لهذا المكان السامي (**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً**)(الجنّ:٨)، وأنّ "عرش التدبير" الذي تحفّ به ملائكة الحجيج هو في الجنّة (**وَقَالُوا الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ، وَتَرَى الْمَلائكَةَ حَافِّينَ منْ حَوْل الْعَرْشِ**)(الزمر: ٧٤-٧٥).

ومن نصّ إنانا-عشتار (**عندما تُسمَع في السماء كلماتك، يخر الإيجيجي صاغرين، وعندما تُسمَع في الأرض كلماتك، يُقبّل الأنوناكي الأرض أمامك**")، وأيضاً نفس الكلام لإنليل (**آلهة الأرض تسجد خشيةً ورهبة، وتتذلّل آلهة السماء أمامه**)[١]، والأمر نفسه إلى "سين" (**وإذ يُدوّي صوتك في السماوات فإنّ الإيجيجي يسجدون، وإذ يُدوّي صوتك في الأرض فإنّ الأنوناكي يُقبّلون الأرض**)[٢].

فهذه القوى الربّانيّة، التي دائماً يُترجمونها (آلهة) خطأً هي قوى (وسائط) الحبّ والجمال والرحمة والرّوح والحياة، لها وجود أثيري، نُسمّيها في تراثنا الإسلامي سادة الملائكة، المدبّرين، وهي التي تأتمر بأمرها أعوانها من الملائكة سواءً ملائكة موجودة في الجنّة (السماء)، أو خارجها (في الأرض).

---

[١] - وديع بشّور، الميثولوجيا السورية، أساطير آرام، ص ٦٢.

[٢] - رينيه لابات، سلسلة الأساطير السورية- ديانات الشرق الأوسط، ص ٣٣٣.

المرّة الثانيّة: هو دخول أنثى ثانية بنفس الطريقة، بإيحاء غرائزي، ولكنّها لمْ تُخلَّق إنساناً ولَمْ يُؤذن لها الدخول في الجنّة، بل وافاها "إنليل-آدم" بعد خروجه من الجنّة بإيحاءات وتغريرات شيطانيّة، فعصى ربّه وعاشرها، وهو ما بيّنه نصّ المشهد الثانيّ، كحوارٍ بين آدم وحوّاء وقد خرجا على باب الجنّة ليُطلاّ خارجَها، وبدت الميول الجنسية الطاغية على آدم بالخصوص (السوأة)، حين شاهد تلك الأنثى الثانية المتبرّجة العارية (الشجرة) على شطّ النهر.

المشهد الثاني: ميلا- مطعايا، ذرّية الخطيئة

إذا كُنتِ سيّدتي حقّاً فدعي يدي تلمسُ وجنتك	(هذا كلام آدم مع حوّاء)
إنّ نطفة "سين"، الذرّية الزاهرة في رحمي	(هذا ردّ حوّاء تُنازعه أنّ هذا خلاف بذرة الرّوح)
إنّ بذرة "سين" الذرّية الزاهرة في رحمي	(كرّرتْ ذلك وتمنّعتْ)
فدعي إذن ذرّية سيّدي تصعد إلى السماء في الأعلى	(هذا ردّ آدم بتخلّيه عن زكاة الرّوح، وبذرة "إنليل" الربّانيّة)
ولتذهب ذرّيتي إلى الأرض السفلى	(ولتكُن النتيجة أنْ يصنع ذرّيةً تذهب إلى أسفل، لا يهمّ)
لتذهب ذرّيتي بدلاً من ذرّية سيّدي	(فأخلد إلى الأرض، إلى الشجرة الخلْد "الأنثى الثانية")
إلى الأرض التي في أسفَل	(ليصنع منها نسلاً، وملكاً يبقى، عند النّهر خارجِ الجنّة!)
فاضّجع معها "إنليل" . . .	(حوّاء أعلاه قد تمنّعت مرّتيْن، فمع مَن اضّجع "إنليل" في الأرض الأسفل؟)

وزرع في رحمها بذرة "ميلا-متايا"[١]. (سنأتي لاحقاً إلى شرح هذا!)

وهكذا نرى بوضوح، أنّ الأسطورة ما زالت نسويّةً تعليميّة، تُعلِّم الفتاة عدم الصدّ عن زوجها، لأنّه ثمّة إناث متبرّجات قد يسلبنَه منها، فتأتي المآسي والويلات على بيت الزوجيّة، ويذهبُ النسلُ سُدىً، فهي قدْ وظَّفت المعصية الأولى أفضل توظيف لصيانة الحياة الزوجيّة.

وقد بيّنت لنا تلك المدوّنة القديمة أنّ خروج "آدم-إنليل" الإنسان وهبوطَه قدْ سبَق "حواء- ننليل"، وتحكي أنّ حوّاء ما زلّت وأنّها احتفظت (ببذرة سين) في رحمها (أيْ نقاء روحها، والجينات الإنسانيّة)، فلمْ تُلوّث الإنسانيّة التي فيها ولا النسل المكتوب لها (نطفة "سين" الذرّية الزاهرة)، وما وجد "إنليل-آدم" الذي أخضعتْهُ الرّغبة (السوأة) إلاّ الانحدار "**إلى الأرض التي في أسفل**" ليُعاشر امرأةً بشريّة أخرى (الحيّة) بعد صدّ الإنسانة حوّاء، ويزرع في رحمها بذرة "**ميلامتايا**"، وهي بذرة الخطيئة الأولى. فما هي "**ميلا- متايا** Mela-mtaea"؟

لقد دوّنها صمويل كريمر هكذا Melamtaea ميلا- متعايا، لكنّ غيرَه راح يُدوِّنها Meslamtaea[٢] مسلا- متعايا، وقام المترجمون يشرحون "ميلامتايا" على أنّها لقب "نارجال" إله العالم الأسفل (من ألواح سومر، ص ١٦٨) في كلّ كتب الأساطير ومواقع الشبكة العالميّة التي شرَحت هذا اللّفظ، و"نار-جال" هي "النار المحيطة بالخاطئين" نفسها، إذْ "جال": دار وأحاط (مِن الجَوَلان)، أو مِنْ "جلّ" أيْ عظُم، فبهذا "نارجال" هي النار أو القوّة (الربّ) المشرفة عليها ("مالك النَار" في التراث الإسلاميّ)، واسمه الظاهر لديهم "إرّى/Erra"[٣]، ويصفونه بالأرض المحروقة (Scorched earth)[٤] وآلة

---

[١] - رينيه لابات، سلسلة الأساطير السورية- ديانات الشرق الأوسط، ص١٦٨، وفي بعض الترجمات "وزرع في رحم المرأة "ميلا متعايا""، وبعضها "مسلامتاي"

[2] - http://www.piney.com/BabBibleParal.html.

[3] - http://www.piney-2.com/BabGloss.html.

[٤] - إنّ كلمة (Scorch) التي بمعنى يُحرق ويلفح، جذرها (س.ك.ر) والكاف إبدال من (ق) فهي (سقر) التي بنفس المعنى، وتُنطق حسب اللهجات العربيّة (سكر) و(سگر) التي تقرب نطقاً مِن

التدمير والعذاب فهو "السعير" إذاً، ونحنُ نعلمُ أنّ فعل "ورّى و أرّى" في العربية يعني أوقد النار وأشعلها وأجّجها و"سعّرها".

وبالنتيجة، فإنّ لـ"العالم الأسفل/ السُفليّ" مفهومين:

١- "الأسفل" ما تحت سطح الأرض، كما في ملحمة جلجامش، وبرديات قدامى المصريّين، وهو عالم الأرواح وما بعد الموت والحساب، فالنار هي في هذا العالم الأسفل فعلاً، هي البحر المسجور تحت جبل الطور، من جبال السراة.

٢- "السُفليّ" وهو ما يأتي في سياق هبوط إنليل-آدم من الجنة التي في الجبل المرتفع إلى السفوح الأرضية والبراري، وهذا هو العالم الأسفل هنا، فأبناء آدم الثلاثة هم سادة العالم الأسفل خارج الجنة في بدء الإنسانيّة، والتي هي الأرض المستخلفون فيها ليُعمّروها[١].

ب- "ميلا- متعايا/ميلا- مطعايا" أو "مِسلا- مطعايا"

فإنّ "ميلا" بالنطق السرياني هي "ميل" بالفصحى، وهو الميْل والانحراف والتنكُّب عن الدرب. و"متعايا/مطعايا"، فإنّ التاء والطاء واحدة لدى سومر بل لدى المترجمين الغربيّين أيضاً، كما أنّ العين السريانيّة تقابل حرّفي العين والغين في الفصحى، "مطعايا" هي "مطغايا"، والميم الأولى -هنا- هي أداة تعريف، كاللام الفصحى، إذن هي "مطغايا" الطاغي، فالتعبير معناه "الميل الطاغي" الانحراف الذي جاوز الحدّ وطغى على عقل صاحبه، وهو نفسُه الذي عبّر عنه القرآن ببدوّ السوءات والعصيان وعدم العزم ونسيان العهد، لدى آدم (إنليل البشريّ). أمّا الذين كتبوها "مِسلا-

---

(سجَر) التي تُنطق أيضاً (سكَر) بدورها وتفيد معنىً قريباً.

[١] - راجع سفر حزقيال ٣١ حيث يتكلم فيه عن الهاوية أو العالم الأسفل وهو الأرض بالنسبة للجنة، وهؤلاء الأبناء لآدم هو تكملة الأسطورة التي فيها أنّ "آدم/إنليل" تقمّص شخصيات ربّانية لتحمل "حوّاء/ننليل" منه، وكانت الذرّية الثانية بعد "ميلا- مطعايا" هو "نينازو" أي "نينا- زو" زو= ضو، سيّدة الضوء، فهي ذرّية شرعية في الأرض لا كما يقول المترجمون والمفسِّرون أنّها ذرّية غير شرعية. راجع: صمويل كريمر، من ألواح سومر، ص١٦٩؛ خزعل الماجدي، متون سومر، ص١٠٩.

مطعايا"، فإنّ الذال والثاء تُلفظ أحياناً زاياً وسيناً لدى سومَر وغيرها للآن، فإنّ "مسلا" تؤول إلى أحد أمرين:

مسلا = **مثلا**، فهو المثيل الطاغي، وهو يصف الذرّية المتولّدة ذرّية الخطيئة، أنّها "مثيلة" الإنسان لكنْ "طاغية".

مسلا= مذلا، وهي المذلّة الطاغيّة، أيّ الحاجة المذلّة الطاغية وهي السوءة نفسها والشهوة الجامحة التي تُخرج صاحبها عن الاتّزان والاستقامة والحلال.

فالنتيجة أنّ (ميلا أو مسّلا مطعايا) هي الميول الطاغية الجارفة ونتائجها الوخيمة، التشوُّهات والخطايا وثمراتها التي من اجتراح الآدمي أيِّ آدميّ، فإنّها ستحيق بالمرء حين تتكاثر، حتّى تحيط بـ (**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**)(البقرة:٨١) فتتجلّى له في الآخرة النار المحيطة أو الجليلة (نار-جال) وهي حيث "العالم الأسفل" أيضاً لكنّه غير العالَم السفليّ الذي هو الأرض والحياة التي نعيش فيها.

ج- ننليل وحوّاء وسود

ينقل مُترجمو الأساطير أنّ "ننليل" عُرِفَتْ باسم آخر هو "أغيتومال"، وباسْم ثالث هو "سود" ابنة "هايا" وابنة "نان-بار-شيجونو"[1]، كما ينقلون أنّ ثمّة أمّاً أخرى لـ "سود" هي "نيسابا Nisaba" أيضاً، ربّة الكتب والعلوم والقلم وأنّها التي نقلت الإنسان من التوحّش إلى المدنيّة، ويسردون أسطورة خطبة "إنليل" لـ "سود" وإعطائها لقب "ننليل"، ثمّ حين تعتني الزوجة (سود/ننليل) بالطبيعة والحقول والمحاصيل يمنحها لقب أمّها "نان-بار-شيجونو"، وأنّ الزوجيْن يحتفلان بالعيد الأكبر لإنليل بهذه الزّيجة، ويقول لها زوجُها: (**سأمنحك فنّ الكتابة وسأمنحك الألواح مزيّنة بالشارات، القلم، المحاسبة، علم الحساب، وحبل المساحة، وأوتاد القياس، وشرائطه، وطريقة**

---

[1] - وديع بشّور، الميثولوجيا السوريّة، ص٨٦؛ وللتفصيل راجع: خزعل الماجدي، إنجيل سومر، ص١٩-٢٧.

تثبيت حدود المزارع، وتخطيط القنوات والسدود . وستوزّعين الأرض على من يزرعها)! فماذا يعني كلّ هذا التداخل، الذي لمْ يتعنَّ أحدٌ قطُّ مِنْ مترجمي الأساطير أو ناقليها بفكّه أو تمييزه وشرحه؟

أولاً: إنّنا نُشيد بالمستوى الحضاري والثقافي لدى آبائنا الأوائل، حيث المرأة تُعلَّم جميع هذه الأمور المدنيّة ولها دورٌ حيويّ مشارِك في كلّ مجال حضاري وبناءٍ تقدّميّ.

ثانياً: في هذه الأسطورة وفي كلّ أسطورة، فالأسماء ليست هي أسماء أصل الحدث وشخصيّاته بمقدار ما هي سماتٌ لها (وهذا معنى "اسم" الحقيقي في اللغة والقرآن)، وهي مظاهر ووظائف وأفعال، نُطقَتْ بالسريانيّة التي هي لهجة تلك الشعوب، وإلاّ فالقصّة الإنسانيّة الأولى لا يُعرَفُ من أسمائها على الحقيقة سوى (آدم وحوّا)، فمثلاً أنّ كلّ ما كان لاحقتُه "إيل/إل/يل" بمعنى اللّه فهذا اسم (سمة) للحقبة السريانيّة القديمة التي ربّما بدأت قبل أكثر من عشرة آلاف عام.

ثالثًا: واضحٌ أنّ القصّة لا تتعلّق بآدم الأوّل (إنليل) وزوجته (ننليل) بل بإعادة الذكرى والاحتفاء بذكرى الزواج الأوّل كعيد رمزٍ، له ارتباط بالإنسانيّة والحضارة والتعليم، إنّه كما نتبارك بقراءة مولد النبي (ص) أو أهل بيته في مناسبات ولادة طفل لنا، أو إقامة عزاء لوفاة النبي (ص) أو أهل بيته مع وفاة أحدنا، أو سرد قصّة زواج النبيّ (ص) أو ابنته فاطمه من عليّ (ع) في مناسبة زواج أحدنا . وإلاّ فليس في القصّة الأولى (حيث آدم وحوّاء) أناسٌ وحقول وقنوات ومزارع وفنّ كتابة التي إنّما ظهرت قبل عدّة آلاف سنة فقط قبل الميلاد . هذا الزواج المقدّس على سنّة "إنليل الأوّل" يُحاكي زواج كلّ مسلم ومسلمة على سنّة النبيّ الأكرم (ص).

رابعًا: بالاطّلاع على حيثيّات الأسطورة نرى أنّ "نيسابا" تُعلِّم المخطوبةَ "ننليل" حقوق زوجها الآتي، وكيفية تقديس بيت الزوجيّة، والتعطّر، والمداعبة، وإنجاب الأولاد ...، ونرى كيف أنّ "إنليل" قدّم الهدايا الثمينة والأحجار والفواكه والألبان لمخطوبته، ما يُؤكِّد أنّ سياق هذه الأساطير، طقسيّة تعليميّة للزواج، وأنّ "ننليل" هنا و"إنليل" مجرّد شابّ وشابّة إنسانيّن مقدميّن على الزواج (يُحاكونهما بآدم وحوّاء).

خامساً: إنّ تلقيب الزوج لزوجته "نان- بار- شيجونو" الذي ترجمناه قبلاً أنّه (سيّدة-البرايا-السجينة) أي سيّدة الطبيعة المُسخّرة، يُوافق بالتمام، سياقها هنا، إذ أنّها تستحق هذا اللّقب إذا تمكّنت الزّوجة من تدبير الحقول والحصاد والاعتناء بالمحاصيل، أيْ سخّرت الطبيعة.

سادساً: احتفظ السومريّون بمعالم القصّة الأولى في الأسماء، "إنليل" الزوج الإنساني وقد عرفناه، "ننليل" الزوجة الإنسانة الأولى، التي أطلقوا عليها أيضاً هنا "أغيتومال"، وعُرفتْ باسْم "سود" ابنة "هايا" وابنة "نان-بار-شيجونو". فبدلاً من الجري وراء الخرافة والإكثار من ترديد كلمة (آلهة) الفارغة تقوّلاً على ثقافة مجتمعيّة تقليديّة واضحة، لِمَ لا نضع النقاط على حروفها:

"أغيتو-مَ- إل" أغيتو= إغاثة، مَ= من، إلْ = إيل (اللّه)، إغاثة من اللّه، وحوّاء فعلاً أُهبطت بعد مدّةً إغاثةً من اللّه لآدم (تلقّي الكلمات).

"هايا"= حيا، والذي يُسمّونه "حيا/إيا"، وهو الحياة، وهنا هو حياة النفس بالرّوح، أمّا حياة البدن بالنّفس الحيّة فنجده في:

"نان- بار- شيجونو"، وقد شرحناها، فبهذا حوّاء هي ابنة أيْ نتاج "حياة الروح" (الإنسانيّة) و"حياة النفس" التي هي الطبيعة (البشريّة).

"سود": هي حواء، لاحظ الاسم "أحوى" أيْ مائل إلى السواد، وأيضاً من "ساد" يسود سوْداً، فهي السيّدة.

"نيسابا": هذه الكلمة التي صدّروها بلفظة "الإلهة!" نيسابا، هي عربيّة، نسّابة، وهذا فعْلُها، هي الخطّابة والمُعلّمة التي ترى المناسبَ وتعمل المناسب وتُناسب بين الأزواج وتُوائم بين القلوب وتُعلّمهم ما يُبقي هذا التناسب والحُبّ، وتُدوّن العقود وتُوثّق الأبناء كمحافظة على الأنساب وكان رمزُها القلم، فأخرجتْ الإنسان مجتمعياً وبشكلٍ فعليٍّ من التوحّش إلى المدنيّة وهذا يُذكّرنا تماماً بما فعلتْه "إيزيس" في مصر، فـ "نسّابة" هي أمّ رمزيّة لكلّ فتاة مخطوبة (ننليل) عصريّة آنذاك، وما زالت هذه العادة وهذا الدّور موجوداً في بعض مجتمعاتنا.

د- أسطورة آن - سو (Myth Of Anzu)

لقد مرّ علينا في بحث (الخلق الأوّل) عن نظام الطبيعة في التناسل المسمّى (عشتار) وكيف بدأ تحوّل جلجامش الأمير البابلي، عن هذا النظام البشري الغرائزي الإباحي، وأرسى مع المصلح (أنكيدو = مسئول القيد (الأسرة والنظام)) نظاماً آخر هو نظام (إيل/اللّه) نظام الإنسانيّة الواعي، فقطَع شجرة (الخلب) شجرة عشتار، شجرة الخصب الطبيعي التي ابتدأت مع الخليقة الأولى مع ترقرق نهر الفرات خارج الجنّة كما تقول أسطورة (إنانا وشجرة الخالوب)، وعُدَّتْ شجرة خبيثة بالنسبة لمستوى الإنسان الواعي، مفارقة لمنحى الرسالات، وعقبةً في سبيل التطوّر الإنسانيّ، أرادتْ "العناية/إنانا" قطّعها من مدينة جلجامش "أوروك"، هذه هي المرحلة نفسها التي ظهر فيها دورٌ للفكر النّسليّ الواعيّ الملتزم بقوانين الأسرة والأبوّة والمذعن لأُطرها، أيْ - تمثيلياً- خضوع إنانا لجلجامش، بعد فشلها في إغوائه، وبعد إهانته لها ورفضه لتلك الشريعة البالية. فنجد أنّ جلجامش وائتماراً لنداء إلهيّ من ربّ الشمس (**أوتو**/حوطو =القدرة المحيطة) يقوم بقطع تلك الشجرة الخبيثة التي سكنت "الحية" (الغرائز) في أسفلها والشياطين في وسطها وأعلاها، فقطعها جلجامش وقتل الحيّة (الغرائز) وبعثر سكنتها من الإباحيّات (ليليت: سنشرحها لاحقاً بالتفصيل) إلى الخرائب المهجورة، وشرّد (طائر الزو"Zu" وفراخه- طائر السُوّ بالعامّية أي السوء) - وهم أبالسة هذه الشريعة وكهّانها- شرّدهم إلى الجبال. لقد كان السومريّون دقيقين جداً حين قالوا (عين سو Anzu)، فما هو الـ آن- سو؟

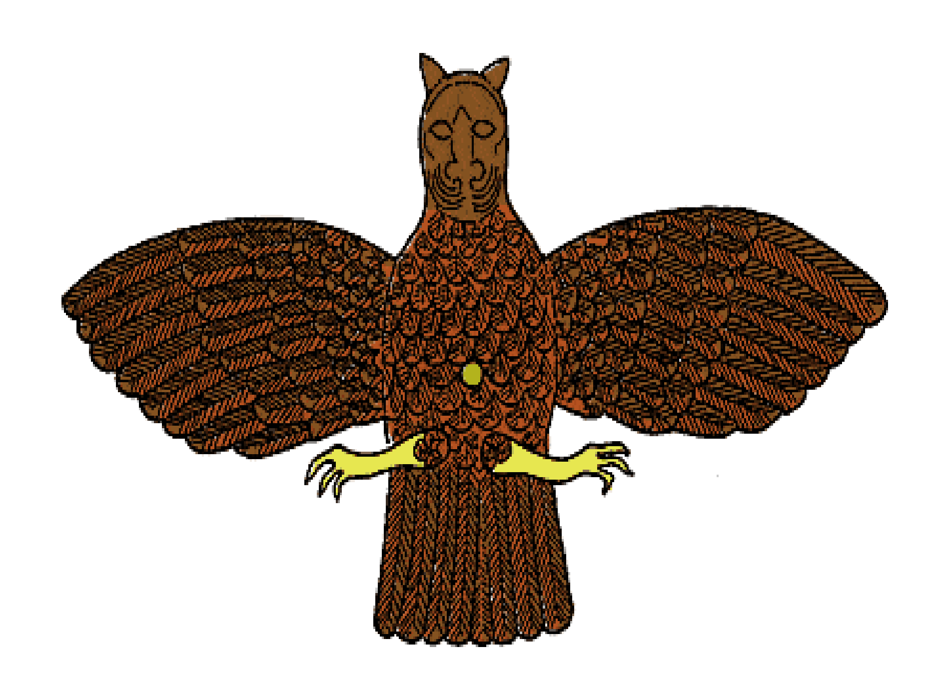
تقول أسطورة آن-سو (Myth Of Anzu) المدوّنة على ثلاثة ألواح قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، أنّ "آن-سو" (عين سوء) طائر في الجنّة ومقرّب من الربّ، نظر بالحسد إلى إنليل وإلى تاج ملوكيّته، وإلى ردائه الربوبيّ (*His lordly crown, his robe of divinity*)، فماذا فعل؟ لقد انتظر ريثما يتعرّى إنليل ويخلع رداءه الربوبي وتاجه الملوكي ويستحم في ماء التطهير، ليسرق منه لوح الأقدار الذي يتحكّم به في مصائر الأرباب! فأفسد خطّة رعاية البشر (*Anzu has disrupted the kingship that I designated!*) بعد أنْ استولى عليها من إنليل (They designate for you the entire shepherding of peoples)! طبعاً لا معنى لأنْ يستحمّ ربٌّ أو ملاك في

حوض التطهير الذي هو شأن إنساني توارثته الديانات كلّها فسمّته (تعميد = تغميد)، (صابئ = صابغ)، (تطهّر)، (غسْل)، الأمر واحد لدى الجميع معناه الارتماس في ماء طاهر أو مقدّس، فلو صحّحنا خطأ المفسّرين والمترجمين، وأيقنّا أنّ إنليل المتكلّم عنه هذا هو "إنليل" البشري، آدم، الذي اغتسل في (حوض الأردن) قبل تخليقه ليكون آدم، ومرّ يوماً ما بالحوض واغتسل فيه وتذكّر الحالة الهمجيّة السابقة التي كان فيها، قبل تسلّله لخارج الجنّة واصطياده، ألن يكون ما تقوله هذه الأسطورة هو بالتمام والكمال ما سطّرناه في هذا البحث؟

بلى، فإبليس أو (عين سو Anzu)، رمز مَن فتح باب "السيّئات" والإباحيّة، هو أصل كلّ "سوء" حصل للإنسان، رمزوا له على شكل طائر لأنّ أصله مع الملائكة يطير، حين كان طاووس الجنّة، فنظر -كما تقول الأسطورة حرفياً- بـ (عين سوء) ونظرة حسدٍ إلى (إنليل) وتمنّى في قلبه الملوكيّة مكانه، وأراد سرقة ردائه الربوبيّ منه وتغيير مصائر أرباب الأرض (البشريّين طبعاً من أبناء آدم خليفة الربّ المفترض) بسرقة لوح الأقدار (وأحد تجلياتها مدوّنة الجينات، سرَق إبليس الذرّية الآدميّة عبر أنثى الهمج) تنفيذاً لتحدّيه للربّ (**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً**)(الإسراء:٦٢). وتمّت له بعد انتظارٍ طويل تلك الفرصة، حينما تعرّى (إنليل) ونزل يستحمّ في ماء التطهير (وهو حوض الأردن الذي انساب منه إلى الخارج)، بعد أنْ نزع عن رأسه تاج الملوكيّة ورداء الربوبيّة (ينزع عنهما لباسهما، انسلخ من آياتنا، حسب العبارة القرآنية). غضب الربّ الأعلى (آنو) وقرّر رشق (عين سو/إبليس) بالنّار ورجمه عقاباً له، بواسطة (نين- نورتا Ninurta) وهو الجبل الناري القاذف المحيط بالجنّة، فصارت منذ ذاك حرَماً آمناً محظوراً إلاّ على الأرواح الطاهرة تُدحر الشياطين بعيداً عنها بشُهب الملائكة (نين- نورتا = أصحاب النّار والشهب القاذفة). وكانت الأسطورة تحكي صراع الملائكة والشياطين (عين سو) على استرجاع (مصائر البشر) ليعودوا إلى أحضان إنليل (الروحنة والإنسانيّة)، وكانت الرسل والملوك الصالحون هم رأس حربة هذا الصراع لقيادة البشريّة باستنقاذها من

احتناك الشيطان إلى الجنّة لاستعادة مصائرها من مصائده. هذا ملخّص الأسطورة لمن يقرأها[1]. (انظر الصورة: ٣٠)

(1) – His eyes would gaze at the trappings of Enlil-power;
His lordly crown, his robe of divinity,
The Tablet of Destinies in his hands, Anzu gazed,
And fixed his purpose, to usurp the Enlil-power.
Anzu often gazed at Duranki´s god, father of the gods,
And fixed his purpose to usurp the Enlil-power.
' I shall take the gods´ Tablet of Destinies for myself,
And control the orders for all athe gods,
And shall possess the throne and be master of the rites!
I shall direct every one of the Igigi!'
He plotted opposition in his heart
And at the chamber´s entrance from which he often gazed,
He waited for the start of the day.
While Enlil was bathing in the holy water,
Stripped and with his crown laid down on the throne,
He gained the Tablet of Destinies for himself,
Took away the Enlil-power. Rites were abandoned,
……….
Anzu has disrupted the kingship that I designated!
He has obtained for himself the Tablet of Destinies [ ]
He has robbed Enlil; he rejected your father,
http://www.gatewaystobabylon.com/myths/texts/ninurta/mythanzu.htm



رمز طائر عين السو (آن- سو) (له وجه الشيطان)
(الصورة: ٣٠)

هـ- المُترجمون وتشويه تراث التوحيد[١]

للأسف، إنّ كلّ كتب الأساطير المعرّبة والعربيّة، انجرفت وراء الخطأ الأوّل بجعل كلّ تلك الأسماء والرموز "آلهة"، وإنّه من الاجحاف بثقافة سويّة هذا سمتُها وبيانُها أنّ يعتقد فيها عالِمٌ مثلُ "كريمر" ومترجمو الرّقُم والألواح الآخرون ومَن أخذ عنهم خطأً؛ أنّ ديانة السومريّين تنضح وتعجّ بتعدّد الآلهة فيقول ص١٧١ (**لقد كان للسومريّين من أهل الألف الثالث قوم مئات من الآلهة**)، والحقيقة أنّ المترجمين والمفسّرين هم الذين أخطأوا في الفهم، فعقيدةٌ تعجّ بالأخلاق والحِكَم الرفيعة والمُثُل وشرائع العدل والتكافل (لمن تتبّع نصوصَها[٢]) لا يُمكن أن تكون وثنيّة وخرافيّة، ولو قرأوا القرآن

[١] - راجع: التوحيد عقيدة الأمّة منذ آدم، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[٢] - راجع: الأسطورة توثيق حضاريّ، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

ورأوا يوسف (ع) يقول للساقي السجين: "**اذكرني عند ربك**"، وهو يقصد ملكه فرعون، لظنوا أنّ يوسف مشركٌ، أو قول عيسى (ع) (**لأنّ أباكم واحد الذي في السماوات**)(متى ٩ :٢٣) لظنوا بولادة البشر من الإله الواحد الصمد، أو قول المزامير في التوراة بنفس المعنى (**الله قائم في مجمع الألوهيّة، في وسط الآلهة يقضي**)(مزمورا ٨٢:) فها هنا آلهة أيضاً أو قول دعاء يُروى عن الإمام الصادق (ع): (**يا ربّ الأرباب وإله الآلهة ويا ملك الملوك ويا سيد السادة اشفني بشفائك من كل داء وسقم فإني عبدك أتقلب في قبضتك**)[1]..

وكما أنّ الحساسيّة من كلمة "أرباب" يستشعرها كلّ مؤمن موحّد في اعتقاده، حيث لا ربّ حقيقي إلاّ الله تعالى، فالإله كذلك فلا إله إلاّ الله، ضمّن القرآن الاثنتين قطعاً لأيّ التباس، فكما جاء (**وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**)(آل عمران:٨٠)، (**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)(التوبة:٣١) جاء أيضاً (**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**)(الزخرف:٤٥)، فعلى المستوى العقائدي والحقيقي، لا ربّ ولا إله، بل ولا محيي ولا مميت ولا رازق، بل ولا حيّ ولا كريم ولا قدير ولا عالم، إلاّ الله تعالى، لكنْ على مستوى المثيل، تتّسع اللغة لتسمية المربّي والمباشر للرعاية والمسئول ربّاً، كربّ الأسرة وربّ العمل ولذلك قال يوسف لساقي الملك (**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**)(يوسف:٤٢)، وقوله عن سيّده الذي آواه فلا يجدر به خيانته (**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**)(يوسف:٢٣)، ولو كان يعني "الله" للزم أنْ يقول (معاذ الله ربّي، الذي أحسن مثواي). ولما أتى بوصف "**الظالمون**" الوصف اللائق بالتعدّي على حقّ الغير، ولذلك عقّب في فترة لاحقة في القصّة (**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**)(يوسف:٥٢)، هذه المفردة "الربّ" أطلقها العرب على كلّ من له مكانة عالية، كمعلّم، ورسول، وملك، ورئيس، لذلك نقرأ في الإنجيل: (**فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَنَظَرَهُمَا**

---

[1] – الكليني، أصول الكافي، ج٢، ص٥٧٦.

يَتْبَعَانِ فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالاَ: «رَبِّي (الَّذي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ) أَيْنَ تَمْكُثُ؟»)(يوحنّا ١ : ٣٨)، فالمعلِّم والرسول ربٌّ (لُغةً) أيضاً.

إذن، هي كلمات دارجة، لا يُخطئ في فهمها إلاّ من أتى من خارجها، فالسومريّون لمْ يكتبوها لنا بمعزلٍ عنهم، هم كتبوها لأنفسهم ولأجيالهم الذين يعرفون اللغة (وهي لهجة عربيّة عامّية كُتبت كما تُنطق بدون حركات أي ساكنة بدون تصويت)، والذين سيتعلّمونها بدورهم على أيدي معلّميهم من كهنة المعابد بالخصوص، تصوّر لو وقع بين يديك تعاليم في الهندسة الجينيّة، أو الكيميائية، أو النوويّة أو تعليمات برمجة كمبيوتريّة، فإنْ كان ليس عسيراً عليك اليوم أنْ تُحوّلها إلى ألفاظ صوتية وتعرف أيضاً معاني مفرداتها، فهل تستطيع فهمها من دون مختصّ في ذلك العلْم المسطور؟ فهذا هذا.

فالذي لا يفهم من كلمة "عبد" إلاّ التعبّد للألوهة وطقوس الركوع والسجود والتذلّل، وليس الخدمة أو الطاعة أو الحبّ أو الارتباط أو الشغف بالتفكير في الشيء "المعبود"، وليس التسخير والتهيئة (منْ "عبّد")، لحتمَ جازماً أنّ "عبد مناف" و"عبد شمس" و"عبد المطّلب" و"عبد الدار" كلّهم مشركون ليس فيهم أحناف ولا موحّدون، إنّما الذنب ذنبُ الترجمة ثمّ في الفهم والتفسير، هذا علاوةً على ما يُضاف من تصوّر سابق، وأعني بالتصوّر السابق الفكرة السائدة بأنّ التوحيد بدأ بموسى (ع)، وبأهل التوراة، والعرب خلال التاريخ كانت وثنيةٌ، هذا وهْمٌ وخطيئةٌ كبرى! فأين ذهبت الأنبياء والنّاس منذ آدم الأوّل؟!

إنّ قدامى العرب، لم تُخطئ حين ميّزت الملائكة التي تقف وراء ظواهر الطبيعة وقواها وقوانينها بتسميتها "أرباباً" كما نُسمّيها اليوم "أسباباً" و"قوانين" و"وسائط" و"تجلّيات" و"رُسل ربّانية" فالأمر واحد، مفاده أنّ لها السلطان علينا وأنّا يجب أنْ نخضع لها ونطيعها لأنّها قوانين ونُظُم، ويلحقنا الهلاك متى تمرّدنا عليها وعصيناها. إنّهم لمْ يتوسّلوا لها بالعبادة والتوحيد، ولا بالاعتقاد بمشاركتها الإله الواحد كحال الوثنيّين المشركين ذوي الضحالة والعناد، بل كانوا يعرفون أنّ لها مدبّراً مالكاً هو ربّ الأرباب، إله الآلهة (نسمّيه اليوم ربّ الأسباب/ مسبّب الأسباب/جاعل الملائكة رسلاً،

الأمر واحد).لمْ يُخطئوا حين جعلوا كلّ مَن هو مفترض الطاعة ربّاً (لُغةً)، ونحن نسمّيه اليوم معلّما و"مربّياً"، فلغتهم -التي يفهمونها هم- تُسوِّغ لهم أنْ يُسمّوا أمير الجند ربّاً، والمعلّم، والملك، والقاضي، والمشرّع، أرباباً، هم لا يعنون أنّ هذه الأصناف كائنات غير بشريّة، ولا أنّهم غير مخلوقين فيستحقّون العبادة والتأليه، بل عنوا أنّهم يستحقّون التبجيل والطاعة والإذعان وخلافة الله فيهم. فضلاً أنّ اللغة الدينيّة لمْ تتخصّص مفرداتها بعد، فالصوم كانت تعني الصمت قبل أنْ يُصادرها الاستعمالُ الشرعيّ، ولمّا تنشأ إذّاك حساسيّةٌ من المفردة (ربّ، إله) لتتمحّض في آخر الأمم والملل لله وحده قطعاً لدابر الشرْك الذي عصف بالأمم بعدئذ، فالله ربّ، والمدبّرون أرباب، وقوانين الطبيعة أرباب، وساسة المدينة أرباب، وهذا كماً نحن نقول اليوم: ("**الله نور**"، **والشمس نور، والقمر نور، ونور القمر من نور الشمس، والوحي نور، والنبوة نور والنبيُّ نور، والعقلُ نور، والملائكة من نور، والمصباح نور، والعلّم نور، والشمعة تُولِّد النور**). فتصوّر لو جاء بعد زمن من أراد أنْ يُحلّل عقيدتنا من كلامنا في الجملة السابقة، لتوصّل بأنّ الملائكة التي من نور هي بنات الله لأنّه النور، ثمّ لأخبر بأنّا نعتقد أنّ الله له أندادٌ وإخوةٌ كثيرون ابتداءً من المصباح وصولاً للشمس، ولأشكل كيف أنّ القمر هو ابنٌ للشمس ثمّ صار نوراً (إلهاً) مثلها، ولاستنتج بالسخف نفسه أنّنا نقول أنّ الشمعة هي أمّ الله سبحانه لأنّها ولّدت النور! بمثل هذه الترّهات تمّت معالجة الكثير من تراث المعلّمين الأوائل فأجحفنا في حقّهم وجحدنا فضلهم، وصرنا نكرّر ما يُقال لنا مُستَورَداً بشأنهم.

فالأوائل سمّوا عناصر الطبيعة والاجتماع الإنسانيّ الفاعلة أيّاً كانت أرباباً، إنّما مِن دقيق فهمهم ومن احترامهم للنواميس ولقوانين الطبيعة والاجتماع، لا مِن سخف عقولهم وسفههم، بل الحقائق التي كانوا هم عليها لو التزم الناس بها اليومَ لما تاهت البشرية ولألفينا أنفسنا في انسجام أفضل مع بعضنا، ومع الطبيعة، ومع الكون ونواميسه، ومع خالقنا العليّ[1].

---

(1) - راجع: التوحيد عقيدة الأمّة منذ آدم، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

رابعاً- أساطير أوروبا، لدى الإغريق والكلتيّين

لقد ارتحل الفينيقيّون الأوائل وجابوا العالَم وبنوا الحضارة منطلقين من حوض البحر المتوسط ومن المنافذ البحريّة المحيطة بشبه جزيرة العرب، فأطلقوا على الأماكن أسماءها وحملوا تعاليمهم وثقافتهم وعلومهم حيثما حلّوا، ولقد رأينا كيف قال أوزيريس بما حُفِر على قبره (**إنّني أنا الملك أوزريس الذي أدار الحبّ في أنحاء الأرض كلّها حتى بقاع الهند الخاوية وحتى مناطق الشمال إلى منابع الدانوب ثم إلى المحيط، إنّني أنا الابن الأكبر لقرونو، وقد ولدتُ جنينا من بيضة جميلة شريفة، ليس في العالم مكان لم أبلغه وقد منحتُ الناس أجمعين ما وجدتُه**)، والمتتبّع لأساطير الفينيقيّين على ما فيها من خيالات جامحة وإضافات خرافيّة طغت على أصولها لن يعدَم أن يجد إشارات على هذه الآثار الأولى، ونمثّل لهذا بمحطّتيْن:

١- **الإغريق**: أليس عجيباً أنْ نقرأ في الأساطير اليونانيّة أنّ "بيرسوس Perseus" ابن "زيوس Zeus" (!)[1] وبسيفٍ قلّده إيّاه "هرمس" هو الذي ذبح "الميدوسا Medusa"[2] وكانت هذه بحسب الأسطورة وحشاً أنثى جميلة وشعرُها حيّات وأفاعي وكان الناظر إليها يتحوّل إلى حجَر!![3]. طبْعاً لا يُوجَد أمرٌ كهذا،

---

(1) - زيوس شخصية آموريّة حقيقية، وأحد مَن لهم الفضل في بناء حضارة "أوروبا" التي جاء اسمُها من اسم الأميرة العربيّة "عروبة" (تُلفظ "أوروبا" بالآموري) التي خطفها زيوس وتزوّجها، لكنّ الإغريق الذين ابتدأ تاريخُهم بهذه المحطّة، تماهى لديهم البشري بالإلهي فصار السيّد ضياء (يُلفظ "زيو" بالسرياني) ربّا للأرباب ويُستخدم اسمه وشخصه في ميثولوجيا التكوين والأصول! وتقول الأسطورة أنّه قضى مرحلة شبابه بين الرعاة فوق جبل "إيدا"، وهو جبل إحْدًا (وهي الجبال التي تُسمّى "أُحد" في الجزيرة العربيّة).

(2) - أقرب تحليل لكلمة "م-إدو- سَ" حيث الميم قديماً أداة ربط في الكنعانية بمعنى الذي وأل تعريف أيضاً، وهي أيضاً كالعربية تأتي بداية الفواعل والمفاعيل والظروف والمصادر وغيرها، و"إدو" هو "أذى" فالدال والذال واحدة قديماً واللهجات السريانيّة يختم مفردها بالواو، والسين ظلّ يُضيفها الإغريق كخاتمة لكلّ الأسماء اعتباطاً، فهي "المؤذية" أو "الأذى" وهذا فعْلُها فعْلاً، فـ "مؤذٍ" العربيّة "ميدو" سريانياً.

(3) - ماكس شابيرو، معجم الأساطير، ص١٦٤- ٢٠١.

لكنّ ما يعني هذا؟ لو تغاضيْنا عن المبالغات الخرافيّة والإضافات الحكواتيّة وتلمّسنا الرمز، للَحظْنا توافقاً للفكر الذي ارتهنت به تلك المرحلة، من وجود إناث جنس "همجيّ" جميل مغْرٍ يسكن المغارات يُرمز له بالحيّات، والفكر المستقيم يدعو إلى عدم التزاوج بهنّ، ولهذا نعلم سرّ سيف "هرمس" معلّم الرموز والأمثال وهو إدريس النبيّ (ع)، ففي حين أنّ "زيوس" انتهك هذا القانون وكان له أبناء غير شرعيّين كثيرون، فإنّ ابنه (فارس Perse) على عكسِ أبيه حافظ على هذا القانون واعتصم بالشريعة الربّانيّة وذبح "الشهوة" إلى المؤذيات "الميدوسا" أي قتَل غرائزه الحيوانية (انظر الصورة: ٣١). وجاء الوعظ جليّاً في تمثيل أنّ الناظر إليها يتحوّل إلى حجَر، ذلك لأنّه تسفيل بالإنسان ومنافٍ لروحنته الشريفة لأنّه يُفضي به لسيطرة خلقته الطينية (الحجر) عليه، أي هو نفسُه التعبير القرآني "**أخلَد إلى الأرض**"، وبظهور المسيحيّة تمّ نقل هذا العمل البطوليّ إلى القدّيسين! فهم إنّما قتلوا الرغبة البدنية إلى الشهوة "المؤذية" (السوأة)، إلى مثيل الخطيئة الأولى، التي جاء المسيح لتطهيرهم منها (أيْ من المعصية الأولى)، أي ليمنع من ممارسة أشباهها، لا لأنّ عليهم إثم آدم كما تصوّروا.

بل لقد ورد في إنجيل "برنابا" أنّ آدم بعد المعصية أراد قطع عضو ذكورته، ما يدلّك أنّ أصل المعصية جنسيّة وأنّ الختان سنّة لتخفيف مقتضى شبق الشهوة، ففي الفصل ٢٣، باب (أصل الختان وعهد الله مع إبراهيم ولعنة الغلف): ".. حينئذ قال يسوع: إنه لما أكل آدم الإنسان الأوّل الطعام الذي نهاه الله عنه في الفردوس مخدوعًا من الشيطان عصى جسدُه الروح، فأقسم قائلا: "تالله لأقطعنّك"، فكسر شظية من صخر وأمسك جسده (أي عضوه الجنسي) ليقطعه بحدّ الشظية، فوبّخه الملاك جبريل على ذلك، فأجاب: "لقد أقسمت بالله أن أقطعه فلا أكون حانثاً"، حينئذ أراه الملاك زائدة جسده (أي غُلفة الذّكَر) فقطعها".

بل قد ورد في الآثار الإسلامية أنّ غسل يوم الجمعة هو للتطهّر من معصية آدم، والكلّ يعلم ما لعلاقة الغسل بأفعال الجنس أو خطاياها.



تمثال يُبيّن كيف تغلّب بيروس (فارس) على الإباحة والهمجيّة المرموز له بأنثى ميدوسا (المؤذية) وقطع رأسها(الصورة: ٣١)

٢- **النورديّون**: الإسكندنافيّون الأوائل الذين ملأوا شمال أوربا وجابوا البحار، التي جعلهم التقسيم الاستعماري العنصري شعوباً هندو أوربيّة، لمْ تعزب عنهم هذه الحقيقة، وظلّت تفوح من ظلال أساطيرهم[١]، كونهم حملةً أيضاً لما جاد به الفينيقيّون على شعوب أوربا وتعليمهم ركوب البحر، ففي أساطير النورديّين الذين أخذوا عن الفينيقيّين، وطبعاً نحن لا يهمُّنا القصص التي يحكونها وصدقها من خرافتها، لأنّها قصص كان غايتها تشكيل عقيدة وأنماط سلوك لدى أقوامها حسب بيئتهم الباردة وثقافتهم ومحيطهم وأعدائهم، بل الذي يهمّنا تمركز أسماء أصولهم والمقدّسات والشخصيّات الأولى في محكيّاتهم الخاصّة بهم، فالأمر كما لو اكتشفنا قبيلة تسكن في القمر، وأردنا أنْ نعرف أصلها، فرأينا أنّ لغتها ليست من لغات البشر، لكنّ أسماءهم وأسماء معالمهم، مكّة وجدّة ويثرب ومحمد وهند وفاطم وحمزة وعلي وعمر وليلى، فهل سنشكّ بعدئذٍ في أصولهم القديمة، منشأ ثقافتهم؟! فلنقرأ:

In the middle of Asgard lies the plain of Idavoll (or Ida) where the Aesir meet to decide important issues. There the gods assemble in the hall of Gladsheim and the goddesses in the hall of Vingolf. The gods also meet daily at the Well of Urd, beneath the Asgard root of the ash tree Yggdrasil.[٢]

والترجمة باختصار: في وسط الـ "أسكارد" تُوجد ساحة "إيدا" حيث أرباب "آسير" يلتقون، في فناء "جلاد- شم"، والربّات في فناء "ف- إينگ- أُلف"، والأرباب يلتقون يوميا في مَثوى الأرواح "أَسكار" عند ينبوع الـ "أرد" تحت جذور شجرة الدردار، "گْراس-إيل".

---

[١] - للاطّلاع على أساطيرهم يُراجع المواقع:

http://www.ugcs.caltech.edu/~cherryne/mythology.html
http://www.dickinson.edu/~eddyb/mythology/review_notes.html
http://www.thorshof.org/edda.htm

[2] - http://home.swipnet.se/heathen/mythology/a/asgard.html
http://nebulosa.patser.net/files/projects/library/nm/nine-worlds.html

هلمّ لننظر في هذه الكلمات التي نجد أنّ كلّ كلماتها المستخدمة والتي ليس لها ترجمة بالإنجليزية، هي كلمات عربيّة اللهجة، للآتي:

- **إيدا Ida**: هو جبل حيدا، أحد. وهو نفسه الذي مرّ علينا في موطن "زيوس" الأوّل، حين رعى أغنامه، موطن الآراميّين في جزيرة العرب. وإلى اليوم نجد جبل "شكر/سكر" يقع بالقرب من أُحد رفيدة (الذي دُعي بالفينيقيّة حيدا، إيدا).

- **أسير Aesir**: إنْ كانت مأخوذة من آموريّي شمال أفريقيا فهو "أوزير" أي شفيع قومه حامل الأمانة والعهد (إزْر/إصّر/أسّر = كلّها بمعنى الرابطة والعهد)، الوزير، الشفيع والمتعهّد، فلكلّ قوم نذير أو وزير أو شفيع سمّه ما شئت، فهناك عدّة من "أوزير". وإن كانت مأخوذة من الفينيقيّين عموماً، فهي (أثير) حيث تُلفظ (أسير) أيضاً، وهي الكائنات الأثيريّة، قوى الأرباب، أو قل الأرواح النورانية، ومن اللفظ "أثير" معنى المُفضّل والمحبوب والمختار (the chosen ones) لأنّ الأثير عربياً هو هذا، الذي أُوثِر وفُضِّل على غيره.

- **جلاد- شِم Gladsheim**: هي سماء المجالدين، المكافحين، الصابرين، وللعلم فإنّ جلادييتور الإنجليزية (Gladiator) بمعنى المصارع جاءت من المُجالدة والتجلّد، و"شِم" هي سماء باللهجات العربيّة القديمة. وهم يُترجمونها ساحة الأبطال السامية، ونراها واضحة بالعربية "سماء المجالدين = جِلاد-شِم" أي المحلّ السامي للصابرين.

- **ڤ - إنْك- أُلف Vingolf**: ال.اء كما سيأتي ذال للتعريف، إينگ: أنقى، إلْف، الألفة النقيّة، وهذا حال أصحاب الجنّة والإلفة النقيّة بلا غلّ بين أرواحها كما حكى القرآن. وهم يُترجمونها بالتقريب بـ "الصداقة"![1]

---

[1] - هذه المعالِم نجدها أيضاً لدى أساطير الهنود شرقاً بتحويرات صوتيّة قريبة، فنقرأ (باتالا: الإقليم الأدنى من العالَم السفلي، يقع تحت جبل "ميرو"، إنّ "باتالا"، مسكن "أسوراس"، ويحرسه "ناغاس") ماكس شابيرو، معجم الأساطير، ص ١٩٨، فالمعالم نفسها: (بات-ألا) أي بيت اللّه، وجبل "ميرو" أيّ جبل الميرة، الزاد، المدد، الجبل الأوّل المزدهر، جبل "مُدّ" أي الإمداد والتزويد والميرة، ولدى

- **ينبـوع ال "أرد" Well of Urd**: هـو حـوض الأرْدن، قلـبُ الـورْد، الكوثر، في الحلّة الآمنة (الجنّـة) فهل أفصـح وأوضـح مـن هـذا؟ وينقـل معجـم الأسـاطير معنـاه: (ينبوع أورد يُجدّد المياه التي بها تجعل شـجرة "الأيكغدراسـيل Yggdrasil" حيّـة)[1]. (انظر الصورة: ٣٢)

سـومر سمّـوه جبـل "إيا Hea/Ea حيا" جبـل الحيـاة، وسمّـوه بيت الله "بيت إنليـل، إنّـه جبـل الخـير العمـيم"، فجبـل الخـير العمـيم، والمـيرة، والمُـد، أمـرٌ واحـد. وهـو الـذي سمّـوه أيضـاً "نُـدْ-إمُـدْ Nudimmud" جبل المُدّ، المعروف عربيا بأرض مُدْ (كَي-مُد: غامد). ثُمّ نلحظ سين القداسـة في خاتمـة "أسـوراس" وهـي "أسـور" أثـير، الكائنـات الأثيريّـة، ونجـد أنّ "بيـت الله/باتـالا" هـذا يحرسـه "ناغاس" وهو " نكَى/نقى" أي الأنقياء، المُنتقَوْن، القـوة المسـمّاة لـدى سـومر "أنكَـي"، والـتي سمّـى شعبُ الـ "أنكى Inca/أنقى" اسمه انتساباً لها تبَعاً، أيْ شعب الأنقياء، شعب الـربّ (الأربـاب)، وجعـل مقرّه أعلى الجبال في البيرو وسمّى مدينته التي بين قمّتيْن "مكو-بكو"، كما هـي العلامـة (الخارطـة) التي أعطتها القوى لجلجامش في أسطورة جلجامش (مكو و بكو)، وكمـا هـي أرض المركـز في القـرآن (مكّة و بكّة) (راجع: جنّة آدم تحت أقدام السُراة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية).

[1] - ماكس شابيرو، معجم الأساطير، ص٢٥٧، ٢٦٧.



رسم تخيّلي يُصوّر نبع الأردن (well-of-urd) (حوض الكوثر) وقد حاطه الملائكة الأربعة لحراسته (الصورة: ٣٢)

- **الإيكّدراسيل Yggdrasil**: هي إيّك-غّراس- إيل، شجر غرّس اللّه (ومن غّراس جاءت غّراس الإنجليزيّة "Grass"[١])، الفردوس، التي يُسمّونها "شانز-إيلزيه Champs-Élysées" بالفرنسي ويترجمونها حقول إيل (Elysian Fields). وللعلم فإنّ ملحمة جلجامش حوت الوصف نفسه لهذه الشجرة والحوض المائي حيث بيت القوى الربّانيّة في جبل مركز الأرض.[٢](انظر الصورة: ٣٣)

---

(١) - ولدى "سومر" دعوا القوّة الربّانيّة التي أوجدت الحياة النباتيّة (Ninurta or Ningirsu)، نين-نورتا: وهي المعتنية بالنَّوَر، وهو الأزهار، ونين-غِرسو: هي القوّة المعتنية بالغرس، فـ غرس، غَراس، كلمة عربيّة قديمة في كلّ اللهجات.

(2) - The centre of the earth was located in a place where the holy house of the gods is situated, a land into the heart whereof man hath not penetrated, a place underneath the overshadowing world-tree and beside the full waters (Gilgamesh Epic).



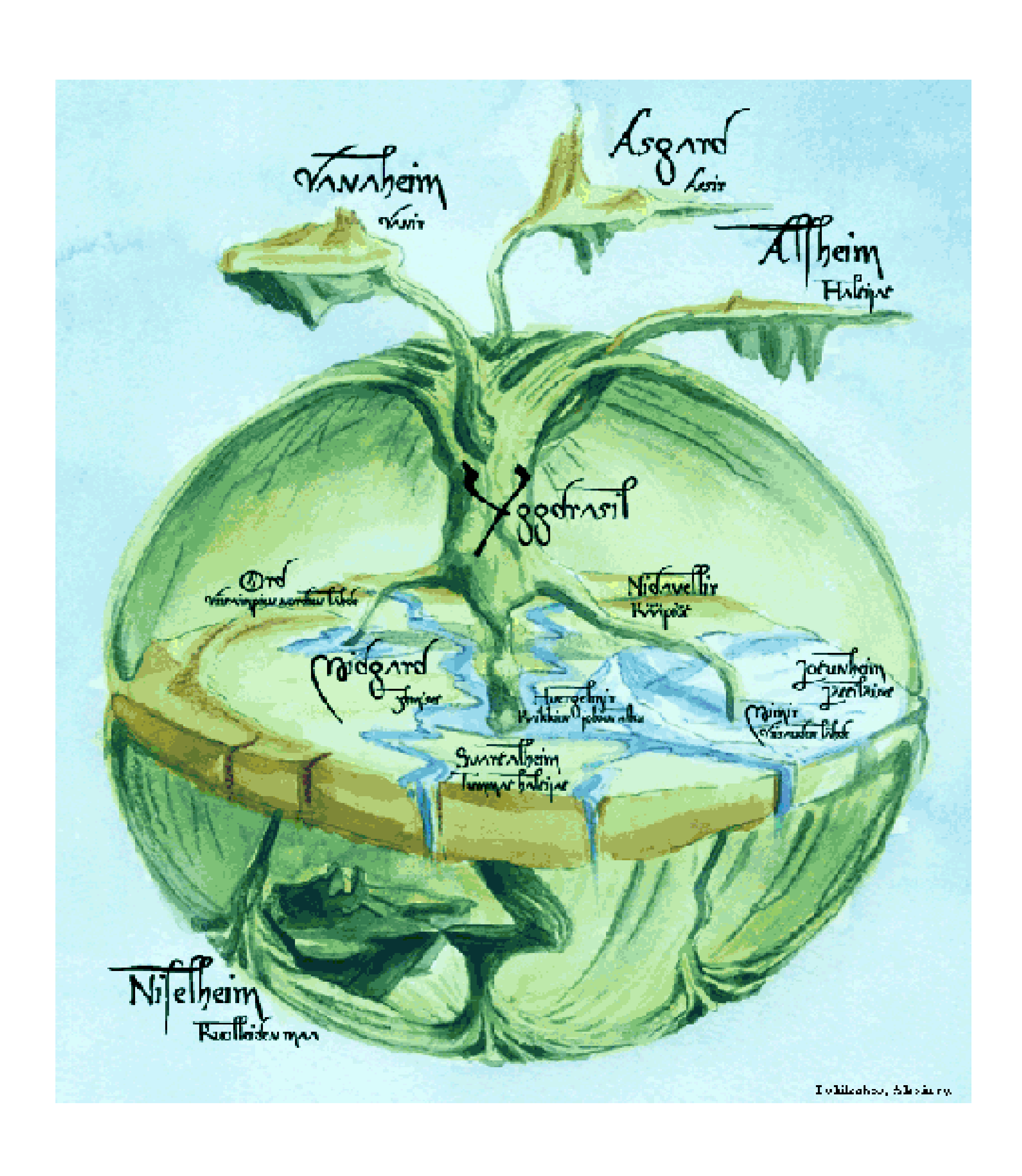
الإيك- غراس- إيل (الجنّة التي غرسها الله) (الصورة: ٣٣)

- **"أسكار" (AsGard)**[1] ويُترجَم أنّ أسكارد: مثوى الأرباب وموطن الأبطال في الميثولوجيا الإسكندينافيّة (نرويجيّة)[2]. هو جبل "سكر/شكر" مدخل أرواح الأبرار، إلى المقرّ، وسنرى لاحقاً أنّ "گارد Gard" هي "گار/گارّة" من قرّ/قرو أي مقرّ، مجمع، ومنه قرية، وباللهجة القديمة (الكنعانية) "قرتُ/گارت"، وهي الملفوظة "گَرْدْ" أي حديقة وجنّة لأنّها مجمع ومقرّ الأبرار، وأنّ "أس As" أو "أش" أيضاً في

(١) - شكار (ة) (skàr (a: قطعة من أرض محروثة، في اللهجة الأكدية "إشكاره" من السومرية اشكَار. وتكتب es-gar (اش كَار) (عمل منجز) محققة في الأكدية من الفترة الأكدية القديمة. تظهر الكلمة الأكدية إشكارو، التي أصلها سومري، في الأرامية من اشكارا (حقل) وبعدها في اللهجات العربية على شكل (شكار) في اللهجة العراقية . و(شكارا) في السورية. وما زالت (كار) بمعنى "عمَل" في العاميّة والفارسيّة.

(٢) - ماكس شابيرو، معجم الأساطير، ص٥٢.

العربيّة بمعنى الأساس، الأصل، القاعدة، فـ "أس–ڪارد" هو المقرّ الأصل، الأساس الأوّل، قاعدة الجنّة، وهو يُحاكي ما قاله البابليّون "عندما وضع الأرباب المقرّ الأوّل/المدينة" ومقالة القرآن الكريم أنّه "**أوّل بيت وُضِع للناس**" فهو "أس–قرّ" (سكر/شكر) وهناك أصل الجحيم حيث مقرّ النفوس الخبيثة "س– قر" أيضاً، وبينهما بابٌ وحاجزٌ كما أوضح القرآن الكريم. ونزيدك من الشعر بيتاً فهم يُسمّون مكان انتظار الأرواح الصالحة التي هي الجنّة (Alhalla)، وهذه تعني "الحلّة" كما يُسمّيها تراثنا العربي والإسلامي. ونزيدك أيضاً أنّ الذي يأخذ بأيديهم ليُدخلهم الجنّة "**أودن**"، أليس هي "عَوِّد" أي الكبير الحكيم؟ وأنّ ربّة الخلود هي "Idun" هي "عدن" إذاً؟! ويُسمّون عالم الأموات أرض "نفليم" (Niflheim is the world of the dead)! أليس هو نفسُه حرفياً ما يُسمّى في لهجات العرب، "نفَل/نثل/نسل/نزل" بمعنى انحدر وسقط وهوى، فهي أرض الهاوين، الهاوية.



صورة تعبّر عن الجنّة الأرضيّة (ميدجارد)، وأسفلها الهاوية (نفليم)، وشجر غرس الله (أيك-غراس-إيل) (الصورة: ٣٤)

أما الأسماء الباقية في الأسطورة:

- **جُت- آن-هيم (Jotunheim)**(١): موطن عمالقة الجليد والصخور، يقع في مدّ-گارد (Midgard)، ويقع فيه بئر "م-يم-ير" (Mimir)، تحت شجرة "أيّك-غِراس-إيل"، والـ "جُت-آن-هيم" يُحكم بواسطة "ثاريم" (ويُترجم بأنّه الثورة)، فماذا نرى؟! إنّهم يتكلّمون عن الموطن الأصل، عن جبال السُراة، وهي عمالقة الصخور، والجليد على قممها، الواقعة في مدّ- گارد مقرّ المدّ الربّاني (المدد المعونة، الإنجاء، الخلاص) والتي يُسمّيها عربُ الجَزيرة "گي-مدّ" أو "غامد" أرض المدد، في وسط الأرض وسرّتها (ومنها صارت كلمة "ميد" تعني وسَط)(٢). والتي فيها موقع اليم الأوّل "م- يمّ- ير" الذي غار تحت الأرض (الأبسو)، تحت جنّة الله (غراس-إيل)، وهذه الجبال الشاهقة يحكمُها "ثاريم Thrym" وهي عربيّة بلا ترجمة، والميم الأخيرة للجمع في اللهجات القديمة، أي الثورانات البركانية والمائيّة أيضاً. فلماذا سُمّيت جبال السُراة لديْهم الـ "جُت-آن- هيم"، "هيم" الأخيرة للجمع، و"آن" نعرفها من أساطير الماضين، هي "عين"/العناية الإلهيّة، الله، السماء، (آن-هيم = الأرباب،

---

(1) - the homeland of the frost giants and rock giants. Situated in Midgard, on the middle level of the Norse universe, Jotunheim is separated from Asgard by the river Iving, which never freezes over. It lies in the snowy regions on the outermost shores of the ocean. Mimir's well of wisdom is in Jotunheim, beneath the Midgard root of the ash tree Yggdrasil. Jotunheim is ruled by Thrym ("uproar"), the feared king of the frost giants

http://nebulosa.patser.net/files/projects/library/nm/nine-worlds.html

(2) - In Norse myth, the defensive fortress which the gods build about the middle portion of the earth allotted to men in order to protect mankind from the giants. Midgard ("middle world")

http://www.pantheon.org/areas/mythology/europe/norse/articles.html

أي أنّ الأرباب الملائكيّين قد شيّدوا قلعةً منيعة في منتصف الأرض، وسْط العالَم (مد-گارد) ليحموا الإنسانيّة من العماليق، هذا ما قالته أساطير سومر وبابل حرفياً!

ويُحاكي الكنعانيّة "إيلو- هيم") فهي جبال الله، جبال السماء، جبال الأرباب، ولكن لماذا سُمّيت "جُتّ Jot"؟ هذا يُشير لنا مرّة أخرى للجبال التي سمّاها سبحانه "جُد" وجمّعُها "جُدَد" في كتابه العزيز (**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**)(فاطر:٢٧) وهذا في سورة فاطر، هي جبال الصخور والثلوج، والحمم البركانية والبازلت، ذات عروق وطرائق بيضاء وحمراء وسوداء، جبال السُراة، فإنّ "جُوتّ" هي "جُودّ/جُدّ"، والتي منها سُمّي الجبل الذي استقرّ عليه نوح "جُودي" من جبال السراة العربيّة أيضاً[١]، ومنها جاءت "جُدّة" على ساحل البحر لأنّها الأرض التي جدّت وقطعت البحر. وإنّ "جُوتّ" تُلفظ "گوت/گوط" أيضاً بلهجات عربيّة، وهو الشكل المخروطي، وما زالت لهجاتنا العاميّة تقول " گوطي" للإناء المخروطي وللقفّة، والـ "گوط" هو نفسه "الجود/الجودي"، فقد جاء في المروي عن نبيّ الله (ص) في قصّة نوح (**وانسدّت ينابيع الغوط الأكبر وأبواب السماء**)[٢]. فكيف تُلفظ "غوط" في الغرب؟ "Got". وهذا الاسم بالتمام نجده لدى البابليّين كور "غوتيم"، وهو فوهة الغوط/الجبل التي يخرج منها الماء في أرض مركز العالَم، ودعوها بلهجة عربيّة سريانيّة امرأة/سيّدة/زوجة الأبسو (*marat apsi*)، وأم نهّري أي أمّ الأنهار (*umme nâ'rï*)، بغضّ النظر عن الترجمات الركيكة[٣].

- كما نجد لديهم ربّات الأقدار تُدعى الواحدة "Nornor" "نورن- ور" (نورَن- ي)، وواضح أنّه كائن نورانيّ، وهنّ كائنات يُحدّدن المصائر [٤]، ومن أسماء بعضهنّ،

---

(١) - طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

(٢) - ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث، ج٣، ص٣٩٥؛ ابن قتيبة، غريب الحديث، ج٢، ص٣٦٥؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٣٦٥؛ الزبيدي، تاج العروس، ج٥، ص١٩٣.

(3) - Ghetim-kur-ku was a divine fountain on the mountain, called marat apsi, 'daughter of the ocean', and umme nâ'rï, 'mother of the rivers.' http://www.mythopedia.info/04-mesopotamia.htm

(4) - Norns - Similar to the Greek fates, weavers of Wyrd. There are three: Urd, Verdandi & Skuld

ونلاحظ حسب السطر أعلاه، دُعيت هذه القوى بربّات المصائر، والنسّاجات (weavers) وهذا

(Skuld) وهو "خُلّد"، (Urd) وقُلنا أنّه "وِرْد" (حوض الكوثر المسمّى في التراث بالـ "أرْدن")، فكأنّها القوى المسئولة عن هذه البقاع المقدّسة، أرباب التدبير، الملائكة "النورانية" الصافّات.

- ونجد أسماء كثير للأساطير العربيّة بنفس الوظائف مثل "بعل" (Bal-dur) وقرينته الأمّ الكبرى نانا (Nanna)، وفريا (Freya) وتمثّل الوفرة والإثارة بالتمام والكمال كعشتار، و(Sigyn) وهي "سجّين" كما قال القرآن، قرينة الشيطان الذي طُرد من الجنّة لديهم، وسمّوا أب الإنسانيّة حمْدُ ألْ-ر (Heimdallr)، فهي بلا تكلّف حامد إلْ (وهو الله) وحرف الراء في الأخير لإنشاء الفاعليّة، وأسماء مثل (Tyr - The Skyfather) وهي طيْر، (Forseti -The Judge) أيْ فارض القانون، والضاد تُلفظ صاد لدى السريان والفينيق. وإلى ما سواها من أسماء[1].

- أمّا أهمّ شخصية في الأسطورة فهي (ثور/تحور) (THOR SON OF ASGARD)، وهذا كما قُلنا سابقاً إن أُخذت من عرب شمال أفريقيا فهو "تحور" (حورس) الحرّ ابن "سكَر/أسكرد" نفسه، وهي الوجهة التي تجعل من "آسير Aesir" أوزير نفسه. أما إن أُخذت من الفينيقيّين عموماً فإنّ "ثور Thor" هي ثور فعلاً والذي يعني الزعيم والمخصّب والمُختار والمُحرّك المُثير، ولذلك دُعي الحيوان المعروف بذلك، وهذه الوجهة الثانية التي تجعل من "أسير" لهجة في "أثير" أي المفضّلين المُختارين النورانيّين الأثيريّين. وسلاح "ثور" هو الرعد ويُمسك بيده مطرقة (Hammer)، وهي لفظة عربيّة أيضاً، حيث كانت المطرقة رمزاً للآمر، نجدها في

يُذكّرنا بالرمز البابلي "عشتار" التي سمّوها الربّة النسّاجة، والوِرْد (Wyrd) واضح بلا أدنى ترجمة، والقوى سُمّيت بحسب مسئوليّاتها (Urd) وهو أرْدَن، (Verdandi) فردان أيْ وِرْدان وهو حارس الوِرْد وهي عربيّة، ومنها جاءت كلمة "واردن" أي حارس السجن بالإنجليزية، والقوّة الملائكيّة الصافّة الثالثة هي المسئولة عن الـ "خُلّد" (Skuld).

[1] - كل هذه الأسماء موجودة في المواقع التي نقلنا منها أساطيرهم، وتجدها أيضاً كتعريفات في الموقع:

http://www.tarotbyvolmarr.com/bookofshadows/norsedeitys.html
http://www.pantheon.org/areas/mythology/europe/norse/articles.html

رسوم قدامى المصريّين كرمز على الملوكيّة الصولجان المطرقيّ، فإمّا أنّها الهاء للتعريف فهي (هامر أي الـ آمر) أو أنّها لأنّ المطرقة تُستخدم في الحروب وفي الصناعات للضرب على هام (رأس) الأشياء، فهي "هام-ار" أي الضاربة على الهام. (انظر الصورة: ٣٥)



الهامر (ضارب الهام، أو الآمر)، شعار الزعيم ثور (تحور) لدى النورديّين
(الصورة: ٣٥)

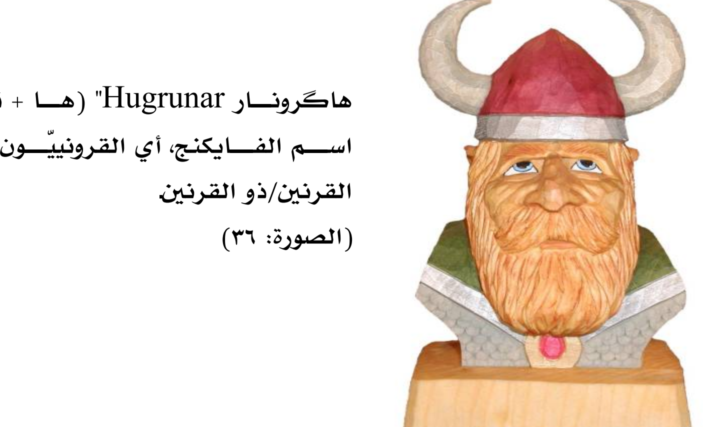
- والغريب أنّنا نجد في أساطيرهم أنّ "Thor" الثائر (ثور) أو (تحور)، يقوم بتهشيم رأس الحيّة القديمة في الحرب النهائيّة على الأرض[1]، تماماً كما يفعل

---

[1] - وإنْ كان المعنى الحقيقيّ، على مستوى التكوين، لرمز تهشيم "ثور" رأسِ الحيّة القديمة التي تسكن في المحيط الذي يلفّ الأرض تحت ميدجارد (غا-مد)، هو ثوران الجبال البركانية في المركز

"حورس" مع الشيطان "شيط" لدى المصريّين[١]، في معركة الخيّرين الأبطال ضدّ "گنِّد/جند المجرمين" (Jormun-gand).

- ومن العجيب أنّ تلك الشعوب، كانوا يُطلقون على أنفسهم (في-كنْگ) Viking[٢]، ولقد قُلنا أنّ "في" هي "ذي" التعريفيّة، فالتسمية إذن تعني إمّا "الـ ملوك" والسادة، أو ملوك الأذواء، وهذا يُذكّرنا بملوك اليمن، الذي يستهلّ اسم الواحد بالأداة "ذي" مثل "ذي يزن". (انظر الصورة: ٣٦)



هاگرونار Hugrunar" **(ها + قرون + ار) اسم الفايكنج، أي القرونيّون = صاحب القرنين/ذو القرنين**

(الصورة: ٣٦)

السراة من الجزيرة العربيّة وتفتّت رؤوسها وخروج البراكين الحبيسة والسموم (الحيّة القديمة)، وابتداء الزلازل والكوارث على الأرض كلّها.

(1) - Thor will carry the mighty hammer into the final battle called Ragnarok where he will use it to crush the world serpent Jormungand's head, but he will be poisoned by the mighty serpent and die after taking nine steps. http://www.vikingage.com/vac/mjollnir.html

(٢) - يُحتَمل أنّ (كِنْگ King) الإنجليزيّة، أصلها كاف التمثيل + إنگ أي النقي كما لدى سومر وهم الملائكة الأرباب، فبهذا كَ-إنگ تُلفظ كِنْگ أي مثيل الربّ وهو الملك ممثّل الربّ بينهم، وهذا نجده أيضاً في كلمة "أنجل Angel" التي تحتمل المقطعيْن (أنج/أنگ) و (إل) أي الله، أنقياء الله، المُنتقَوْن من قبَل الله (المُصطَفَوْن).

- ويُعرفون كأصل بأنّهم "هاگرونار Hugrunar" هذه التسميّة المركّبة التي لا يُعرف تركيبها لدى الدارسين،(Hu-grun-ar): فالهاء للتعريف، گرون: قرون، سواء هو الأقرن أي الجبل الأقرن ذو القرنين حيث المنطقة الأولى التي فيها القوى الربّانية وحيث الجنّة، أو تعني لابسي القرنين من المحاربين، و"ار" الخاتمة عربية قديمة لبناء الفاعل مثل موسيقار صانع الموسيقى، وفرجار، آلة قياس الفُرَج بين نقطتيّن، وبازيقار مدرّب البازي، وجعفر من جعف أي جرف وقلع وصرع ما يلقاه من نبات، سمّي النهر الكبير بالجعفر.

- الإله الأكبر (أودن) أي "عَوِّد" باللغة الفصحى والعامّية أيضاً، بمعنى الكبير الذي يُعاد إليه وإليه تعود الأمور، المسمّى لديهم (Val-father /All-father) أي الفاطر ومنه تَسمّى الأب "فادر/فاطر" لأنّه يُخرج الأبناء وسبب وجودهم، فالفاطر العَوِّد، الفادر أودن -حسب الأسطورة- لديِّه سهمٌ سحريٌّ راشق يدعونه (Gungnir) وواضح أنّ معناه الراشق والراء الأخيرة لصياغة الفاعل واسم الآلة كما قُلنا، و"Gung" هو من "جنق/جنك/جنگ/گنگ" حسب اللهجات العربيّة أي رشق، ومنه جاءت منجنيق، و"جنگ" الفارسية أي التراشق والحرب، ومنه جاءت "گَنّ Gun" أي الراشق بالإنجليزية، و"جنگل jungle" جنگ-إلّ أي الأرض التي فطرها الله (إلّ) على الصراع والاحتراب، الغاب.

- ولديهم أنّ المقاتل البطل الذي يسقط شهيداً يسوق "أودن" (وهو "العُوِّد" أي الكبير بالفصحى والعامّية كما قُلنا) أرواحَهم إلى الجنّة المدعوّة أحياناً "Alhalla" أو "Valhalla"، ومع تجاوز الفاء الأولى التي هي تحوير صوتي لذال التعريف (ذي) لتشابههما نطقاً، فهي حرف التعريف القديم لكلماتهم القديمة، فهي "الحلّة"، وهي الحلّة الآمنة، الجنّة والمقرّ.

- ويُحارب "تحور/ثور" العماليق ونهايته على يد الحيّة القديمة في أرض ميد، مقرّ المركز Midgard[1].

---

[1] - من الفعل "قرّ" أي سكن واستقرّ وثبت واطمأنّ ولزم، نقول قرّت عينُه أي اطمأنّت بحصول ما

والخلاصة في استرسالنا لأساطير النورديّين، أنّنا أردنا إثبات وحدة هذا التراث في رجوعه لمركز واحد على مستوى أصول الأساطير ومفرداتها، وليس غرضُنا الإطالة ولا إثبات صحّة محكيّاتهم بكلّ تفاصيلها، فهذا لا يصحّ إطلاقاً ولن يصحّ، بمقدار ما يهمّنا إطلاع القارئ على عربيّة منشأ تلك الأساطير، ووحدة الشعوب الإنسانيّة وانتمائها إلى معلّم ربّانيّ واحد، وإنْ ابتعدت وتشعّبت وانتفخت بالخيالات فلن تعدم أنْ تجد أطلالاً وخيوطاً أصيلة في نسيج ثقافاتها أو لغاتها أو أساطيرها أو عاداتها ومقدّساتها. فماذا قال "النورديّون" عن أحوال المعصية الأولى:

There are very few literary references relating to the goddess Idun. There is, however, a myth that acknowledges her importance in the Nordic pantheon. This story, *The Theft of Idun's Apples*, recalls her kidnapping by the giant Thjaz and the theft of the fruit of immortality. The trickster god Loki plays a significant role in Idun's disappearance. This situation causes the gods to grow old and wrinkled because they do not have Idun to feed them. When she is returned to Asgard the gods regain their youth.[1]

ملخص الحكاية أنّ "إدُن" هي "عدن"، التي تحتفظ بالتفّاح وهو غذاء الأرباب (البشر)، فتُخطف "عدن"، وتُخطف ثمرة الخلود بواسطة عملاق "تحجاز/ذي-جاز" بخديعة "لوكي"/الغويّ الشيطان، فتختفي "إدُن/عدن"، ما أدّى لشيخوخة الأرباب (السادة البشريّون)، وحينما تعود "عدن" لـ "أس-گارت" أي تعود لتكون القرية الأساس، ومثوى الأرباب، يعود الأرباب (البشريّون) خالدين شباباً. وهذا ترميز يُبيّن

طمحت إليه، وجاءت "القارّة" جغرافيّاً، وسمّى سبحانه الدار الآخرة التي فيها السكن واللاتحوّل دار القرار، والبرد سُمّي قرّ لأنّه يثبّت الإنسان عن الحركة، والإنسان إذا ما حاز مكاناً صالحاً للبثه وسكنه واستقراره يحوطه (يُحدق به) بكلّ ما يُقرّه فيه (حديقة) سمّاه مستقرّاً، مقرّاً، قرّةً، قارّةً له. فالحديقة والواحة قارّةٌ له، (ق.ا.ر.ت)، وبمعظم اللهجات العربيّة تُلفظ گارة (گ.ا.ر.ت)، وللإبدال النطقي بين التاء والدال المشهور لدى كلّ العرب، فصارت گ.ا.ر.ت هذه نفسها گ.ا.ر.د (Gard/Garden) وهي الحديقة أو الجنّة أو المقرّ والمقام بالإنجليزي، ومنها جاء اللبث والحراسة (Guard). فالـ (غارد) هذه هي اللاحقة التي نجدها في أسماء أسطورة النورديّين.

[1] - http://www.dickinson.edu/~eddyb/mythology/Gods-6.html

أثر المعصية بخديعة الشيطان، وخسران الخلود وتضييع الثمرة الإلهيّة، وفقدان جنّة عدن وانطماس معالمها، ونجد مدخل الأرواح من تلك البقعة للعالم السفلي، ومنطقة المعصية الأولى "الحجاز"[١]، حيث نجد أنّ "الجبال الثائرة البركانيّة" هي أقوى جبال الجُدَد هناك. (انظر الصورة: ٣٧)



عدن Idun لدى الاسكندنافيّين، هي التي تحتفظ بالتفاح، أي البذور الطيّبة للذرّية، والتي بسرقة التفاح صار الأرباب (البشريّون) يخسرون الخلود ويشيخون، وهذا يعني سرقة الذرّية وهبوطها الأرض ومعالجتها الأجواء الأرضية ونقائصها وأوبائها، خرجوا من بيئة (إنّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى). (الصورة: ٣٧)

---

(1) - Thrymheim is Thiazi's mountain stronghold in Jotunheim

الخلاصـة

لقـد أجمعـت كـلّ أسـاطير ومحكيّـات الشـعوب المتـأثِّرة بـالمركز الأوّل، علـى الاحتفـاظ بـتراثٍ يحـتفظ بمعـالم القصّـة الأولى وجغرافيّتـها وسماتهـا (أسمائهـا) وطبيعة المعصية تلميحاً أو تصريحاً والإفادة منها، وقامت بتوطينـها ضـمن ثقافتها الدينيّـة والشـعبيّة حتّـى انـدرس أصلُها البعيـد، لكـن مـع ذلـك بقيـت بصـماتُه في الألفـاظ العربيّـة وفي الشـكل العـامّ، وفي المغـازي والتضـمينات، وفي روح التعـاليم المركوزة في تلك المحكيّات والمدوّنات.

وليس من قبيل الصدفة أنْ نجد في معظم الثقافات أنّ الشرّير اللئيم دائماً ما يُوسم في تراثها الشعبي واستعمالاتها الدارجة بابن الحرام، وأنّ الطيّب المحسن ابـن حلال، لا أنّ كلّ ابن حرام شرّير بالضرورة، ولكنّه رصيدٌ باقٍ في الذاكرة الإنسـانيّة تُشير لا شـعورياً إلى الأصـل، حيث أنّ الـزواج الربـاني الطـاهر، القـائم علـى الحـبّ والتوافـق الإنسـانيّ، لا المطامع المادّيـة والشـهوات والجشـع والاغتصـاب والافتراس، يُؤهّـل لجلـب ذرّيـةً معـاذة مـن الشـيطان، لانتـاج إنسـانٍ، وأنّ مُعانـدة النسـق الربّـاني الموضوع للإنسان بإنجاب أطفال الحرام هي جنايةٌ كونيّة ومنبتُ سوء علـى مسـتوى البرمجـة الجينيّـة واسـتقرار الـرّوح، لقابليّـة تفـريخهم أبنـاءً للشـيطان كشـرّيرين ومعاندين ومفسدين، فجريرة الآباء تقع على الأبنـاء ضـرورة، والطبيعـة والأقـدار لا ترحم[1].

لقد آمن المسيحيون أنّ عيسى (ع) جاء لرفع خطيئة آدم من البشريّة عن مَنْ آمـن بـه، لكـنّ تفسـير هـذه العبـارة هـو الخطـأ، فخطيئـة آدم هـي إدامتُـه مـن دونمـا قصـدٍ الأسـاسَ الهمجيّ في الكينونة البشرية (استيلاء اللاّوعْي علـى الـوعي)، فتطهيرُ البشـر من هذا الدرن لا يكون إلاّ باتّباع الروح، وأوّل الأدوية النافعة هي في ترك الزنا والدنايا وانحـدار الأخـلاق مـن جهـة (عـدم إفسـاد النسـل)، وتأصـيل الحـبّ والتسـامح وتـرْك

---

(1) – راجـع بحـث: الإنسـان الإنسـان – وتحسـب أنّـك جـرمٌ صـغير، جمعيّـة التجديـد الثقافيّـة الاجتماعية.

الوحشيّة من جهة أخرى (عدم سفك الدماء)، ونرى أنّ هاتين بالأساس هما نقيض الهمجيّة التي عنوانها العريض ("**يُفسد فيها ويسفك الدماء**" أو قول القرآن الآخر "**تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم**") وبهذا جاء المسيح (ع) وكلّ الأنبياء والربّانيّون وأكملَها خاتمُهم (ص).

الفصل السابع

الفهم التوراتي وأثره على الفكر والتراث

والـذي نفسـي بيـده، لتركبُنَّ سـننَ مَـنْ كـان قبلَكم حذْوَ النّعـلِ بالنّعـل، والقُذّةِ بالقُذّة، حتّـى لو دخلوا جحْر ضبٍّ لـدخلتموه فقيل: يـا رسـول الله: اليهودُ والنصارى؟ قال: فمن إذًا؟!

(حديث شريف)[١].

سنتعرّض في هذا الفصل إلى نصّ القصّة التوراتيّة وخباياها في التلمود وتأثّر الكهنة بالفكر البابليّ أو العربيّ الشفويّ عموماً[٢]، ثمّ انتقال التفسير الخاطئ لعناصر القصّة الأولى على يد الكهنة المدوّنين الذين لمْ يفهموا الترميز، ليُصبح تدوينُهم مرجعاً في أمور تاريخيّة كثيرة عن آدم وتاريخه وحوّاء ودورها والحيّة والضلع والشجرة وغير ذلك، هذه الهيمنة التي انسحبت على الفكر المسيحي والإسلاميّ ولم يتخلّص من براثنها أو خيوطها الخفيّة حتّى العقل العلميّ المسيحيّ ولا التصوّرات الإسلاميّة التجديديّة، بل المُؤسف أنّها ذهبت إلى المدى الأبعد لتُهيمن حتّى على التراث الأقدم لأمّتنا والأسبق منها، لتنتصبَ مرجعاً تفسيريًا لما لدى السومريّين والبابليّين وقدامى المصريّين!

أوّلاً- ارتهان الفكر التقليديّ والتجديدي

لقد تأثّر الإرث اليهوديّ ثمّ المسيحيّ ثمّ الإسلامي بتداعيات "السيناريو" المُستصحب منذ تدوين الكهنة، بدا هذا التأثّر واضحاً في عدّ المرأة هي مصدر

[١] - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٩، ص٢٨٦. وبألفاظ أخرى: ابن أبي شيبة الكوفي، المصنف، ج٨، ص٦٣٤. المتّقي الهندي، كنز العمّال، ج١١، ص١٧٠.

[٢] - راجع: اليهود وتوراة الكهنة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

الخطايا والسقوط، وفي رفع شأن آدم ومن ثمّ الرجل على أنّه الآمرُ المُطاع الذي لا ينبغي أن يُطيع امرأته لأنّه سيعيد بذلك مشهد المعصية الأولى وخسران النّعيم، وأدّى هذا إلى سيادة نصوص في الفكر المسيحيّ والإسلاميّ تُضيّق على المرأة وتأخذ بخناقها لأنّه "شرٌّ كلُّها" و"سبب الخطيّة" و" ناقضة لنواميس الله". هذا عدا عن التخريف العقائدي والعلميّ في مسائل كثيرة كمسألة "خلق المرأة من الضّلع" و"الحيّة وتقطيع قوائمها" و"تفاحة المعصية".

ولقد ظلّ الفكر التقليديّ يجتر تلك الصورة بالنقل الأمين، أو الشرح المُحسِّن والمسوِّغ لها، أو مع إضافة بعض التعديلات والرتوش والنقاشات الكلاميّة والافتراضات. غيرَ أنّ الفكر التجديديّ الذي استوعب المأزق الفكريّ والتشوّه الاعتقاديّ الذي حصل في ألف-باء قصّة الإنسانيّة، حاول معالجة المسألة وفق منظورٍ مقبولٍ عصرياً ومتّسقاً مع العقليّة العلميّة أو العمليّة، بيّد أنّ هذا الفكر قد وقع في مطبّات كثيرة تحت ضغط إلحاح الواقع الفكريّ، لا لسببٍ شخصيّ حسبما نعتقد، سوى عدم الخضوع للنصّ القرآنيّ تماماً من جهة أولى، وعدم ربْط تراث الأمّة ببعضه منذ الحضارات الأولى في المنطقة، ممّا جعل التنظير في المسألة قائماً على الافتراضات والتخمينات والظنون والتصوّرات، وهذا لا يُغني من الحقيقة التاريخيّة شيئاً، ولا يليق كتفسير لكتاب الله، ولا لاستعادة تراثنا من سُرّاقه. إلاّ أنّه يُحسب إلى هذه الانطلاقات التجديديّة كونها وعتْ خطأ التصوّر التوراتي، وانفلتت من أسر المزعوم من المرويّات، وأسقطتْ سياج القداسة عن المسألة لتجعلها قابلةً للتعقّل والتفسير. سوى أنّها تباينت في وجهتيْن:

أ- وجهة رمزيّة مجازيّة(١)

حيث جعلت جنّة آدم مجرّد غابات استوائيّة مطيرة، وآدم الأوّل ليس فرداً بل هو جماعةُ جنسٍ بشريّ عاقل لكن بدائيّ يُراد تطويرُه، وأنّ للنهي عن الشجرة معنى رمزيّاً، فليست "الشجرة" التي هي مِن مظاهر الطبيعة فعلاً هي المقصودة، بمقدار ما

(١) – راجع: محمّد شحرور، الكتاب والقرآن – قراءة معاصرة، ص ٣٠٤ وما بعدها.

المقصودُ تعويدُ آدمَ على تشريعٍ بدائيٍّ (أمْرٍ ونهيٍ) يتعلّق بالمشخّصات التي أمامه لأنّ هذا الذي يُناسب مُستهلَّ تطوُّره الذهنيّ؛ وأنّ الإزلال من الجنّة والإهباط منها كلّها مجرّدُ نقلاتٍ نوعيّةٍ مُخطّطة لابدّ منها في تطوّر الإنسان، وأنّ الكلمات التي تلقّاها آدم من ربِّه فتابَ عليه تعني قفزةَ التجريد بتطوّر اللغة والفكْر (وهي نفخة الرّوح أو أثر النفخة وتفعيلُها الأوّل) وحدثت لدى آدم الثالث (أيْ المستوى التطوّري الثالث لجنس الآدميّين).

طبعاً تلك آراءٌ وتصوّرات مُرفقةٌ بمعلومات علميّة صحيحة وأُخرى قرآنيّة قابلة للصحّة والاستحسان، لكنّ عيبُ بعضها أنّها أُسْقطَت على القرآن، لا أنّ القرآن وفق بيانيّته نطق بها، وهي نظرة للأسف تَجعل السمةَ الأولى لعبارات الذكر الحكيم هي الـ "مجازيّة" في موضوعةٍ علميّة مُحكمة وتهذيبيّة بيّنة؛ وقد تمّ بيان التصوّرَ القريب من البيانيّة القرآنيّة في خصوص جميع تلك المسائل هنا في هذا البحث، وفي بحوث سابقة[1].

ب- وجهة عقلانيّة اجتهاديّة

هذه الوجهة حاولت جهدها الالتزام بظاهر النصّ القرآنيّ والتجرّد العقليّ من الموروث الخاطئ، لكنّها لم تستطع التملّص من تصوّرين أورثهما أو أسهم في ترسيخهما الفكر التوراتي:

الأوّل: أنّ آدم الإنسان أبا شجرة الإنسانيّة الذي أرّخ له التوراة بـ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً هو رسولٌ ونبيّ (أي هو آدم الرسول) أيْ أنّ الإنسان العاقل يرجع إلى فقط ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد مع أنّ حضارات العبيديّين ثمّ السومريّين ترجع إلى أكثر من هذا ببضع آلاف من السنين، واكتشف العلم آثاراً لتجمّعات عاقلة ترجع إلى أكثر من ١٢ ألف سنة في المنطقة.

---

[1] - راجع: الخلق الأوّل، وجنّة آدم، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

الثاني: أنّ المرأة (ويعنون حوّاء) وليس الرجل (آدم) هي سبب المشكلة والمعصية والمصيبة، وبهذا يُحافظ آدم على عصمته وبراءته، وهذا كُحْلٌ ثالثٌ في العيْن، وقد تغذّى بعقيدةٍ أصيلةٍ لدى المسلمين هي عصمة الأنبياء من الفواحش والآثام وأنّ آدم نبيّ مُرسلٌ! فتعصّت المُعادلة عن الحلّ، لأنّ المُحاوِل سيكون في ظُلماتٍ (كَحْلاتٍ) ثلاث، هي:

١- آدم الإنسان هو آدم الرسول.

٢- حوّاء هي التي عصت وغوتْ.

٣- آدم نبيّ والأنبياء معصومون، فهو معصوم.

بيْدَ أنّ المطّلع في كتب الروايات لدى طوائف المسلمين سواءً المرويّة عن أهل البيت أو الصحابة والتابعين، لَيهولُه الكمُّ الهائلُ والمتناقض في تفاصيله وتفاريعه المتشجّرة، لكنْ مع ذلك إجماعُه بشتّى ألفاظه في تعداد معصية آدم وذنبه وتأكيدهما، تصل بعضها بالقول أنّه حسدَ مقام مَنْ فوقه ممّن سيأتي من رسلٍ عظماء لا سيّما محمّداً (ص) لذلك فسّروا الكلمات التي تاب بها الله عليه أنّه سأل ربّه بحقّ النبيّ الخاتم (ص) أشرف خلقه، وبعضها روى أنّ "آدم" هو "الإنسان" الأوّل الذي حمل الأمانة فكان ظلوماً جهولاً على ما حكته الآية القرآنيّة[1]، وأنّ الله أبعده عن جواره وطرده من جنّته لذنبه وجرأته وناداه منادٍ من العرش "**يا آدم اخرج منْ جواري فإنه لا يجاورني أحد عصاني**"، وأنّه بعد إسجاد الملائكة له داخلَه العجبُ وظنّ أنّه أفضل مَنْ خلق الله، وأنّ هناك مرويّات تقول أنّ الله جمعه بموسى (ع) في عالم المكاشفة فاحتجّ عليه موسى "**لمَ عصيت ربّك؟**"، وأنّ جبريل نزل عليه بعد طرده من الجنّة يُوبِّخُه "**لمَ عصيتَ ربّك؟**"، ورواية تقول "**لولا أنّ آدم أذنب ما أذنب مؤمن أبدا**".

[1] - (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)(الأحزاب:٧٢)

وكلّ تلك المرويات بحاجة إلى تفسير وتصحيح بعرضها على كتاب الله لإزالة مبهماتها، وهي لا تعنينا الآن، إنّما الذي يعنينا هو نسفُ المفسّرين والمعلّقين لكلّ تلك المضامين المتّفق عليها لدى الرواة وأئمّتهم، فقاموا بتأويل الألفاظ باتّجاهٍ آخر وتهوينها، لأنّهم متشبّثون بقاعدة اعتقاديّة واحدة أنّ الأنبياء (ع) معصومون فلا يعصون أوامر ربّهم ولا يذنبون الخطيئات، وهي قاعدة صحيحة لا غبار عليها، لكنْ لأنّهم متمسّكون بالمقدّمة غير الصحيحة أنّ آدم الإنسان الأوّل رسول فلزم أنْ يكون معصوماً ولْتسقط ألفاظُ القرآن الواضحة وصريح الروايات ولتُؤوّلْ (أيْ تُحَرَّف)!! بينما كان الأوْلى مراجعة هذه المقدّمة: هل أنّ آدم الأوّل كان صدّيقاً نبيّاً أم لا؟ لو فعلوا، لانصلحت جميعُ الأمور وانصلحت الروايات واصطلحوا مع القرآن كلام الله، وصانوا أنبياء الله عن الذنوب والمعاصي.

هذه المقدّمة غير السليمة، هي التي أوقعت كلّ هذا الهرج والمرج والصدام والتناقض والتلبيسات، حتّى أنّ أحد الفقهاء المعاصرين المخلصين ممّن يحملون هموم التجديد والإصلاح والحيويّة والفكر، قد وقع في هذه الإشكالية، وفطن إلى جليل معصية آدم من كتاب الله ومن تلك المرويّات، فخالف كلّ مَنْ سبقه متجرّداً للحقيقة، ودلّل على ذلك بعبارات ضخمة في أكثر من كتابٍ له ومحفل مثل (آدم يسقط أمام تجربة الإغراء) (آدم وتجربة الانحراف بتسويل إبليس) (آدم يسقط إلى درك الخطيئة) (آدم أصبح منبوذاً من الله) (جريمة آدم تمثّلت له في مستوى الكارثة) (إبليس قاد آدم إلى الموقف المهين) (خطيئة آدم أبعدته عن الله) (آدم والشجرة المحرمة، والرغبة المحرمة) (إبليس هبط بقيمة هذا المخلوق الذي كرّمه الله) (شعور آدم وحوّاء بالخزي والعار) (آدم ابتعد عن خط الرشد) (آدم يمارس الرغبة المحرّمة) (آدم طيّب وساذج، لا وعي لديه) (آدم استسلم لأحلامه الخيالية وطموحاته الذاتية) (الفرق بين آدم وإبليس هو في الإصرار والتوبة) (آدم ينسى ربّه وينسى موقعه منه) وغيرها، والقارئ التقليديّ طبعاً سيشعر بهوْل وقْعِ هذه الكلمات في مقام الأنبياء وأنّها مصيبةٌ فعلاً بل كارثة اعتقاديّة تطعنه في صميم قداسته، ونحنُ وإنْ كنّا لا نتبنّى أمثال هذه الكلمات القويّة وما تُلمّح إليه من مفاهيم لأنها عبارات تتّكئ على تصوّر

معيّن لحيثيّات في قصّة آدم غير مسلّم بها، لكنّنا نشير إلى صدق هذه الفطنة العقليّة واتّقادها التي وعتْ أنّ المعصية الأولى كانت مهولةً والخطبَ جليلٌ.

إنّ وعياً مثلَ هذا في التحليل هو أوفق بالعبارات القرآنية وبالروايات، لكنّه وللأسف يصطدم اصطداماً عنيفاً بعصمة الأنبياء من جهة أخرى، على أنّ الذين ردّوا عليه ردّوا لأنّه خالف مألوفاتهم لا لأنّه خالف القرآن والمرويّ، فما هو المأخذ على هذا الفقيه الكبير، مع كونه وعى كثيراً من الحقيقة؟ هو أنّه ببساطة لمْ يتخلّ عن الاعتقاد الدّارج أنّ آدم الإنسان غيرُ آدم الرسول[1]، فجاء كلامُه كأنّه جرأةٌ على الأنبياء أنفسهم وطعناً في قداسة ساحتهم وطهارتهم (فالإشكال المُثار عليه من هذه الجهة صحيح)، ثُمّ للتّخفيف عنْ آدم عرّج هذا الفقيه الكبير مرّةً أخرى على باقي الأنبياء متتبّعاً أخطاءهم الإجرائيّة ومراقي تربياتهم النفسيّة ليستوي الجميع في النقد! مع أنّهم (ع) خالون من المعاصي ومنزّهون عن الفواحش والآثام ومخلصون لله بنصّ القرآن، فأسبغ عليهم أشباه تلك العبارات الآنفة! انظرْ إلى هذا العقل الكبير لدى هذا الفقيه الجليل، كيف يُؤتى مِنْ خطأ مقدَّمة واحدةٍ غير سليمة، فقط لو انحسم لديه أمرُ آدم بعدم العصمة لعدمِ رسوليّته، ربما لساغ كلامه، ولما ثار عليه من ثار، ولتقدّست ساحة الأنبياء عن المعاصي والآثام، وسلمتْ نتائجُه غيرُ المألوفة.

ثانياً- الحكاية التوراتيّة وتداعياتها

جاء في سِفْرُ اَلتَّكْوِينِ اَلأَصْحَاحُ اَلثَّالِثُ، من توراة الكهنة ما يلي:

(وَكَانَت اَلْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَات اَلْبَرِّيَّة اَلَّتي عَملَهَا اَلرَّبُ اَلإلَهُ فَقَالَتْ للْمَرْأَة: "أَحَقّاً قَالَ اَللهُ لاَ تَأْكُلاَ منْ كُلِّ شَجَر اَلْجَنَّة؟" فَقَالَت اَلْمَرْأَةُ للْحَيَّة: "منْ ثَمَر شَجَر اَلْجَنَّة نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ اَلشَّجَرَة اَلَّتي في وَسَط اَلْجَنَّة فَقَالَ اَللهُ: لاَ تَأْكُلاَ منْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لئَلَّا تَمُوتَا". فَقَالَت اَلْحَيَّةُ للْمَرْأَة: "لَنْ تَمُوتَا! بَل اَللهُ عَالمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَن منْهُ تَنْفَتحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَان كَالله عَارفَيْن اَلْخَيْرَ وَاَلشَّرَّ". فَرَأَت اَلْمَرْأَةُ أَنَّ

---

[1] - كما سبق وأسلفنا، لأدلّة التفريق بين آدم الرسول وآدم الأوّل، راجع بحث: بين آدمين – آدم الإنسان وآدم الرسول، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

اَلشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ للأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهجَةٌ للْعُيُونِ وَأَنَّ اَلشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ للنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ منْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضاً مَعَهَا فَأَكَلَ. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ اَلرَّبِّ اَلإِلَهِ مَاشِياً في اَلْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ اَلنَّهَارِ فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ اَلرَّبِّ اَلإِلَهِ في وَسَطِ شَجَرِ اَلْجَنَّةِ. فَنَادَى اَلرَّبُّ اَلإِلَهُ آدَمَ: "أَيْنَ أَنْتَ؟". فَقَالَ: "سَمِعْتُ صَوْتَكَ في اَلْجَنَّةِ فَخَشِيتُ لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ". فَقَالَ: "مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ اَلشَّجَرَةِ اَلَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟" فَقَالَ آدَمُ: "اَلْمَرْأَةُ اَلَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ اَلشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ". فَقَالَ اَلرَّبُّ اَلإِلَهُ لِلْمَرْأَةِ: "مَا هَذَا اَلَّذِي فَعَلْتِ؟" فَقَالَتِ اَلْمَرْأَةُ: "اَلْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ". فَقَالَ اَلرَّبُّ اَلإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: "لأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ اَلْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ اَلْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعِينَ وَتُرَاباً تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ اَلْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ". وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: "تَكْثِيراً أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَداً. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ". وَقَالَ لآدَمَ: "لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ اَمْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ اَلشَّجَرَةِ اَلَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا مَلْعُونَةٌ اَلأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ وَتَأْكُلُ عُشْبَ اَلْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى اَلأَرْضِ اَلَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ". وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ "حَوَّاءَ" لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. وَصَنَعَ اَلرَّبُّ اَلإِلَهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. وَقَالَ اَلرَّبُّ اَلإِلَهُ: "هُوَذَا اَلإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً اَلْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ اَلْحَيَاةِ أَيْضاً وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى اَلأَبَدِ". فَأَخْرَجَهُ اَلرَّبُّ اَلإِلَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ اَلأَرْضَ اَلَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ اَلإِنْسَانَ وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ اَلْكَرُوبِيمَ وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ اَلْحَيَاةِ).

القارئ للنصّ التوراتي أعلاه، لا يسعه إلاّ الاعتراف بكثيرٍ من الدهشة، أثر هذا النصّ على المزعوم من مرويّات التراث المسيحي ثمّ الإسلامي، طبعاً بعد "أسلمته" وتهذيبه، حتّى أنّ ابنَ قتيبة يذكر في كتابه "المعارف" ص ١١، نصّ ما تقوله التوراة في قصّة آدم وجنّته ومعصيته حرفياً بكلّ فقراتها من دون أنْ ينسبه لهم، جاعلاً إيّاه

وكأنّه تفسير أهل الإسلام والقرآن، وحتّى الحيّة جاء على ذكرها بالنصّ الحرفي كما في التوراة! بل لقد أورد مسلم في صحيحه (٢٦٧٣) في الرضاع ومسند أحمد (٨٢٣٦) عن أبي هريرة عن زعْم أنّ رسول الله (ص) قال: (**لولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها الدهر**)! مع أنّ الأمر كما يقوله القرآن جرى بالعكس، فسبحان الله ولا حول ولا قوّة إلاّ به.

أمّا في المسيحيّة، ففي تيموثي-١ (٢: ١١-١٥)(**لِتَتَعَلَّمِ الْمَرْأَةُ بِسُكُوتٍ فِي كُلِّ خُضُوعٍ. وَلكِنْ لَسْتُ آذَنُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُعَلِّمَ وَلاَ تَتَسَلَّطَ عَلَى الرَّجُلِ، بَلْ تَكُونُ فِي سُكُوتٍ، لأَنَّ آدَمَ جُبِلَ أَوَّلاً ثُمَّ حَوَّاءُ، وَآدَمُ لَمْ يُغْوَ لكِنَّ الْمَرْأَةَ أُغْوِيَتْ فَحَصَلَتْ فِي التَّعَدِّي، وَلكِنَّهَا سَتَخْلُصُ بِوِلاَدَةِ الأَوْلاَدِ، إِنْ ثَبَتْنَ فِي الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْقَدَاسَةِ مَعَ التَّعَقُّلِ**) وهذا الكلام واضح أنّه بأثرٍ من دعاة المسيحية المتأثّرين بتوراة الكهنة الذي سمّوه "العهد القديم" لا بأثرٍ من روح الله عيسى (ع)[1]. ويبدو أنّ الكهنة، سمعوا بالقصّة من الأولّين، وتقادمت لديهم، فلمّا جاءوا يدونّونها بعد ألف سنة وأكثر، فاتهمْ الترميزُ في القصّة، فألّفوها بفهم ناقصٍ، وبعقليّتهم الذكوريّة البدائيّة، مغلّفةً باعتقادهم، وحسب ثقافتهم، وحوّلوها إلى خرافة قوميّة، وإنْ احتفظت ببعض معالم القصّة الحقيقيّة، وبعض عناصرها.

يتلمّس المرء بوضوح أنّ "الله" في القصّة ليس سوى الملاك المسئول من ملائكة التدبير، وإلاّ فكيف يجهل ما فعل آدم وما فعلته حوّاء، وكيف (**وَسَمِعَا صَوْتَ اَلرَّبِّ اَلإِلَه مَاشِياً فِي اَلْجَنَّةِ**)؟! وقمّة المفارقة تبدو في قول الإله (**هُوَذَا اَلإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفاً اَلْخَيْرَ وَاَلشَّرَّ**)، فهل الله متعدّد ليصير الإنسان كواحدٍ منهم؟

أمّا الحيّة، فقد دخل الرمز "الحيّة" وجعلوه حقيقة، صيّروه هذا الحيوان الزاحف، وعلّلوا زحفه، كما علّلته بعض الروايات الإسلاميّة المدسوسة بأنّ الحيّة قد قُطعت قوائمها عقاباً لإغرائها حوّاء! مع العلم أنّ الحيّة ككائن حيّ سبقت وجودَ الإنسان بعشرات الملايين من السنين، وموجودةٌ في كلّ القارّات بالمليارات! ولَمْ يُتَحْ لهم

---

[1] - راجع بحث: اليهود وتوراة الكهنة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

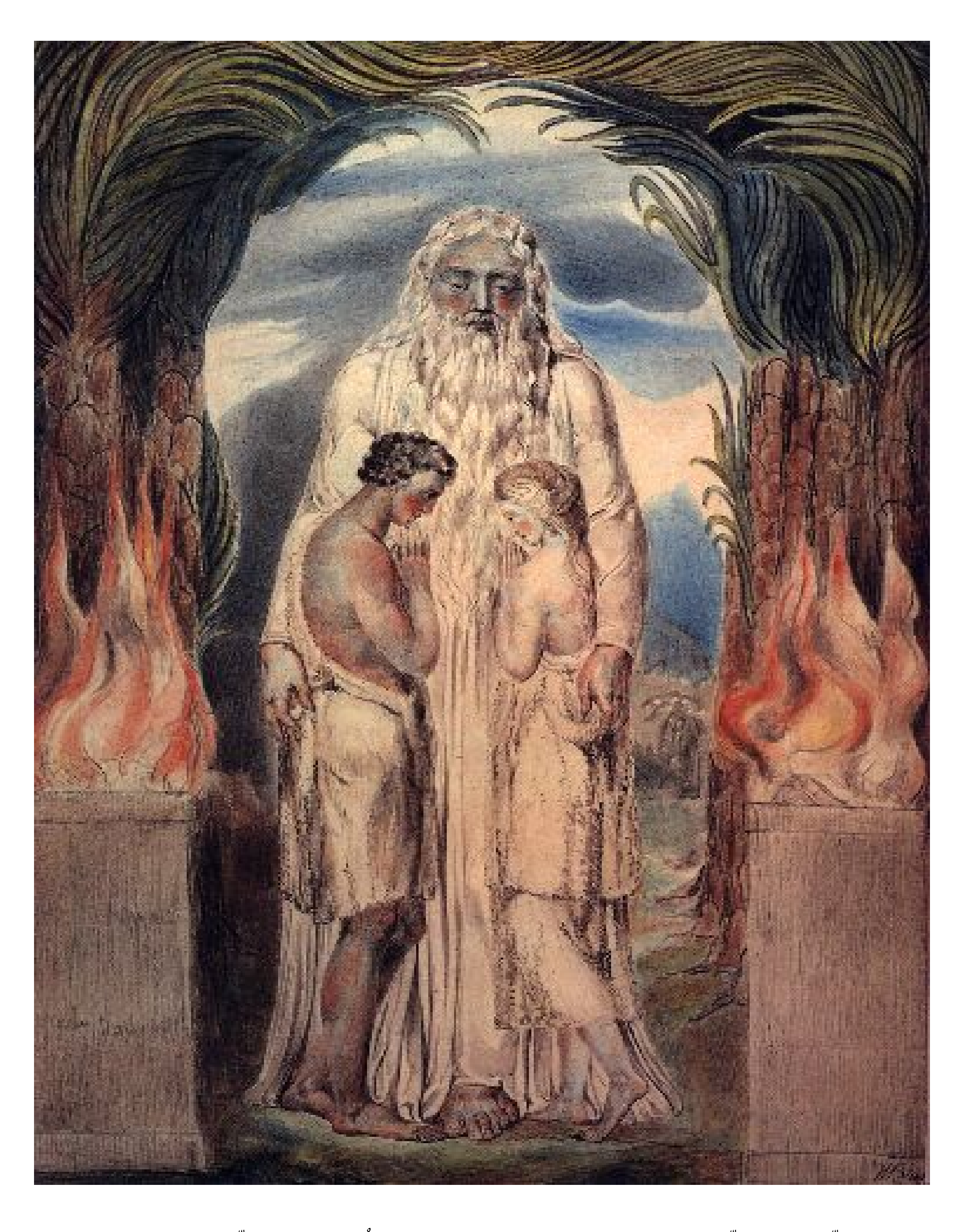
أنْ يفهموا أنّ " **اَلْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ اَلْبَرِّيَّةِ اَلَّتِي عَمِلَهَا اَلرَّبُّ**" أنّها أنثى الجنس الهمجي، فهو أذكى كائن حيوانيّ قبل بزوغ الإنسان منه، وهو الشيطان أيضاً. وأنّ "قطع قوائم الحيّة-الرّمز" هو قطْع أرجلها (أيْ منعها) من الاقتراب من ذلك الحرمَ الآمن بالمرّة!

ونحن لن نتعرّض بنقد كامل هذه القطعة من نصّ توراة الكهنة، لأنّ القارئ الحرّ كفيل برؤية امتلائها بالتناقضات والتهافت في كلّ جملة منها (على الأقلّ على مستوى الظاهر) سواءً حسب السياق العلميّ، أو التاريخي، أو المنطق الدّيني، وكذا العقلي واللغويّ، لكنّنا نُلفت الانتباه بأسفٍ بالغ أنّ المبثوث في الإرث الإسلامي الدّارج لمْ يخرج بصورةٍ أو أخرى من سياج ما ألّفه الكهنة.

وقدْ سطا هذا التأثّر على مَن حاول الخروج من هذا الأسْر، بل حتّى على بعض مفكّري الأمّة العصريّين المتحرّرين من التراث الملفّق[1]، أولئك الذين اتّضح لهم زيْف التوراة في كثير منها، ذلك أنّ اعتضاد ما ينقله حشويّةُ المسلمين مع ما نقله حشويّة التوراتيّين، قد أضاع بالحقيقة وقذفها ظهرياً في كهف اللامفكّر فيه، واللامتوقّع، واللامعقول، مع أنّ الأمر بالعكس. فلنُسجّل بعض تداعيات هذا التأثير على عقولنا:

---

[1] - للمزيد راجع بحث: مسخ الصورة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.



تصوّرات إنجيليّة عن الرب إذ يجمع بين آدم وحواء ويُسكنهما الجنّة (الصورة: ٣٨)

صور ورسوم تخيّلية خاطئة وسائدة في الأديان للمعصية والطرد من الجنّة



تصور خاطئ عن الشجرة التي نهى عنها الربّ

(الصورة: ٣٩)



التصوّر الخاطئ نفسه، الربّ، الحيّة، الشجرة، الخصف بالأوراق لباساً، وطرد آدم وحوّاء معاً!

(الصورة: ٤٠)

نماذج متنوّعة مجمعة على محاكاة التصور السائد الخاطئ بأنّ حواء استلمت تفاحة من الحية وأغرت آدم بأكلها!



(الصورة: ٤١)



(الصورة: ٤٢)



(الصورة: ٤٣)



(الصورة: ٤٤)



(الصورة: ٤٥)



(الصورة: ٤٦)

أ- التأثّر بعناصر الحكاية والحطّ من المرأة

الأستاذ فراس السوّاح، هو أحدُ المفكّرين الكبار الذين حاولوا لضلاعتهم في تناول أساطير الأمّة حلّ معضلة المعصية الأولى، بما فيها من ترميز الحيّة، وهو لاختصاصه في هذا الجانب، أثرى المكتبة العربيّة بروائعه الموسوعيّة وبحوثه المتعدّدة القيّمة في الميثولوجيا والحضارة، معالجاً الأساطير لفكّ رموزها وتضميناتها وإيحاءاتها وظلالها.

فممّا قاله الأستاذ فراس السواح، بشأن قصّة المعصية الأولى وخروج آدم من الجنّة انطلاقاً من محكيّة التوراة نفسها: (**والحيّة هي روح الطبيعة التي تطلب من المرأة أنْ تبقى لصيقة بها ولا تنصاع لشرائع الذكَر الذي بدأ بالانفصال عن الطبيعة وليس الأمر الذي أعطاه الربّ لآدم بألاّ يأكل من الشجرة إلاّ تعبيراً عن شرائع الذكَر نفسه، التي سنّها وعمل على الالتزام بها لتنظيم ارتقائه عن القانون الطبيعي، بلجوئه إلى قانون مِن صنعه ولكن شرائع الذكر تسقط أمام إصرار المرأة على الوفاء للطبيعة، فتصغي لنداء عشتار الذي تهمس به الحيّة وتأكل من الثمرة المحرّمة متحدّية شرائع الذكر، ثمّ ينسى الذكر شرائعه، ويتّحد بالأنثى تحت شجرة عشتار، إلى أنْ يصحو على صوت الربّ الغاضب، صوت ضمير الرجل الذي وضع نصب عينيه الخروج من عالَم الطبيعة يأخذ الرجل بيد أنثاه ويطرد نفسه من جنّة عدن، براءة الإنسان الأولى، ويدخل عالَماً من صنعه هو، عالم البناء والتشييد، عالَم التصعيد، عالَم حضارة لا تُحاكي الطبيعة بل تقف نداًّ لها**).[1]

كلامٌ جميل، وتحليلٌ رائع للأساطير، هذا فيما لو كان دخول آدم وحواء الجنّة، وبقيّة عناصر الحدَث، مجرّد رموز أسطوريّة وتمثيلات وضعها الأسلاف لا وقائع تاريخيّة أُسطرتْ، لربّما صحّ الكلام كلّه، فتكون الجنّة ما هي إلاّ البراءة الأولى، وآدم هو الذي طرد نفسه منها أي تخلّى عن تلكم البراءة. بيْد أنّ الإيغال في الترميز

---

[1] - فراس السواح، لغز عشتار، ص١٤١، ١٤٢. وعن مغازي الحيّة بأنّها الطبيعة والغرائز وكان من رموز عشتار "الحيّة"، ورمزوا للمرأة الخصيبة والطبيعيّة المتجدّدة بالحيّة، راجع ص ١٣٥-١٤٥.

و"أسْطرة" الوقائع الخوالي لتكون محض خيال الأسلاف، خلَط الأمور بعنف، فصار آدم (الذكَر) هو الذي "وضع" شريعته بقانون من صنعه، مع أنّ شريعة "الذكَر" هذه التي هي شريعة الأسرة تلزمه وتقيّد حرّيته بأسرة أكثر ممّا تلزمه شريعة الخصب الأسبق (عشتار)، ومع أنّه أوّل مخلوقٍ إنسانيّ من جنسه فأنّى له والقانون الاجتماعيّ وشرائعها ليُنظِّر لنفسه والحال أنّه ما منْ اجتماعٍ بعد ولا ناس؟! لا يخفى أنّ ثمّة إسقاطاً لسيكلوجيا الحاضر على أوّل أفراد الإنسانيّة.

ثمّ نجد حوّاء المسكينة ما زالت هي البادئة بالخطيئة، وما زال ذهنُنا يعزو تشييد الحضارة بالانفصال عن الطبيعة والسذاجة للرجل وحده دون المرأة بل قد تضحى هي عقبة تجرّه للوراء، إلى غشامة الطبيعة أو براءتها! أمّا ترميز الضمير بالربّ في السّرد، فنراها مسألة مجحفة للتراث الواحد ومُخلّةً به، فالضمير لا يغضب، بل يُذكّر ويُؤنّب، والذي يغضب هو صاحب الضمير متى وعى خطأه وأناب، فتماهي الربّ بالضمير، أو جعل الربّ مجرّد رمزٍ يتبدّى به الضمير، يسلب القصّة الدينيّة (قرآنياً وكتابياً) أشرف وأقدس ما فيها، وهو الرعاية الربّانيّة للإنسان وتدخّله في تخليقه وتعهّده به وتعليمه واستيداعه ملائكته كما بيّنته المرويّات في الديانات كلّها.

لكنْ أجمل ما في الفقرة تلك وعْيُ الكاتب المفكّر، أنّ الحيّة والشجرة ما هي إلاّ الطبيعة نفسها، الغرائز، شريعة الخصب الأولى، عشتار، وأنّ "آدم" نسي شرائعه (هذا ما قاله القرآن أيضاً، نسي ما عُهِد إليه)، فشريعة آدم هي عهْدٌ من الله وليستْ منْ صنعه، كما أنّ آدم لمْ يطردْ نفسه، بل طُرِد، بعد أنْ (حسبما قال الكاتب "نسي آدم شرائعه، واتّحد بالأنثى تحت شجرة عشتار")، فالمسألة لدى الكاتب خطيئة "جنس" أيضاً ومعاشرة، ونحنُ معه في هذا، ولكنْ لماذا الإصرار بأنّها حوّاء دائماً، وأنّها هي الأنثى التي عاشرها آدم، والله قال عن حوّاء "زوجه"، وتعبير "زوجه" يُعطينا إفادتيْن:

١- أنّها "قرينُه" و"نظيره"، والتوراة قالت هذا أيضاً (**وَقَالَ الرَّبُّ الالَهُ: لَيْسَ جَيِّدا انْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ فَاصْنَعَ لَهُ مُعِيناً نَظِيرَهُ**)(تك: ٢ : ١٨)، وهي مثلُه في القدرة والوعي والعهد والالتزام والمسئوليّة والطاعة وقابليّة إنشاء الحضارة تماماً، لا تقلّ عنه في شيء، أيْ ليست – حسب تحليل الكاتب- أنّها مُخلِدة للأرض وللطبيعة

ولشريعة الخصب والغاب وأنّها أصغى للحيّة منه، بل ارتقتْ تماماً كما ارتقى هو، وخوطبَتْ كما خُوطبَ هو، ولكنّه وحده الذي عصى. (نعم ثمّة إناث الهمج اللاتي هنّ أصغى لنداء الطبيعة والأرض من آدم، وتستجيب "للحيّة" بمعنى حياة الغرائز، ولشرائعها، عشتاريّة محضة لأنّها تنتمي لعالَم الحيوان، عالَم الحيّة).

٢- أنّ حوّاء "زوجُه" فعلاً، كما قال الله سبحانه وكما قال الكاتب، فأيّ خطيئة لها لو عاشرت زوجها أو عاشرها، وقد أعطاهما سبحانه حرّية التصرّف أنْ يأكلا رغداً حيث شاءا. أعني أنّ "شريعة الذكَر" هو جعل الأنثى له وحده وهو ربّ الأسرة التي سيُكوّنها وحده منها، وشريعة الخصب لا يهمّها هذه المسألة لأنّه ليس ثمّة أخلاق في عالَم الحيوان إذْ كان المطلوب هو الخصب وبقاء النسل فقط، فهناك أمّ فقط والذكَر فحلُ إخصاب، والإناث جميعاً للذكر الأقوى، ويُستبدَل إذا جاء أقوى منه، أو انتهز أحدُ الذكور الفرصة في غيابه أو غفلته. فهل أنّ "آدم" و"حواء" لو (تعاشرا)[1] عملا بشريعة عشتار أم بشريعة الذكَر؟ لا تستبين أنّها شريعة عشتار إلاّ إذا انصرفت حوّاء لغير آدم، وانصرف آدم لأيّ أنثى غير أنثاه (زوجه)، أيْ خلَع كلٌّ منهما لباس الآخر، خلعا رباط الزوجيّة، ليصير شرْكةً، كما قال تعالى (**ينزع عنهما لباسهما، ليريهما سوءاتهما**). فلو قال الكاتب هذا لصحّ الرأي في المسألة، فالقاعدة وقد أصابها، والتطبيق قد أخطأه.

---

[1] - ليُميّز القارئ أنّنا لا نقول أنّهما تعاشرا في الجنّة، بل كما بيّنّا سابقا قد "ووري عنهما من سوءاتهما"، فحالة السموّ الروحيّ التي وُضع فيه آدم وحوّاء، وكونهما وليديْن في كينونة جديدة، كينونة الإنسانيّة، ونزْع قابليّة تفعّل غرائزهما طالما هما بلباس الجنّة، محى مسألة "المعاشرة" من قاموسهما، ولمْ يتفعّل هذا الأمر، إلاّ بالحرام، بوسوسة الشيطان، وبرؤية شجرة البشر الهمج العاري خارج الجنّة. ولو أردنا أنْ نقيس الأمور فقد حدث زمنٌ لمْ يكن الإنسان يعرف شيئاً يُدعى اللّواط، لا شيء من غريزته يدعوه إليه، ولا سابق مثالٍ يُحتذى به ويُهيّجه عليه، (هذا ما كان عليه آدم وحوّاء بالنسبة إلى المعاشرة)، حتّى تسبّب الشيطان يوماً في تحريك أنفس خسيسة لتقوم بفعل اللّواط، فابتدعته من حينها لذلك صاح فيهم نبيهُم (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)(الأعراف: ٨٠-٨١).

وكذا لو كانت معصية آدم وحوّاء هو المعاشرة، فمعاشرة الزوجين تظلّ هي نفسها وفق شريعة "عشتار" ووفق شريعة "إيل"، ولا معنى لأنّ يُخرجهما الشيطان من الجنّة ليتعاشرا، كما لا معنى لتنبيه الأبناء الذين زُوّجوا بزوجاتهم الإنسيّات أنّ لا يخرجوا من العصمة الزوجيّة وتعاليم الربّ بتذكيرهم بخطأ الأبوين (**لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما**) إلاّ إذا كان الأبوان انتهكا هذه العصمة لا أنّهما التزما بها، والمعاشرة الزوجيّة التزام، والمعاشرة خارج الزوجيّة هي الانتهاك، وكذا معاشرة الزوجة بشهوة امرأةٍ أخرى، انتهاكٌ للطبيعة الإنسانيّة وقوى الوعي.

ب- التأثّر بخرافة الضلع

وللكاتب الكبير في هذه المسألة أيضاً تعليقٌ آخر، لنا عليه أيضاً شبه تعليق، قوله في ص ١٦٥ :

(**والإله الذي تقول الأسطورة أنّه انبثق من البيضة بطبيعة مؤنّثة مذكّرة، هو الأمّ الأولى، هذه المضاجعة التي تُذيب الوحدة الأصيلة، لَتُذكّرنا بالمضاجعة التي تمّت بين آدم وحوّاء. فآدم في الأسطورة الذكريّة هو المخلوق الأوّل في جنّة التكامل والسكينة الأبديّة، ورغم أنّه كان ذكَراً إلاّ أنّه يحتوي في داخله على بذور الأنوثة الكامنة التي تحقّقتْ عندما استُلَّت منه حوّاء، فحصل انقسام المخلوق الأوّل وولدت المتناقضات وحدثت المضاجعة التي أفقدتْ الذكر والأنثى وحدتهما الأولى وتكاملهما، وقذف بهما إلى عالَم الخير والشرّ، عالَم المتعارضات**).

والتأثّر بما قاله الكهنة بارزٌ للعيان، وكما بينّا في بحث "الخلْق الأوّل" أنّ "الإله" كما يسمّى في ترجمات الأساطير خطأً، حسب إشارة نصّ الكاتب، ما هو إلاّ القوّة الحيويّة الأولى الفعّالة التي انبثق عنها كلّ موجود، ففي مثال البشر كانت الخليّة الأولى خنثى، أي يكمن فيها الذكورة والأنوثة حتّى انقسمت كما قال تعالى (**مِن نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها**) هي الخلايا البشريّة الأولى في الماء البدئي، بذور الخلق البشريّ، ولا علاقة لها بآدم، وقد بينّا ذلك في بحث "الخلق الأوّل" فراجعها هناك،

ففكرة الكاتب الكبير عن الخلق الكونيّ الأوّل صحيحة، لكنَّ الأمر نفسه يتكرّر؛ الخطأ يأتي في التطبيق، فآدم وحوّاء، لمْ يكونا في بدء التكوين، علميّاً وقرآنيّاً وتاريخيّاً وحتّى توراتيّا (كما بيّنّا هناك)، وحوّاء لمْ تُستلّ من آدم، فهذا من أثر الدسّ التوراتيّ، الذي راح مترجموه يفسّرون حتّى المدوّنات البابليّة بالفهم نفسه، فترجموا القوّة الخلاّقة، قوّة الخصب، "نينتو Nintu" بسيّدة الضلع ليُواطئوا ما تقولُه التوراة فقط، بينما هي القوّة الأنوثيّة الإخصابيّة، الأمّ الكبرى، الرحم الأوّل، فعاليّة الخلق البدئي، تمظهر القدرة، ولا علاقة لها بأنوثة وذكورة بشريّة، بل هي مفاهيم ورموز، كما أنّ "العدالة" و"الحرّية" لفظاً مؤنّث. (انظر الصورة: ٤٧)



منحوتة تُجسّم سبات آدم وأخذ الربّ ضلعاً منه لخلق حوّاء! (الصورة: ٤٧)

والغريب أنّ هذا الكاتب الكبير كغيره من أفذاذ مفكّرينا، الناهضين بتراثنا العظيم من غباره، يؤكّدون في الرموز الأسطوريّة أنّ "عشتار" ("أنَثّ" Anath) أو الأمّ الكونيّة الكبرى هي التي كانت تكمن فيها بذور الذكورة كما الأنوثة، فولدت الذكَر أو فصلته عنها بدون إخصاب، ثمّ تخصّبت بذلك الذكر أيًا رُمِز له في ثقافة شعبه (ديموزي، أدونيس، آتيس، أو غيرهم)، فكيف انقلب الأمر هنا وصارتْ حُوّاء تُستلّ مِنْ ضلع آدم،

بينما التراث كلّه إنْ لمْ يقلْ غير هذا فقد قال العكس؟ وحدها التوراة، جرّاء فكرٍ رعويٍ ذكوريّ طاغٍ ونزعات الكهنة النفسيّة هي التي قلبتْ الأمر، فجعلت الأنثى تخرج من الذكر، حتّى شربناه نحن بغير قصد.

ج- التأثّر بخرافة شجرة الحياة، والحيّة

١- الختم السومريّ:

ينقل الكاتب ص ١١٥ في المصدر السابق، كما ينقل غيره، شجرة الحياة في ختمٍ سومريّ، ويقوم بتفسير عناصره وفق ما سطّرته التوراة، التي يبدو أنّ التوراة بدايةً (السبعينيّة على الأقلّ كما سنرى) هي أوّل مفسّرة للأساطير القديمة وفق هذا الاتّجاه، فبعد أنْ يُورد الأستاذ الكاتب نصّ ما تقوله التوراة في سفر التكوين من العهد القديم، يقول شارحاً للختم:

(تظهر العناصر الرئيسيّة لقصّة آدم وحوّاء والحيّة، في الختم السومريّ الموضّح في الشكل، في وسط الشكل تظهر الشجرة وقد تدلّت منها ثمرتان يانعتان عن يمينها ويسارها يجلس رجلٌ وامرأة يمدّان يديهما لاقتطاف الثمر، ووراء المرأة تنتصب الحيّة في وضع الهامس الموسوس في أذن المرأة. فهل يحكي هذا العمل قصّة سقوط الإنسان قبل ألفي عام من قيام مؤلّفي التوراة بتدوينها؟) انتهى.

والمُحيّر جدّاً أنّ مفكّراً عظيماً آخر من طرازٍ رفيع، ممّن قام بجهدٍ جبّار ومُشرِّف وحقيقيّ في نسْف دخائل التوراة على تراثنا مِن جذورها، ضمن سلسلته "**سوريا وعودة الزمن العربي**" التي تشكّل بحقّ نقلة نَوعيّة فريدة في الفكر والمنهج، يُكرِّر التحليل هذا نفسَه، حين يقول ناقلاً عن الدكتور أحمد سوسة، في كتاب الأخير "**مفصل العرب واليهود في التاريخ**" ص ٤٢٧: (**ومما يُثير الدهشة أنّ المكتشفات الأخيرة قد دلّت على أنّ قصّة آدم وحوّاء بما فيها قصّة جنّة عدن قديمة جدّاً تعود جذورُها إلى ما قبل ظهور الكتابة بزمن طويل. إنّ قصّة آدم وحواء التي تُشير إلى إغراء الحيّة لحواء التي أغرت بدورها آدم بتناول ثمرة شجرة معرفة الخير والشرّ بالرغم من كونها محظورة، إنّ هذه القصّة ذاتها نجدها مصوّرةً على نقش**

سومريّ يُشاهد فيه رجلٌ على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأةٌ حاسرةُ الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرةٌ بينهما تشبه شجرة النخيل تدلّى عذقان مِن التمر من طرفيها، وهذه الشجرة "قطوفها دانية" ويُشاهَد الرجل مادًّا يده اليمنى أمامه ليقطف الثمر، كما تشاهد المرأة وهي مادّةٌ يدها لتقطف مِن الثمر الذي أمامها، وتُشاهَد الحية وهي تقف على ذنبها خلف المرأة وتهمس في أذنها تغريها بالأكل من هذا الثمر المحرّم عليها، ومما يُذكر أنّ هذا النقش التاريخي يعود إلى زهاء ألفي عام قبل التوراة")[1]، ثم وضع نفس الرسم، والشكل نضعه للقارئ، ليتأمّله:



(الصورة: ٤٨)

---

[1] – د. أحمد داوود، تاريخ سوريا القديم- تصحيح وتحرير، ص ١٢٩

٢- مناقشة التصوّرات عن النّقش:

يبدو لأوّل وهلة لدى الناظر أنّها فعلاً تحكي قصّة آدم وحوّاء والشجرة والحيّة، إذْ هذا ما يتبادر للذهن، لمنْ لا يعرف غير هذه القصّة، فأشبعت نُخاعنا بها، إذْ هذا ما قاله كثيرٌ من المفكّرين أيضاً، ولكنْ لو نسينا فقط تلك القصّة التوراتيّة، لأمكننا أنْ نقول:

١- ربّما هي صورة تحكي شريعة الأسرة المكوّنة من أب وأمّ كربّين لشجرة الأسرة المثمرة أبناءً، وعليهما كلاهما بالتساوي أنْ يتعهّداها، وأنّ مصدر "حياة" الأسرة الأولى والأبناء هي الأمّ أساساً، هذه الحياة المتجدّدة وحراستها والسهر عليها عُبِّر عنها بالحيّة، ووُضعت خلف المرأة لأنّ المرأة هي الحارس الأكبر لشجرة الأسرة، سواءً رعايةً لبناء، أو حفظاً لرابطة الزوجيّة وعهدها المقدّس. لا مانع من هذا التصوّر لولا نصب التوراة كمرجعيّة لتصوّراتنا!

٢- إنّ مفكّرين آخرين في السومريّات (كصامويل كريمر) رجّحوا أنْ تكون هذه الصورة مع غيرها من الأساطير كأسطورة "آنكي ونينكورساك"، هي مصدر فكرة العهد القديم عن آدم وحوّاء والحيّة وغير ذلك، أي أنّ المكتوب في التوراة ما هو إلاّ فهم مظنون لأمثال هذه الأساطير دُوِّن في التوراة وحيك في قالب قُدسيّ.

٣- إنّ باحثين آخرين في الأساطير، لمْ يجزموا أنّها لآدم وحوّاء، بل علّق بعضهم هكذا أسفل الصورة "**رقيم طينيّ يُوضّح شخصين (ربّما إلهة وإله) وبينهما شجرة وخلف أحدهما أفعى. ربّما كان إنكي وننخرساج، وربّما آدم وحوّاء والشجرة والأفعى./سومر. منتصف الألف الثالثة قم**".[1] بل إنّ الأستاذ فراس السوّاح في موضعٍ آخر: (**"إنكي" إله الماء العذب، الذي تجعله بعضُ الأساطير زوجاً لـ "ننخرساج" –تربة الأرض- فنراهما يعيشان في جنّة وارفة الظلال تفيض بكلّ شجرٍ وثمر.. هذه الجنّة البدئيّة هي النموذج الأوّل لكلّ أرضٍ مزروعة تُعطي أكلها بلقاح الماء للأرض**)[2].

---

(١) - هذا والنقطة التي قبله انظر: خزعل الماجدي، ميثولوجيا الخلود، ص ١٢٠.

(٢) - راجع: فراس السواح، لغز عشتار، ص ٥٤.

٤- أنّ محقّقين في نصوص التوراة، نفوا وجود حكاية الحيّة (serpent) منْ أصل، فهم يقولون أنْ لا أصْلَ نصّياً لها في النسخة العبريّة التي لمْ تُؤخَذ من اللاتينية السبعينية المحرّفة (سيأتي تمامه لاحقاً).

لكنْ مع ذلك لنفترض أنّهما فعلاً آدم وحوّاء مع حيّة، إذْ لا شيء يمنع من قبول هذا الافتراض، فلْنُسجّل إذاً ملاحظاتنا على الرسم:

١- نحنُ نشكُ أنّ "الحيّة" في وضْع الهامس في أذن المرأة! وهل لو رُسمتْ في جهة الرجل استُنتِج الأمرُ نفسه؟! أليس تصوّرنا التوراتي بأنّ الحيّة أغرتِ حوّاء أوّلاً فأكلتْ من الثمرة ثمّ أقنعت حوّاء آدم بالأكل، هو الذي أوحى بكلّ هذا السيناريو للتحليل؟ بحيث لو نسيْنا هذا التصوّر فقط، ثُمّ جاءنا مَنْ يدّعيه لنا، لرفضناه، بل ماذا لو كان هناك ختمٌ طينيّ آخر يجعل الحيّة جهة الرجل لا المرأة، ولا علاقة لها بالهمس ولا غيره، كما في الشكل التالي[1]. (أنظر الصورة: ٤٩)



(الصورة: ٤٩)

(1) - http://www2.uiah.fi/~pliukkon/huluppu.html

مع أنّنا نشكّ أصلاً أنّ الرجل والمرأة حسب الرّسم يمدّان أيديهما لتناول الثمر، إذْ يداهما يعلوان على الثمر، كرعاية وتعهّد، ولمْ يبسطاهما أسفل الثمرة للأخذ، إلاّ أنّ الرسم مع ذلك يُبيّن بوضوح، أنّ الرجل قدْ مدّ يدَه للثمرة حالُه حالُ المرأة بالتمام، فكيف زعموا انطباق الرسم على ما نسجته التوراة أنّ حوّاء (**أخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أيْضا مَعَهَا فَأَكَلَ**)(تكوين ٣: ٦)؟! الرّسمُ يأبى هذا.

٢- الشجرة المحرّمة، التي أُمر آدم وحوّاء حسب الفهم الدّارج من الاقتراب منها، وحسب فهمنا "من قربها" أيْ معاشرتها، أو ملابستها، هل يُمكن أنْ تكون هذه التي في الرّسم؟ فكلّ مَنْ تكلّم عن الشجرة المحرّمة أيّاً كان تخريجه، ومهما عظُمَ الحقُّ الذي جاء به أو التخريف، فما أحدٌ بلغ أنّ قال أنّ آدم وحوّاء جاءا بكرسيّين أشبه بعرشيْن، وأحاطا بالشجرة المحرّمة، وجلسا متّكئيْن بكلّ برودة أعصاب ينتهكانها!! إلاّ إذا كانت هذه الشجرة وهذه الثمار هي رمز الجنّة نفسها لا الشجرة المحرّمة، فلا غرابة أنْ يكونا على الأرائك متّكئين، بهذا الجلسة الملوكيّة المرفّهة.

٣- كان ينبغي لرسم الحيّة كي تكون في وضع "الهامس!" كما يزعمون، أنْ يصل حدُّها إلى كتف المرأة فقط، وتُمحى الالتواءة نصف الدّائريّة العُليا الأخيرة منها، ليصحّ احتمال ذلك التصوّر فيصل رأسُ افعى إلى أُذن الجالس يساراً، تمعّن في الرسم ستلحظ ذلك جلياً.

٤- لقد بيّن الأستاذ فراس كما غيره أنّ "الأفعى" في الرسوم والتصاوير السومريّة والسوريّة والمصريّة والإغريقية، ترمز إلى الحياة، والخصب، والتجدّد، والحكمة، والشفاء، والحراسة والحفظ، ومن يُتابع النقوش والأختام يرى دائماً أنّ سيّدة الخصب في كلّ الثقافات مصحوبةٌ بأفعى، عشتار البابليّة تلبس تاجاً على هيئة أفعى، إيزيس المصريّة تنتصب معها أفعوان عملاقان، ديمثر (المثيرة المخصبة) الفينيقية والإغريقيّة تقوم أفعى وراءها، والأمّ الكريتيّة الكبرى في أسبرطا يلتفّ حول جسدها أفعى أو تمسك حيّتيْن بيديْها. كما أنّ الحيّة روحُ شجرة الحياة، لأنّها رمزُ الحياة، وحارسةُ مياه الينابيع، وعن رمزها للحكمة نجد أنّ حكماء مصر وملوكهم يزيّنون تيجانهم بأفعى، وعن الشفاء تُرسم حيّتان متقابلتان تلتفّان حول عصا كرمز لإله

الشفاء، أو حول كأس أو إناء عشتار، وقد سُمّي هذا الرمز "الكاديكيوس" السومريّ، ثمّ أخذه اليونان والرومان، وما زال إلى اليوم يُرسَم كعلامة على الصحّة والشفاء، تجده على الصيدليّات في كلّ العالَم. وحتّى في الأدب المسيحيّ اعتمدوا الحيّة رمزاً للشفاء وللصحّة ولتجدّد الحياة، بناء أنّ موسى (ع)، كما يقولون، صنع حيّةً من نُحاس وشفا بها المرضى والعميان، فنقرأ في إنجيل يوحنّا :"**وكما رفع موسى الحيّة في البرّية، هكذا ينبغي أنْ يُرفَع ابنُ الإنسان، لكيْ لا يهلك كلّ مَن يُؤمن به بل تكون له الحياة الأبديّة**" وابنُ الإنسان هو عيسى (ع)، لذا نجد الأفعى في نقوشٍ مسيحيّة مرفوعةً على الصليب رمزاً للمسيح وبجنبها حمامتان، لأنّ الحيّة كما قال يوحنّا دلالة الحياة الأبديّة، والتجدّد، هذا ملخّص ما يقوله المفكّرون ومحلّلو الأساطير[١].

بل يقول الكاتب بالنصّ ص ١٣٩ (**الشجرة والأفعى والنّبع تتكرّر في كثيرٍ من الرّسوم، وفي بعضها يغلب على المشهد جوٌّ فردوسيّ تنتعش فيه كلّ أنواع النباتات، ممّا يُشير إلى أنّ الأفعى هي رمزٌ لخصب الطبيعة بشكلٍ عام، إلى جانب كونها روحاً للشجر والغاب، وفي كثيرٍ من النقوش والرّسوم، سواءً في العالَم اليونانيّ والرّومانيّ أو في الشرق الأدنى القديم، تبدو الحيّة مُحاطة بكلّ رموز الخصب**)[٢].

فبناءً على كلّ ذلك، لماذا هذا النقش فقط من كلّ النقوش التي كانت الحيّة فيها رمزاً للخصب وللتجدّد والخلود والحياة الأبديّة والصحّة، لماذا تغيّرتْ دلالة الرّمز هنا وصارت تهمس في أذن حوّاء، وهي القوّة التي رُمِز ترافقها مع عشتار وإيزيس (إيزيس

---

[١] - فراس السواح، لغز عشتار، من ص ١٣٥ — ١٥٦. تجد مضمون الكلام السابق كلّه إضافةً لنقوشٍ وأختام كثيرة مُصاحبة مؤيّدة.

[٢] - إنّ البعض يقترح، أنّ الحيّة ما هي إلاّ رمزٌ للشريط الوراثي (سلسلة الدي.إن.إيه) فهو أصل الحياة فعلاً، لأنّ فيه مدوّنة وتعليمات صنْع الحياة البيولوجيّة، فلا غرو أنْ تجد في الرّسم، ثمرتيْن نباتيّتيْن متدلّيتيْن من شجرة الحياة، القائمة على تفرّع ثلاثي من جهة وآخر رباعي من جهة أخرى، يُحاكي شفرة (الدي.إن.إيه) حيث الصفّ الجيني ثلاثيّ، وقواعد الأسس الآزوتيّة رباعيّة، وبهذا يكتمل النظام السباعي الذي هو نظام الخلق التامّ، هذا النظام هو الذي أفرز الموجودات الأرضيّة جميعاً وفق نظامٍ زوجيّ يقوم الآخر على الإخصاب والإثمار، وآخرها الإنسان بزوجيّه الذكر والأنثى المتربّعين على سدّة سيادة الكائنات، كما في رسم الختْم.

التي دشّنت "شريعة الأسرة" في مصر، وعقدت بين المرأة والرجل، وجعلت الرجل حارساً لأسرته، يعني أنّها أرستْ شريعة إيل أو الذّكر كما يقول الأستاذ) وغيرهنّ.

٥- إنّ الذي يتجلّى لكلّ مُحايد أنّ الحيّة في كلّ النقوش هي نفسها، بالدلالة نفسها، وهذه الصورة لا تحكي أكثر من أنّ آدم وحوّاء سكنا الجنّة وفيها الخصب الكثير والحياة الأبديّة وتجدّد الخصب وعدم الفناء، وكلاهما سيّدان على الأرائك متّكئان، متساويان في المنزلة، وكان بالإمكان رسم الحيّة كرمز في أيّ جهة لتدلّ على أنّ هذا الذي هما فيه هو الفردوس الخصيب المتجدّد ذو الرّوح الأبدية، هم فيها خالدون، ولو أردنا أنْ نُفلسف لماذا رُسمت بالخصوص جنب المرأة لا الرجل (على فرْض أنّ تلك هي المرأة)، فلأنّ المرأة هي مصدر الخصب، ألمْ تقلْ التوراة نفسها، أنّها دُعيتْ "حوّاء" لأنّها أمّ كلّ حيّ، مع أنّ قولهم هذا خطأٌ أيضاً، فحوّاء ليست أمّ البشر، بل هي ليست أمّ جميع أبناء آدم.

فالذي يبدو أنّ العرب الأوائل كانوا يرمزون للخلود والحياة الأبديّة بالحيّة في أساطيرهم الدينيّة ونقوشهم، (مثلما رمزوا لها في بدايات التصوير بالخطر أيضاً)، وحين انتقل هذا التراث لليهود، (لا سيّما الكهنة مترجمو التوراة التي نقلوها للاتينيّة وأضافوا ما أضافوا وبدّلوا كثيراً من الكلمات والأسماء)، حسبوا الحيّة - التي سمعوها مشافهة في أساطير العرب - حقيقةً فنسجوا قصّة الجنّة ودوّنوها ظنّاً منهم أنّ ثمّة حيّة حقيقيّة، عاقبها اللّه بأنْ قطع قوائمها، لتؤول المعركة بين الإنسان والشيطان، إلى معركة ثلاثيّة بإضافة شخص الحيّة!!

وراح أهل الإنجيل يُكرّرون الأمر ذاته كونهم ورثوه عن التوراة المدوّنة واعتمدوها: (**ولكنّني أخاف أنّه كما خدعت الحيّةُ حواء بمكرها**)(٢ كورنثوس ٣:١١)، وما يقوله العهد القديم: (**فَقَالَ الرَّبُّ الالَهُ للْحَيَّة: «لأنَّك فَعَلْت هَذَا مَلْعُونَةٌ أنْت منْ جَميع الْبَهَائم وَمنْ جَميع وُحُوش الْبَرِّيَّة. عَلَى بَطْنك تَسْعينَ وَتُرَابا تَأكُلينَ كُلَّ أيَّام حَيَاتك. وَأضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَك وَبَيْنَ الْمَرْأة وَبَيْنَ نَسْلك وَنَسْلهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأسَك وَأنْت تَسْحَقينَ عَقبَهُ» وَقَالَ للْمَرْأة: «تَكْثيرا أكَثِّرُ اتْعَابَ حَبَلك. بالْوَجَع تَلدينَ أوْلادا. وَإلَى رَجُلك يَكُونُ اشْتيَاقُك وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْك»**) (تك: ٣: ١٤-١٦). فحبل المرأة

وآلام مخاضها عقوبةٌ إذاً، ومحبّتها لزوجها واشتياقها عقوبةٌ، وسيادة الرجل على المرأة عقوبةٌ مشروعةٌ أيضاً، وهذا خلاف ما يقوله القرآن، وخلاف شريعة إيل، شريعة الأسرة، والعجيب والمُخجل في آنٍ أنْ يُصادق المدسوسُ في تراثنا الإسلامي على هذه النظرة للمرأة، فنقلوا عن ابن عبّاس قوله: (**لمّا أكل آدم من الشجرة، قيل له: لمَ أكلتَ من الشجرة التي نهيتُك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبْتها أنْ لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، قال: فرنّتْ عند ذلك حواء، فقيل لها الرنّة عليك وعلى ولدك**) فسبحان الله عن هذا الافتراء والظلم والزّور! الله سبحانه ينهى آدم، ثمّ يُعلّل مُخالفته بأنّه أطاع امرأته التي أمرتْه بخلاف ما أمره الله، فيُطيعها ويعصي ربّه، فيقوم الله سبحانه بمعاقبة حوّاء، وبعصبيّة من الربّ وانفعاليّة زائدة يُدعى على ذرّيتها وتُشتَم بالغيب، وكأنّ ذرّية حوّاء غير ذرّية آدم! فماذا يجعل هذا الزّعمُ من آدم، أعاقلاً؟ لا علينا من مستواه حين عصى، بل الآن، حين يُسأل ويقول للّه أنّك أمرتني وأنا أطعتُ امرأتي وعصيتك؟! أيُ ربٍّ هذا يلتفتُ للمرأة ويترك رجلاً هذا عُذره؟ بل أيُ آدميّ هو حقّاً آدميّ يفعل هذا؟ بل أيُ حوّاء تفعل هذا؟ بل، وأكبرُ "بلْ" : أيُ عقلٍ يُصدّق مثل هذه الحكايات التهريجيّة على الله سبحانه وبكْر خليقته آدم وزوجته الموحّدة المؤمنة حوّاء؟!! فحدّث العاقل بما لا يليق فإنْ صدّقك فلا عقْلَ له.

ثُمّ، أنّ الحيّةَ، يا كهنةً يا كُتّاباً، ليست وحدَها التي تسعى على بطنها فهناك السلحفاة والحلزون والديدان التي بلا أرجل، بل ولإنصاف الحيّة، فهي أقدر منْ الأسماك ومنْ كثيرٍ من الحيوانات البرّية لأنّها تسبح وتسعى وتتسلّق الأشجار وبعضها يطير ويقفز لمسافات. أمّا "وجْبات غذاء" الحيّة فلم تتغيّر منذ وُجدتْ من ملايين السنين، وهو ليس التراب، كما تدّعيه التوراة، بل فرائسُها منْ صيد الحيوانات الأصغر منها. الفيل يأكل من التراب لاحتوائه على معادن تُفيده وتُساعده على الهضم، وهناك حيوانات تأكل القاذورات كالخنزير والصراصير، فتلك أولى بأن تنطبق عليها عقوبة أكل التراب وما دونه.

والزّعم أنّ عداوة الحيّة هو للمرأة هُراء، فعداوُها للرجال الذين يصطادونها أشدّ من عداوتها للمرأة، بل الحيّة أصْلاً لا تُميّز بين رجلٍ وامرأة.

ألا بلى، لو كانت "الحيّة" ترمز لأنثى الهمج أو لإبليس، الترميز الذي غاب عنهم فهمه، فإنّ الإنسان يسحق رأس إبليس بتقواه، ووجود الإنسان وانتشارُه أباد رأس (أصل) الوجود الهمجي، لكنّ الحيّة ستسحق عقب الإنسان، أي ذرّيته، فإبليس والهمجيّة سيطرا على الذراري واعتاشا فيها وفرّخا.

أمّا عن الجملة الأخيرة كقضاء عقابيّ على حوّاء: (**وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ**)، فيكفي أنّها تُناقض ما سبق وقالته التوراة ورسمتْ أجواءه، فالاشتياق حصل منذ خُلقت من "ضلعه!" كما زعموا ليكونا جسداً واحداً، و"سيادته عليها" لاحاجة لتقريرها هنا، فهي -كانعكاس لخصائص مدوِّني التوراة النفسية والاجتماعيّة- تفوح منْ كلّ نصوص سفْر التكوين السابقة على هذه النتيجة، منذ أنْ أُتي بحوّاء تُستَعرض كسائر الحيوانات أمام آدم ليُعطي لكلٍّ اسمه!!

٦- ثمّ أنّ التراث كلّه يُجمع أنّ الذي خدع آدم وحوّاء لإخراجهما منْ الجنّة بإغوائه هو الشيطان، فما شأن الحيّة بهذا؟ وما دخْلهما بالموضوع؟ وكيف جُرْجِرتْ لمشهدٍ لا ناقة لها فيه ولا جمَل؟ وما فلسفة ارتباطها بمشهد طرْد إبليس الذي سبق وحكاه القرآن الكريم؟ فالحربُ بين إبليس وآدم حربٌ وعداوةٌ بين كائنين عاقلين يعرفان الله تعالى، وبين خليفتيْن، خليفة سابقٍ استكبر وسَقَط سقوطاً مريعاً، وخليفة لاحق أُقيم مقام العزّ ثمّ خُدِع لبراءته وحداثته، فما شأن الحيّة أو الأرنب أو الضفدعٍ أو الحلزون في القضيّة؟

بل أيضاً أنّ الإرْماز بـ"الحيّة" لإبليس مثلاً، لمْ تفهمه بداوةُ أولئك المترجمين والمنتحلين، وقد بيّن يوحنا هذا الترميز حين قال (**فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ، طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ**) (الرؤيا ١٢ : ٩).

فإبليس هو "الحيّة" القديمة، وهو الذي أضلّ العالَم بدءاً من آدم، وليس الحيوان الزّاحف "الكوبرا" أو "الحنش" التي تُسمّيها التوراة العبرية "نخش/نحش" بالإقلاب بين النون والحاء.

استرسلنا قليلاً في هذا، لنُبيّن للقارئ التناقض والاستخفاف بالعقل الذي يتبع بعضُه بعضاً، في محكيّ ذلك التدوين المُشوَّه.

وقدْ بيّن بعضُ الباحثين الإنجيليّين الغربيّين، أنّ خرافة الحيّة، وحكاية الضلع الذي منه حوّاء، لا وجود لها في النصّ الأصل، قبل ظهور الترجمة اللاتينيّة (السبعينيّة)[1]، وقد أوردنا الإشارة إلى "مسألة الضلع" في بحث "الخلق الأوّل" (خلق آدم) في فصله الأخير، فراجعه هناك.

٧- فالذي يبدو مجملاً مِنْ تصوّر هؤلاء المفكّرين، بغضّ النّظر عن تحليلهم القائم على تصوّر مسبق للواقعة أو الرمز، أنّه تصوّرٌ كتصوّرات معظم مفسّرينا، يتبنّى حيثيّات التوراة في خصوص هذه المسألة، فلنقرأ ما تقوله التوراة نصّاً:

(**فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الالَهُ سُبَاتا عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاعه وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْما، وَبَنَى الرَّبُّ الإلَهُ الضِّلْعَ الَّتي أخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إلَى آدَمَ فَقَالَ آدَمُ: «هَذه الآنَ عَظْمٌ مِنْ عظَامي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمي هَذه تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِن امْرِءٍ أُخذَتْ» لذَلكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأمَّهُ وَيَلْتَصقُ بامْرَأَتِه وَيَكُونَان جَسَدا وَاحدا**)(سفر التكوين ٢: ٢١-٢٤)، وقد تعرّضنا لنقد هذا النصّ بالخصوص، وكشفنا أخطاءه العلميّة والمنطقيّة، وللمرويّات الإسلامية المزعومة المُحاكية له تماماً، في بحث "الخلق الأوّل".

٣- تفسير الختم السومريّ:

والآن هل انتهينا من مسألة "الحيّة"؟ كلاّ، لمْ ننته. فقد احتملنا:

أوّلاً: أنْ تكون الحيّة (التي في الرقيم السومريّ) رمزاً للحياة والخصب الدائم والتجدّد والصحّة، كما هو شأنها كرمز ثابتٍ في سائر النقوش.

---

(1) - Adam and Eve, the serpent, and of Adam's rib, which were introduced in the Greek version of Genesis, have no corresponding passages in the Hebrew original.
http://www.mazzaroth.com/ChapterThree/HistoryOfTheBible.htm

ثانياً: أنْ تكون الحيّة (التي في توراة الكهنة)، هي إبليس "الحيّة القديمة"، مع رفضنا أنّ حوّاء هي التي أزلّت آدم، بل ثمّة امرأةٌ بشريّة أخرى هيّجها إبليس، وأغراها بالتسلّل إلى أفنية محيط الجنّة، لا شأن لحوّاء بها. وكلا الاحتمالين صحيحان.

ثالثاً: أنّ الكهنة لمْ يفهموا أو يستوعبوا لبداوتهم بعض أساطير الأوّلين، ومن ضمنها هذا الختم السومريّ، أو أنّهم فهموها وحرّفوها عمداً، فقد كان العرب الأوائل يرمزون للبشر الهمج بأبناء الكهوف، وأبناء التنيّن، وأبناء الأفاعي، والحيّات، وهذا ما ذمّ به عيسى (ع) يهود الهيكل لشراستهم وجهلهم وماديّتهم هاتفاً فيهم: **(أيّها الحيّات أولاد الأفاعي)**(متى ٢٣ : ٣٣)، تشبيهاً لهم بأولئك الهمج أو تعريضاً لهم بخبث منبتهم، وقد استعرضنا شيئاً منْ هذا في بحث الخلق الأوّل، وبيّنّا هناك أيضاً كيف أنّ الأمير "قدموس" الفينيقيّ قاتل هذا النوع من الهمج الذي سمّته الأساطير "تنيناً" شمال البحر المتوسّط، وقدْ سبقَ أنْ مرّ علينا أنّ يُوحنّا سمّى إبليس "تنيناً" و"حيّة قديمة"، فهما واحد. (انظر الصورة: ٥٠، ٥١)



قدموس يقتل التنين/الحيّة، أي مرّةً أخرى يُعبَّر عن الهمج بالحيّة والتنين

(الصورة:٥٠)



(الصورة: ٥١)

إذن من المحتمل أنّ الحيّة في الأسطورة قد تعني أنثى الهمج مِنْ سكنة الكهوف المدفوعة بإبليس، هي المرأة نفسها التي أُغوي آدم بها وخُدِع، ففي أسطورة "إيتانا والنّسر" التي تحكي قصّة آدم وجنّته، كما بينّا، نجد الحيّة نفسها، فحتماً سمعها الكهنةُ الذين يُحرّفون الكلم عن مواضعه، وصيّروها في مؤلَّفهم حيّةً حقيقيّةً تتكلّم وتخدع، مع أنّهم بدأوا التعريف بها أنّها مِن "**حيوانات البرّية**" وعاقبتُها أنّها صارتْ

"**مَلْعونة مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ**"، فهي حيوانٌ، وبهيمةٌ، أعجمٌ، حسب النصّ، فكيف تتكلّم بهائمٌ بخلاف طبيعتها فتُوحي وتُغري وتُمارس دوْر إبليس؟! وهل هذا إلاّ تخريفٌ وتخليط وتسطيحٌ للعقل السليم؟

فهل لنا أنْ نُفسّر الختْم؛ أنّ آدم قد تخلّى عن حوّاء، السيّدة التي أمامه، والجنّة الدانية قطوفها تحت يديه، وشجرة الأسرة والنسل المقدّس، فاستبدل ملوكيّته وزوْجَه ولباسَه ودارَ نعيمه وأمنه، بحيّة غرائزيّة مدفوعة بالحيّة القديمة "إبليس" مُهيِّج الغرائز، بأنثى همج، من الشجرة البشريّة القديمة، أطلّتْ عليه مِنْ وراء حوّاء، رمزوا لها بالحيّة؟!

هلْ لنا أنْ نُفسّره، كموعظة، بضرورة الحفاظ على شجرة الأسرة، وثمارها الشرعيّين (الذرّية الربّانيّة)، حيث أنّ في الرسم كلاًّ من الرجل والمرأة يمدّان يديْهما للاعتناء بثمر الشجرة، ويحوطاها عن الشرْك الزوجي بمنع إدخال "حيّة" تنساب لتشرك البهيميّة في العرق الإنسانيّ السليم؟ لا مانع من هذا التفسير للختم، لاسيّما وأنّ المنطق يقبله، بأفضل ممّا فسّروه به، بل لاسيّما وأنّ الواقع هو هذا (كما أثبتنا).

ثالثاً- الحقيقة التراثيّة التي ضيّعها الكهنة

- (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**)(المائدة:١٥).

- (**قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ**)(الأنعام:٩١).

القرطاس: هو الورق المكتوب فيه، والورق الخالي من الكتاب ليس بقرطاس، أي هو تحويل الشفوي إلى مدوّن، وليس ثمّة قراطيس أصدق من مدونّة توراة الكهنة، بل لا يُوجد سواها، فلمْ يدوّنوا فيها كلّ ما يعرفونه بل أخفوه. إذن، لقد دلّس الكهنةُ الأمر حين دوّنوا التوراة، فهم جرّاء ميولهم وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، دوّنوا ما يُناسب ميولهم وأهواءهم، فأخفوا كثيراً من الحقائق، ومن ضمنها حقيقة

براءة حوّاء، وكيفيّة المعصية الأولى، لأنّ نهجهم الذكوري وميولهم لا تتّسع لغير هذه الصياغة التي تجعل من حوّاء هي المخطئة، بيْد أنّهم في مرويّاتهم التي تُوافق التراث الموحّد لدى الشعوب العربيّة والحضارات التي قبلهم، كانوا يعرفون الحقيقة، ويُدركون نزاهة حوّاء، وقد جاء القرآن ليبيّن هذا المخفي وهو ما قُمنا بكشفه من آيات كتابه المبين في الفصول السابقة، ففي تلمودهم الخاصّ بهم، سطّروا الحقيقة كما سمعوها بعد أنْ ضاع منها ما ضاع، فكانوا يعلمون بوجود البشر الهمج وإناث الهمج، وتزاوج الآدميّ بالهمج، فممّا وُجِد لديهم عن أنثى اسمُها "**ليليت**": (انظر الصورة: ٥٢)



ليليت في نقوش البابليّين، وهي تمثّل قوّة الطبيعة وغرائزها وخصبها، فشابهت رمز عشتار (إنانا) أيضاً. (الصورة: ٥٢)

أ- ليليت (Lilith) البابليّة

نجدها في القاموس: أ- روح شرّيرة، في الميثولوجيا الساميّة، تُقيم في المواطن المهجورة وتُهاجم الأطفال، ب- زوجة آدم الأولى (في الأساطير اليهوديّة). ج- عرّافة مشهورة (في المعتقدات الوسيطيّة)[١]. وفي الفولكلور اليهودي[٢]: أنثى شيطانة، أُخذَت قصّتُها وشخصيتها مِن "حضارة بابل"، وقد وُصِفَت أنّها أمٌ للذرّية الآدميّة الشيطانيّة

(١) - منير البعلبكي، المورد- قاموس إنجليزي عربيّ، ص ٥٣٠ .

(2) - **LILITH** (Hebrew): Female demon of Jewish folklore; her name and personality are derived from the class of Mesopotamian demons called lilû (feminine: lilitu, from **layil** night). In rabbinic literature Lilith is variously depicted as the mother of Adam's demonic offspring following his separation from Eve or as his first wife, who left him because of their incompatibility. Three angels tried in vain to force her return; the evil she threatened, especially against children, was said to be counteracted by the wearing of an amulet bearing the names of the angels. Babylo-Assyrian **Lilit** or **Lilu**. In Rabbinical writings **Lilith** is the first consort or wife of the **mindless Adam**, and it was from the snares of Eve-Lilith that the second Eve, the woman, become **his** savior.

"The numberless traditions about **Satyrs** are no fables, but represent an extinct race of animal men. The animal 'Eves' were their foremothers, and the human 'Adams' their forefathers; hence the Kabalistic allegory of Lilith or Lilatu, Adam's first wife, whom the Talmud describes as a charming woman, with long wavy hair, i.e., -- a female **hairy animal** of a character now unknown, still a female animal, who in the Kabalistic and Talmudic allegories is called the female reflection of **Samael**, Samael-Lilith, or man-animal united, a being called Hayoh Bishah, the **Beast or Evil Beast**. (Zohar, ii, 255, 259). It is from this unnatural union that the present apes descended" (**Theosophy** view) Ref. to: (http://www.piney.com/BabGloss.html)

من معاشرتها لآدم بعد انفصاله عن حوّاء، أو ربّما كانت زوجته الأولى[1]، التي تركته لعدم التلائم بينهما، وسُمّيت بعازفة القيثار، والعاهرة. "ليليت" أو "ليلو" في كتابات الأحبار، هي التي عاشرها آدم الغافل، وإنجاءً من مصيدة المرأة (حوّاء-الملتوية) جاءت حوّاء الثانية أمّ الآدميّين كمنقذة لآدم. ويُسميّ التلمود هذه الشخصيّة (أنثى حيوانيّة، شيطانة، شرّيرة)، ويقولون أنّه من تزاوج الرجال الآدميّين بهذا الجنس، تحدّرت فصائل "قردة" اليوم، (والترجمة الصحيحة يبدو أنّها "النسناس"، أي الإنسان الحيواني الشهواني العدائي، ومع الأسف هذا يُوافق طباع أغلب إنسان الحاضر).

وفي طقوس المعاشرة الزوجيّة يستعيذ المؤمنون بالله من "ليليت" وأنّها قد تكون حاضرة لتسلب بضع نقاط من منيّ الرجل لتكوين ذرّية شيطانيّة، أبدانهم أبدان الآدميّين وقلوبهم شيطانيّة (هذا يُذكّرنا بحديث النبيّ (ص) عن النسناس أو أناس آخر الزمان)، فيلتمسون من الربّ نقاء الذرّية، وأنّ ليليت هي شيطانة الخرائب والأماكن المهجورة،

---

(1)- Lilith:
A romance by George MacDonald, 1895
Of Adam's first wife, Lilith, it is told
(The witch he loved before the gift of Eve)
That, ere the snake's, her sweet tongue could deceive,
And her enchanted hair was the first gold.
And still she sits, young while the earth is old,
And, subtly of herself contemplative,
Draws men to watch the bright net she can weave,
Till heart and body and life are in its hold.
The rose and poppy are her flowers; for where
Is he not found, O Lilith, whom shed scent
And soft-shed kisses and soft sleep shall snare؟
Lo! as that youth's eyes burned at thine, so went
Thy spell through him, and left his straight neck bent,
And round his heart one strangling golden hair.
http://www.thewhitemoon.com/gallery/Lilith.html

ويُعتقد أنّها كانت تقطن الجنّة يوماً[١]، وأنّها سكنت "مصرين" أيضاً، وسكنت البحر الأحمر، وكانوا يُعيذون الأطفال الرضّع لا سيّما الذكور منها. (وهذا يُنبّهنا إلى الموضع الجغرافي لقصّة جنّة آدم والجزيرة العربيّة وساحلها الغربيّ).

ويقولون أنّ الملك سليمان توجّس أنْ تكون ملكة سبأ من جنس "ليليت" حين رأى شعر رجليّها. وقد نسجوا حكايات شعبيّة كثيرة في قالب خرافي عن "ليليت" مع الملائكة، والشياطين، وحبكوا "أفلاماً" عن أصلها وفصّلها، لكنّا نستطيع أنْ نتجاوز الحشد العاطفي والسرد الخرافي والإهالات الخياليّة والجاهلة في المسألة، لنتلمّح ما يكمن وراءها من عنصر حقيقي (حقيقة تاريخيّة) فقط[٢]، فسنترك الدخان ونلتزم بالنّار وحسب.

ولو راجعنا تراث البابليّين الذي تأثّر كهنةُ اليهود به، لوجدنا "ليليت" نفسها كشيطانة تخنق الرجال الغافلين، وتقتل الأطفال الرضّع وتنتزعهم من صدور أمّهاتهم، وهي مصدر الأمراض والأوبئة، وتشرب دم الرجال، وتضمّر عضلاتهم، وسبب إجهاض الحوامل، وبالسومريّة سمّوها "دمّي/Dimme" أي مثيلة الإنسان، الدمية، وصوّروها بأنثى برأس أسد جاثمة على حمار، وتُرضع خنزيراً في أحد أثدائها وكلباً في الآخر، وتُمسك بكلّ يد أفعى ذات رأسيْن، وفي بعضها جعلوا لها مخالب سامّة. بل صنّفوا جنس "ليليت" أنّها من الشياطين المركّبة من تزاوج البشر والشياطين، وهي (ليلو) و (ليلتو) التي هي (ليليت) بالعبريّة[٣]. (انظر الصورة:٥٣، ٥٤)

---

(1) – http://www.heart7.net/spirit/l.html

http://preterhuman.net/texts/religion.occult.new_age/demonology/DaemonolatriaH.P.htm

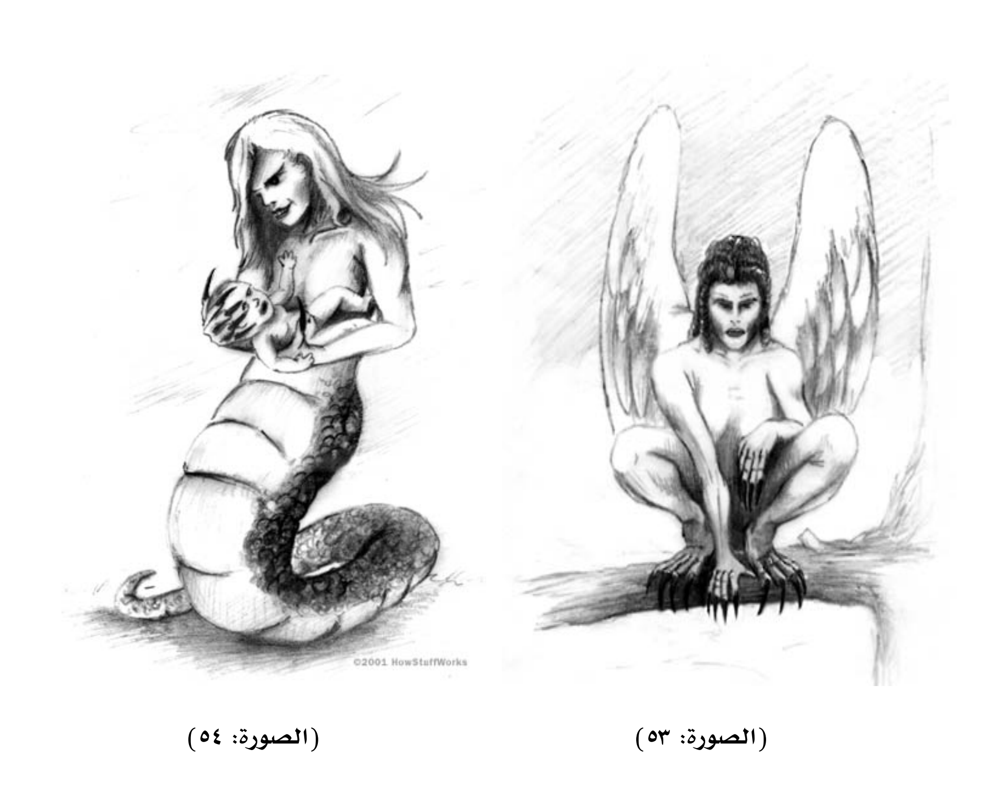
(٢) – راجع دراسة كاملة عن التكوين في الموقع:

http://www.webcom.com/~gnosis/lillith.html

Hebrew Myths by Robert Graves and Raphael Patai (New York: Doubleday, 1964), pp 65-69.

(٣) – خزعل الماجدي، متون سومر، ص١٣٥ .

تصوّرات أسطوريّة للهمجيّة لليت، وهي كمخلوق يسفك الدماء كما قال القرآن، ورُمِز له بخطف الذرّية كما حصل مع ذرّية آدم باستدراج المعصية، شُبّه مرّة على شكل خطّاف، وآخر بـ"الحيّة" كما في الرمز الأسطوريّ:



(الصورة: ٥٣) **(الصورة: ٥٤)**

والأسطورة تقول أنّ "ليليت" خرجت من الجنّة وانفصلت عن آدم لتلد أطفالها في الأرض، والله قد بعث ثلاثة ملائكة لإعادتها، وهذا ما هو إلاّ رمز لبعث الرسل إلى الذرّية الإنسانية الهمجيّة لأنسنتها لتعود بالأعمال الصالحة والتطهّر الروحاني إلى الجنّة مرّةً أخرى.

مهما أوتينا من قريحة لما قدرنا أنّ نفلسف الأمر بهذا الوضوح والبساطة التي جمعها الأوائل في أساطيرهم شعبياً، فجمعوا شراسة الكواسر في عقل الهمج (رأس أسد)، لكن بجسد حمار، ونفسها ترضع من غريزتي الحرص والشهوة (الكلب

والخنزير)، ولمْ يَفتِهم رمز الحيّة بما يمثّله من خطر وأنّه من العهد العشتاري القديم الذي سبق التأنسن.

ولو أردنا ثانيةً أنْ نرمز ما لآثار دخول شرْك (الجين) الهمجي عبر تلك الأنثى جرّاء المعصية الأولى في العرْق الإنساني وبرنامجه النفسيّ، وتحلّل مناعة الإنسان الكامل حتّى انحدر بسلوكه الخاطئ ليصير ثلث إنسان على أكثر تقدير، وتغيّر مسيرة الجنس البشري (الإنساني) برمّته من دخول وهن ومرض وإجهاض، فكلّها ثمرات تلك البداية الخاطئة، تماماً كما نقول اليوم، بل كما يقول الله تعالى، ويقول العقل، أنّ المعاشرة المحرّمة تجلب تفكيك الأسر وضعف النسل ووهن القوى وضياع المجتمع وضمور البدن وانطمار الروح وتشوّه الجينات وتفسّخ الأخلاق وفساد الأجيال وانتشار الأوبئة كالإيدز والسفلس وما دونها، وتوحّش الإنسان والكفر بالربّ، لصدّق هذا كثيرون، لكنّهم سيُواصلون مع ذلك ركوب الخطايا. (انظر الصورة:٥٥)



(الصورة: ٥٥)

وكما رأينا أنّ "الحيّة" (الأنثى الشيطانة/الأنثى الغرائزية المدفوعة بإبليس) هي التي سلبت "آدم" خلوده، أو المقام في دار الأبرار، أرض الخالدين (ديلمون) الجنّة، فلو استرقنا إطلالةً بسيطة على ملحمة جلجامش، لرأينا "**الحيّة**" نفسها هي التي سرقت منه في غفلته نبتة الخلود، كما نرى قبلاً في قصّة رحلة جلجامش إلى أرض الخلود، أنّ غريزة الراحة بعد التعب، فوّتت على جلجامش نيْل مقام الخلود هناك، واضطرته أنْ ينام لسبعة أيام فيخسر رهان البقاء مع الخالدين، فالنوم والغفلة والشهوة، أو قلْ غرائز الجسد، هي الحيّة التي تلتوي على صاحبها وتطغى عليه فتسرق خلود المرء، بينما العمل الصالح النابع من اهتمام الروح بعيداً عن الذاتيّة هو الذي يُخلده مع الخالدين.

أمّا في قصّة جلجامش[١] وإنانا وشجرة الخلب (huluppu)، التي رعتها إنانا في الأرض المقدّسة وخُلقت بواسطة أنقي، هي التي ساء حالها، هي شجرة التناسل البشري الغرائزي الإباحيّ الذي تحوّل إلى منهيٍّ عنه ومعصية لدى البشر الواعي أي الإنسان (أيْ مُنِع من التناسل على الطريقة الهمجيّة)، غدتْ -شجرة البشر المؤنسن- هكذا حينما حلّ عليها طائر السوء (An-su) (عينْ سُوْ) أي إبليس، وربضت الحيّة أسفلها (الغرائز)، والشيطانة الهمجية "**ليليت**" كانت جذعها[٢]، فهي الشجرة/السلالة

---

[١] - تبدأ ملحمة جلجامش (the opening line of the Epic of Gilgamesh) بالسطر: سا .نكَبا .إمورو Sa naqba imuru، ويُترجمونها لنا:

Who saw the deep أو who saw deep wisdom - وبالفرنسيّة Celui qui a tout vu، فكلّها تُجمع أنّ المعنى "الرجل الذي رأى كلّ شيء بعمق"، والقارئ دونما عناء بمقدوره أنْ يلحظ أنّها عربيّة بدون أدواة الربط: سا=سعا (تسقط العين في السومرية والغرب أيضاً)، نكَبا=نقّب، إمورو=أمر، فهو الرجل الذي سعى يُنقّب عن الأمر، هذه هي.

[2] - When the domains of the Great Gods were divided,
And Enki did quest for the Underworld,
Then did I pluck the Huluppu-tree from the Euphrates,
Then did I plant it in my Holy Garden, and tend it,
Waiting for my shining throne and luscious bed.
Then a serpent nested in the roots and could not be charmed,

(وطريقة التناسل) التي ينبغي أن تُجتثّ على يد جلجامش، كما قال تعالى (**كشجرةٍ خبيثة اجتثّتْ مِنْ فوق الأرضِ ما لها من قرار**)(إبراهيم: ٢٦).

فنجد "الحيّة" واضحة بالدلالة على شجرة الغرائز البشريّة العشتاريّة، القصّة التي شرحنا شيئاً عنها في بحث الخلق الأوّل، ولاحظنا الاسم "**ليليت**" نفسه للأنثى الشيطانة التي سكنتْ شجرة "إنانا" أي أنّ الغرائز البشريّة استحكمتْ بدلاً من المحبّة الإنسانيّة على شجرة الخصب البشريّة، شجرة الإغراء (الخلب/الخالوب)، فصار ممارسة الحبّ مادّياً فقط، لا روحيّاً، ونجد أنّ الحيّة سكنتْ في أصل تلك الشجرة، أيْ أنّها شجرة قامتْ تتأصّل على محض الغرائز والشيطان، وطائر الشؤم (أن-سو) عين سُو، طائر عين السوء ربض في رأسها، فحين غيّر الملكُ البابليّ العظيمُ جلجامش عقيدته لإرساء شريعة الأسرة والاحتشام قضى على هذه الشجرة وبترها، وشرّد "**ليليت**" للجبال.

إنّ اسم "ليليت" قد يروق للبعض أن ينسبه إلى "ليل" أي الظلام، فيُوافق نسبة تلك الهمج إلى عصر الظلام والكهوف. لكنّ الأشبه، أنّ ليليت (Lilith)/لليت، (ل-ليت/ليث = Li-lith --> الـ ليّة/ليث/لوث/لفّ: وكلّها بمعنى الملتفّ والملتوي والأعوج)، أو باللهجات الدّارجة (اللّي لوتْ) أيْ الملتوية، فاللّيْ واللّوْي واللّيث واللوْث واللفّ هو الاعوجاج والتلوّي والالتفاف والإغراء، فالكلمة أحد ألفاظ "لوْي/ليّ" وفي سفر إشعياء (**فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيْفِهِ الْقَاسِي الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ لَوِيَاثَانَ الْحَيَّةَ الْهَارِبَةَ**) (إشعياء ٢٧ : ١)، سُمّيت لوياثان (*leviathan*)، ويترجمها قاموس سترونج العبري[1] (a *wreathed* animal, that is, a *serpent)* أيْ حيوان "**يلتوي**"، وهو الحيّة، وهذه اللفظة للإشارة إلى كلّ ملتوٍ، حتّى الحمم البركانية السائلة، لأنّها تتلوّى سُمّيت حيّات، وتنين، كما في ملاحم الخلق، وحواوى، أي حيّات وتنين كما في جلجامش، ولوياتان، أي الملتوية كما في (**أَتَصْطَادُ "لوياتان" بِشِصٍّ أَوْ تَضْغَطُ لِسَانَهُ**

The Anzu-bird set his young in the branches
And the dark maid, Lilith, built her home in the trunk.
http://www.jelder.com/mythology/huluppa.html
[1] - Strong's Hebrew and Greek Dictionaries

بِحَبْلٍ؟)(أيوب ٤١ : ١)، وراحوا يترجمون "لوياتان" هنا بالتمساح والحيّة في نُسَخ الترجمات العربيّة وغيرها للتوراة، بينما السياق كلّه يتحدّث عن "سيول البركان" فاقرأ (**مِنْ فَمِه تَخْرُجُ مَصَابِيحُ. شَرَارُ نَارٍ تَتَطَايَرُ مِنْهُ. مِنْ مِنْخَرَيْه يَخْرُجُ دُخَانٌ كَأَنَّهُ مِنْ قِدْرٍ مَنْفُوخٍ أَوْ مِنْ مِرْجَلٍ. نَفَسُهُ يُشْعِلُ جَمْراً وَلَهِيبٌ يَخْرُجُ مِنْ فَمِه. فِي عُنُقِه تَبِيتُ الْقُوَّةُ وَأَمَامَهُ يَدُوسُ الْهَوْلُ. مَطَاوِي لَحْمِه مُتَلاَصِقَةٌ مَسْبُوكَةٌ عَلَيْه لاَ تَتَحَرَّكُ. قَلْبُهُ صُلْبٌ كَالْحَجَرِ وَقَاسٍ كَالرَّحَى. عِنْدَ نُهُوضِه تَفْزَعُ الأَقْوِيَاءُ. مِنَ الْمَخَاوِفِ يَتِيهُونَ. سَيْفُ الَّذِي يَلْحَقُهُ لاَ يَقُومُ وَلاَ رُمْحٌ وَلاَ حَرْبَةٌ وَلاَ دِرْعٌ. يَحْسِبُ الْحَدِيدَ كَالتِّبْنِ وَالنُّحَاسَ كَالْعُودِ النَّخِرِ. لاَ يَسْتَفِزُّهُ نَبْلُ الْقَوْسِ. حِجَارَةُ الْمِقْلاَعِ تَرْجِعُ عَنْهُ كَالْقَشِّ. يَحْسِبُ الْمِطْرَقَةَ كَقَشٍّ وَيَضْحَكُ عَلَى اهْتِزَازِ الرُّمْحِ. تَحْتَهُ قُطَعُ خَزَفٍ حَادَّةٌ. يُمَدِّدُ نَوْرَجاً عَلَى الطِّينِ. يَجْعَلُ الْعُمْقَ يَغْلِي كَالْقِدْرِ وَيَجْعَلُ الْبَحْرَ كَقِدْرِ عِطَارَةٍ**)(أيوب ٤١ : ١٩-٣١)، فأيُّ تمساحٍ وحيّةٍ هذا؟! ولأنّ هذا الملتوي هنا هو "سيل الحمم" جاءت كلمة "لافا" (Lava) من "*leviathan*"، أي اللاويّ، الملتوي. وسمّاه السومريّون "ل-لو" (li-lu) واللام الأولى للتعريف، والثانية "لَو" اسم فاعل من "لوى"، وبالتسكين يُلفظ "لَوْ"، أي أعوج، وملتوٍ كالحيّة، فقالوا في ملحمة التكوين البابليّة:

(**سأخلق الإنسانَ المتوحّش "للو"**)[١].

(I will establish a savage, "man" shall be his name[٢].)

[١] - وديع بشور، الميثولوجيا السورية أساطير آرام، ص ٢٠٩. وخزعل الماجدي، متون سومر، ص١٦٠، حيث كتب (لولو/Lullu) (الإنسان البعيد أو السحيق، أو الإنسان الأوّل، أو الإنسان المتوحّش والبدائي .. وهو الإله! الذي ذُبح وصُنع من لحمه ودمه مع الطين الإنسان، في الأسطورة الأكديّة). وهذا ما بيّناه في بحث "الخلق الأوّل".

[2] -www.stavacademy.co.uk/mimir/enuma1.htm.&
faculty.gvsu.edu/websterm/Enuma_Elish.html
وكلمة (سافِجْ Savage) التي صار معناها "المتوحّش"، هي عربيّة "سافِك/سافِگ" وهو الجنس الذي قال عنه تعالى "يسفك الدّماء".

ولـو فتّشـنا في بقايـا لهجاتنـا الـتي تختـزن الكثير مـن أطـلال السـريانية القديمـة وطريقة نطقها، لوجدنا أنّ (الأولى) تُلفظ (لُوّلهْ Luleh) (والسـريان ينطقـون النـهايات المفردة بالواو: لولو) مثلما أنّ (الأوّل) تُلفظ (لَوّلْ) لدينا، بل (الـذي ولّـى) يُلفـظ (لـهْ وَلْ Le wul) وكلُّها تقـود إلى معنـى (البشـر) الأوّل الـذي مضـى، فبإمكاننـا احتمـال هـذا، وهذا يُناسب الترجمة التي أدرجناها في الهـامش (الإنسـان السـحيق - أي الـذي ولّـى - أو الأوّل) --> لـوَلْ أو لَـوَّلْ. أو يُحتَمـل أنّ "اللـوّ واللّيـت" بمعنـى اللـفّ والالتـواء جـاء منهما "لـو" وهـو حـرف الامتنـاع، و"ليـت" وهـو حـرْف تمـنٍّ، لأنّ كلاهمـا يفـترض طريقـاً آخر ملتوٍ وغريب عن سمت التفكير الحاضر، والنائم أيضاً كما أنّه في وضعٍ ملتوٍ، فإنّـه في "لـو" أي لاوعـيّ ولاتفكير، وغربـة عـن المعتـاد، فـالافتراض أنّ "لـو" الـتي تـأتي بعمـل الشيطان، قبال التفكير السـديد، لأنّهـا لاوعـي، وغفلـة، وغُربـة تفكير، يشـترك في هـذا البشـر الهمج، والنائم، والغافل، واللامتحضّر، والمخدوع بالشيطان، والغريب، ونرانـا مـا زلنا نقول للأطفال حال نومهم "سَوِّ لولّو" أي "افعلْ لولّو" وهو النوم والغفلـة واللاوعـي، فمن أين أتت هذه الـ "لولو" أم أنّها اعتباطيّة؟! بـل نجـد في قصّـة جلجـامش أنّ أنكيـدو حين يُقبـل علـى المدينـة وكـان بـدوياً جـاهلاً بالمدنيّـة سُـمّي (*lullu amelu*)[1]، وأعتقـد أنّها (لولو. حام. إيلو) الغريب الحامي من عند إيلو وهو الله.

وارتبـاط "**للـو**" كجنس الهمـج الغريـب المسمّى بأبنـاء الحيّـة أو حيّـات الكهـوف، بــ "**لليـت**" واضـح في أسـاطير بابـل، حيـث يُجعـل الأوّل ذكـراً والثانيـة أنثـاه، ويوصـفان بالشياطين[٢]:

(In the Babylonian tradition, there is a triad of demons that Lilith is associated with. The male is called Lilu, and the two females are called Lilitu and Ardat Lili).[٣]

---

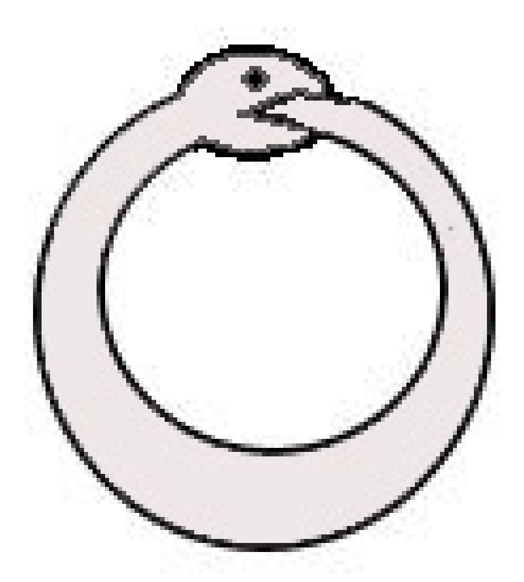
(1) - http://www.angelfire.com/tx/tintirbabylon/GLOSSARY.html

(٢) - ليلو (شيطان الليل وزوجته ليليتو) خزعل الماجدي، ميثولوجيا الخلود، ص ١٥٢.

(3) - http://www.heart7.net/spirit/l.html

و"أرضـة للـي" هـي حيّـة الأرض، أفعـى الكهـوف، سـكَنة الجحـور والمغـارات، الهمـج البشريات، وكلّ طبيعة سلوكيّة للهمج هـو سـلوك شـيطاني بمعيـار الأخـلاق الإنسـانيّة والسمّو التخليقي، لأنّ الأوّل كائن غير واعٍ والثـاني واعٍ ومحترم متجلبـب بـرداء اللياقـة والإكرام، فسفك الدماء والإفساد والصراخ والتناكح علناً والنـزو علـى أيّ أنثـى والعـرّي وتبرّج الإناث بالإغراء الفاضح وعدم الدفن والاصطراع بـين الـذكور ولـو كـانوا أبنـاءً أو آباءاً، هي أشياء طبيعيّة للبشر الهمج، لكنّها "للو/لليت/اللّيّة" أي التـواء وانحـراف وردّة في السـلوك الإنسـاني لـو قـام بهـا ورجـوع القهقـرى إلى الـتي سمّاهـا القـرآن "**الجاهليّـة الأولى**".

ولقد كان الأقدمون أيضاً يرمـزون للطبيعـة الأمّ الـتي تحكمهـا دورتهـا الصـارمة، المنتجـة لنفسـها، بالحيّـة الملتويـة علـى نفسـها، العاضّـة بشـكل دائـري علـى ذيلـها (الأوربوس)[١]، فالبشر في طوره الهمجي يخضع لهذا النظام وهذه الدورة دورة عشـتار والطبيعة المسخّرة، بخلاف الإنسـان في جانبـه الإنسـانيّ الـذي وُهـبَ الـروح ليخلـد مـع العالين.



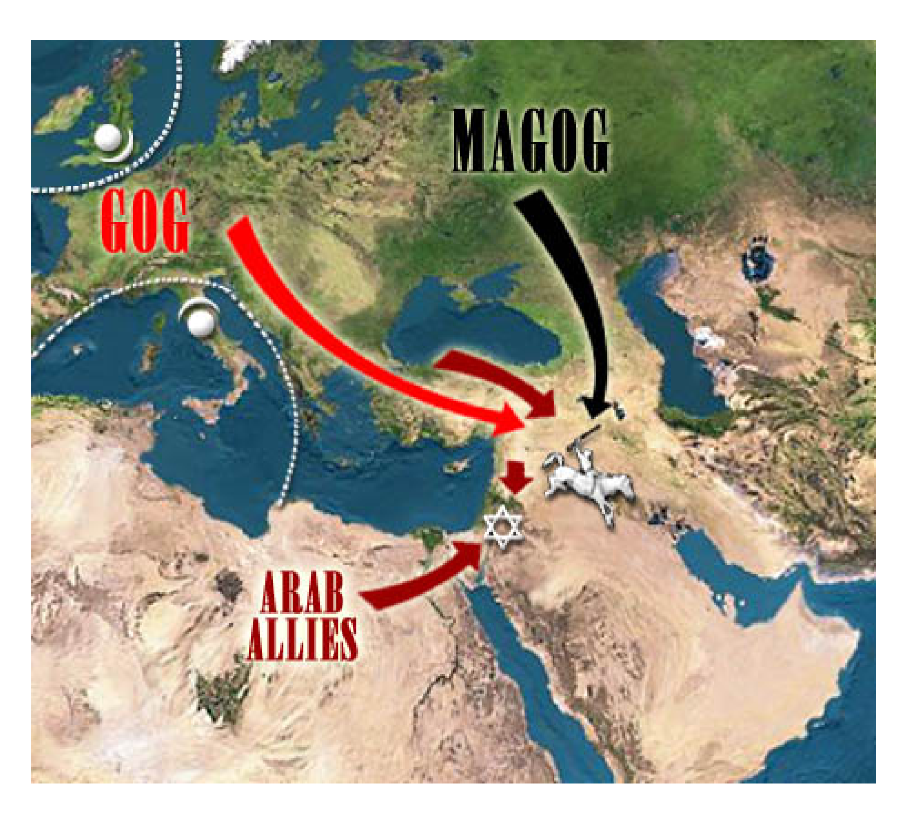
[١]- خزعل الماجدي، متون سومر، ص ٦٩ .

ب- يأجوج ومأجوج Gog and Magog

هذان الاسمان قد نُسجت الخيالات والخرافات والقصص الشعبيّة فيهما، وورد ذكرهما في القرآن الكريم، والكتب السماوية السابقة، وفي لهجاتنا الدّارجة شُهرا بـ "جوج وماجوج" وهو يُحاكي تسمية السابقين حيث ورد في الإنجيل (**وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الأُمَمَ الَّذِينَ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ: جُوجَ وَمَاجُوجَ، لِيَجْمَعَهُمْ لِلْحَرْبِ، الَّذِينَ عَدَدُهُمْ مِثْلُ رَمْلِ الْبَحْرِ**)(رؤيا يوحنّا ٢٠ : ٨). والقرآن الكريم أشار إلى الجنس الهمجيّ المفسد في الأرض، وأنّ ذا القرنين في حقبة تاريخيّة قديمة منع شرورهم ووضع تحصينات للمدنيّة ضدّ عدوان الهمج، لكنّه أخبر أنّه في محطّة زمانيّة قادمة النّاسُ وياجوج ومأجوج "**بعضهم يومئذٍ يموج في بعض**" أي سيختلط الجميع فلا يتميّز أحد، وأخبر القرآن أنّ اليأجوج والمأجوج سيظهران في وقتٍ ما وسينتشر نسلهم في كلّ حدب، وقد قالتِ العربُ أنّ الاسم أتى مِن "أجّ" أي ثوّر واستفزّ وهيّج وحرّض وأشعل، ومنه التأجيج، فهناك مُحرِّض على الفساد والإهلاك (وهم قادة مؤجّجون) = يأجوج، وهناك "مُحرَّض" ومؤجَّج وهم الغوغاء (غوغ Gog)، وهم مأجوج (وواضح أنّه اسم مفعول من "أجَج" فهو مأجوج). (انظر الصورة: ٥٦، ٥٧).



إسقاطات لأسماء التوراة ضمن دراسات إنجيلية، وضعت همجية "جوج وماجوج" في أوربا حيث الهمج قديماً (الصورة: ٥٦)



تخيّلات غربية لاهوتيّة لشعوب جوج وماجوج البشريّة والحرب النهائيّة!! (الصورة: ٥٧)

أمّا المرويّات فقد تكلّمت عن "يأجوج ومأجوج" أيضاً ورووا عن ابن عبّاس عن عليّ (ع) (**والناس ولدُ آدم ما خلا يأجوج ومأجوج**)[1]، وقد احتار الشرّاح ممّن قبِلَ بهذه الرواية، وكان لديهم روايات سابقة أنّ يأجوج ومأجوج هم من أبناء آدم، فتنازعوا بين الروايتيّن، هل "يأجوج ومأجوج" من ولد آدم أم لا؟ رواية تقول نعم وأخرى تقول كلا!. كما أنّ بعضهم سلّم بخبرٍ أو معلومةٍ قالها "كعب الأحبار"، وهنا بيتُ قصيدنا فيما لدى الكهنة من أخبار لا يعرفون مغزاها أو تحرّفت، فقد قال كعب عن ماجوج (**هم بادرةٌ مِنْ ولد آدم مِنْ غير حوّاء**، قال: **وذلك أنّ آدم احتلم فامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله تعالى منها يأجوج وماجوج**)[2]، فهنا تنفكّ العقدة كلّها، ثمّة نسْلٌ همْ بادرة مِن ولد آدم، أيْ فلتة واستباق، لا مِن حوّاء، إذن ممّن؟ قبلاً قالت اليهود من "ليليت" الهَمجيّة، هنا قال كعب: امتزجت نطفة آدم بالتراب! طبعاً هذا لا يُصدّقه عاقل، إلاّ إذا كان التراب يعني "مخلوقاً بشريّاً من تراب" كحال البشر الأوائل، أي مخلوق مادّي (ترابي) بحت، ليس فيه من أثر الرّوح.

بل بهذا نُدرك تنوّع الروايات في جعل "يأجوج ومأجوج" مرّة من ولد آدم لكن لا من حوّاء، أي هم بنو آدم من نسل الهمجيّة. ومرّة أخرى لا علاقة لهم بآدم وليسوا من الناس، وهؤلاء هم البشر الهمج الصرف (الذي يُفسد ويسفك الدماء) قبل آدم. فيأجوج ومأجوج هي النفسيّة والعقليّة الهمجيّة، بعضُهم قبْل آدم، وبعضُهم جاء من ولد آدم حين تزاوج بالهمجيّة.

إذن فاليأجوجيّة والمأجوجيّة الأولى، قد تسلّلت إلى بني آدم عبر نسل الهمجيّة، وليس بالضرورة أنّ أناس اليوم يرجعون إلى حوّاء بل المؤكّد أنّهم يرجعون فقط إلى آدم، لذلك كان الخطاب القرآنيّ لجميع مَن آتاه الله عقلاً مكلّفاً (بني آدم)، (**إنّ الهمج لايزال حيًّا في أعماقنا، وكذلك الإنسان البدائي بكل فتراته، وفي ليالي البدر يستيقظ "لا شعورُهم" الجماعيّ في عمق "لا شعورنا" لتلبية نداء الغابة، إنّ**

---

[1] - الكليني، الكافي، ج٨، ص٢٢٠.

[2] - ابن حجر، فتح الباري، ج٣١، ص٩٤؛ نعمة الله الجزائري، قصص الأنبياء، ص١٨١؛ النووي، شرح مسلم، ج٣، ص٩٨.

روحهم الموحدة هي جزء من نفسيّتنا الجماعية وهي تكمن في "لا شعور" كلّ فرد من الجنس البشري، وبالتالي لها أثر على أحاسيسه وأعماله. هذا يُفسّر التناقضات العميقة للجنس البشري في وقتنا الحاضر، فهو يقول بالسلم لكنه يعيش دائما في الحرب ويدعو إلى الحبّ مع أنّ أعماله ترشح كراهية، إنه متقدّم كثيرا تقنيا وعلميا وتشريعيّاً ولكنّ تطوّر روحه ووعيه صفْرٌ إذا اعتبرنا الروحانية كتحول تقني وظيفي في الذهن يسمح به الإنسانُ للروح أنْ يعبّر عن نفسه في إطار واقع اللحظة).

لذلك لا نعجب أن نرى اليوم أبواقاً همّها بثّ التهديد بتشغيل الترسانات العسكرية وفق شريعة الغاب، وابتذال قيمة الحياة البشرية لمستضعفي الأرض، وعلى مستوى القِيَم فإنّ الوضعَ يُنذرُ بإحالة الإنسان إلى نوع من حيوان منتج مستهلك، لا ذاكرة له ولا تاريخ ولا اهتمامات بمستقبله ومصير نوعه، وليس لديه ما يؤهله لإعادة التفكير في معنى وجوده في العالم. قد أخبرتْ رؤيا يوحنّا أنّ جوج وماجوج منتشرون في زوايا الأرض الأربع كحبّات الرمل، فهم نحن إذاً، الذين يُحرّضون ويتمّ جمعهم وحشدهم للحروب بدعوات شيطانيّة متلبّسه بكلّ راية ولو برايات الدّين بل بالأخصّ هي!! ومع الأسف فالإنسان قدْ أُعطي فرصة العمر لينقى فإذا به يزداد رجساً، وبدلاً من أنْ يُزيل منه مظاهر الهمجيّة ليسمو، إذا بها تتفاقم فيه يوماً بعد يوم، فلذلك أكثرَ مِن قوانينه وتشريعاته لعلّه يكبح الوحش الذي يُفرّخ فيه.

ج- بين حوّاء والحيّة

"حَوَّاء" مؤنّث "أحوى": مَن به سمرة، و"أحوى" النبات الضارب للسواد، قال تعالى في العشب (**فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**)(الأعلى:٥). و"حُوّاء" بقلة لاصقة بالأرض، "الحاوي" صاحب الحيّة. ولو تابعنا كيف مِن "حوّا"، أو "حيا"، اشتقّت معاني الحياة: (Hewa) (هوا) كما يُسميّها المندائيّون السريان العرب، فالحاء عند بعض اللهجات تُلفظ هاء أو ألف، باعتبارها حروفاً حلقيّة. فـ(حوا) تصير (هوا) و(إوا). ولأنّ الواو عند بعض اللهجات العربيّة تُقلب فاء، مثلما بقي هذا الإقلاب لدى أهل فارس حتّى اليوم، تُصبح:

حوا = حفا، هفا، إفا أي هي (حيفا) و (إيفا) والتي هـي اسـم حـواء حسـب نطقها بالإنجليزية وغيرها (Eva/Eve) (ويحيى يُلفظ Evan لدى بعض الشعوب). وبإضافة لام التعريف لها أصبحت (لَ إيفا = ليفا) التي هي (Live) و (Life)، التي هـي الحياة. وبهذا نُدرك إلماحة أخرى لقوله تعالى في آدم (**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاه**)(الأعراف:١٧٦)، فأخلد إلى الأرض أي التصق بها، يُذكّرنا بالبقلة اللاصقة بالأرض، أي أخلد إلى حوّاء أرضيّة بدلاً من حوّائه السماوية وزوجه، هذه الحوّاء الأرضيّة هي الحيّة نفسها، ونجد في السريانيّة الآراميّة أنّ (حووّا/خُووّا) معناها حيّة (KHOOWAA = snake).

ونحن إذْ تجاوزنا عن إدانة الكهنة الذين سطّروا القصّة بهذه الكيفيّة باعتبار أنّهم قد يكونون لملموا من تراثنا ما لمْ يفهموه وجاءهم مرمّزاً فدوّنوه بأفهامهم، فلن نستطيع أنْ نُعفي من فسَّر "توراة الكهنة" على ظاهره ورسّخ الفهم الساذج وغير البريء له، ثمّ أعاد دسّه في مصادرنا بل ومراكمته على قرآننا، فإنّهم حين يقرأون، في سفر الخليقة ٣: ١٥-١٦، قول الربّ "للحيّة":

(**وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَاسَكِ وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ. وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: تَكْثِيراً أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا**) لمْ يتساءل أحدٌ حسبما يبدو: حوّاءُ ومعها الحيّةُ وسلّمنا أنّها حيّة زاحفة! فما علاقة نسل الاثنتيْن بالعقوبة، نسل حوّاء ونسل الحيّة؟ ما الذي حشر النّسل في القصّة إذا كان المأكول ثمرة من شجرة ذات جذع؟! وما علاقة "الحبل" (الحمل) وولادة الأولاد بالتّعب على حوّاء بما قاما به من معصية؟ لماذا ليس مغَصُ بطنٍ مثلاً، مرضٌ جلديّ؟! هذه كلّها رموز مبطّنة في القصّة، تشير أنّ "الحيّة" هي أنثى أخرى سيكون لها نسل، هذا النّسل (الإنساني الهمجي) هو الذي سيقضي على الأصل الهمجي ويُبيده من رأسه (هو يسحق رأسك)، وأنّ العرق الهمجي سيتسلّل في المكوّن الإنساني برمّته، في العقب والذرّية (وأنت تسحقين عقبه)، وأنّ العداوات ستقوم بين النسل الإنساني لأنّه ورث مكوّناته من أمّيْن لبني آدم (الأمّ الإنسانة حوّاء والأمّ البشريّة الهمجيّة/أو الحيّة رمزاً).

خلاصة الفصل

هكذا، نجد الأمر نفسه، لولا ظاهرة توراة الكهنة، في تراثنا المطمور أو المُشفّر أو المُفسَّر خطأً أو المُخفى أو المُشوّه، نجد: المرأة/ الحيّة/ الشيطانة/ الهمجيّة/ الحيوانيّة/ مثيلة الإنسان/ الملتوية/ حوّاء المتوحّشة/ أم الذرّية الشيطانيّة أو الهجينة، كلُّها رموز لجنس بشريّ آخر نفسانيّ بلا روح محكوم بالغرائز، استُخدم كآلة من قبل الشيطان لإغواء بني آدم وتشويه خلْقَته وفطرته، منه كانت الأنثى التي أغرت آدم الأوّل وكوّن منها ذرّية آدميّة "شيطانيّة"، وصارت أمثال هذه الإناث، وهذه الخطيئة، رمزاً في الذّاكرة الدينيّة الإنسانيّة ومثلاً لخنق الذرّية وسلب الأبناء، فظلّ آدم في الندامة سنين قبل أنْ يُستنقذ بحوّاء الإنسانة أمّنا.

الملخّص والخاتمة

أولاً- موجز الآدميّة في سطور

قبل مئات الآلاف من السنين وبعد أنْ تهيّأ كوكب الأرض عبر مئات وعشرات الملايين من السنين لاستقبال الحياة النباتيّة ثمّ الحيوانيّة، حان دوْرُ خروج آخر كائن حيوانيّ معقّد وهو البشر، فخرجتْ بداياتُهم كما خرجت بدايات كلّ دابّة، متميّزة بنفسها لا تطوّراً عن قرود، خرجوا كما قال القرآن وأكّدته الأساطير وأثبته العلمُ، بتكوّن شفراتها الجينيّة في الماء، ونموّها واغتذاؤها في حاضنات الطين اللازب جانب المستنقعات النهريّة، فخرج البشر الأوائل رجالاً ونساءً بالغين، وظلّ هذا الخروج والنسل الأرضي يتوالى، حتّى جاءت حقبة التناسل من الذكر والأنثى في زمن كانت فيه السلالة البشرية قد بلغت مستوىً محسّناً يسعفها على هذه النقلة، هنا صار البشر كأنّهم يخلقون أنفسهم من ذكرهم وأنثاهم (يتوالدون) كما كلّ الحيوانات فانتقل الخلق (النشأة) من نشأة الأرض إلى نشأة الأرحام.

ظلّ هذا الوجود البشري يتطوّر شيئاً فشيئاً باعتباره أرقى كائن حيواني وأذكاها وأكثرها قابليّة، لكنّه مع ذلك يستحيل عليه أن يُطوّر له حضارة أو وعياً أو ديناً أو لغة لأنّ جوهر الإبداع وهو "الرّوح" يخلو منه، بل هو كائن أسير الغريزة مهما اشتدّ ذكاؤه وحيلتُه، ولا يستطيع أن يرى غير عالمه الذي يُكنّه ويأسره. إلى أنْ جاءت لحظة التدخّل الربّاني في هذه السيرورة الطبيعيّة الممتدة لملايين السنين، فجاءت طفرة بزوغ

الوجود الإنساني لتُخلّق من الكائن اللاواعي البشريّ كائناً آخر واعياً حرَّ المشيئة، ليتأهلّ ليُصبح الخليفة الواعي المدبِّر للكوكب ومثيلَ الربّ في الأرض.

تسلّل كائنان بشريان من الهمج اللاواعي داخل مغاور جبال السروات في الجزيرة العربيّة مهد الإنسان الأوّل[١]، ويُسِّر لهما دخول الجنّة المحروسة بالملائكة "**فرادى**"، الذكَرُ منهما دخل قبل الأنثى، في زمن كان بداية تحوّلٍ فلكيّ كونيّ له ارتباط بدورة الشمس في المجرّة، جوّ موبوء من حيث الأشعّة الضارّة ومن حيث المناخ القاسي، متوافقاً مع آخر عصر جليديّ الذي بدأ ليُهلك في طريقه هذا الجنس البشري الهمجي السابق المنتشر[٢] والذي سيبيد بعضُه بعضاً وتبيده الكواسر والوحوش ومكابدة الظروف، ضمن خطّة إلهيّة تنفذُها الطبيعة والقوى الربّانيّة لاستبداله بالإنسان الخليفة بذرّيته الإنسانيّة كما يُنقّي الزرّاع بيْدَره ويستنبتُ أجودَ فسائله ويجتثّ اللاّملائم، هذا العصر الذي بدأ قبل أكثر من ٥٠٠٠٠ سنة تقريباً. وبدأ عمل تخليق الإنسان وتسويته وصفّ جيناته، ثُمّ (لعلّه) وُضِع في حالة سُبات.

بعده بمدة دخلت الأنثى الجنّة، أو سهّلت الملائكة لدخولها، فبدأت مرحلة إعادة تخليقها وتحسينها وتعديل جيناتها بنفس الطين والتركيبة الجينية ("من فاضل الطينة" كما يقولون)، وجرى عليها ما جرى عليه تماماً من طينته ومن شفرته ونفسه (من نفسٍ واحدة)، وكانت إبادة الظروف القاسية للهمج قائمة خارجاً.

في اليوم الربّاني، لتقدير المصائر، يوم القدْر[٣]، هبط الروح الأعظم (ربّ الملائكة/إنليل) ونفخ –في الكائنين المستويين السابقين– من روحه بكيفيّة لا نعرفها، فوُلدتْ لأوّل مرّة بدايات الإنسانية بولادة كائنين مثليْن للرَبّ (آدم وحوّاء) كأطفالٍ في هذا العالَم الجديد.

---

[١] – راجع: جنّة آدم تحت أقدام السّراة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[٢] – (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)(الأنعام:١٣٣).

[٣] – راجع بحث: ليلة القدر– عيد الخليقة، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

نُوديت الجنود الروحانية من الملائكة المسئولة عن الأرض، للانتظام في مشروع إعداد هذا الكائن الجديد (وليّ العهد) واحتضانه والقيام بمعونته وتعهّده وتعليمه (وهو المسمّى بالسجود لآدم)، فأبى إبليس مع قبيله، فطُرد إبليس من الجنّة بعد رفضه الخضوع والإذعان التامّ لهذا التخطيط (السجود)، أي قبل قرابة ٤٩٠٠٠ سنة.

ظلّ آدم وحوّاء في الجنّة مئات السنين يتعلّمان فيها سمات الأشياء (أسرارها) بصحبة الأبرار من الملائكة في جوٍّ روحاني غافلَيْن عمّا يُمكن أنْ يصدر منهما من شرور راجعة لطبيعة النفس وقواها المادّية الكامنة. كان ينبغي لآدم أنْ يظلّ كامناً في الجنّة حتّى إبادة سلالة (شجرة) الهمج خارجاً ليبدأ مهامّه بعد تأهّله وبعْدَ زوالهم مع تغيُّر الأجواء الكونية، ولمْ يكن في المُخطّط المعهود لآدم أنْ يخرج ولا أنْ يصنع له ذرّيةً بعد، بل الذرّية ساكنة (غير مفعّلة) في عالَم آخر مجهول (سمّاه التراث: عالَم الأصلاب، عالم الذرّ، عالَم الأظلّة)، لنقلْ أنّها معدودة ومذخورة في علْم الكتاب الأوّل الذي نزل بأمْر خلْق آدم وخلق أنفس الذرّية، في قبضة واحدة (كما يقبضُ ملكُ الموت الأنفس)، شخَصَ منها فردان هما آدم وحوّاء ووُضع الباقون في طور الكمون (شبيهاً بالأجنّة المجمّدة، لتقريب الفكرة مادّياً)، فقال تعالى (**لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً**)(مريم:٩٤، ٩٥)، أحصاهم في الماضي، وعدّهم.

بعد مدّة، أغرى إبليس المطرود والذي حسد آدم على مقامه، بعضَ بقايا الهمج بالصعود، لا سيّما أنثى منهم، بإيحاءات نفسيّة (في المجرى الصافي لغدير من الغدران المترقرقة من مغارة الجنّة، مجرى "بردى/بردو").

خرج آدم إليها بعد نزاع وتسويل، ووقع في الفخّ وعاشر مُستَغْفلاً تلك الهمج، قارَب "شجرة" البشر المُراد له أنْ ينقرض والمنهيّ أنْ يقربه بالتزاوج منه، ليُكوّن "شجرة الخلد" التي له (سلالة بشريّة من نسله)، فأدام الكينونة/النفسيّة الهمجية بإنتاج ذرّية تحمل الأنسنة والهمجيّة معاً، كان الأمر أشبه بهندسة جينيّة، واختلط النسل الإنساني بالهمجيّ. فأضرّ نفسه وذرّيته بإيقاع الخلل في برنامجه الجيني والرّوحي، وبالخروج لمكابدة الظرف الموبوء كونياً، هذا عدا أنّه فقد درعه الرّوحي (اللّباس).

رُبّما يكون من المفترض عدم خروج آدم من جنّته حتّى الألف السادس عشر قبل الميلاد على الأقلّ، العلمُ عند الله، إذْ عندها سيبدأ انحسارُ العصر الجليدي وبداية عصر الدفء الكوكبيّ، ولولا أنّ آدم قد أدام وجود العرْق الهمجيّ في قالب إنسانيّ لكان الهمج قد أُبيدوا تماماً تقريباً، لا سيّما من المنطقة، وبعوامل كثيرة. لكنّ آدم خرج بطوعه بخداع إبليس، وارتكب معصيته، فعاقبه الربّ بإهباطه عن الجنّة، ثمّ بعد فترة أهبطتْ له حوّاء/إغاثة الله، لتنقل له بشائر قبول توبته، ليقومابعد أدهر مديدة بنسل الذرّية الإنسانية المُعافاة، ثمّ في مرحلةٍ لاحقة أهبطت الملائكةُ إناثاً بشريّات أخريات مخلّقات إنسياً ليتمّ التزاوج بهنّ من أبناء آدم الشرعيّين.

ومع هذا، فالزمن الكونيّ السّيء لا يتبدّل ولابدّ أنْ يأخذ دورته، فقد خرج آدم في الظروف القاسية، أيْ قبل ٤٠ ألف سنة تقريباً. وبقي محاصراً بتلك الظروف القاسية وشبه مجمّد وأعزلاً في تلك المغاور نتيجة للظروف التي هي ظروف إهلاك في الحقيقة لا إعاشة، ولكثرة وجود الهمج الوحشيّين حوله الذين كان المفروض خروجه عليهم سيّداً قويّاً وقد انقرضُوا. فضلاً أنّ آدم بمعاشرته إحدى الهمج منذ أربعين ألف عام قد أوجد سلالة بشرية هجينة، "الإنسان الهمج"، الجنس الإنساني الآخر المدخول بالهمجيّة، وقد كان الهمج البحت قصير العمر، فأدام وجودَهم بنحوٍ ما على مستوى الجينات بالصورة الجديدة في لباس الإنسان، لهم ذكاء الإنسان وقوّة عقله ولهم قابليّة شراسة الهمج وسفكه الدماء وشرور النفس، ونتساءل: لو تلفّتّنا هنا وهناك؛ أليس هذا حالَ معظم الموجود من النّاس حاضراً؟!! فصار "بنو آدم" جنسيْن؛ جنساً من أب إنسان وأمّ إنسان (آدم وحوّاء)، وجنساً من أب إنسان وأمّ بشريّة همجيّة، صنعه آدم مرّة وفعله الكثيرون من بعده.

ظلّت الإنسانية الآدميّة الصفيّة تتكاثر بنسبٍ بسيطة وتنتشر حسب المتاح لها ضمن شريطٍ حيويّ صالح للحياة بين مدار الجدي ومدار السرطان، وبالكاد تحافظ على وجودها لآلاف كثيرة من السنين، بحيث كانت زهيدة العدد، لعدم موائمة الظروف، الفترة المنسيّة من التاريخ التي سمّاها تعالى (**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**)(البقرة:٢١٣)، في حين سبقه في الانتشار العرق الإنساني الآخر الحامل للهمجيّة، وهو العرق الذي انتشر شرقاً وغرباً ليُشارك بذكائه وقابليّاته الجديدة في

إبـادة وانقـراض بقايـا البشـر الهمـج الخالصـين الـذين لا يتطـوّرون، فاكتسـح الأرض وانتشر، وراح في محاولاته ليصنع دينه وأصوات لغته واكتشافاته وأدواته.

مع بدء انحسار العصر الجليدي بدأ يكون للإنسان الخالص وجودٌ فعلي وانتشار حضاريّ، رافق ذلك بعثات الرسل لتعليم الناس (بني آدم جميعاً) المنتشرين شرقاً وغرباً، تعليمهم الاجتماعَ الحسن والاستخلاف ودين التوحيد[١] واللّغة الفطريّة[٢] والأخلاق وإزالة مظاهر الهمجيّة منهم، لاسيّما آدم الرسول (ع) قبل نوح بعدّة آلاف من السنين، آدم المعلّم العالميّ (ع) الذي تماهى في ذاكرة النسّابين مع آدم الإنسان الأوّل، وقام الإنسان ينتقل في سهول الأرض ليُعمّرها شرقاً وغرباً انطلاقاً من "سَراة" الجزيرة العربية ليُهذّب أخيه الإنسان الآخر السائد (الهمجيّ)، حيث لمّ يكن البحر الأحمر والخليج العربي سوى وديان خصيبة تجري فيها الأنهار (انظر الصورة: ٥٨)، حيث تلاحظ أنّ الخليج العربي كان وادياً)[٣].

---

[١] - راجع بحث: التوحيد، عقيدة الأمّة منذ آدم، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

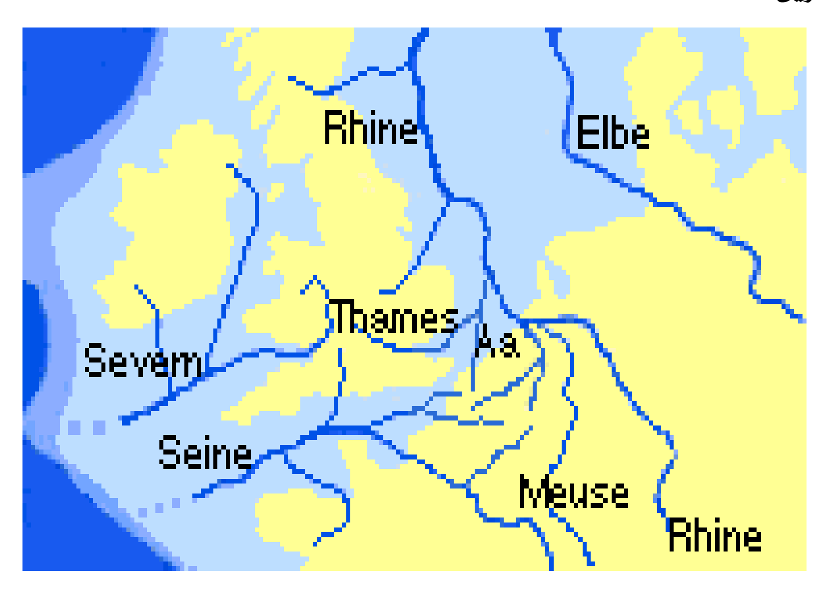
[٢] - راجع بحث: اللسان العربيّ - بُعد فطريّ وارتباط كونيّ، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

[3] - During the Pleistocene epoch of the Quaternary Ice Age, glaciers (represented on map in white) covered much of the Earth's Northern hemisphere. Ice Ages consist of glacial periods and warmer interglacial periods. Although the Pleistocene, the Earth's most recent glacial event, ended 10,000 years ago, many scientists believe that the Earth remains in an interglacial state of the Quaternary Ice Age.
http://au.encarta.msn.com/media_461527006_761570002_-1_1/Ice_Extent_During_the_Last_Ice_Age.html


NORTH AMERICA
EUROPE
ASIA
Pacific Ocean
Atlantic Ocean
AFRICA
Pacific Ocean
SOUTH AMERICA
Indian Ocean
AUSTRALIA
ANTARCTICA
MAXIMUM EXTENT OF ICE SHEETS
LAND EXPOSED BY FALL IN SEA LEVEL

(الصورة: ٥٨)

وصورة أخرى تبين أن بحر الشمال كان أرضاً جليدية تعبره الأنهار قبل خمسة وعشرين ألف سنة[١]:



(الصورة: ٥٩)

فبدأت القرى وبدأت التجمّعات، وصارت الأمّة الواحدة أمماً فزامن بعثات الرسل بشرائعهم الاجتماعية والتعاليم. وراحت الشعوب تتناقل في ذاكرتها الأولى وتراثها أحداث القصّة الأولى رمزاً وأسطرةً ومحكيّات وتعاليم[٢] لترسم عنصر وجودهم وما يُرجى منهم من تطهّر من همجيّة دخيلة عليهم ويُفعّلوا الرّوح الذي وُوري برنامجه هذه المرّة وقُدّم برنامج النّفس عليه.. ولأنّ الجنس الإنساني لمْ يعُدْ مجدياً التفريق فيه بين من يرجع إلى حوّاء أو إلى الهمجيّة، ولم يعُدْ مهمّاً أو بالاستطاعة، لأنّ

---

[1] – MAP 1: 25,000 years: When sea-level were much lower , the rivers flowed across grassy plains where the sea used to be.
http://www.theotherside.co.uk/tm-heritage/d-images/iceage-riversmap.gif.

[٢] – راجع بحث: الأسطورة – توثيق حضاري، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

القابليّات صارت واحدة بكثرة موج بعض في بعضٍ بالتناسل، لهذا وهذا سقط من التراث أو دُسّ وأُرْمِزَ (كما في القرآن) ذكْرُ "الهمجيّة" وبقي ذكْرُ حوّاء، كأمٍّ أصلٍ يرجع النّاس إليها، لأنّه هكذا كان ينبغي، مع أنّه لمْ يكنْ الأمرُ كذلك، وصار يُنقل ويُدوَّن أنّ "حوّاء" هي سبب الخطيئة والتي أغرت آدم بالمعصية، وهو صحيح على أنْ تكون "حوّاء" هذه هي الأنثى الهمجيّة المُغفَل ذكْرُها.

ومع ذلك، فإنّ الإنسان لمْ يُوقف بحال ممارسة الخطيئة والعدول عن أوامر الربّ والخضوع لغريزة النفس الأمّارة، فحدثتْ معاشرات مع إناث الهمج، أو تزاوجٌ إباحيّ مع الإنسان الهمج الذي اختفت معالمُ تميّزه الظاهر وصار هو والإنسان واحداً باعتباره من بني آدم، حتّى لمْ يبقَ في عصرٍ متأخّرٍ جداً، في المنطقة المقدّسة، قرب مهبط آدم، قريباً من مكّة، إلاّ القليل النقيّ أو المُهذّب أيّام نوحٍ وأبيه "لمك"، (**فلمّا أدْرك نوحٌ قال له لَمَك قد علمت أنّه لم يبق في هذا الموضع غيرنا فلا تستوحش ولا تتّبع الأمة الخاطئة**)[1].

حين اكتمال الانحسار الجليدي، وامتلاء الأودية العظيمة بمياه المحيطات الذائب جليدُها التي رفعت مناسيبها أكثر من مئات الأقدام وتشكّلت بحارا وخلجاناً، كما امتلأت في حوض البحر الأحمر والخليج العربيّ، سبب ذلك ضغطاً هائلاً على الدرع العربي في شبه الجزيرة من الجهتين[2]، الدّرع الذي يُخفي تحته خزاناً هائلاً من المياه الجوفية الأولى (الأبزو في الأساطير)، فانفجرت فوهاتُ جبال السراة البركانية التي تُعانق السماء، عن ماء شديد منهمر، وتفجّرت الأرض عيوناً كما أخبر سبحانه (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**)(القمر:١١-١٢)، أغرق قسماً كبيراً من شبه الجزيرة العربيّة، وجرف القرى

---

(١) - الطبريّ، التاريخ، ج١، ص ١٠٨.

(2) - The sea has risen 100 meters since the last ice age, ocean water now exerts a downward force on parts of the continental shelf that had been above sea level.
http://yosemite.epa.gov/oar/globalwarming.nsf/content/ClimateTrendsSeaLevel.html

والـزروع، الأمـر الـذي صـحّرها بعدئـذ . لكنّـه أبـاد بقايـا الهمجيّـة بفروعها الثلاثـة في المنطقة تلك:

– البشـر الهمج سـلالياً (كائن إباحي مفسد غير واعٍ) ⟵ (مخاض تـزاوج بشـر همج، مع بشر همج)، ولعلّه كان يندر وجوده حينها .

– الإنسان الهمج سـلالياً (كائن واعٍ إباحي مفسـد اختيـاراً) ⟵ (مخاض تـزاوج إنسان واعٍ (آدميّ)، مع بشر همج)

– الإنسان الهمجي سلوكاً (كائن واعٍ إباحي مفسد اختياراً) ⟵ (مخاض تـزاوج إنسان واعٍ، مع إنسان واعٍ)، تسـرّبت له الهمجيّـة مـن دواعٍ أخـرى، تربويـة، أو نفسـيّة، أو تقليديّة بالجهل.

فأُهلك كثيرٌ مـن الإنسـان الخـاطئُ الهمجـيُ السـلوك، الظـالمُ والفـاجرُ، مـع بقايـا الهمج بنوعيّه الآدمـيّ (الظـالم) والبشـريّ (إنْ كـان متواجـداً)، السـاكن في هـذه الـدّائرة الجغرافيّة، كما أخبر القـرآن عـن نـوح: (**إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً**)(نوح:٢٧)[١].

لتبسيط ما حدث من معصية، لو ضربنا مثالاً على منوال القرآن الكريم وأضراب حكَم الأنبيـاء، كـأنّ حكيمـاً علـمَ أنّ جـنسَ الخيْـل أصـيب بمـرضٍ فتّـاك سيعرّضـه للانقـراض قريبـاً حتمـاً، اختـار (حصـان/ذكـراً) و(فـرَس/أنثـى)، وأدخلـهما حديقـةً مسقوفة محميّة معدودة لغرض الحكيم خصوصاً، وفيها مختبره الرّاقـي، هنـاك أجـرى عليهمـا عمليّـات تحسـين جـينيّ في الخلْـق ولقّحهمـا بأمصـال مضـادّة للأمـراض وللانقراض، وأبقاهما يرتعان في الحديقة، منتظراً الفرصةَ المناسبة لإطلاقهما ريثما تهلَك سائرُ الخيل الموبوء خارج الحديقة من المرض الفتّاك وتنقرض، عندها سيُخرج الحكيم هـذين الـزوجيْن ليتكاثرا وينجبا سـلالةً أصيلةً تمـلأ الأرض، معدّلـةً قويّـةً لا تنقرض ولا تنحلّ ولا يمسّها مثل تلك الأمراض الفتّاكة.

---

[١] – طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، جمعيّة التجديد الثقافيّة الاجتماعية.

تسلّل عدوّ الحكيم يوماً، وجذب (الحصان) خارج الحديقة في غفلة، وأغراه أنْ يُخصّب فرساً من تلك الأفراس الموبوءة، حملت تلك الفرس بنوع من الخيول حصينة من المرض لكنّها ذات قابليّة لأمراض أخرى مستقبلاً، كما أنّها ليست أصيلة وأقلّ تطوّراً، فتكاثرت مع بعضها ومع الأفراس والأحصنة المريضة، حتّى جاء زمن انقرضتْ فيه فعلاً كلّ الأحصنة والأفراس الفاسدة المريضة، لكنّ الأرض لمْ تطهر، بل استُبدل ذاك النوع الذي باد بنوعٍ آخر لا ينقرض، ليس هو النّوع المطلوب للحكيم وليس وقتُه بل هو نصف المطلوب وقبل وقته، فماذا ينتظر الحكيم الآن ليُبقي "الزوجيْن" في الحديقة؟ لا شيء يُجدي، فالخطّة وقد تبدّلت، والانتظار ولا معنى له، فأخرجهما من الحديقة، على أملٍ أنّ مع الزمن تنقى السلالةُ التي تكوّنت بغير مراد الحكيم، أو لعلّها تفسد أو تقضي على نفسها، فيُعاود الحكيمُ الكرّة والمحاولة مرّةً أخرى مع أزواج (خيْلٍ) في مكان لا يصل إليهم عدوُّه المُفسِد[1].

وللعلم فإنّ الانحراف الجنسي، وأخطاء المعاشرات الشاذّة هي التي سرّبت للإنسان أكثر الأمراض الخطيرة، فهذا طاعون العصر، الإيدز، مرض نقص المناعة، فيه نوعُ شبَهٍ ممّا حصل، وحاول علماءُ الغرب أن ينسبوا أسبابه إلى فصيلةٍ من القرود في أفريقيا! وكأنّ إنسان المدنيّة الحديثة بريء من تسبيب هذه الأوبئة، هناك أدلّةٌ تُشير أنّ الفساد هذا قدْ بدأ بمعاشرة محرّمة من التي تتفتّق عنها همجيّة إنساننا الحالي ووقاحتُه، فالبعض يغتصب النساء، وآخر يلوط، وآخر يُمارس الفواحش مع الأطفال، والبعض يُريحه الجنس الساديّ الوحشيّ، وآخر يفجر ببهيمة من أيّ نوع، كلُّها دواعٍ لإدخال تشوّهات في نظام الإنسان والبيئة على المستوى الجيني والجرثوميّ،

---

[1] - لقد توصّل الخيال الإنسانيّ إلى أمثال هذه الأفكار، وأخرجها في القصص والروايات والكتب والأفلام، فبعضُ الأفلام تُصوّر كائنات فضائيّة تختطف بعض الناس لتُجري عليهم تحسينات أو تضع أجنّة بشريّة في حاضنات لإنشاء نسل جديد محسّن ينشد السلام والخير والحبّ وينسجم مع الكون ويبغض الفساد والحروب، وبعضٌ افترض وجود جنّة أرضيّة (في مثلّث برمودا) يُمارس فيها أصحابُ الأطباق الطائرة استغراسَ وتنشئة نوع إنسانيٍّ مُحسَّن وسليم ومُبدع خالٍ من الشرور، بانتظار أنْ يفني البشرُ المنتشر الموبوء بالفساد والقسوة نفسَه أو يُفلس وينهار، فتخرجَ تلك العيّنات المُحسّنة لتُمارس الخلافة الحقيقيّة وإعمار الأرض بالرّوحنة والعدْل والسلام لحضارة فاضلة.

غير أنّ الذي حدث هو اغتصابُ أحد الأشرار جثّةً ميّتة متحلِّلة، سرّب التحلّل والموت إلى جهازه الحيويّ المناعي، ومن هذا الشخص الآثم، القنبلة، تسلسل الدّاءُ كالنّار في الهشيم، وهذا أقرب إلى المنطق والصواب من فرضيّة تعليق الوباء على قرْد! بل قد نبّه نبيّ الأمّة (ص) يوماً (**لم تظهر الفاحشةُ في قومٍ قط حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاعُ التي لم تكن في أسلافهم، ...**)[1]. ولعلّ هذا أحد أسباب تدمير الربّ قرى لوط تدميراً كاملاً برجالها ونسائها وحيواناتها، رحمةً للبشريّة وعفواً عنها على ما بيّنته الآية (**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**)(الزخرف:٣٠).

بل ولعلّ هذا واحدٌ منْ أسباب استعمال القرآن معالجة ذات تراكيب متداخلة لقصّة المعصية الأولى أشبه بالمغاليق والرّموز، تُبعد عامّة النّاس عن القدرة على فكّها وتأويلها وكشف غطائها، لأنّه يُريد دسّ الحقيقة في نظامه (للمتفكّرين، وللعلماء) بعيداً عن أفهام العامّة ولغطهم، حفاظاً على تقواهم، وتوخّياً لتقديسهم الآباء الصالحين، لا سيّما رأس الإنسانيّة أبينا آدم الأوّل (ع) وأساس وجودنا.

وها نحن اليوم، نسلُ الإنسانيّة الأخير، وثمرة هذا الدّرس المكنون الخالد الذي لا درْسَ غيره لوجودنا، ها نحنُ نُصارع بين إنسانيّتنا المنفوخ فيها من الربّ وهمجيّتنا التي يُنفَخ فيها من الشيطان، وفينا من الخُطاة، المترنّحين بين صناعة إبليس وصناعة الربّ، الملايينُ والملايين وسوادُنا الأعظم، وفينا أيضاً ونحمد اللّه بقيّةٌ ممّا ترك الأنبياء والأصفياء، فما دُمنا نحنُ ميدان الصراع، يا ترى هل الخطّة الربّانية ستغلب في النهاية أم خطّةُ إبليس؟

الجواب: (**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**)(المجادلة:٢١).
وهل نحنُ من الغالبين أم المغلوبين؟

الجواب: (**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**)(المائدة:٥٦).

---

[1] - سيد سابق، فقه السنة، ج١، ص٣٣٢.

ثانياً- الخاتمة

وأخيراً، كأنّي ببعض القرّاء الأعزّاء أنكروا بعضاً ممّا سُطِّر أو اشمأزَّت قلوبهم منه، لرواية قرأوها وربما كانت مدسوسة أو لمْ يحملوها على معناها الصحيح وسياقها الذي جاءت له وفيه، فليستهدوا بالله وليُحكّموا كتابه الكريم، فهو الشاهد الصادق والحكَم في مثل هذه المسائل، فإذا أمرَنا المعصوم (ص) وأهلُ بيته وأئمّة الإسلام بتحكيم كتاب الله، وعرض المرويّ والاعتقادات عليه، فكيف نُخالفهم ونخالف الله تعالى ونلبس الإسلام مقلوباً، ولا نُبقي من القرآن إلاّ رسْمَه؟! ولقد قال عليّ (ع) يوماً ما كلمةً سيظلُّ إلى الحشر صداها: (**فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ!**)[1].

هذا لا يعني طبعاً أنّ ما جئنا به هو الحقّ الصريح وليس فيه خطأٌ، بل ليُعرض على كتاب الله أيضاً كغيره بشرط الالتزام بنظامه، بقلبٍ يعشق الله ويعشق الحقيقة، لا تهمّه قوميّتُه ولا الطوائف أو المذاهب، بل كما أعلَنها سلمان المحمّدي يوماً "**أنا ابنُ الإسلام**"، لنعودَ أبناء الفطرة وأبناء القرآن وأبناء الإسلام وأبناء الإنسان.

فعشمنا في القارئ الحرّ أنْ يتّصف بصفات ذي الجلال الذي يُظهر الجميل ويستر القبيح، الذين وصفهم سبحانه باستماع القول واتّباع أحسنه، فالإنسانيّة تتساعف وتتحاور في النهوض ببعضها إلى عين الحقيقة، وما أروَع الجوهرة التي ألقاها فمُ النبوّة الشريف (ص)، في هذا: (**مثَلُ الذي يجلسُ يسمعُ الحكمةَ ولا يُحدِّث عن صاحبه إلا بشرِّ ما يسمع، كمثَلِ رجلٍ أتى راعيًا فقال: يا راعي أجْزِرني شاةً مِن غنمك، قال: اذهبْ فخُذْ بأُذنِ خيرِها شاةً فذهب فأخذ بأُذنِ كلْبِ الغنم**)[2].

والحمد لله ربّ العالمين

والصلاة على خير هاد للعالمين وآله الطاهرين وصحبه

الأكرمين ومن اتبّعهم بإحسان إلى يوم الدين

---

[1]– الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج١، ص١٥٤.

[2] – محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٢٨٤٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - العربية والمترجمة :

١- ابن أبي الحديد المعتزلي، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

٢- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي)، **النهاية في غريب الحديث**، تحقيق طاهر الزاوي، محمود الطناحي، ط٤، قم: مؤسسة اسماعيليان، ١٣٦٤ش.

٣- ابن الجوزي (أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن)، **زاد المسير في علم التفسير**، ط١، بيروت دار الفكر، ١٤٠٧.

٤- ابن الجوزي (علي)، **الموضوعات**، تحقيق عبدالرحمن عثمان، ط١، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٨٦.

٥- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، **تاريخ الأمم والملوك** (تاريخ الطبري)، بيروت: مؤسسة الأعلمي.

٦- ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني)، **فتح الباري/** تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩.

٧- ابن حنبل (أبي عبد الله أحمد بن محمد)، **المسند**، ط١ [بهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال]، بيروت: دار الفكر.

٨- ابــن عاشــور (محمــد الطــاهر)، **تفســير التنــوير والتحريــر**، دار النشــر التونسية.

٩- ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا)، **معجم مقاييس اللغة**، ط١ (جديدة مصححة وملونة)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١.

١٠- ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم الدينوري)، **غريب الحديث**، تحقيق عبدالله الجبوري، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨.

١١- ابـن كـثير (الحـافظ أبـي الفـداء إسماعيـل الدمشـقي)، **البدايـة والنهايـة**/ تحقيق علي شيري، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ.

١٢- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن كثير)، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ.

١٣- ابن منظور، **لسان العرب**، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥.

١٤- ابن النديم البغدادي (محمد بن اسحق)، **فهرست ابن النديم**، تحقيق رضا تجدد.

١٥- أبو يعلى الموصلي (أحمد بن علي المثنى)، **مسند أبي يعلى**، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث.

١٦- إدزارد (د)، بوب (م. هـ)، رولينغ (ف)، **قاموس الآلهة والأساطير**: في بلاد الرافدين (السومريّة والبابليّة) في الحضارة السوريّة (الأوغاريتيّة والفينيقيّة)/ تعريب محمّد وحيد خياطة، ط٢، لبنان، سورية: دار الشرق العربي،٢٠٠٠.

١٧- أوفيد، **مسخ الكائنات**/ ترجمة ثروت عكاشة، ط٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

١٨- البخاري (محمد بن اسماعيل)، **صحيح البخاري**، [طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستنبول – ١٤٠١]، بيروت: دار الفكر.

١٩- البرقي (أحمد بن محمد بن خالد)، **المحاسن/** تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية.

٢٠- البستانيّ (بطرس)، **محيط المحيط**، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٧.

٢١- البعلبكي (منير)، **المورد** (قاموس إنجليزي عربي)، ط٢٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠.

٢٢- بشور (وديع)، **الميثولوجيا السورية** - أساطير آرام، ط٢ منقحة ومعدلة، لا بلدة: لا ناشر، لا تاريخ.

٢٣- البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي)، **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٤١٤ / ١٩٩٤.

٢٤- الترمذي (محمد بن عيسى)، **سنن الترمذي**، تحقيق احمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٢٥- الجزائري (السيد نعمة الله)، **قصص الأنبياء**، ط٨، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٨/ ١٩٧٨.

٢٦- الجزائري (محمد)، **المندائيون الصابئة**، ط١، عمان (الأردن): المعهد الملكي للدراسات الدينية، ٢٠٠٠.

٢٧- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الإنسان الإنسان – وتحسب أنّك جرمٌ صغير.**

٢٨- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **بين آدمين - آدم الإنسان وآدم الرسول.**

٢٩- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **التوحيد - عقيدة الأمّة منذ آدم.**

٣٠- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **جنة آدم – تحت أقدام السراة**

٣١- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الخلق الأول - كما بدأكم تعودون.**

٣٢- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **طوفان نوح - بين الحقيقة والأوهام**

٣٣- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **اللِّسان العربي- بُعد فطري وارتباط كوني**

٣٤- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **ليلة القدر - عيد الخليقة**

٣٥- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **مسخ الصورة- سَرِقة وتحريفُ تراثِ الأمّةِ**

٣٦- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **مفاتح القرآن والعقل**

٣٧- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **نِداءُ السُّراةِ- اختطافُ جغرافيا الأنبياء.**

٣٨- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **هجرة إلى القرآن المهجور.**

٣٩- جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **اليهود وتوراة الكهنة**

٤٠- الحويزي (عبد علي بن جمعة العروسي)، **تفسير نور الثقلين**، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، ط٤، قم: مؤسسة إسماعيليان، ١٤١٢.

٤١- الخضّور (جمال الدين)، **عودة التاريخ**- الانتربولوجية المعرفية العربية/ دراسة في الأناسة المعرفية العربية التاريخية- اللغوية ووحدتها/- الجزء الأول - حتى الألف الثاني قبل الميلاد، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٧.

٤٢- داؤد (أحمد يوسف)، **الميراث العظيم**، إعادة بناء المنجز الحضاري العربي بين الألف الرابع قبل الميلاد وظهور الإسلام، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١.

٤٣- الدرامي (عبد بن بهرام)، **السنن**، دمشق: مطبعة الاعتدال.

٤٤- داوود (أحمد)، **تاريخ سوريا الحضاري القديم**-١ المركز، ط٢، دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ١٩٩٧.

٤٥- داوود (أحمد)، **تاريخ سوريا القديم**- تصحيح وتحرير، ط٣، منشورات دار الصفدي، دمشق، ٢٠٠٣.

٤٦- داوود (أحمد)، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دمشق: دار المستقبل، ١٩٩١.

٤٧- الريشهري (محمدي)، **ميزان الحكمة**، ط١[منقحة]، قم (إيران): دار الحديث، ١٤١٦هـ.

٤٨- الزبيدي (محمد مرتضى)، **تاج العروس**، بيروت: مكتبة الحياة.

٤٩- السواح (فراس)، **لغز عشتار**: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ط٨، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢.

٥٠- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر)، **الجامع الصغير**، ط١، بيروت: دار الفكر، ١٤٠١.

٥١- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر) ، **الدر المنثور**، ط١ [بهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس]، بيروت: دار المعرفة، ١٣٦٥هـ.

٥٢- سيد سابق، **فقه السنة**، بيروت: دار الكتاب العربي.

٥٣- شابيرو (ماكس)، هندريكس (رودا)، **معجم الأساطير**/ ترجمة حنّا عبود، دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٩.

٥٤- شحرور (محمد)، **الكتاب والقرآن**: قراءة معاصرة، دمشق: الأهالي للنشر والتوزيع، ١٩٩٠.

٥٥- الشريف المرتضى (علي بن الحسين بن موسى)، **الأمالي**/ تحقيق محمد الغساني الحلبي، ط١، قم: مكتبة المرعشي النجفي، ١٣٢٥/ ١٩٠٧.

٥٦- الشريف الرضي (محمَّد بن الحسين بن موسى)، **نهج البلاغة**/ شرح محمد عبده، بيروت: دار المعرفة.

٥٧- الشاهرودي(علي النمازي)، **مستدرك سفينة البحار**/ حسن بن علي النمازي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، ١٤١٩.

٥٨- الشهيد الثاني (الحسن بن زين الدين الجبعي العاملي)، **منية المريد في آداب المفيد والمستفيد**، تحقيق رضا المختاري، ط١، قم: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩هـ/ ١٣٦٨ش.

٥٩- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، **فتح القدير**: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، عالم الكتب.

٦٠- الصدوق (أبي جعفر محمد بن علي القمي) **علل الشرائع**، ط٢، النجف: المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٣٨٦/ ١٩٦٦.

٦١- الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن)، **مصباح المتهجّد**، ط١، بيروت: مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١/ ١٩٩١.

٦٢- عبابنة (يحيى)، **اللغة الكنعانيّة**: دراسة صوتية صرفية دلالية مقارنة في ضوء اللغات السامية، ط١، عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.

٦٣- علي (فاضل عبد الواحد)، **سومر أسطورة وملحمة**، ط١، دمشق: الأهالي للتوزيع، ١٩٩٩.

٦٤- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)، **المستصفى في علم الأصول**، بيروت: دار الكتب العلمي، ١٤١٧.

٦٥- القرشـي (بـاقر شـريف)، **حيـاة الإمـام الحسـين**، ط١، النجـف الاشـرف: الأدب، ١٣٩٥ .

٦٦- القرطبي (محمد بن أبي بكر بن فرج)، **التفسير**/ تحقيق أحمد البردوني، ط٢، القاهرة: دار الشعب، ١٣٧٢ .

٦٧- القمي (أبو الحسن علي بن إبراهيم)، **تفسير القمي**/ تصحيح السيد طيب الجزائري، ط٣، قم: مؤسسة دار الكتاب، ١٤٠٤ .

٦٨- كريمر (صامويل نوح)، **من ألواح سومر**/ ترجمة طه باقر، بغداد، القاهرة: مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي.

٦٩- الكليني(أبو جعفر محمد بن يعقوب)، **الكافي**/ تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار الأضواء، ١٤٠٥/ ١٩٨٥ .

٧٠- لابـات (رينيـه)، وآخـرين، **سلسـلة الأسـاطير السـورية**: ديانـات الشـرق الأوسط/ تعريب مفيد عرنوق، ط١، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٠ .

٧١- المتّقي الهندي (علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين)، **كنز العمال**/ تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة.

٧٢- الماجدي (خزعل)، **إنجيل سومر**، ط١، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨ .

٧٣- الماجدي (خزعل)، **متون سومر**، ط١، عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨ .

٧٤- الماجدي (خزعل)، **ميثولوجيا الخلود**: دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة، ط١، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢ .

٧٥- المجلسي (محمد باقر بن المولى محمد تقي)، **بحار الأنوار**، ط٢، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ .

٧٦- المحمودي (محمد باقر)، **نهج السعادة**، ط١، النجف الأشرف: مطبعة النعماني، ١٣٨٥.

٧٧- المسعودي (علي بن الحسين بن على)، **التنبيه والإشراف**، ط١، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٣.

٧٨- مسلم (ابن الحجاج النيسابوري)، **صحيح مسلم**، بيروت: دار الفكر.

٧٩- مظهر (سليمان)، **قصّة الديانات**، ط٢، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢.

٨٠- النووي، **شرح مسلم**، ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧.

٨١- هونكه (زيغريد)، **شمس العرب تسطع على الغرب**؛ نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط٩، بيروت: دار صادر ودار الآفاق، ١٤٢١/ ٢٠٠٠.

ثانياً – الانترنيت:

1- Allan Watts, Myth and Ritual in Christianity, p 41

2- Hebrew Myths by Robert Graves and Raphael Patai ,New York: Doubleday, 1964.

3-http://au.encarta.msn.com/media_461527006_761570002_-1/Ice_Extent_During_the_Last_Ice_Age.html

4- http://home.swipnet.se/heathen/mythology/a/asgard.html

5-http://nebulosa.patser.net/files/projects/library/nm/nine-worlds.html

6-http://preterhuman.net/texts/religion.occult.new_age /demonology /DaemonolatriaH.P.htm

7- http://touregypt.net.

8-http://www.angelfire.com/tx/tintirbabylon/GLOSSARY.html

9- http://www.crystalinks.com/meso.html

10- http://www.dickinson.edu

11- http://www.egyptianmyths.net/hathor.htm

12-http://www.gatewaystobabylon.com/myths/texts/classic/enuma.htm#5

13- http://www.heart7.net/spirit/l.html

14- http://www.isgkc.org/EnglishQuran/sura7.htm

15- http://www.islamicity.com/mosque/quran/7.htm

16- http://www.jelder.com/mythology/huluppa.html

17-http://www.mazzaroth.com/ChapterThree/HistoryOfTheBible.htm

18- http://www.mythopedia.info/04-mesopotamia.htm

19-http://www.pantheon.org/areas/mythology/europe/norse/articles.html

20- http://www.piney.com.

21-http://www.sitchiniswrong.com/Disciple william_henry.htm

22-http://www.tarotbyvolmarr.com/bookofshadows/norsedeitys.html

23-http://www.theotherside.co.uk/tm-heritage/d-images/iceage-riversmap.gif

24- http://www.thorshof.org/edda.htm

25- http://www.ugcs.caltech.edu/~cherryne/mythology.html

26-http://www.usc.edu/dept/LAS/wsrp/educational_site/uscarc/isis.shtml

27- http://www.vikingage.com/vac/mjollnir.html

28- http://www.webcom.com/~gnosis/lillith.html

29- http://www.yahweh.com/booklets/Xmas/Xmas.htm

30-http://yosemite.epa.gov/oar/globalwarming.nsf/content/ClimateTrendsSea Level.html

31- Kramer, S. N. History begins at Sumer, 1981.

32- Strong's Hebrew and Greek Dictionaries

33-www.stavacademy.co.uk/mimir/enuma1.htm
faculty.gvsu.edu/websterm /Enuma_Elish.html

ثالثاً - الإلكترونية:

أ - القرآن:

١ – سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنشر المكتبي**، الإصدار الثاني، الرياض: المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١.

ب – التوراة:

1-Rick Meyers,E-Sword, Ver 7.1.0,2000-2004,http://www.e-sword.net

2-Online Bible Millennium Edition. Version:1.11.90,Mar 28, 2002، http://www.onlinebible.net . /

ج – أقراص مدمجة:

١ – مركز المعجم الفقهي، **برنامج المعجم**، الإصدار الثالث، قم المقدسة، ١٤٢١هـ.

٢ – مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **المكتبة الألفية للسنة النبوية**،الإصدار ١,٥ ، الأردن(عمان) : مركز التراث، ١٤١٩/ ١٩٩٩.

٣ – مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **تاريخ دمشق لابن عساكر**، الأردن(عمان) : مركز التراث.

فهرست المحتويات

سلسلة عندما نطق السراة

١. مفاتح القرآن والعقل.

٢. التوحيد . . عقيدة الأمة منذ آدم.

٣. الأسطورة . . توثيق حضاري.

٤. الخلق الأول . . كما بدأكم تعودون.

٥. وعصى آدم . . الحقيقة دون قناع.

٦. بين آدمين . . آدم الإنسان وآدم الرسول.

٧. نداء السراة . . اختطاف جغرافيا الأنبياء.

٨. طوفان نوح . . بين الحقيقة والأوهام.

٩. مسخ الصورة . . سرقة وتحريف تراث الأمة.

١٠. اللسان العربي . . بعد فطري وارتباط كوني.

١١. جنة آدم . . تحت أقدام السراة.

١٢. ليلة القدر . . عيد الخليقة.

١٣. اليهود وتوراة الكهنة.

وَعَصَى آدَمُ
الحقيقةُ ... دُونَ قِنَاع

لأنّ التراث الربّاني متناسق، فالتعاملُ مع نصوصه مسألةٌ دقيقةٌ، فوضْعُ تفسيرٍ خاطئ لمفردة ما، أو تحريفها عن موضعها، يُقبّح التعاليم كلّها، ويتعمّقُ كتشوّهٍ جينيّ في التاريخ، ليُناقضَ النصوص بين بعضها، ويُشاكسَها مع العلم والحقيقة. هذا جرى بعنف لأساطيرنا العربيّة، وللتوراة، وأخيراً مع الأسف لقرآننا العزيز، فطارتْ نُسخُها في الآفاق بتراجم وتفسيرات تمسخُ نصوصها وحقائقها.

كم معارفَ احتجبت بهذا عن العالم كلّه! ما أفسد عقائده وفلسفاته وتنظيراته وعلومه الإنسانيّة (لغات، تاريخ، نفس، أخلاق)! إنّ نظرةً شاملةً إلى التراث الربّاني كنسيج وإرثٍ إنسانيّ واحد، وإلى نصوص القرآن وفْقَ نظامه بلا تجزئة أو إسقاط، إنّ مُحاولَةً جادّة لإعادة الكلم إلى مواضعه، سيفضحُ الكثيرَ ممّا دُوّن شرحاً وتفسيراً، ويُبخّر معظم نظريّاتِ التزوير والتفوّق، ويُزيح ركامَ القوانين والشرائع (حتّى الدينيّة) التي أُسّستْ على ظلْم وجهل، سواءً ما تعلّق بالمرأة أو بالآخر الدينيّ أو الإثنيّ أو بالإنسان مجرّداً وحسبُ.

معصيةُ آدم، نموذجٌ لمفردة في البناء المعرفيّ! بحلّها، ومعرفة شجرة المعصية، السوءات، اللباس، الانسلاخ، بداية الإنسان، ومعنى استخلافه .. ثُمّ سقوطه، دوْر الشيطان والرحمن إزاءه، ستُعيد لإنساننا خارطةَ نفسه وهويّتَه الضائعة وهدفَ وجوده، وسيُدرك الاستغفالَ الذي مورس على وعيه، والتشويهَ الذي تعرّضتْ له رسائلُ ربّه وإرثُ آبائه المعلّمين إليه.

سيُصدَم القارئُ جدّاً بهذه الخارطة الجديدة، لأنّها ستنسف كلّ ما أَلفَ سماعَه عن القرآن، أو التوراة، أو الأسطورة، كلّ ما اعتاده حتّى مع لغته العربيّة، لكنْ لعلّ صدمةً تُعيد الوعيَ نعقد بها مُصالحةً بين التراث والمستقبل، لنعيش لحظة الحاضر بيقظة أنّنا على جسر التحوّل الإنساني، الذي بدأ "في الأرض" بالإنسان الهمج ليختتم بالخليفة "الإنسان الإنسان"، وليس بعد هذا الجسر، بعد هذا الهُدى، إلاّ الضلال والتوحّش.

